

الأدب العربي في تاريخه

في

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الجزء الأول

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحا لغويا بلاغيا]

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

جميع حقوق الطبع والنقل محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد الذى بعثه الله فى تلك الأمة
الأمية ، هادياً للحق وإلى صراط مستقيم ، قاضياً على العصبية الهادمة ، والأوهام
الشائنة ، نائراً الدين ولغته فى مشارق الأرض ومغاربها ، معجزاً بالقرآن ، متحدثاً
بأحسن بيان .

وبعد : فإنى أستعين الله وأسأله السداد فيما أقدمه لقراء العربية عامة ، ولطلبة
السنة الثانية من كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية خاصة ، من دروس فى تاريخ الأدب
العربى ، تنتظم عصرين من أزهى عصوره ، وهما : عصر صدر الإسلام ، وعصر الدولة
الأموية ، متبعاً فى ذلك طريقة الفصل بينهما ، إذ كانت لكلٍّ ميزات ظاهرة تجعله
جديراً بالاستقلال فى مناحي الحكم .

وكنت قد أخرجت هذا الكتاب منذ خمس سنوات ، وما زلت منذ ذلك الحين
أتناوله بالتنقيح والتحقيق ، حتى استطعت بعون الله أن أظهر طبعته هذه على وجه يرضينى .
ورجائى إلى الله أن ينفع بهذا العمل ، فإنى لم أرد به إلا وجهه ، وكفانى ذلك
شرف مقصدى .

محمود مصطفى

مدرس الأدب فى تخصص المناذة
بالجامعة الأزهرية

عصر صدر الإسلام

هو العصر الثانى من عصور اللغة العربية . يتبدى بقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام بمكة ، وينتهى بانقضاء أيام الخلافة ، وانتقال الولاية إلى ملك عضوض على يد ملوك بنى أمية سنة (٤١) إحدى وأربعين من الهجرة النبوية . ومدة هذا العصر (٥٣) ثلاث وخمسون سنة . فقد مكث رسول الله بمكة يدعو إلى الإسلام اثنتى عشرة سنة قبل الهجرة ، وقامت الدولة الأموية سنة ٤١ منها ، فمجموع ما قبل الهجرة وما بعدها إلى قيام هذه الدولة هو ٥٣ سنة .

وإذ كنت تعرف أن لكل عصر عوامل وأسباباً أثرت فيه ، فقرأت صورتها فى اللغة ، وتجلت فى الفكر والخيال ، فاعلم أن هاتيك الأسباب كانت فى هذا العصر قوية غالبية ، سالبة واهبة ، فكانت نتائجها واضحة لا خفاء فيها .

العرب بين الجاهلية والإسلام

يسمى العصر من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى قيام الدولة الأموية «عصر صدر الإسلام» كما يسمى العصر الذى قبله «العصر الجاهلى» والمطلع على أحوال العرب فى قديم أيامهم يعرف أن الطيش والخفة إلى الشر ، والغرام بالانتقام ، واستباحة المحارم ، كانت ألصق بهم من الجهل وعدم المعرفة ، وأدل عليهم من الأمية وإهمال التثقيف ، لذلك اشتق الإسلام لهم لفظ الجاهلية ، من الجهل بمعنى الطيش والخفة إلى الشر ، وسمى القرآن ما كانوا فيه حمية الجاهلية ، لأنهم كانوا جهلاء غير حلماء ، وشراراً غير خيار ، ومهاجرين غير مواعدين .

ولم يكن لفظ يصلح لوصفهم ، وقد بدلوا من الطيش وقاراً ، ومن الاستباحة استنكاراً ، ومن الظلم نصفة ، ومن الوثوب مهادنة . إلا كلمة «إسلام» ، لأنها أخت

السلام والمسالمة، وهما ضد الحرب، ومن مستلزمات هذا المعنى الطاعة والالتقياد، حتى جرى الاصطلاح الديني على تعريف الإسلام بأنه الالتقياد لأوامر الله وطاعته بأداء ما يرضيه.

أثر الإسلام في العقول

ليس أدلّ على الغباء وضعف العقل من عبادة صنم أو وثن^(١) لا ينفع ولا يضرّ، ولا يحمي ولا يُمّر. ينحته اليوم من الصخر ناحته، أو يتخذ من المعدن صانعه، ثم يكب في الغد أمامه عابداً مبتهلاً، داعياً عند الملّم، مستشيراً في المهمّ، ولم يكن جميع العرب عبدة أوثان، بل لقد انبثت في صحرائهم هذه جميع أنواع العبادات المعروفة في العالم لوقتهم، ومرجع ذلك إلى أن هؤلاء القوم كانوا يخالطون الأمم بالتجارة والرحلة، وكان كثير من الناس يطرون على بلادهم فاتحين أو فارين من وجه الظلم، فكلّ ذلك جعل البلاد مباءة المعجوسية والوثنية واليهودية والنصرانية، كما أن ديانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لها بقايا وشعائر احتفظ بها قوم من العرب، وقد جاء في كتاب طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي في الكلام عن ديانات العرب ما يأتي:

«وكانت دياناتهم مختلفة، فكانت حير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران ولخم وجذام المشتري، وطبئ سهيلاً، وقيس الشّعري العبور، وأسد عطارداً، وكانت ثقيف وإياد تعبدان شيئاً بأعلى نخلة يقال له: «اللات»، وكان لحنيقة صنم من حيس، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه. قال بعض الشعراء:

أَكَلْتُ حَنِيفَةَ رَبِّهَا عَامَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ
لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سُوءَ الْعَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَةِ

(١) الصنم: التمثال على صورة لإنسان من حجر أو غيره، والوثن: الحجر الففل من الصنعة، واسمها العام: الأصنام، فإن اتخذ المعبود من خشب فهو البعيم، فإن كان من صلب أو رخام أو عاج، فهو الدمية.

هكذا كان العرب في الجاهلية إلا من ارتقى فكره ، فنبذ هذه الآلهة ، واستدل بالكون وما فيه من آيات على وجود مدبر له ، لا يحده العقل البشري .

كذلك كانوا مغمورين بأوهام لا حد لها: من زجر الطير^(١) ، والطرق بالحصى ، والكهانة ، والعرافة^(٢) ، إلى الهامة ، واستهواء الجن ، وتعليق الجلى على اللدوغ^(٣) ، وأن دم الرئيس يشفى من الكلب والجنون^(٤) ، إلى غير ذلك . فجاء الإسلام قاضياً على كل هذا ، داعياً إلى عبادة إله « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ، وأفهمهم أن « عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » ، وقضى على كل هذه الترهات ، بدعوتهم إلى النظر في الأسباب وتحكيم العقل .

أثره في الحياة الاجتماعية

كان العرب في جاهليتهم على أخلاق لا تضمنها آصرة واحدة ، ولا يجمعها أصل ثابت ، حماية للمستجير ، واعتداء على الأمن الوادع ، وجود على الضيف ، واستلاب لعابر السبيل . ودفاع عن الحرم ، وانتهاك لها ، وجنون بالعصبية ، ومحاربة لابن الم ؛

(١) كانوا يثقلون بالسائح ، وهو الذي يمر من جهة اليمن ، ويتشاءمون بالبارح وهو المار من جهة اليسار .

(٢) قيل هما بمعنى واحد ، وهو استطلاع الغيب ، وقيل الكهانة استطلاع المستقبل ، والعرافة الاخبار بالماضي .

(٣) يقول الشاعر يصف لديغ حية :

يُسَهَّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاغُ

(٤) في الأول قول الشاعر :

بُنَاءُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ حِلْمٍ ذِمَاؤُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشِّفَاءُ

وفي الثاني قول الآخر :

وَدَاوَيْتُهُ نِمَا بِهِ مِنْ مِجَنَّةٍ دَمَ ابْنِ كِهَالٍ وَالنَّطَاسِيَّ وَاقِفُ

هذا إلى تعامل مبنى على الغبن في الربا الفاحش ، والمقامرة المدقعة ، والخر المبيدة . فجاء الإسلام فاستل من نفوسهم سخائم الجاهلية ، وأبطل نُعرسها ، وقضى على العصبية ، فشمّل المسلمين إخاء ومودة ، وصاروا بعد التناوب والتقاطع كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » ، ثم قال في الامتنان على العرب بتأليف قلوبهم : « وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » ، وقد عمل النبيّ على محو هذه السوءات الجاهلية ، فشرع للناس التساوى بقول الله : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى » ، وقوله : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ » كما أزرى على من جنح إلى النزعات الجاهلية بقوله لأبي ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : (إنك أمرؤ فيك جاهليّة) ، وقوله في الحديث الشريف : « مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ عِمِّيَّةٍ ^(١) يَغْضَبُ لِعَصْبِيَّةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبِيَّةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبِيَّةً فَقَتِلَ ، قَتِلَ قِتْلَةَ جَاهِلِيَّةٍ » .

كذلك أوجب الإسلام مراعاة الحقوق ، وأداء الديون ، ووفاء الكيل والميزان ، وأَمَّنَ الضعيف ، وأذلّ العاتى ، وحرّم الخمر والميسر . فبطلت الأحقاد ، وهدأت ثورة النفوس .

فهل كان لقوّة غير الإسلام أن تغير ما وطّده في النفوس مضى العهد وضرورة البيئة ؟ وهل كان العائش في الجاهلية يستسيغ في خياله أن يرى العربي بعد ذلك وهو يساكن الفارسي أو الرومي ، والعربي في السلاح ، وصاحبه أعزل مغلوب على أمره ، ثم هو آمن على نفسه وعياله ؟ كلا ! ! ولكنه هُدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

وليس أدلّ على الفرق بين الحالين حال الجاهلية والإسلام مما رواه جعفر بن أبي طالب (وكان أحد الذين هاجروا إلى الحبشة) قال للنّجاشيّ وقد سأله عن حال

(١) جهل وضلالة .

المهاجرين إلى بلاده : « كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل كل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، فصدقناه وآمنا به »

أثره فى اللغة

لسنا فى مقام الادلاء بكل ما أحدثه الإسلام من أثر فى اللغة العربية فإننا سنوزع الكلام على ذلك فى أبواب الشعر والنثر والخطابة . ولكننا بصدد تصوير عام لهذا الأثر يشمل فى إجماله هذا الروح الذى سرى فى مناحى العربية حتى أبرزها فى ثوب تخالف به ما كانت عليه فى عهدها السابق .

ولست أعزو ما حدث للغة من التغيير إلا إلى شىء واحد هو القرآن الكريم وحديث النبىؐ ، لأن العرب إلى بدء الدولة الأموية لم يكونوا اختلطوا بأهل البلاد المفتوحة ، من فرس وروم ، ذلك الاختلاط الذى يظهر أثره فى لغتهم ، فالعرب ما زالوا إلى آخر هذا العصر جنوداً يحملون سلاحهم ، ويتنقلون من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، لا يستقر بهم المقام ، وإن استقر فهم فى الأغلب الشائع مرابطون فى حصونهم ، لا يتخالط جمهورهم أهل البلاد التى يحلون بها .

وإلى عهد عثمان لم يكن أولاد السبايا قد بلغوا الحلم ، ولم يكن الأعاجم قد قرءوا القرآن . ثم إن العرب كانوا منصرفين عن زخرف المدنية ، لجدة الإسلام فى نفوسهم

وغلبة التقوى على مشاعرهم ، فهم غير جديرين أن يتأثروا بما رأوا من خال الفرس والروم ، لأنهم عنها مشغولون .

فكلّ ما حدث للغة فإنما مرجعه إلى القرآن الكريم وحديث النبي ، ومظهر ذلك استواء الحجّة ، ووضوح الحجّة ، وهجر الحُوشى ، والعدول عن سجع الكهان مع الزاينة عليه ، والتوسع في أساليب الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والتحسين والتقييح في وصف الجنة والنار ، والإكثار من سَوْق الحكمة ، وضرب المثل ، والاستشهاد بأحوال السابقين ، والأدب في الخطاب ، ولطف الكناية ، وحسن البدء والختام ، وتمام الربط ، وتجنب الإملال في الحديث المعاد .

ولما كانت الأسباب التي سببت هذا العصرية غالبية أحدثت زيادة في مادة اللغة بألفاظ نشأت ولم يكن العرب يعرفونها ، وأخرى عرفت بعمان فجدت لها أخرى ، فمن ذلك : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والركوع ، والسجود ، والمؤمن ، والكافر ، والفاسق ، والمنافق ، فقد كانت الصلاة في لغة الجاهلية مطلق الدعاء ، وكان الركوع طأطأة الرأس ، ولا يفرقون بين الركوع والسجود ، والصيام كان معناه الإمساك مطلقا ، والحج لم يعرف إلا بمعنى القصد . ثم زادت الشريعة في كلّ ذلك ما هو معروف له من المعاني في أبواب الفقه . ومثل ذلك هذه المصطلحات : الإيلاء ، الظّهار ، العدة ، الحضانة ، النفقة ، العتق ، اللقيط ، الآبق ، الوديعة ، العارية ، الشفعة .

أما المؤمن فقد كان معروفاً من الإيمان وهو التصديق ، وكذلك الإسلام كان معناه تسليم الشيء ، والكفر لم يفهموه إلا بمعنى التغطية والستر ، والمنافق لفظ اشتقه الإسلام لمن أبطن خلاف ما يظهر ، أخذوه من نفاق اليربوع (جحره) ، كما اشتقوا لفظ فاسق من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ثم عرفت كلّ هذه الألفاظ في الإسلام بالمعاني التي تعرفها لها . وكذلك لفظ « الجاهلية » لم يكن معروفاً عندهم ، ثم أحدثه الإسلام للزمن الذي كان قبل بعثة النبي . ويقولون إن أبا بكر الصديق هو أول من أطلق لفظ « مصحف » على القرآن ، بعد أن جمع في الأوراق على عهد .

نعم إن مثل هذا النقل بطريق المجاز كان حاصلًا في العصر الجاهلي ، لأنه من عوامل نمو اللغة ، لكنه لم ينقل إلينا فيما نقل من تاريخ الجاهلية ما يدلنا على الزمن الذي انتقلت فيه ألفاظ من معانيها الحقيقية إلى المجازية ، ولا نسبة ذلك إلى من أحدثه من رجالهم ، اللهم إلا ما قيل من أن امرأ القيس أول من شبه المرأة بالبيضة في قوله :

وَبَيْضَةُ خَدْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ

وأن النابغة أول من سمى الأرض التي لم تحفر قط ولم تحرث إذا فعل بها ذلك «مظلومة» ، فتبعه العرب في هذا . « ذكر ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان ^(١) » .

وهناك ألفاظ أبطل الإسلام مسمياتها فبطلت تبعًا لها ، أو عدل عنها لدلالاتها على ما أبغضه من أمور الجاهلية ، أو أبدل بها غيرها مما يناسب ما جاء به الإسلام من خير .

ومما أبطله الإسلام فبطلت ألفاظه قولهم : المِرْبَاعُ والنَّشِيطَةُ والْفُضُولُ . فالمرباع كان عندهم ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس في الحرب ، وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل الخس لله ولرسوله . قال الله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » ؛ والنشيطه من الغنيمة ما أصابه الجيش في الطريق ، قبل أن يصل إلى قصده ، وكان للرئيس مع الربع ؛ والفضول ما فضل من القسمة ، مما لا يمكن تقسيمه ، كأسير أو سيف ، قال عبد الله ابن غنمة يخاطب بسطام بن قيس :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ ^(٢)

ومما أبغضه الإسلام فماتت ألفاظه قولهم في مخاطبة العظيم : (أَبَيْتَ النَّعْنَ) ، وقول العبد لسيده : (يَا رَبِّي) ، وقولهم للذي لم يحج ، أو لم يتزوج تبثلاً : (صَرُورَة) .

(١) ص ١٦١ ج ١ .

(٢) الصفايا : جمع صفى ، وهو ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة بأخذه قبل القسمة ، وقد اصطفى رسول الله ثم بطل بعده الاصطفاء فمات لفظه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا صَرُورَةَ فِي الْإِسْلَامِ » ؛ ومنه أيضاً قولهم :
« حَبْرًا مَحْجُورًا » ، وله معنيان ردّ السائل بالخيبه ، أو التعوّذ من مخوف ، وتفسيره :
حرام محرم .

ومما أبدل به الإسلام غيره قولهم : عِم أو أَنْعِم صباحاً ، وعم أو أنعم مساءً ، فقد
استعمل بدلها السلام والرحمة .

القرآن الكريم

«ذلك الكتاب ، لا ريب فيه هدى للمتقين» . أنزله الله على نبيه ، ليكون برهان
نبوّته ، ودليل رسالته ، وشرع به سياسة الدين والدنيا ، وضمن السعادة لمن اتبع سبيله ،
واهتدى بنوره . حكم بالغة ، وأمثال بمجامع القلوب آخذة ، وحجة تخرس المنطيق ، وتأخذ
على الباطل الطريق . قد صاغ من تلك الأمة المفككة العُرى ، المقطوعة الأواصر شعباً
يجتمع على كلمة واحدة ، فيغير من نفسه ومن نفوس الشعوب الأخرى ما لم تقو على تغييره
الأيام ، ولم تطمع في تحقيقه الأحلام .

وذلك هو القرآن الذى عبد به الله فى كل مكان ، وذلّ له كل سلطان ،
وحاربت باسمه الجيوش ، وثلت به أقوى العروش . وهو القرآن الذى يتغير كل شىء
وهو محفوظ ، وتدرس كل شريعة وشريعته قائمة الضمير والأعلام ، ولا تزال الأيام
تمدّنا بالحجة على أنه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» ، تنزل من حكيم حميد .

نزوله

وقد نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام ، جاءه به الروح الأمين ، منجماً
بحسب الحوادث والمقتضيات ، فاستغرق نزوله بضعاً وعشرين سنة بين مكة والمدينة ،

وكان أكثر ما نزل منه بمكة ، نزل بها ثنتان وتسعون سورة ، ونزل بالمدينة اثنتان وعشرون (تبلغ ثلث القرآن) ، وهى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأفقال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، والقتال ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والمتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، والعصر ، وما عدا ذلك فهو مكى .

ومع ذلك فالاختلاف فى عدد السورة مكية أو مدنية كثير جداً ، حتى إن الجمع عليه من ذلك قليل ، فالرعد مختلف فيها ، وكذلك الفاتحة ، وإن كان الأكثر أنها مكية ، وبما اختلف فيه أيضاً تحديد معنى المكى والمدنى ، وأحسن الآراء أن المكى منازل قبل الهجرة ، والمدنى منازل بعدها ، سواء أكان بمكة أم المدينة ، وتسمى السورة مكية إذا كان معظم آياتها قد نزل بمكة ، مثل الأنعام تعدّ مكية ، ومنها ثلاث آيات مدنية تبتدىء بقوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... » الآيات . ومثل سورة الشعراء تعدّ مكية ، مع أن بها خمس آيات مدنية ، تبتدىء من قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » ، وقيل فى التفرقة التقريبية بين المكى والمدنى : إن كل ما بدىء بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكى ، وما بدىء بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، فهو مدنى ، وكل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية إلا العنكبوت .

والآيات المسكية فى الغالب كانت فى التوحيد ، ودم الأوثان ، والزراية على عبادتها ، والتوسل بها ، وفى إثبات يوم آخر ، والترغيب فى ثوابه ، والتخويف من عقابه ، وما يتبع ذلك من وصف الجنة والنار والميزان والصراط والحشر .

كذلك تشمل الآيات المسكية قصص الأنبياء لتكون سلوة للنبي فى وقت عز فيه الناصر ، واشتد الأذى ، وضاق الذرع . وفى مكة نزلت بعض الآيات فى بيان الآداب التى لا غنى للمرء عنها فى حياته واتصاله بعاشره ، كالنفى فى قوله تعالى : « فَنَنْعَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ، وكالسألة فى قوله تعالى : « خُذِ الْعَصَا وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وكبهر الوالدين فى قوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »

وَبِأُولَئِكَ إِحْسَانًا . . . » الآيات . وآخر ما نزل بمكة الإذن للنبي بالقتال حين صار مستطيعاً له ، بعد تمهيد أهل المدينة بنصره .

وإن التالى للآيات المكية ليجد فيها شدة وأسراً لا يجدها فى الآيات المدنية ، ذلك لأن النبى كان بمكة مضطهداً ، قليل الناصر ، فكان بحاجة إلى ما يشد عضده ، ويربط على قلبه ، فجعل الله له فى قوة التبليغ ما يجعله يؤمن كل الإيمان بفوز حقه على باطلهم ، وقهر دينه لوثنيتهم . ومن أمثلة هذه الآيات قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » ، وقوله : « وَكَتَبْنَا نَبَأَهُ بِرَدِّ حِينٍ » ، وقوله : « فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » ، وقوله : « قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وأما الآيات المدنية فقد كانت فى قصّ حوادث الغزوات واستخلاص العبرة منها للمسلمين كما كانت فى بيان العبادات والمعاملات من صلاة الجمعة ، (وقد شرعت الصلاة العامة بمكة) ، وصلاة الخوف ، والصيام ، والحجّ ، والزكاة ، والقصاص ، والزواج ، والميراث ، والتنبيه على آداب اجتماعية كآداب الاستئذان ، وردّ التحية ، والنهى عن إبداء الزينة ، إلى غيرها من الآداب التى لا يصلح الاجتماع بدونها .

جمع القرآن وترتيبه

كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآيات من القرآن إرشاداً للمسلمين فى أمر من أمور دينهم ، أو تجلية لغامض من شئونهم ، أو إجابة لسائل ، أو بشرى بنصر ، أو تعزيزاً لمقصر ، أو صفحاً عن مذنب ، أو فضيحة لمنافق ، أو براءة لمتهم ، إلى غير ذلك من أغراضه الشريفة . فإذا كان النبى بين أحبابه تلا عليهم ما نزل عليه لساعته ، وإذا نزل عليه فى غير محضر القوم خرج إليهم فتلقنوه منه ، وحفظوه عنه ، يرويه عليه الصلاة والسلام باللهجات المختلفة ، ليسهل على كل تلاوته .

وذلك سبب الاختلاف في قراءاته ، على درجات في قوة السند وضعفه ، وكان حول النبي كثير يبلغون نيفاً وأربعين من الصحابة ، الذين كانوا يعرفون الكتابة منذ الجاهلية ، أو من أبنائهم الذين تعلموها بعد غزوة بدر ، حين قبل النبي من الأسير الكاتب أن يفتدى نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين . وكان من كتّاب النبي : علي ، ومعاوية ، وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث وغيرهم ، فكانوا يكتبون ما نزل من الآيات في عُصْبِ النخل أو اللِّخاف^(١) ، أو الأكتاف ، أو قطع الخرف ، أو الجلود ، والنبي يرشدهم إلى موضع الآية من السورة ، فقد ورد في صحيح البخارى : أن جبريل عليه السلام كان يعارض^(٢) النبي بالقرآن ، وقد عارضه به في السنة التي توفي فيها مرتين .

جمع الآيات وترتيبها في السور متفق على أنه كان أيام النبي ، بتوقيف من جبريل عليه السلام ، بدليل أن النبي كان يقرأ سوراً كاملة ، كالبقرة وآل عمران والنساء ، وفي البخارى : أنه قرأ الأعراف في المغرب ، و (قد أفلح المؤمنون) في الصبح ، و (هل أتى) في صبح الجمعة أو خطبتها .

أما ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف ، فقد اختلفوا فيه : أكان في أيام النبي ، أم حصل باجتهاد الصحابة حين جمع القرآن ، ماعدا السبع الطوال ، وآل حاميم فإنها كانت مرتبة على أيام النبي ؟

ومات النبي والقرآن مكتوب ومحفوظ في الصدور ، ولكنه لم يكن مجموعاً في مكان واحد ، إذ كان الصحابة يتنافسون في اقتناء ما يصلون إليه منه ، وينسخون لأنفسهم سوراً وآيات ، وكان ولاية الأمور مطمئنين لشدة عناية الصحابة بحفظ القرآن ومذاكرته ، ولكن لما قتل من حفظته سبعون في وقعة اليمامة بين المسلمين ومسيلمة التنبي ، خيف أن يستخر القتل في سائر المواطن ، فيذهب كثير من القرآن بذهاب حفاظه ففرع إلى أبي بكر في شأن القرآن ، فاتفق الرأي على جمعه في صحف ، وصياتها بأمن ،

(١) ججارة بيض رفاق : واحدها لحة (بالفتح فالكسكون) .

(٢) يتلوه عليه مرتباً ليتلو مثل تلاوته .

(وسمى أبو بكر مجموعه مصحفاً) ، وبقيت هذه الصحف عند أبي بكر مدة حياته ، ثم صارت إلى عمر مدة خلافته ، وبقيت بعدها عند ابنته حفصة .

وفي أيام عثمان لما اتسعت الفتوح ، وتباعدت المواطن ، واختلفت القراءات ، خيف أن تحدث الفتنة من تخطئة القراء بعضهم لبعض^(١) ، فرأى عثمان دَرءاً لهذا الشر أن يكتب عدة نسخ من المصحف ، ووكل ذلك إلى أربعة من الصحابة ، وهم : عبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وزيد بن ثابت ، الذي يقال إنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن ، قبل وفاة النبي . وهو الذي وكل إليه أبو بكر جمع القرآن في الصحف أولاً .

كتب عثمان من المصاحف ستة ، أرسل منها أربعة إلى الكوفة والبصرة ومكة والشام ، وأبقى واحداً لأهل المدينة ، وآخر لنفسه ، وهو الذي كان يقرأ فيه حين قتل . وسمى عثمان مصحفه إماماً ، لأنه قام خطيباً فقال : أتم عندى تختلفون وتلحنون ، فن نأى عنى من الأمصار أشدّ اختلافاً وأشدّ لحناً ، فاجتمعوا يا أصحاب محمد ، فاكتبوا للناس إماماً .

ثم أمر عثمان بجمع ما كان قبل ذلك في الصحف وإحراقه ، وقد اقتصر في كتابة المصاحف على لغة قریش ، لنزول القرآن بها .

والناس يسمون عمل عثمان رضى الله عنه جمعاً للقرآن ، فعلى ذلك يكون للقرآن جمان : أحدهما على أيام أبي بكر ، والثانى على أيام عثمان ، فاسمع فى الفرق بين الجمعین قول الإمام السيوطى فى الإتيان : « الفرق بين جمع أبى بكر وبين جمع عثمان ، أن جمع أبى بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع واحد ، فجمعه فى صحائف مرتباً لآيات سورة ، على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع عثمان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءات حين

(١) حضر حذيفة بن اليمان غزوة أرمينية وأذربيجان ، فرأى فى سفره اختلافاً بين المسلمين فى القرآن حتى سمع أحدهم يقول للآخر : قراءتى خير من قراءتك ، فلما رجع للمدينة أنذر عثمان بسوء العاقبة إذا لم يتلاف هذا الأمر

قروءه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجاً بأنه نزل بلغتهم »

قراءات القرآن

المعروف الآن للقرآن أربع عشرة قراءة : سبع منها مروية بالتواتر ، وبقية العشر آحاد ، وما عداها شاذّ . وقد كانت هناك قراءات أكثر من ذلك لم تدوّن وإن كان قراؤها من الصحابة .

وإنما كان تعدّد القراءات رحمة من الله للعرب ، فإنّ فيهم الشيخ الذي لا يستقيم لسانه إلا بلهجته ، فتحويله عنها وإرادته على غيرها مشقة لم يردّها الله بهم ، لذلك قيل إن جبريل نزل على النبيّ بالقراءات المختلفة ، فكان النبيّ يقرئ كلّاً بلهجته ، فيمدّ بقدر الألف أو الألفين أو الثلاثة لمن لفته كذلك ، ويفخم ويرقق ويُميل ويُسَمّ لمن تقتضى لفته ذلك ، وكلّ هذا بلفظة قريش ومن حولها ، لا يتعدّها إلى غيرها ، لأنّ العرب كانت قد سبقت ، فأجمعت على لغة قريش قبيل الإسلام ، وخطب بها الخطباء ، وأنشد الشعراء .

واللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش هي لغة بني سعد ، وثقيف ، وخزاعة ، وهذيل ، وكنانة ، وأسد ، وضَبّة ، ثم قيس وأكنافها ، وهم يسكنون وسط الجزيرة . وقد اختلف العلماء في معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ » اختلافاً كبيراً جدّاً ، حتى لقد عدّ السيوطي في الإتيان أربعين رأياً في كلمة أحرف ، وقد رجح المرحوم فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي أن المراد من الأحرف السبعة «أنها أوجه سبعة ترجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وتختلف بسببها تأدية تلك الألفاظ ، وقد بني ترجيحه لهذا المراد على ما رواه من

الأسباب التي دعت إلى نطق رسول الله بهذا الحديث ، فهي لاشكّ تحدّد معنى كلمة حرف ، وقد روى تلك الأسباب من طرق عدّة ، منها أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو يقرأ على حروف لم يتلقنها عمر من رسول الله ، قال فكادت أساوره في الصلاة ، وتصبّرت حتى سلم ، فلبّيته بردائه ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع مني ، وسمع منه ، وقال لكلّ منا: كذلك أنزلت ، « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، فَأَقْرَهُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ » .

وابن قتيبة يعدد هذه الأحرف السبعة ، فيقول :

١ — ما يتغير حركته ولا يزول معناه ، ولا صورته ، نحو : « وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ » (بفتح الراء وضمها) .

٢ — ما يتغير فيه الفعل ، مثل : بَعَدَ وَبَاعِدُ ، بلفظ الماضي والطلب .

٣ — ما يتغير بالنقط ، مثل : نُنْشِرُهَا وَنُنْشِرُهَا .

٤ — ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج ، مثل : طَلَعَ وَطَلَعَ .

٥ — ما يتغير بالتقديم والتأخير ، مثل : وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَسَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ .

٦ — ما يتغير بزيادة وتقصان ، مثل : « والذِّكْرُ وَالْأُنْثَى » ، « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » .

٧ — ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ، و « كَالشُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

ولما كثرت وجوه الاختلاف في القراءة أيام عثمان رضى الله عنه وخشى الفتنة ، جمع الناس على مصحفه ، ولوحظ في كتابته أن يجمع ما اشتهر من لغات القراءة ، فكتبوا الضراط مثلاً في قوله تعالى : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » (بالصاد) المبدلة من السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين (المزراط) وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل اللغوي المعروف فيعتدلان ، وكتبوا الصلاة (الصلوة) لتقبل التفعيم

للام وهو بعض القراءات ، وكتبوا : (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ليدلوا على اللغة التي لا تبدل الهاء من تاء التأنيث ، وهكذا .

أما القراء السبعة ، فهم : نافع بن أبي نعيم ، وعبد الله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم بن بهدلة الأسدي ، وحزرة بن حبيب الزيات ، وعلي بن عمر الكسائي .

بلاغة القرآن

لا خلاف بين أهل العلم وقدة الكلام في أن القرآن لا يدانيه في بلاغته كلام عربيّ مهما ارتقت درجته ، وعلت ذروته ، ولكنهم اختلفوا ، فقليل : كل آياته بمثابة واحدة من التناهي في البلاغة ، وأن ما يبدو لنا من التفاوت يرجع إلى اختلاف الحس ، وقيل : بل تتفاوت مراتب آياته بين الفصيح والأفصح ، ليكون في مظهره مشبهاً كلام الناس ، وإلا ما صحّ التحديّ به . وردّ عليه بأنهم لو شعروا بدنوّه من مرتبة كلامهم لحاولوا معارضته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فثبت أن سموّه على كلام العرب ليس بقدر معتاد ، فهو لذلك معجز .

والكثير الغالب من أهل العلم اليوم إنما يدركون بلاغة القرآن بالتوقيف ، واتباع آراء السلف في تعرّف وجوه الكمال فيه ، لأن لمعرفة ذلك وسائل لا تتمّ لنا : أولها السليقة والطبع القويّ : وأين نحن من الوليد بن المغيرة الذي سمع من النبيّ قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، فرق له وقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عايه لطلاوة ، وإن أسفله لغنّيق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر !! .

وأين نحن من ذلك الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ : « فَأُصْدِعْ بِمَا تُؤْمَرُ » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، ومن الآخر الذي سمع : « فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » ،

فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . وحديث إسلام عمر ، (وكان من أشد الكفار على النبي) حين دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه ، فرق قلبه ، وأتى النبي لساعته فأسلم . وإن كلاماً يلين قسوة كقسوة عمر في كفره (وقد ضاق به النبي ذرعاً) لا عهد للناس بمثله في شدة التأثير ، وإذا أردنا أن نجد وجوه البلاغة في القرآن ، فإننا لا نتجاوز ما قاله عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز : إن المزية هي لتأليف الكلام ، وضم بعض أجزائه إلى بعض ، وتخيير كلماته ، وحسن مقاطعه ، مراعى في ذلك كل مقتضيات الأحوال .

وإذا أضفنا إلى ذلك جلال الغرض ، وسمو المعاني ، وصفاء الحكمة ، وتتمام مطابقة المثل ، علمنا أن القرآن جمع الحسن من أقطاره ، فصار نسيجاً وحده في البلاغة .

حكم القرآن وأمثاله

في القرآن كثير من الآيات جرت مجرى الأمثال ، مثل قوله تعالى : « لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ » ، وقوله : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » ، وقوله : « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ، وقوله : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ، وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » ، وقوله : « تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » ، وقوله : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . قيل للحسن بن الفضل : هل تجد في كتاب الله : « خير الأمور الوسط » . فقال نعم ، في أربعة مواضع : « لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » ، و « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » ، و « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » ، و « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » . قيل فهل تجد من جهل شيئاً عاده ؟ قال : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » . قيل : فهل تجد ليس الخبر كالميان ؟ قال : « قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطَمَنَّ قَلْبِي » .

هذا إلى الأمثال المضروبة التي لا ترى كوقعها وحسن انطباقها مثل قوله تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
 وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَحْلُوهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
 صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
 وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْثُلَهَا ضِغْفِيرٌ ، فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » ،
 وقوله تعالى : « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
 الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا » وقوله :
 « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي
 السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا
 مِنْ قَرَارٍ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا
 مِنْهُ ضَمَمَ الطَّائِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ
 إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ
 لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » .

الايجاز في القرآن

إن الإيجاز في الكلام من أدق مسائله ، وبه يتفاضل البلغاء وفيه يتنافسون ،
 وللقرآن فيه الغاية التي لا تلحق ، بشأنه في جميع مناجي القول . فن ذلك قوله تعالى :
 « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا... » ، فاستقاموا كلمة واحدة تفصح عن

الطاعات كلها في الأثمار والانزجار، ولو أن إنساناً عبدَ الله مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة . ومنه قوله تعالى : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ، فقد أدرج فيه ذكر كل محبوب ، وزوال كل مكروه ، ولا شيء أضر بالإنسان من الخوف والحزن ، لأن الحزن يتولد من مكروه ماض أو حاضر ، والخوف يتولد من مكروه مستقبل ، وليس بعد ذلك من أنواع المكروه شيء ، ومنه : « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ، فالأمن كلمة واحدة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب ، لأن الأمن هو السلامة من الخوف ، وإذا قالوا الأمن بالإطلاق ارتفع الخوف عنهم ، ومنه قوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، فهما كلمتان جمعتا ما عقده الله على نفسه لخلقهم ، وما تعاقدته الناس فيما بينهم . وقوله تعالى : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » ، فلم يبق مفزع لأحد إلا تضمنته هاتان الكلمتان ، وقوله تعالى : « وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » ، فهذه الكلمات تجمع من أصناف التجارات وأنواع المرافق في ركوب السفن ما لا يبلغه الإحصاء ، ومنه قوله تعالى : « فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها ، مع القوة في الأمر بقوله . اصدع ، وما يشعره لفظ الصدع من الأثر الشديد الذي يحدثه النبي في نفوس العرب عند التبليغ . ومنه قوله تعالى في وصف خمر الجنة : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ » ، فهما كلمتان قد أتنا على جميع معائب الخمر ، ويشمل قوله : وَلَا يُنْزِفُونَ عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب ، ومنه قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقد كان للعرب كلمة يعجبون بها ويعدونها من أوابد كلامهم ، وهي قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، فلما نزلت آية القرآن تضاءلت أمامها حكمة العرب ، وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق ، فإن الآية كلمتان ، وهما القصاص حياة ، وكلمة العرب أربع ، والآية برئت من التكرار الحاصل في كلمة العرب ، وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر الحياة المحبوبة وجعلها نتيجة له ، وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص

وأن القتل ليس تشفياً ، وفي الآية تنكير لكلمة الحياة وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إذ ليس كل قتل أتى للقتل فإن ذلك يشمل الاعتداء والذي ينفي القتل هو القصاص . : ومن أمثلة الإيجاز في القرآن قوله تعالى « فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم وما يوردون عليه من ذكر الحادث . ومنه قوله تعالى « وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ ، حتى يصل مقطوعها ويسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة فحقت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك نقضت ما شرطت لهم وآذنتهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء . ومنه قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » جمع فيه جميع مكارم الأخلاق ، لأن في العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وغض الطرف عن الحرمات ، والتبرؤ من كل قبيح ، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئاً من المنكر . وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مقابلة السفية بما يُوتَغُ (١)

الدين ، ويسقط القدرة .

الكنايات في القرآن

ومقام الكناية في التعبير مشهور واضح ، فهي أبلغ من الحقيقة والمجاز ، ثم لها فوق ذلك مرتبة معروفة ، وهي الاختصار فيها بالمعنى ، والاستغناء باللمعة ، والتعريض عن ذكر الفواحيش ، مما ينبو عنه الطبع ، ويمجه السمع ، وقد ورد في القرآن منها ما لا يتعلق بغيره بليغ ، فمن ذلك قوله تعالى في صفة المسيح عليه السلام وأمه : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » فكنى بأكل الطعام عن التغوط والتبول ، لأنهما بسبب منه . إذ لا بد للآكل منهما . ومنها أيضاً قوله تعالى :

(١) يوتغ : يفسد .

«وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» أى لفروجهم . وقال تعالى : «أَوَلَا مَسْمُومُ النِّسَاءِ» فكفى بالملامسة عن الجماع إذ لا يخلو منها غالباً . وقال تعالى عن المهر : «وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» فكفى بالإفضاء عن الدخول كما كفى عن الجماع بالسر فى قوله تعالى : «وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سِرًّا» وقوله أيضاً «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» ومن كنايات القرآن قوله تعالى : «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» فقد نفى المثلية عن المثل ، فانفتحت بالتبع عن الله ، وهذا طريق أبلغ من النفى المباشر ، لأنه كما يقولون : كدعوى الشيء بيينة .

ومن كنايات القرآن قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» كناية عن آدم . والغرض منها الدلالة على عظم القدرة . وقوله تعالى «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِىَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ» كنى بالنعجة عن المرأة كمادة العرب فى ذلك . ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها ، فكفى عن زليخا بامرأة العزيز . وإنما ذكر مريم باسمها تأكيذاً لأن عيسى بلا أب ، وإلا لنسب إليه ، ومن كناياته أيضاً قوله تعالى : «أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» كناية عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى ، ولوأتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك . ومنها قوله تعالى : «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» كناية عن سعة جوده وكرمه جداً ، ومثلها فى هذا كل ماورد منسوباً إلى الله مما لا يصح نسبته إليه كقوله تعالى : «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» وقوله : «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» وقوله : «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» .

أما التعريض الذى يلبس الكناية ويؤدى مؤداها فى المبالغة ، فقد وقع كثيراً فى القرآن . ومنه قوله تعالى : «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» ، فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم ، بل إفادة مايشير إليه ، وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا . ومنه أيضاً قوله تعالى : «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، كأنه

غضب أن تعبد الصغار منه تلويحاً لعابديها بأنها لا تصلح أن تكون آلهة ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والآله لا يكون عاجزاً . ومنه قوله تعالى : « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » أى محمداً صلى الله عليه وسلم إعلاء ل قدره ، أى إنه العلم الذى لا إخفاء له . وبما ورد منه تلطفاً واحترازاً عن المحاشنة قوله تعالى : « وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي » أى وما لكم لا تعبدون بدليل قوله : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ومن هذا أيضاً قوله تعالى : « أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً » وكذلك قوله : « لَنْ أَشْرَكَ لِيَخْبِطَنَّ عَمَلُكَ » خطب النبي وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعاً ، وكذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » تعريض بدم الكفار ، وأنهم فى حكم البهائم التى لاتتذكر . والتعريض والكناية نادران فى كلام العرب ، لدقة استعمالهما ، ونفاة قدرهما ، ولكنهما كما رأيت فى القرآن كثير ، مع ارتقاء النوع إلى الحد الذى لا يجارى .

ونكتفى من بيان أسرار القرآن بما ذكرنا ، فإن همة مهملت وتوفرت لا تقوى على الإحاطة بذلك . وحسبنا أن العلماء ألقوا ولا يزالون يؤلفون ، ثم هم بعد لا يدعون الوقوف على جميع أسرار القرآن ، وهذه آية باقية من إعجازه .

إعجاز القرآن

شاءت رحمة الله بعباده حين يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى طاعته أن يهبط لهم أسباب الإيمان به ، لأنه تعالى يعلم مقدار إلف النفوس لما اعتادت ، وحرصها على ما وجدت عليه آباءها من قبل ، فهو سبحانه وتعالى يشد أزr النبي بالبرهان الساطع على نبوته ، والحجة الدامغة على رسالته ، حتى يسهل على النفوس ، وقد طغيا عليها الشرك ، وأعمى بصيرتها الضلال ، أن تهجر ما ألقت ، وتقلع عما اعتادت ، يشد الله أزr نبيه بتمكينه من العلم الذى ينبغ فيه قومه ، أو الصناعة التى برزوا فيها ، حتى يعلموا أن هذا التأييد إلهى ، وأن هذه القدرة من مواهبه تعالى لمن اختصه برسالته .

ولما كانت الأمة العربية التي بزغ منها نور النبوة المحمدية أمة أمية خرقاء ، لا تعرف علماً ولا صناعة ، ولا تملك إلا ملكة البيان تنصرف فيه ، وتجيد الضرب في نواحيه ، والتحليق في سمائه ، وكانت أمة لا تعرف الفضل لرجالها إلا في شعر يجيدون حبكه ، أو خطب يرمون بطوالها وقصارها ، لما كان ذلك ، ناسب أن تكون حجة محمد عليهم هي البيان ، أو تكون وسيلته إليهم هي البلاغة ، لأنها هي التي آمنوا بها فيما بينهم ، وعرفوا قدرها في نفوسهم .

أنزل الله على رسوله القرآن ، فكان حجته الدامغة ، وقوته وعدته ، على حين لا قوة له ولا عدة ، فكم صعدوا ، وكم زلزلوا ، وكم أخذوا ، وكم أذعنوا حين سمعوا آياته الكريمة . فهذا عمر (وما كان أشدّ عناده للنبيّ وأذاه للمسلمين!) أسلم حين سمع من أخته وزوجها سورة طه . وهذا الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكانه رقّ له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : يا عمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لثلاث تأتي محمداً لتعرض لما قاله ، فردّ عليه الوليد قائلاً : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول ؟ ! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول للحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه ، وإنه ليعظم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يأتريه عن غيره .

فن هذه الأحاديث وأشباهها نعلم يقيناً أن القرآن قد بهر القوم نوره ، وأعشاهم ضوؤه ، وعقل ألسنتهم بيانه ، واستبدّ بقواهم صوغه وإحكامه .

ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبيّ ولا يذعنون ، ويكابرون ولا يؤمنون ، يقول بعضهم : إنه سحر ، وآخر إنه شعر ، وغيرهم يقولون : إنه اقتراء ، فتحدّاهم إذ ذاك ربّ العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين ، فلما عجزوا تحدّاهم بعشر سور ، فلما

انكشفوا طالبهم بسورة واحدة ، فملكهم البهر ، وانقطع بهم الجدل ، ولم يجدوا بعد إلا الإذعان وإلا الإيمان ، فما الذى ياترى أذعنوا له وآمنوا من أجله ؟
فى القرآن أسرار كثيرة أوقوى هائلة ، كل شىء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس وتخضع لحكمه :

١ - فمن ذلك ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، مما لم يكن قبل إخبار القرآن به ، فوقع كما أخبر ، وأتى وفق ما وصف ، كقوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ، وقوله : « غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ » ، وقوله : « إِنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وقوله تعالى فى شأن أهل بدر ، وقد نزلت الآية بمكة قبل الوقعة بسبع سنين : « سَيُزِمُ الْجَمْعُ وَيُوْثِقُونَ الذُّبُرَ » ، وقوله : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ، وقوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . ولما نزلت بشر النبى أصحابه بذلك ، وكان المستهزون فزراً بمكة ، ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه فهلكوا ، وقوله : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ، فكان ذلك على كثرة من رام ضرره ، وقصد قتله .

٢ - ومن ذلك ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة الواحدة منه إلا القذ من أخبار أهل الكتاب ، الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ، فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه ، وقد علم العرب أن الرسول أحمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمداينة ولا مثافنة^(١) ، ومن هذه الأخبار كل ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء . وكان اليهود والنصارى كثيراً ما يعنتونه بالسؤال عن أخبار أنبيائهم ، وما ورد فى توراتهم وإنجيلهم ، فياتهم بالجواب الحق ، الذى لا يستطيعون معه معارضة ولا مناقضة ، فكان من أثر ذلك أن

(١) ثائفه : وجالسه ولازمه .

أكثرهم صرّح بصحة نبوته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده وحسده إياه . ومن
بَاهَتْ في ذلك ، وادّعى كذب محمد فيما جاء به من أخبارهم قيل له . « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ، فكان ذلك أعظم تقريع وتوبيخ له . قال تعالى :
« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

٣ — ومن ذلك حسن تأليفه ، والتثام كلمه ، وتخير ألفاظه ، وحسن مقاطعه
ومطابقة هذا النظام لمتنضيات الأحوال ، مضمومًا إلى ذلك جلال الغرض وسمو
المعاني ، وصفاء الحكمة ، وانطباق المثل .

وإن البحث في هذا ، وتفصيل القول في فصاحة القرآن ، وسلامة تأليفه من
الاضطراب ، هو الذى شغل علماء البلاغة ، فظلوا أجيالا طويلة يكشفون عن هذه
الأسرار ، فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض السرّ الذى ينطوى عليه هذا
النظم العجيب . فما أشبه القرآن فى ذلك : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » بالشمس يسطع
نورها ، فيجد فيها السالك هداه ، والخصر دفته ، والمستوقد ناره ، والزارع حاجة
زرعه إلى النماء ، إلى ما لا نكاد نعدّه من فضائل هذه الشمس ، فهذا مثل آى
القرآن الكريم لا يزال العلماء يجدّون فى الكشف عن أسرارها ، وكلما انتهوا
إلى غاية تسامت عنهم غيرها وغيرها ، فهم مع حسن بلائهم ، وعظيم حيلتهم ،
وواسع بيانهم ، مقرون بالعجز ، مقصرون عن الغاية ، وكَم تَكَلَّمُوا فَأَطَالُوا فى قوله
تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ
وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » ، وقوله : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »
وانظر إلى قوله تعالى فى وصف أهل النار : « فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ
لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي

بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » ، وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ، وقوله تعالى في وصف النار : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، وإلى قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » ، وانظر إلى قوله تعالى : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ » ، وقوله : « قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » .

وهناك أسلوب شاع في القرآن ، ولم يكن العرب يعرفونه ، وهو عرض الكلام في معرض الشك حتى يكون ذلك استدراجاً للخصم ، وتخفيفاً من شدة عناده ، كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدًى » ، وقوله : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « أَتَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقوله : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ » .

وهذا مقام لا يسعنا فيه إلا نقل القرآن برمته الاحتجاج به ، فهو جميعه سبيكة واحدة في جمال الروق ، وكمال البيان ، وإحكام الصنعة . فنحن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته ، لترى الحكمة كيف سقيت ، والمثل كيف ضرب ، والحجة كيف دمغت ، والصفة كيف تمثلت ووضعت ؟ .

وقد عرضنا لك هذه المزايا الظاهرة في القرآن ، ولم نقاضل بعد بينها ، ولا رجحنا

بعضها على بعض . فلو قيل لنا : أى هذه المزايا أحقّ بالتقديم وأولى بالاعتبار ، فإننا ما نتردد فى هذه الميزة الثالثة ، وهى الفصاحة وقوة البيان ، لأن هذا الوصف هو الذى يحسن فى التحدّى للعرب الذين عرفوا باللسن ، واشتهروا بقوة البيان ، ثم هو الوصف الباقي مع القرآن ما بقى الزمان ، لأن التنبؤ بما لم يكن ، لم تكن له قيمته إلا قبل حدوثه ، فأما بعد ذلك فقد زالت روعته ، وصار لمنكره سبيل إلى الإنكار ، لولا ما محتجّ به من أنه سبق الوقوع وتقدّمه ، فتكون الحجة فيه محتاجة إلى حجة ، والبرهان متوقفاً على غيره . هذا إلى أن العرب كانوا مولعين باستطلاع الغيب ، وكان فيهم من يدعى علم ذلك ، من الكهنة الذين كانوا يلقون القول على عواهنه ، فيصدق منه بعض ويكذب بعض . فلو كان التحدّى من النبيّ بذلك لوجد من هؤلاء من يقول أنا أخبرتك بكذا ، فكان كما قلت . وهذا ضعف فى الحجة لا تقبله فى القرآن ، والاستدلال به على هذا الأمر العظيم ، وهو صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الإخبار بالأمور التى وقعت منذ العهد البعيدة ، وأخبر بها النبيّ من قصص الأنبياء ، وحادث أهل الكهف ، أو شأن ذى القرنين ، فإن هذه أخبار كانت معلومة أيام النبيّ ، وإن كان علمها مقصوراً على أهل الكتاب ، فلو شاء معارض أن يقول : إن محمداً قد استطاع الوصول إلى ذلك بإحدى الوسائل مهما كانت السبيل دونه وعرة ، فإن هذا القول بفت فى حجته ، وليس من شأن حجج الأنبياء أن ينالها الوهن من إحدى نواحيها ، فلم يبق إلا أن الإعجاز كان بهذا السرّ الباقي على الأيام ، وهو البلاغة التى تسطع حجتها فى كلّ حين .

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى أحد شيوخ المعتزلة وهو إبراهيم النّظام . وهذا هو القول بالصّرفة ، ومعناه : أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، ولكن الله صرفهم عن ذلك ، وأبطل مقدرتهم عليه . وذلك فيما يرى النّظام أدلّ على التأييد من الله لرسوله ، إذ كان العجز مع القدرة ، واستحالة الممكن أدلّ على إرادة الله لنصرة نبيه ، وهذا قول باطل لا يليق الأخذ به ، ففيه اعتراف

من قائله بأن القرآن في ذاته ممكن المعارضة ، لا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته ، موقوت بالمدّة التي شاعت القدرة الإلهية أن تحد من عزم العرب عن معارضته ، وهذا كله نقص ينزه القرآن عنه . على أنه لو كان الواقع ما ادّعاه النظام ما استعظم العرب فصاحة القرآن ، وتمعّبوا من سبكه ، وعلوّ كبله ، بل كان تعجبهم من عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها .

وقد رأينا من الباحثين في هذا الموضوع من يقول : إن إعجاز القرآن في معناه يريد بذلك أن علوّ حكّمته ، ودقة تشريعه ، وشمول الفكرة فيه لما لم يكن العرب يفكرون فيه ، ولا يتناولونه ببحثهم ، هو الوجه الظاهر في الإعجاز ، وهذا الوجه لانراه يستطيع النهوض وحده ، إذ يكون التحديّ به تحدياً بما لم تجر به العادة في التحديّ ، فإن العرب لم يكونوا أمة علم ، ولا ادعوا القوّة في التشريع ، حتى يحاجوا وينازعوا في هذا الباب . على أن المنقول عن العرب أن الذي راعهم إنما هو السبك وقوّة البيان ، فهذا قوله تعالى : « فَأَصْدَغُ بِمَا تُؤْمَرُ » لم يصق له سامعه إلا من ناحية الصوغ وبراعة التأليف وهكذا ، وإذا نظرنا إلى حكمهم بأن القرآن شعر أو سحر عرفنا الناحية التي راعتهم منه ، وهي ناحية التأثير لا ناحية دقة المعنى وبعد المراد .

كذلك رأينا من يقول : إن وجه الإعجاز الذي يجب أن يكون في مقدّمة الاستدلال على علوّ كعب القرآن ليس هو الصياغة الفنية وحدها ، وإنما الذي أعجز العرب مع هذه الصياغة وجوه أخرى ، تلك هي الأسلوب المنطقي والأسلوب العلمي . الخ وقد فصل صاحب هذا الرأي قوله في الأسلوب المنطقي والعلمي فذكر أن العرب لم يكونوا يعرفونهما ، وأنهم إنما اعتادوا الأسلوب الخطابي . والواقع أن الأسلوب المنطقي حاصل في كل كلام ، لأن الكلام بيان واستدلال وترجيح وتفضيل ، ولا تكون

هذه الأمور إلا بهذا الأسلوب ، فالقول بجهل العرب لهذين الأسلوبين ، وعدم وجودهما في كلامهم ، لا يمكن الإيمان به ، والشعر والنثر الجاهليان يفيضان بهذا .

وإن من سبق له الاطلاع على أدب الجاهليين ليكفيينا مثونة الاستدلال على أن العرب قد وقع لهم في كلامهم الأسلوبان : (العلمى ، والمنطقى) ، وإلا فإين حكمهم وأمثالهم ؟ وكلها ناطقة بتجربتهم ، مثبتة لقويم استدلالهم

ولا بأس أن نطلمك على هذا الحوار المتين ، والجدل القوى الذى تقرع فيه الحجة بالحجة ، ويوزن الدليل بالدليل ، لتعرف أن هؤلاء العرب كانوا إلى جانب قوتهم الخطابية ، حصفاء يطلفون للإقناع ويتأتون له . هذا الحوار هو ما جرى بين امرئ القيس ابن حُجر ، وأشياخ بنى أسد فى العفو عن دم أبيه :

قال قبيصة بن نعيم يخاطب امرأ القيس :

إنك فى الحل والقدر ، من المعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدته أيامه ، وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سودد منصيبك ، وشرف أعراقك^(١) ، وكرم أصلك فى العرب ، تحتد^(٢) يحتمل ما حل عليه من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز المهم إلى غاية إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ، ويستغرق طليباتها^(٣) ، وقد كان الذى كان من الخطب الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تخصص به كينة دوننا ، للشرف البارع الذى كان لحُجر . ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخره على أولاه ، ولا يلحق أقصاه بأدناه . فأحمد الجالات عندك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً فقدناه إليك بنسعة^(٤) تذهب مع شقرات حسامك بياق قصرتة^(٥) ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستل سخيمته^(٦) إلا لتمكينه من

(١) أنسابك . (٢) أصل . (٣) جمع طلبة (كفرحة) وهى الطلب .

(٤) قطعة من جلد . (٥) رقبته . (٦) يستل سخيمته : ينتزع صفته .

الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نَعَمها ، وهى ألوف تجاوز الحِسْبة . فكان ذلك فداء رجعت به القُضْبُ^(١) إلى أجفانها لم يردّها تسليط الإحن^(٢) على البراء ، وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل ، فتُسدل الأُزُر ، وتُعقد الحُمُر فوق الرايات . فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لقد علمت العرب أن لا كفء لحُجر فى دم ، وأنى لن أعتاض به ناقة أو جملا ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد ، وفَتّ الفصد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطها سبيّا ، وستعرفون طلائع كندة تحمل فى القلوب حنقا ، وفوق الأسنة علقا^(٣) :

إذا جالت الحَرْبُ فى مَازِقِ تصافح فيه المنايا النفوسا
أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوا الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرب وبلية ، ثم نهضوا عنه ، وقبيصة يتمثل :

لعلك أن تستوخم الورْدَ إنْ غدت كئائبنا فى مَازِقِ الحربِ مُتَطَرِ^(٤)
فقال امرؤ القيس : لا والله ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرج لك دجاها عن فُرسان كندة وكئائبِ حِمير ، ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى إذ كنت نازلا بربعى ، ولسكنك قلت فأوجبت



وختام القول أن العرب لو كانوا حقا يجهلون الأسلوبين العلمى والمنطقى ولم يألوا القول فيهما ، ما كان لهما وقع فى نفوسهما ، لأنهم يكونون جاهلين بهما ، وغير متذوقين لهما ، ومن جهل شيئا لم يابه له ، ولا اعتد به ، وإنما يملك إعجاب المرء كل شئ يحاوله فكان له فيه بلاء لم يبلغ غاية الكمال ، فهو لا يزال يحاولها طامعا فيها حتى إذا

(١) قضب : جمع قضيب وهو السيف . (٢) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد .

(٣) دما . (٤) خم استرو المي : وجده سبي العاقبة .

رأها تمت على يد غيره ، أسرع بالإقرار له بالفضل إن كان منصفاً ، أو اضطرَّ أخيراً إلى الإذعان حين يهره جمال الفن الذي تعشقه وتعلق به ، ثم يصل إلى مثله الأعلى .

أثر القرآن في اللغة

لا يؤثر شيء في لغة قوم حتى يكون قد غير ما بأنفسهم ، لأن اللغة طابع الأمة وحرار ثقافتها . وقد علمت ما أحدث القرآن في نفوس العرب من هداية ، وما كشف عنهم من عمياء ، وما هذب من خلقهم ، وبذل من جهلهم ، وأنه قلبهم من رعاة جفاة غلاظ الأكباد ، إلى سادة يدين العالم لعدلهم ، ويتسابق الناس إلى اعتناق دينهم ، والدخول في زميرتهم .

وإذا علمت سرعة هذه الطفرة في خلقهم وحياتهم ، فاعلم أنها كانت كذلك في لغتهم ، فإن العرب لم يسمعو القرآن حتى خضعوا لسلطانه ، وتسابقوا إلى حفظه ، وتذوقوا من حلاوته ، وتعبدوا بتلاوته ، وهان عليهم بإزائه ما تناولوا به من حكمهم وأمثالهم ، وما ملئوا به أشداقهم من نثرهم ونظمهم ، فكان من أثر ذلك أن هجر بعض نحوهم عادته في قول الشعر ، وعكف على القرآن يستوحيه الحكمة ، ويستمدده الهداية . وبعضهم استمر منبهراً منقطعاً ، مقصراً عن الغاية التي عرفت له في أيام الجاهلية . ولم يلبث العرب حتى صار القرآن نورهم الذي يهتدون به ، فاتبع الشعراء والخطباء أسلوبه ، وعمدوا إلى سهولته وانسجامه ينسجون على منوالهما ، هاجرين (كما هجر) حوشى اللفظ ، ومعقد القول ، وكثرت من المعاني ثروتهم ، وتدققت بالقول ألسنتهم ، يقتبسون من القرآن (وهو البحر الخضم) أساليب متنوعة ، ومعاني في كل غرض ، وحكمة ، ومثلاً ، في أحسن مساق ، وأليق موضع .

ونتج من حرص العرب على القرآن أن تقدموا بخطا واسعة إلى المدنية ، فإنهم من

أجله وضعوا علم النحو ولم يعض عليهم في الإسلام ثلاثون سنة ، ثم أتبعوه بعلوم التفسير ،
واللغة ، والتاريخ ، والبلاغة وغيرها ، مبالغة في الذود عنه ، والحرص عليه .
أما هو فقد أتى بمعجزة أخرى غير معجزته في نفسه ، وهي بقاء العربية ناقضة طبيعة
اللغات ، في علم الثبات .

البلاغة النبوية

لقد بعث الله محمداً في تلك الأمة العربية التي تعتز ببيانها ، وتباهى بفصاحتها ،
ولا يشغلها إلا القول تدبجه ، والبيان تحبزه ، فلم يكن يستطيع أن يظهر عليهم
إلا بسلاحهم . فأيده الله بالقرآن الكريم ، فبهزم حسنه ، وغلبهم أسره ، وذلوا أمامه ،
ساجدين لعظمته . ثم لم يكن من المستطاع أن يجري القرآن على لسان النبي ، وهو بعد
بين القوم كأحدهم ، لا فضيلة له عليهم في خاص كلامه ، ومعتاد حديثه ، وهو محتاج
إلى التأثير ، وشدة الأخذ ، ودعوتهم إلى الدين ، وتأديبهم بأدبه ، ودفعهم لمحاربة
أعدائه . فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى ، هي بلاغة لسانه ، وقوة بيانه . فقد
كان صلى الله عليه وسلم في هذا على غير ما يعهد العرب في فصاحتهم ، وما يألون
من مناطيقهم ، حتى لقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت في العرب ،
وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك (علمك) ؟ فقال عليه الصلاة
والسلام : « أَدَبِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِي » .

وكما أعد الله رسوله للنبوّة منذ قدرها له ، فأنبته نباتاً حسناً ، وطهره من
أرجاس العرب ، فما سجد لضم ولا لابس منكرا ، كذلك أعدّه للفصاحة ، فجعله من
قريش ، وهي في الذروة من الفصاحة ، واختاره من خير بيوتها نسباً وصهرأ ، ثم كانت
رضاعته في بني سعد ، وهم من أفصح القبائل ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام :
« أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ » .

ولم تقف عناية الله برسوله إلى حدّ المولد والنشأة ، بل لقد علمه الله لغات العرب كلها ، فكان يخاطب كل قبيل بلغته فيبرزهم فيها . ومثل ذلك لا يكون إلا بتعليم وتلقين ، والنبي لم يعلم عنه أنه تنقل في تلك القبائل قبل البعثة حتى يحذق لغاتها ، ويكون فيها أفصح من فصحاءها . ولقد قال له عليّ رضي الله عنه حين سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، وذاك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه ، فأجابه رسول الله بما أجاب به أبا بكر آنفاً .

ومن أمثلة هذه اللغات التي كان النبي يعرفها دون قریش كتابه لوائل بن حجر الكندي أحد أقبال حضرموت ، ومنه ^(١) :

إلى الأقبال العبالة ، والأرواع المشايب .

ومنه : وفي التبعة شاة ، لا مقورة الألياط ولا ضناك ، وأنطوا التبعة ، وفي الشيوب الخمس ، ومن زني مم بكر فاضة فوه مائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زني مم ثيب فضرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا عمة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترقل على الأقبال .

لم تقف الدهشة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم عند معرفته لغات العرب ، ولكنها كانت أعظم حين يخاطب قومه بما لم يعهدوه في لغتهم ، ولم يأتروه عن بلغاتهم من جوامع الكلم التي رويت عنه ، كقوله في الحرب يوم حنين : « الآن حمى الوطيس » ، والوطيس : التنور ومجتمع النيران ، استعاره رسول الله لشدة الحرب . وقوله لأبي نعيم الجهمي : « إياك والمخيلة » ، فقال يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما الخيلة ؟

(١) التفسير لألفاظ الكتاب بترتيبها : الأقبال : جمع قبل ، وهو الملك من ملوك حير وحضرموت . العبالة : المفرون في ملكهم ، الأرواع : الذين يروعون بالهبة والجمال ، المشايب : جمع مشبوب وهو الجليل الزاهي اللون ، النبعة : أربعون شاة ، المقورة : المسترخية ، الضناك : الموققة الخلق السبينة ، أنطوا التبعة : أعطوا الوسط ، السيوب : جمع سيب وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، الصقع : الضرب ، الاستيفاض : النفي والتفريب ، الأضاميم : الحجارة الصغار ، التوصيم : الفترة والتواني ، يترقل : يترأس .

فقال عليه السلام : « سَبِيلُ الْأَزَارِ » ، يريد الكبير . وقوله : « هُدْنَةُ عَلَى دَخَنَ » ، والدخن : دخان النار ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلح لم يذهب بالأحقاد جملة ، كما يبقى شيء من النار تحت الرماد ، فيستدل عليه بما يتصاعد عنه من دخان ومن ذلك قوله : « لَا تُنْجِشُهُ حَادِي إِبِلِهِ وَفِيهَا النِّسَاءُ » رَفَقًا بِالْقَوَارِيرِ ^(١) ، وهي كناية عن النساء ليس بعد جمالها جمال . وقوله : « بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ » ، أى قريباً منها ، أحسها كما يحس المرء أنفاس من يدانيه . وقوله : « يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرُ كَيْي » ، وقوله : « كُلُّهُ أَرْضُ بَسْمَاتِهَا » ، وقوله : « لَا يَنْتَطِحُ فِيهِ عَزَانِ » ، وقوله يوم بدر : « هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدُهُ » ، وقوله : « لَا يُدْعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ » ، ويروى : لا يوسع ، والمعنى واحد ، وهذا أقول قاله النبي لأبي عزة الشاعر ، أسره يوم بدر ، ثم من عليه ، وأتاه يوم أحد فأسره ، فقال من علي ، فقال عليه الصلاة والسلام الحديث السابق : (أى لو كنت مؤمناً لم تعاود قتالنا) ، وقوله : « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ » ، قيل له : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء ، شبهها بالشجرة الناضرة في دمنة البعر ، وأكلها مؤذ .

ومن بليغ كلامه عليه الصلاة والسلام قوله : « عَلَّقَى سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ » ، وقوله : « النَّاسُ بِأَرْزَامِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِأَبَائِهِمْ » ، وقوله : « مَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدَرَ نَفْسِهِ » وقوله : « لَا تَجْنِ يَمِينَكَ عَلَى شِمَالِكَ » ، وقوله للأَنْصَارِ : « إِنَّكُمْ لَتَقْتُلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتَبْكُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ » ، وقوله : « النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ اللَّشِطِ » ، وقوله : « الْمَرْءُ كَثِيرٌ بِإِخْوَانِهِ » ، وقوله : « لَا خَيْرَ فِي مُحَبَّةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ » ، وقوله في الخيل : « بَطُونُهَا كَنْزٌ ، وَظُهُورُهَا

(١) في كتاب الكنايات للبرجاني : أن المعنى أن رسول الله لما رأى حسن صوت أنجشة ، وأنه قد يسى النساء ، قال له في ذلك ليقبل من ترقيق صوته حتى لا يستبطنهن .

حِرْزٌ» ، وقوله : « النَّاسُ كَابِلِ مَائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً » ، وقوله : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ » ، أى لو علم بعضكم سريرة بعض لاستنقل تشييعه ودفنه .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَكْثَرُوا مِنْ ذَكَرِ هَادِمِ اللِّذَاتِ » ، (يريد الموت) ، وقوله : « مَلْعُونٌ مَنْ هَدَمَ بُنْيَانَ اللَّهِ » ، (يريد قتل النفس) ، وقوله : « قَدْ جَدَعَ الْحَلَالُ أَنْفَ الْغَيِّرَةِ » ، وقوله : « وَعَدُ الْمُؤْمِنِ كَأَخْذِ الْيَدِ » .

هذا إلى جوامع كله عليه الصلاة والسلام التى اشتملت على الحكمة الرائعة ، وجرت مجرى المثل ، كقوله : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ، وقوله : « الرَّعْبَةُ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ أَلْهَمَ وَالْحُزْنَ ، وَالْبَطَالَةُ تُقْسِي الْقَلْبَ » ، وقوله : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ، وقوله : « الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » ، وقوله : « إِنْ مِنَ الْبَيْتَانِ لَسِحْرًا » ، وقوله : « تَرَكْتُ الشَّرَّ صَدَقَةً » ، وقوله : « حُبُّكَ الشَّيْءُ يُعْمَى وَيُصِمُّ » .



ودليلنا على أن شأن النبىِّ فى اللغة إنما كان إلهاماً من الله ، يقوى به جانبه ، ويشدُّ أزره ، أنه عليه الصلاة والسلام زاد فى اللغة ألفاظاً ، وأجرى فيها اشتقاقات ، وتوسع فى معانى بعض ألفاظها بما لم يمهّد قبله ، فكان للغة منه مادة جديدة ، زادت فى ثروتها ، فمن ذلك تسميته : « صفراً الأول » محرّماً ، وذلك حين أبطل الإسلام النسيء ، وحتم تحريم القتال . وكذلك وصفه عليه السلام لفرس ركبه بأنه بحر ، أى لا ينقطع جريه ، كما لا ينقطع تيار البحر . وكذلك كلمة الصبر بمعنى الشقّ فى قوله : « من اطلع من صيرٍ بابٍ فقد دَمَر » ، قال أبو عبيد : لم يسمع هذا الحرف إلا فى هذا الحديث . وصير الباب : خرّقه . ودمر : دخل . كذلك وصفه للزانية بالزمارة فى حديث أبي هريرة : « إِنْ النَّبِىَّ نَهَى عَنْ كَسْبِ الزَّمَارَةِ » ، قال ثعلب الزمارة الزانية

لأنها تشيع أمرها، كأنها تنفخ في بوق، وهذا الحرف لم يسمع إلا في هذا الحديث هذا إلى ألفاظ كثيرة جرت على لسانه في بيان الشريعة ولم ترد في القرآن .
كذلك ورد في القاموس المحيط : أن كلمة « مَهْرُوزَة » لم تسمع إلا في قوله عليه الصلاة والسلام في المسيح : « ينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق في مَهْرُوزَتَيْن » ، أى بين مَمَصْرَتَيْن ، وتروى مَهْرُودَتَيْن بالدال ، ومعنى قول صاحب القاموس مَمَصْرَتَيْن : مصبوغتان بالمصر ، وهو الطين الأحمر .

النبي وقول الشعر

صرف الله النبي عن قول الشعر ، فلم يؤثر عنه أنه أنشأ شيئاً منه وهو القادر عليه ، اللهم إلا ما وقع له من غير قصد ، كقوله يوم أحد :
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
وقوله وقد دميت إصبعه :

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لَقِيتِ

وإنما اتفق له ذلك كما يتفق لكل متكلم أن يجيء بكلامه على وزن وهو لا يتعمده .

قال الجاحظ : ولو قال بائع : (من يشتري باذنجان) لكان شعراً ، لأنه مستفعلن مفعولان ، وهو كما تعلم من منهوك المنسرح ذى العروض الموقوفة ، كذلك يروى الجاحظ أنه سمع ابن صديق له سقى بطنه وهو يقول : « اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اُكتوى » وهو كما ترى من الخفيف .

كما ورد في القرآن مثل قوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » ، وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » ، فأنهما يوافقان الرمل ^(١) وقوله تعالى :

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن فاعلاتن فاعلن (مرتين) الآية الأولى من مجروثه ، وقد دخل ضربه التسبيغ ، وهو زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف ، والآية الثانية من مجزونه أيضاً لكنه صحيح العروض والضرب .

« .. مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ » ، فإنه يوافق الخفيف^(١) ، وقوله تعالى :
 « .. ذَانِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا » فإنه يوافق الرجز^(٢) ، وقوله تعالى :
 « وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّ كُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » ، فإنه يوافق الوافر^(٣)
 وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » ، وزنه مستفعلن متفعلن ، وهو رجز ، وقوله
 تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، من بحر الخبب ، ووزنه : فَعْلَن فَعْلَن ...
 وفي كتاب إعجاز القرآن للباقلاني أمثلة كثيرة ، لما ورد في القرآن من شعر غير مقصود ،
 فارجع إليه .

ومثل هذا يقع في كلام الناس كثيراً من غير قصد ، على أن ما وقع للنبي إنما
 كان من الرجز الذي هو أبسط أوزان الشعر ، وأقربها إلى النثر ، حتى نفي بعضهم أن
 يكون شعراً خصوصاً إذا كان من منهوكه أو مشطوره ، فإنه أشبه بفقرات السجع
 منه بالشعر .

كذلك لم يكن النبي يقيم وزن بيت يرويه أو يتمثل به ، كما فعل بيت طرفه ، فإنه
 رواه هكذا :

سَتُبْدِي لَكَ الْآيَاتِ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ بِالْأَخْبَارِ
 وأصله : ويأتيتك بالأخبار من لم تزود .

وكما فعل بيت العباس بن مرداس وهو :

أَتَجَمَّلُ نَهْجِي وَهَبَّ الْمُبَيِّدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنِنَا
 وأصله : بين عيننة والأقرع .

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) والآية من مجزوءه .

(٢) وزن هذا البحر مستفعلن ست مرات .

(٣) وزن هذا البحر مفاعلاتن ست مرات ، والآية منه مقطوف العروض ، والضرب :
 (القطف صيدورة مفاعلاتن إلى فعولن) أى باسقاط السبب الخفيف الأخير وإسكان الحرف الخامس .

وأكثر ما كان يتثقل بأنصاف الأبيات حتى لا يتحقق كونها شعراً كما فعل بيت لبید حين قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبید :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *

فأتى بالشعر صحيحاً ولكنه سكت عن إكمال البيت .

ولم يكن إعراض النبي عن قول الشعر وروايته إغماضاً لشأنه ، أو صرفاً للعرب عنه ، فإن المعروف أنه كان يقبل على الشعراء ، ويحسن الاستماع لقولهم ، ويشيب من يمدحه منهم ، فقد خلع على كعب بن زهير برده التي اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء بعده ، يلبسونها في الجمع والأعياد ، وكان يكثر من استنشاد الخنساء في رثاء أخيها صخر ، ويقول : « هَيْهَ يَا خُنَاسُ » ، بل لقد كان يدعو إلى قول الشعر ، ويستعين به في نشر دعوته ، وهو الذي اتخذ حسان شاعره ، وأمره أن يهجو كفار قريش ، وكان يقول له : « شُنَّ الْغَارَةَ عَلَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَوَاللَّهِ لَشِعْرُكَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ فِي غَبَشِ الظَّلَامِ » ، وكان يثيبه ويدعوله . وهذه قَتِيلَةُ أُخْتِ النَّضْرِ بْنِ الْحَرِثِ الَّذِي كَانَ غَالِيًّا فِي عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ، ويلقن فتيان قريش الشعر في هجائهم ، أسره النبي في بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته :

| | |
|---|--|
| يَا رَاكِبًا إِنَّ الْأُنْيَلَ مَطْنَةٌ | مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ (١) |
| أَبْلَغَ بِهِ مَيْتًا بِأَبِّ تَحِيَّةٍ | مَا إِنْ تَزَالَ بِهَا النَّجَائِبُ تَخْفِقُ (٢) |
| مَنْ إِلَى إِيَّاكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ | جَادَتْ يَوَاكِفَهَا وَأُخْرَى تَخْفِقُ (٣) |
| هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ | أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيْتٌ لَا يَنْطِقُ (٤) |
| ظَلَّتْ سُبُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُشُهُ | لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تُشَقِّقُ (٥) |

(١) الأنيل : واد قرب بدر ، وهو الموضع الذي دفن به أخوها .

(٢) كضرب : تسرع .

(٣) وكف المطر والدمع : سال .

(٤) أم للإضراب : أي بل إنه لا يسمع لأنه لا ينطق .

(٥) ناشه : تناوله .

صَبْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَةِ مُتَعَبًا رَسَفَ الْمُتَيِّدَ وَهُوَ عَانٍ مُوْتَقٍ^(١)
 أُمِّمَدَ وَلَدَتْكَ خَيْرُ نَجِيْبَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَعْلٌ مُعْرِقُ^(٢)
 مَا كَانَ ضَرَكُ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمُحْدَقُ^(٣)
 فَالْتَضَرُّ أَقْرَبُ مِنْ قَتَلْتِ قَرَابَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
 لَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ بِأَعَزِّ مَا يُغْلَى بِهِ مَنْ يُنْفَقُ^(٤)

فقال رسول الله : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .

ومن تمام الحجة في رسالة النبي أن صرفه الله عن الشعر ، لا يقوله ولا يحسن روايته ، لأنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يبرز حتى يسير في نهج الشعراء ، من الهجاء والفخر والتشبيب والهيام في كل " واد من الكذب والضلال ، وما تلك سبيله في الهداية وتأديب الخلق . ولو كان شاعراً لنسب العرب فضيلة النبي وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، وقد طالما رأوا من بينهم شعراء يثيرون الحروب ، ويؤرثون نيران العداوة ، فيصبح النبي في نظرهم صعلوكاً من صعاليكهم ، الذين كانوا في كل " واد يهيمون ، ومثل هؤلاء لا يتبعون في الأمر العظيم الذي دعا إليه النبي ، فدخل فيه العرب على بكرة أبيهم ، وكان منهم ما كان من سيادة العالم ، قال تعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

(١) يقال قتله صبراً : إذا أقامه للقتل . العانى : الأسير . الموتق : المفيد بالوفاق (بالفتح) .

(٢) الفحل : كناية عن الأب . معرق : أصيل .

(٣) المحقق : المغناط ، من أحرقه إذ غاظه .

(٤) غلى بالمىء وغالى به : طلب فيه ثمناً غالياً ، أو اشتراه كذلك .

وصف بلاغة النبي

كان رسول الله يوجز غالباً ليعقل عنه ما يقال ، ولأن الإيجاز أليق بعظمته ، وقد نهى عن الثثرة والتفهيق ، ولذلك جاءت أحاديثه كلمات جوامع ، وحكم بالغة ، وهو القائل : « إنا معشر الأنبياء بكاء » : (قليلو الكلام) ولم يكن ذلك بممانعه من الإطالة حين يقتضى المقام ، كما روى أبو سعيد الخدري أنه خطب بعد صلاة العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون » . قال أبو سعيد : وما زال يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف . وكانت ألفاظه عليه الصلاة والسلام لا تعثر فيها باللفظ المستكره ، ولا بالتركيب المغلق ، بل كل قوله إسجاح وسهولة في لفظ أنيق ، وتركيب منسجم ، ينطويان على المعاني العالية ، والرأى الناضج ، والإلهام الذي اختصه الله به .

ولقد كان موضوع حديثه عليه الصلاة والسلام أشرف الموضوعات ، فهو بيان أغراض القرآن ، وتفسير مشكله ، وإيضاح مبهمه ، وتخصيص مطلقه من كل ما يتعلق بأدب ، أو عبادة ، أو تعامل ، فالقرآن مثلاً لم يبين تفاصيل الصلاة ، ولم يشرح كيفياتها وحرّم الحجر بقوله : « إِنَّمَا الْحَمَرُ وَاللَّيْسَرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » ، ولم يبين المراد من الحجر ، ولا مقدار ما يحرم منها ، فكان عمل النبي كشف الغامض في كل ذلك .

ولقد تجنب النبي في قوله ذلك السجع الذي كان يلتزمه الكهان ليلكوا به النفوس ، ويستهووا الألباب ، فأزرى عليهم ، وحذر من فعاهم ، فقال : « إياكم وسجع الكهان » ، فجاء كلامه عليه الصلاة والسلام نقي اللفظ ، واضح الأسلوب ، حسن الإيجاز ، حسن الإطناب ، خالياً من السجع المستكره ، مشتملاً على المعاني السامية ، فهو جدير أن يجمع الفضل من أقطاره . لذلك كان أبلغ كلام عرفه الناس بعد القرآن .

النثر فى هذا العصر

لقد كان فى كلام الله وحديث نبيه سيل منهم من المعانى ، ومادة واسعة من الأساليب ، وسمط منظوم من الألفاظ ، فكان كل ذلك قدوة للعرب حسنة ، هجروا به حُوشِيَّهم من اللفظ ، ومعقدهم من الأساليب ، وسفّسافهم من المعانى .

ولقد كان جلّ عنايتهم فى جاهليتهم بالشعر يحفظونه ويروونه ، لذلك لم يؤثر عنهم من نثرهم إلا قطرة من بحر إذا قيس بالقرآن وحديث النبى .

فلما جاء الإسلام صارت الدولة للنثر ، لأنه هو الموافق للجدّ الذى أخذ العرب فى سبيله ، فدعا به النبىّ قومه إلى الإسلام ، وراسل به الملوك ، وكتب به اليهود ، وشرح به الدّين ، وكذلك فعل أصحابه من بعده فى خطبهم حين الاستخلاف ، وفى كتبهم بتولية عهودهم ، وأوامرهم إلى قوادهم ووصاياهم لولايتهم ، وإرشادهم لقضائهم ، وحشهم على اجتماع الكلمة ، والثناء الشعب ، وتزهيدهم فى الدنيا ، ودعوتهم إلى الاستشهاد فى سبيل الله . ثم كثر فى أواخر هذا العصر القول فى توهين حجة الخصم ، والنقاش فى العقيدة ، كالذى كان واقعاً بين علىّ والخوارج ، كما كثر القول فى ثلب الولاة والاعتلال عليهم ، وتنقص الحلفاء ، وإظهار معايبهم ، كالذى حدث فى فتنة عثمان رضى الله عنه ، وأخيه الوليد بن عُقْبَةَ^(٢) ، الذى كان يلى له الكوفة ، واتهمه الناس بشرب الخمر ، وطلبوا إقامة الحدّ عليه .

تلك هى أغراض النثر فى هذا العهد ، وهى أغراض لم تعهده فى الجاهلية ، ولذلك علا شأنه فى هذا العصر ، وتطامنّت له قصرة^(١) الشعر ، وطوى بساطه .

ولقد كانت كلّ هذه الأغراض تؤدّى بأيسر طرق التأدية ، بالألفاظ التى اختارها

(١) عنق . (٢) كان الوليد أخا عثمان من الرضاع .

لهم القرآن والحديث، وهى القرشية الناصعة، التى ازورَّت عن عَنَّة^(١) تميم، وترفعت عن عَجَجَة^(٢) قُضَاعَة ، وطُمُطُمَايَّة^(٣) حمير .

أما الأسلوب فهو كذلك ما علمهم القرآن والحديث من الانسجام ، والقصد إلى الغرض قُدماً ، مع هجر السجع ، وإلغاء التعمل ، ومساوقة الطبع ، ولقد زخر كلامهم بالمعاني السامة التى امتلأت بها قلوبهم ، وثقفت أفكارهم ، وصحت معرفتهم ، واقتبسوها من القرآن الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فمن علاقة الرجل بزوجه ، إلى حقوق أولاده عليه ، وحقوقه عليهم ، إلى علاقة العبد بسيده ، والوالى برعيته ، إلى تدبير المعاش ، والسعى فى طلب الرزق ، وحسن القصد فى النفقة ، إلى علاقة المرء بربه ، إلى دعوته للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، إلى ما لا يستطيع عدّه ، لأن الله يقول : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

هذه هى المعانى التى كانت نادتهم فى قولهم ، لحصفت^(٤) بها آراؤهم ، واتسعت ملكاتهم ، وحأت فى نفوسهم محلّ أوهام الجاهلية وأباطيلها ، فصار قولهم صادراً عن ذهن خصيب ، وفكر مرتب ، فلم نر لهم ذلك الكلام المقطع ، الذى تتنافر أغراضه ، ولا تلتئم معانيه ، ولا عثرنا لهم على باطل من القول ، ولا محال من الفكر ، كما كنا نجد ذلك لأسلافهم من أهل الجاهلية .

م ٤ الخطابة فى هذا العصر

تعتمد الخطابة على ثلاثة أسباب ، إذا تمت لها بلغت من السمو كلّ كمال :
فأما أولها فهو حرية رأى ، يظهر بها المرء ما يختلج فى نفسه ، ويدور بخَلْدِه ، لا يخشى

(١) هى إبدال العين من الهمزة المبدوء بها ، فيقولون فى أن عن

(٢) هى تحويل الياء جيماً إذا وقعت بعد الدين ، فيقولون : الراعي فى الراعى

(٣) هى إبدال أم من آل ، فيقولون : طاب اهواء ، فى طاب الهواء

(٤) قويت واستحكمت .

سلطانا يسيطر عليه ، ويعقل لسانه ، وأنت تعرف أن هذا السبب قد تمّ للعرب في جاهليتها ، فما عرفت أمة مثلهم بالصراحة وانطلاق الفكر . وجاء الإسلام فبنى على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وجعل الشورى أصلاً في سياسة الناس . وهذه حياة عمر بن الخطاب تدلنا على أنه لم يكن يقطع أمراً دون المسلمين حتى يخطبهم ، ويطلب رأى عامتهم وخاصتهم فيه ، وكان يقبل الرأى الصائب مهما كان مصدره ، وهو الذى كان يخطب في أمر المهور ، ومغالة الناس بها ، وقد عزم أن يجعل لها حداً ، فصاحت به امرأة من أقصى المسجد تقول : كيف وقد قال الله تعالى : « وَآتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » ؟ فعدل عن رأيه ، وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

أما ثانى أسباب الخطابة ، فهو قوة البيان ، والاعتدال على الارتجال ، ونصيب العرب من ذلك معروف مشهور ، خصوصاً في الإسلام ، بعد أن زادت ثروتهم اللغوية بأداب القرآن والحديث .

ولا يقدح في قوة بيانهم في هذا العصر ما روى عن المربج عليهم مثل يزيد ابن أبى سفيان ، فقد ورد في الكامل للمبرد : أن أبا بكر ولاء ربماً من أرباع الشام ، فرقى المنبر ، فتكلم فأرتج عليه ، فقطع الخطبة وقال : سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ، وبعد عِيٍّ بيانًا ، وأتم إلى أمير فعّال ، أحوج منكم إلى أمير قوّال .

فظهرت بلاغته في هذا الاعتذار ، حتى إن عمرو بن العاص لما سمع هذه القصة قال عن هذه الكلمات التى فاه بها يزيد : « هُنَّ مُخْرِجَاتِي مِنَ الشَّامِ » استحساناً لها . أما الإرتاج فباب آخر قد يكون منشؤه الفكرة المشتتة ، والحوادث الشاغلة ، والذهن المكدود ، لأن من نطق بمثل عبارة يزيد هذا لاتعوزه العبارة ولا ينقصه البيان . وثالث الأسباب : قيام الدواعى الخافزة للخطابة ، وقد توافرت في هذا العصر من دعوة إلى الدين ، وإعلان للسياسة ، وحض على لزوم الطاعة ، وتشجيع على قتال ، أو دفاع عن رأى ، أو خوض في فتنة .

تمت هذه الأسباب للخطابة في عصر صدر الإسلام والعصر الذي يليه ، لأن الأسباب بقيت فيه مجتمعة متوافرة ، فبلغت الأوج من عزّها ، وأحصى للعرب من الخطب ما لم يحص لغيرهم من الأمم ، وبلغت في كثرتها ما بلغه الشعر في العصر الجاهلي . وهذا على كرم الله وجهه تروى له خطبه في كتاب ضخّم ، هو «نهج البلاغة» . وإذا صحّ ما قيل من أن فيها ممدوساً عليه ، فإن سلامة نصفها له أو أقلّ ليجمعه مقطوع النظير فيمن عرفنا قديماً من خطباء الدنيا . فهذا ديموستينيس خطيب اليونان المشهور قديماً لم يعدوا له أكثر من ستين خطبة ، لا شك أن فيها ممدوساً عليه ، شأن كلّ عظيم يحاول قومه تفخيم أمره .

وبقيت للخطابة عاداتها القديمة ، من اعتبار العمامة ، والاشتغال بالرداء ، واختصار المختصرة ، والقيام على شرف من الأرض ، أو منبر ، وكان رسول الله يعتمد على قوس في الحرب ، وعلى عصا في السلم قبل أن يتخذ له المنبر .

وكان شأنهم في ألفاظها وأسلوبها هو الشأن العام في نثرهم من سهولة اللفظ ، وانسجام الأسلوب ، وهجران السجع ، وترك التكلف . وكانوا يبدءونها بالحمد لله ، والصلاة على رسوله ، ويكثرّون فيها من اقتباس الآيات القرآنية ، فقد كان رسول الله يلو في كلّ جمعة إذا خطب الناس سورة : « ق وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » حتى لقد اشترط بعض الأئمة اشتغال خطبة الجمعة على شيء من القرآن .

وقد جروا فيها على طرفي الإيجاز والإطناب اتباعاً للدواعي ، فقد خطب رسول الله من لدن صلاة العصر حتى دنت الشمس للمغيب ، كما ذكر أن عمر لما بويع وقف على المنبر ، فلم يزد على قوله بعد الحمد لله : إِنَّمَا مَثَلُ الْأُمّةِ كَمَثَلِ جَمَلٍ أُنْفٍ ^(١) أَتَبَعَ قَائِدُهُ ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ أَيْنَ يَهْوَدُهُ ؟ أَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكُعْبَةِ لَا أُحْمِلَنَّكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ . ومن إيجازهم في الخطابة ما رواه المبرّد في الكامل قال : ومما يؤثر من هذه

(١) هو الذي إن قيد انقاد ، أو هو الذي يأنف من الزجر والضرب ، فيعطى ماعنده بلا طلب .

الآداب ، ويقدم قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أوّل خطبة خطبها حدثنا العُتْبِيُّ قال: لم أرَ أقلّ منها فى اللفظ، ولا أكثر فى المعنى . حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناسُ إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحقّ له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحقّ منه ، ثم نزل . قال أبو الحسن (يريد الأُخفش) : قد رويناه هذه الخطبة التى عزّاها إلى عمر ، عن أبى بكر ، وهو الصحيح .
ومن خطباء هذا العصر رسول الله وخلفاؤه ومعاوية وسحبان وائل وزِياد .

نماذج من خطابة هذا العصر

أوّل خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعا قومه بمكة .
حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : **إِنَّ الرَّائِدَ^(١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ . وَاللَّهُ لَوْ كَذَّبَتْ**
النَّاسَ مَا كَذَّبْتُكُمْ وَلَوْ غَرَزْتُ^(٢) النَّاسَ مَا غَرَزْتُكُمْ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَقًّا وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً . وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا
تَسْتَيْقِظُونَ ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَيُجْزَوْنَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ،
وَإِنهَا لِلْجَنَّةِ أَبَدًا ، أَوْ النَّارِ أَبَدًا ، وَإِنكُمْ لَأَوَّلُ مَنْ أُنْذِرَ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ^(٣) .
ومن خطبه أنه قال بعد الحمد لله والثناء عليه : أيها الناسُ كأنّ الموت فى الدنيا
على غيرنا كُتِبَ ، وكأنّ الحقّ على غيرنا وجب ، وكأنّ الذين نُشِيع من الأموات سَفَرُهم

(١) الرائد : الذى يرسل فى التماس النجعة وطلب الكلاء .

(٢) غرّه غرّا وغروراً ، فهو مغرور وغرير : خدعه .

(٣) أى أوّل من أُنذر قريباً من عذاب شديد : أى من يوم القيامة الذى يكون فيه العذاب الشديد لأهل الكفر والضلالة .

عما قليل إلينا راجعون ، نُبَوِّسُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، ونأكل ثرائهم كأننا مُخَلَّدُونَ بعدهم . قد نسينا كلَّ واعظة ، وأمنَّا كلَّ جائحة ، طُوبَى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير مصيبة ، ورحم أهل الذل ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، طُوبَى لمن أَدَلَّ نَفْسَهُ ، وَحَسَّنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَتَحَمَّتْ سِرِّيَّتُهُ ، وعزل عن الناس شره ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، وَوَسَّعَتْهُ السَّنة ، ولم يَعُدْهَا إلى البدعة .

وخطب يوماً فقال : أيها الناس ، إن لكم معالم ^(١) ، فاتهبوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية ، فاتهبوا إلى نهايتكم ، وإن المؤمن بين محافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقي لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة ^(٢) قبل الكبرة ^(٣) ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستغْتَب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار ^(٤) .

وخطب حين دخل مكة ، فبعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحته ، وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة ، وقف على باب الكعبة وقال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة ^(٥) أودم ^(٦) أو مال يدعى به ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ثم قال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة ^(٧) الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس

(١) المعلم : العلامة ، ومنه «علم الطريق ما يوضع ليستدل به عليه .

(٢) شب من باب ضرب شباباً وشبيبة ، وذلك ما كان بين الفتاء والكهولة .

(٣) الكبرة : كأنها مرة من الكبر ، وهو الطعن في السن ، والفعل كفرح بهذا المعنى ، ومن باب كرم بمعنى عظم .

(٤) رواية «تهد النثر» لقدامة ، فقفوا عند نهايتكم ، و «إن المؤمن» بلا واو ، «بين أجل قد مضى ، وبين أجل قد بقي» ، و «فليأخذ امرؤ» ، و «من الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت» .

(٥) أي مفخرة موروثة عن الآباء .

(٦) ثأر .

(٧) كبر وعظمة .

من آدم ، وآدم من تراب . ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ^(١) ، ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها ، فهي في عقبه إلى اليوم .

ومن خطبه عليه الصلاة والسلام خطبته في حجة الوداع ^(٢) ، وهي التي لم يمحج بعدها ، بعد أن علم الناس سنن الحج وأراهم مناسكه ^(٣) ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل رباً مؤسوخ ^(٤) ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كل دم في الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث ^(٥) ، فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية . أما بعد : فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم ^(٦) أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ^(٧) ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير

(١) جمع طليق ، وهو المنون عليه بفك الأسار .

(٢) كانت سنة عشر ، وسميت بالوداع ، لأن النبي ودع الناس فيها بالوصية ، وأكد الوداع بالاشهاد ، فأعرف وداعه حتى توفى .

(٣) المناسك : جمع منسك (كمجلس ومقعد) وهو ما يتعبد به ، والنسك (مثلثة) العبادة

(٤) ويروى : وإن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب .

(٥) وفي رواية : دم عامر بن ربيعة بن عبد المطلب . وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل .

(٦) الفرش مصدر واسم للفروش . ويصح ضبط الكلمة فرش (ككتب) فتكون جمعاً لفرش .

(٧) هي النشوز أو البذاء .

مبرح ، فإن اتهمين فلهن رزقهن وكسوتهن^(١) بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً .
فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً . أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن
أن كل مسلم أخ المسلم ، فلا يحل^(٢) لأمري من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس
منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم قد بلغت ، اللهم اشهد .



من خطبة أبي بكر^(٣) يوم بويج :
حمداً لله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني وليت عليكم ولست بخيركم^(٤) . ولكن نزل
القرآن ، وسن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا قلعنا ، واعلموا أن أكيس الكيس^(٥)
الثقي ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق ، وأن
أضعفكم عندى القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس : إنما أنا متبوع ولست
بمبتدع ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فرددوني ،
أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته^(٦) فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي بهذا
وأستغفر الله لي ولكم .

(١) بالضم والكسر في المفرد ، أما الجمع فهو بالضم لا غير (كسا) .

(٢) حل من الحلال كضرب . ويعني فك العقدة أو نزل بالمكان كنصر .

(٣) هو عبد الله بن أبي قحافة يجتمع مع رسول الله في مرة بن كعب . ولد بعد سنتين من مولد رسول
الله وكان صاحبه قبل النبوة وهو أول من أسلم من الرجال ولذلك سمي الصديق وقد لزم النبي في أخرج
المواقف : أقام معه في الفار وصحبه في الهجرة . نشأ من أكرم قريش خلفاً وأرجحهم حلاً وكان أعلمهم
بالأسباب وقد كان ذا مال أفقه في معاضدة النبي . ثم كان له الفضل على الإسلام بمحاربه المرتدين حتى
ردهم إلى حظيرة الإسلام ورأب صدعه بهم . ثم لم يلبث أن جرد الجيوش لفتح ممالك كسرى وقبصر
فضله على الإسلام عظيم أولاً وآخرها . وكانت مدته في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر تولى سنة إحدى عشرة
لهجرة وتوفي سنة ثلاث عشرة .

(٤) خير أفعل تفضيل وأصله أخير أو هو صفة مشبهة . وكذلك شر وقد استعملوا بصيغة أفعل على
الأصل . ويقال لهيته بأخي الشر أى بالخير وبأخي الخير أى بالشر .

(٥) ضد الحق .

(٦) عصي (كضرب) ضد أطاع ، ومنه العصا وجمعها عصي كفسي وأعصاء . وشق العصا
المخالفة ، وعبيد العصا . أى الذين يضربون بها .

ومن خطبه خطبته التي يُرَشِّحُ^(١) فيها عمر للخلافة ، فإنه جمع الناس وهو مريض فأمر بمن يحمله على المنبر ، ثم خطب آخر خطبة له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، اخذروا الدنيا ولا تَتَّقُوا بها ، فإنها غَرَارَةٌ^(٢) ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها ، فَيَحِبُّ كُلُّ واحدةٍ منهما تُبْغِضُ^(٣) الأخرى ، وإن هذا الأمر الذي هو أَمْلَكُ بنا^(٤) ، لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهُ ، ولا يَتَحَمَّلُهُ إِلَّا أَفْضَلُكُمْ مَقْدِرَةً وَأَمْلَكُكُمْ لِنَفْسِهِ ، وأشدُّكم في حالِ الشَّدَةِ^(٥) ، وأسَلَسُكُمْ في حالِ اللَّيْنِ ، وأعلمُكم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يَعْنِيهِ^(٦) ، ولا يَحْزَنُ لما يَنْزِلُ به ، ولا يَسْتَحْيِ من التعلم ، ولا يَتَحَيَّرُ عندَ الْبَدِيهِةِ^(٧) ، قَوِيٌّ على الأمور ، لا يَجُوزُ لشيءٍ منها حَدٌّ بَعْدُوانٍ ولا تَقْصِيرٌ ، يُرْصِدُ^(٨) لما هو آتٍ عَتَادَهُ^(٩) من الحَذَرِ والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب .



ومن كلام عمر بن الخطاب^(١٠) :

-
- (١) من معاني الترشيح : التقوية . والمعنى هنا يبين قوته على احتمالها .
 (٢) خداعة .
 (٣) الكثير في هذا الفعل أَيْبُضُ والقليل بَيْض (كنصر) ويقال بَيْض فلان (ككرم) أى صار بَيْضاً مَكْرُهاً .
 (٤) ألصق بنا ، يقال ملك الحشف أمه إذا قوى وقدر أن يقبها ، والمراد بالأمر الخلافة .
 (٥) الشدة : صعوبة الزمن ، والجمع شدد بكسر الشين . أما الشدائد فجمع شديدة بنفس المعنى أوجع شاذ لشدة .
 (٦) عناء الأمر عنياً : شغله فهو معنى به .
 (٧) البدية : ما يفجأ الإنسان من أمر ، والجمع بدائه .
 (٨) رصد المئىء (كنصر) ترقبه . ويرصد هنا من أرصد بمعنى أعد .
 (٩) الحاضر من الأمر ، يقال عتد الأمر حضر فهو عتد وعتيد .
 (١٠) هو أبو حفص عمر بن الخطاب ، أول من تسمى من الخلفاء بأمر المؤمنين وأول من أُرِخَ بالتاريخ الهجرى ومصر الأمصار (بنيت البصرة والكوفة بأمره) ودون الدواوين للجيش والحراج ، ولد بدمولد رسول الله ثلاث عشرة سنة . وكان بين قريش من زعمائها . وكانت له السفارة بينها وبين القبائل

أيها الناس : اتَّقُوا اللَّهَ فِي سِرِّيرَتِكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ ، وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَا تَكُونُوا مِثْلَ قَوْمٍ كَانُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَقْبَلَ أَحَدُهُمْ عَلَى مَوْضِعِهِ يَخْرُقُهُ
فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَمَنْعُوهُ ، فَقَالَ هُوَ مَوْضِعِي وَلِيَ أَنْ أَحْكَمَ فِيهِ ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ
سَلِمَ وَسَلِمُوا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكَوْا مَعَهُ ، وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبَتِهِ لَكُمْ ، رَحِمَنَا
اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ .

ومن خطبه قوله بعد حمد الله والثناء عايمه : أيها الناس ، إني دَاعٍ فَأَمْتُنُوا . اللهم
إِنِّي غَلِيظٌ فَلْيَتَنَّبِئْ لِأَهْلِ طَاعَتِكَ بِمُوَافَقَةِ الْحَقِّ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالْدارِ الْآخِرَةِ ، وَارْزُقْنِي
الْعَظْمَةَ وَالشَّدَّةَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَهْلِ الدَّعَاةِ ^(١) وَالنِّفَاقِ ، مَنْ غَيْرُ ظَلَمَ مِنِّي لَهُمْ وَلَا اعْتِدَاءَ
عَلَيْهِمْ . اللهم إني شَحِيحٌ فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ ^(٢) الْمَعْرُوفِ قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ ^(٣)
وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالْدارِ الْآخِرَةَ . اللهم ارْزُقْنِي خَفَضَ
الْجَنَاحِ وَإِنْ الْجَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ . اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فَأَلْهَمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى
كُلِّ حَالٍ ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ . اللهم إني ضعيفٌ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِكَ ،
فَارْزُقْنِي النَّشَاطَ فِيهَا وَالْقُوَّةَ عَلَيْهَا ، بِالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا بِعِزَّتِكَ وَتَوْفِيقِكَ ،
اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي بِالْيَقِينِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَذُكْرِ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَالْحَيَاءِ مِنْكَ ، وَارْزُقْنِي
الْخُشُوعَ فِيمَا يَرْضِيكَ عَنِّي ، وَالْحَاسِبَةَ لِنَفْسِي ، وَإِصْلَاحَ السَّاعَاتِ ، وَالْحَذَرَ مِنَ

= في الحروب والمفاخرات ، ثم كان في بدء الدعوة من أشد الكفار على النبي والمسلمين حتى أعز الله به الدين ، فلقبه
النبي بالفاروق يوم لإسلامه بفرقه بين الحق والباطل ، وحضر مع النبي جميع غزواته ونال الخلافة بمهد من
أبي بكر فكان لحزمه وعزمه أثر كبير في تقدم الفتوح وحسن طاعة العرب ، وكان لا يعمل عملاً بلا
استشارة يجمع لها أهل الرأي .
(١) الحبث والفجور .

(٢) النوائب : جمع نائبة وهي المصيبة فلما أضيفت إلى المعروف صار معناها المصائب التي تحتاج إلى
المعروف لتلافيها .

(٣) القصد : التوسط في الأمور ، والسرف فهو أعم من أن يكون في المال أو غيره وبالأفراط
أو التفريط . التبذير : الإففاق في غير طاعة الله وهو الإسراف . وينبغي حمل السرف هنا على التفتير حتى
يكون عطف التبذير عليه للمفارقة .

الشُّبُهَاتِ ، اللهم ارزقني التفكيرَ والتدبرَ لما يَتَأَوُّه لسانِي من كتابك ، والفهمَ له ،
والمعرفةَ بمعانيه ، والنظرَ في عجائبه ، والعملَ بذلك ما بقيت ، إنك على كلِّ شئٍ قديرٌ .

ومن خطبه لما بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق رحمه الله ، فوثب
مغضباً حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

أيها الناسُ : إني سأخبرُكمُ عنى وعن أبي بكر : إنه لما تُوِّفِّيَ رسولُ الله
صلى الله عليه وسلم ارتدتَّ العربُ ، وَمَنَعَتْ شَاتَهَا وَبَعِيرَهَا^(١) ، فَأَجَمَعَ رَأَيْنَا كُلَّنَا
أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أَنَّ قُلْنَا لَهُ : يا خليفةَ رسولِ الله ، إنَّ رسولَ الله صلى الله
عليه وسلم كَانَ يقاتِلُ العربَ بالوَحْيِ والملائكةِ ، يُعِدُّهُ اللهُ بِهِمْ وقد انقطع ذلك اليومُ ،
فَالزَّمْ بَيْتَكَ ومسجدك ، فإنه لا طاقةَ لك بقتالِ العربِ ، فقال أبو بكر الصديقُ :
أَوَكُلُّكُمْ رَأْيُهُ عَلَى هَذَا ؟ قُلْنَا نَعَمْ ، فقال والله لَأَنْ أَخِرَ^(٢) من السماء ، فَتَخَطَفَنِي
الطيرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيِي . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبره ، وصلى
على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أَقْبَلَ على الناسِ ، فقال : أيها الناسُ من كان يعبدُ
محمدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قد مات ، ومن كان يعبدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ . أيها الناسُ : أُنِّ
كثراً أعداؤكم ، وقلَّ عدوكم رَكِيبَ الشيطانِ منكم هذا المَرْكَبُ ؟ ! ! والله ليُطْهِرَنَّ اللهُ
هذا الدينَ على الأَذْيَانِ كُلِّهَا ولو كره المشركون . قوله الحقُّ ، وَوَعْدُهُ الصدقُ . بل تَقْدِفُ
بالحقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغُهُ^(٣) ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ^(٤) . وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً
كثيرةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، والله يأبىها الناسُ لو أُفْرِدَتْ من جَمِيعِكُمْ
لجَاهِدْتُهُمْ في الله حَقَّ جِهَادِهِ حتى أُبْلِيَ بِنَفْسِي عِذْرًا^(٥) . أو أَقْتَلَ قِتْلًا . والله أيها

(١) أى منعت زكاتها . (٢) أسقط .

(٣) دمه : أصاب دماغه . (٤) زهق المص : هلك ، والباطل : الضمحل .

(٥) يقال أبله عذراً : قدمه إليه فقبله . والمعنى هنا فعل ما يعذر معه أى لم يقصر .

الناس لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه ، واستعنت الله عليهم وهو خير مُعين ، ثم نزل :
لجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَذْغَبَ الْعَرَبُ بِالْحَقِّ .

قال المبرد في قوله : لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه الصحيح أن المصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها ، قيل أخذ عقلاً . وإذا أخذ الثمن ، قيل أخذ نقداً .
قال الشاعر :

أَتَانَا أَبُو الْخَطَّابِ يَضْرِبُ طَبْلَهُ فَرَدَّ وَلَمْ يَأْخُذْ عِقْلاً وَلَا نَقْدًا
(وكانت الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول) . والذي تقوله العامة :
لو منعوني ما يساوي عقلاً فضلاً عن غيره . وهذا وجه والصحيح الأول لأنه ليس عليهم
عقال يعقل به البعير فيمنعه .



ومن خطب عثمان ^(١) :

إِنَّ إِكْلَ شَيْءٍ آفَةٌ ^(٢) ، وَإِنَّ إِكْلَ نِعْمَةٍ عَاهَةٌ . وَإِنَّ آفَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَعَاهَةُ هَذِهِ النَّعْمَةِ عِيَابُونَ ظَنَّاؤُونَ يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا تُحِبُّونَ . وَيُسِرُّونَ مَا تَكْرَهُونَ .

(١) هو عثمان بن عفان الأموي القرشي . ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله وشب على الأخلاق الكريمة فكان حياً غنياً . ولما بعث رسول الله كان من السابقين الأولين إلى الإسلام وهو أحد المهاجرين إلى الحبشة خرج إليها مع السيدة رقية بنت الرسول وكان النبي قد زوجها لياها وحضر مع النبي جميع مواقفه إلا بدرأ استبقاه الرسول ليقوم بتريض رقية في مرض موتها وبعدها زوجها النبي ابنته السيدة أم كلثوم وأفق كثيراً من ماله في إصلاح حال المسلمين وجهز جيش السيرة إلى تبوك وكان من كنية الوحي . وكان أحد الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة فانتخب من بينهم . وتولى الخلافة من سنة ٢٤ من الهجرة إلى أن قتل سنة ٣٥ هـ فمدته إحدى عشرة سنة لم يسلم له منها إلا الست الأولى ثم تولى عليه الشعب من أهل الأمصار بحجة أنه يؤثر أقباءه بالأعمال ولولا لينة الشديد بعد شدة عمر البالغة ما حدثت هذه التهمة التي حدثت بقتله واجترأ بها الناس على الخلفاء . قتل رحمه الله بداره وهو يقرأ القرآن .

(٢) الآفة والاهة : ما يفسد الميئ ، والأولى من أيف الميئ فهو مثوف ومثيف . والثانية من عاه يعيه فهو معبوه .

يَقُولُونَ لَكُمْ وَتَقُولُونَ . طَعَامٌ ^(١) مِثْلُ النِّعَامِ ^(٢) يَتَّبِعُونَ أَوَّلَ نَاعِي . أَحَبُّ مَوَارِدِهِمْ
إِلَيْهِمُ النَّارُ ح ^(٣) . لَقَدْ أَقْرَزْتُمْ لِابْنِ الْخَطَّابِ بِأَكْثَرِ مِمَّا نَفَقْتُمْ ^(٤) عَلَى وَلَكِنْ
وَقَكُم ^(٥) وَقَمَعَكُمْ وَزَجَرَكُمْ زَجَرَ النِّعَامِ الْخَزْمَةِ ^(٦) . وَاللَّهِ إِنِّي لَأَقْرَبُ نَاصِرًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا وَأَقْن ^(٧) إِذَا قُلْتُ هَلُمَّ ^(٨) أَنْ تُجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عُمَرَ . هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ
حَقُوقِكُمْ شَيْئًا ؟ فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الْحَقِّ مَا أَشَاءُ إِذَا ، فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا ! !

ومن خطبه في الوعظ قال بعد حمد الله والثناء عليه :

إِنَّكُمْ فِي دَارِ قُلْعَةٍ ^(٩) وَفِي بَقِيَّةٍ أَهْمَارٍ . فَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِخَيْرٍ مَا تَقْدِرُونَ
عَلَيْهِ فَلَقَدْ أَتَيْتُمْ : صُبْحَكُمْ أَوْ مُسَيِّتُمْ . أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا طُوَيْتَ عَلَى الْغُرُورِ ،
فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ^(١٠) . اُعْتَبِرُوا بِمَنْ مَضَى ثُمَّ
جِدُّوا وَلَا تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ عَنْكُمْ . أَيْنَ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَإِخْوَانُهَا الَّذِينَ أَثَارُوهَا
وَعَمَرُوهَا ^(١١) وَمَتَّعُوا بِهَا طَوِيلًا ؟ أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ ؟ أَرُمُوا الدُّنْيَا حَيْثُ رَمَى بِهَا اللَّهُ ،
وَاطْلُبُوا الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَاضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا

(١) الطعام : أوغاد الناس واحدها طفامة . والطفامة أيضاً الأحق .

(٢) النعام : اسم جمع للنعامه وهي طائر أحق . (٣) القليل الماء .

(٤) هم منه (كضرب وعلم) انتقم ، ونفم منه وعليه الصمى : عابه .

(٥) وقم (كوعد) نهر ورد أفصح رد . (٦) خزم البعير (كضرب) جعل في جانب أنفه

الخزامة تنزومه . (٧) أقن : أجدر . ويقال هوقين وقن كحذر وقن كبطل والأخير لا يجمع ولا يثنى

لأن أصله المصدر وصف به كعدل .

(٨) هلم أصلها لم بمعنى ضم واجمع كأن المنادى يقول ضم نفسك والهواء للتنبيه . والحجازيون

يستعملونه بلفظ الواحد له ولغيره ، وأهل نجد تلحق به الضمائر ويستعمل لازماً ومتعدياً : هلم الينا .

وهلم شركاءكم . (٩) لادوام لها .

(١٠) الغرور (بالفتح) الدنيا أو ما غرك أو يخس بالشیطان وهو أيضاً ما يتغرر به . وبالضم

مصدر غر أو جمع غار . (١١) عمر الرجل المكان (كنصر) أقام به . والعمارة (بالكسر)

ما يعمر به المكان وبالضم أجرة الإقامة به وبالفتح كل ما يلبس على الرأس .

تَذَرُوهُ^(١) الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .

ومن خطبه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِيمًا أَعْطَاكُمْ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَزْكُوا إِلَيْهَا . إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى وَالْآخِرَةُ تَبْقَى ، فَلَا تُبْطِرَنَّكُمْ^(٢) الْفَانِيَةُ وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ ، فَاتَرَوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى ، إِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ . اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ وَوَسِيلَةٌ عِنْدَهُ ، وَأَحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ الْغَيْرِ^(٣) ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ أَلَّا تَصِيرُوا أَخْرَابًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .



ومن كلام علي^(٤) في التحريض على القتال لما أغار سفيان^(٥) بن عوفٍ الأسدي على الأنبار^(٦) وقتل عامل علي عليها :

حَمْدُ اللَّهِ وَأُثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ،

(١) ذراه (كضرب) فرقه في الهواء .

(٢) البطر : كفر النعمة .

(٣) أى أحداثه التى تنير حال الميِّت ، قبل هو مفرد وجمعه أغيار ، وقيل جمع غيرة كعنب جمع عنبه .

(٤) علي بن أبي طالب ، هو ابن عم رسول الله وأحد كتاب وحيه وزوج ابنته فاطمة ولد بعد مولد النبي باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أول من آمن من الصبيان وشهد جميع الغزوات مع النبي إلا غزوة تبوك .

وقد بايعه الحجاز وامتنع عليه معاوية بالشام معتلا بالمطالبة بدم عثمان مقدما لها على تنصيب الخليفة ففضى على أيامه كلها في محاربه لمعاوية حتى اغتاله أحد الحوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ وهو أفصح الناس بعد رسول الله وأكثرهم علماً وزهداً وقد خرج عليه جماعة من جنده يخطبونه في التحكيم ويطالبونه بأن يقر على نفسه بالكفر ثم يتوب فيتأبوه ، فلم ينزل على رأيهم لاعتقاده أنه على الحق .

(٥) هو أحد بني غامد ، وهى قبيلة باليمن وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق .

(٦) بلدة على الشاطئ الشرقى للفرات .

فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ ^(١) أَلْبَسَهُ اللَّهُ الذِّلَّ ، وَسَيَاءَ ^(٢) الْخُسْفِ ^(٣) وَذِيَّتَ بِالصَّغَارِ ^(٤) . وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى حَرْبٍ هُوَ لَاءُ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ أَغْزُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْزُواكُمْ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ ^(٥) دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَحَاذَلْتُمْ وَتَوَا كَلْتُمْ ، وَثَقُلَ عَلَيْكُمْ قَوْلِي ، وَاتَّخَذْتُمْ مَوَهُ وَرَاءَكُمْ ظُهُرِيَا حَتَّى شُنْتُ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتِ ^(٦) .

هذا أخو غامدٍ قد بَلَغَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَتَلَ حَسَّانَ الْبَكْرِيِّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ^(٧) وَقَتَلَ مِنْكُمْ رِجَالًا صَالِحِينَ . وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ ، فَيَنْزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا وَرِعَاتَهَا ^(٨) ، ثُمَّ أَنْصَرَفُوا مَوْفُورِينَ ^(٩) ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمَةٌ ^(١٠) ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ . فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسَفًا مَا كَانَ عِنْدِي فِيهِ مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا . يَا عَجَبًا كُلِّ الْعَجَبِ !! حَبَّبْتُ الْقَلْبَ ، وَيَشْغُلُ الْفَهْمَ ، وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ ، مِنْ تَصَافُرِ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ حَتَّى أَصْبَحْتُمْ غَرَضًا تُرْمُونَ وَلَا تَرْمُونَ ، وَيَغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصَى اللَّهُ فِيكُمْ

(١) رغب (كفرح) فيه أراحه . وعنه كرهه . وإليه ابتهل . وغب (ككرم) اشتد نهمة

(٢) علامة . (٣) الذل . (٤) ديث : وصم ، والصغار : الذل .

(٥) عقر : وسط .

(٦) قال المبرد : قوله شات عليكم الغارات يقول صبت . يقال شنت الماء على رأسه أى صببته وكذلك يفسرها صاحب القاموس المحيط . والظاهر أن كلمة الغارة في قول الشاعر :

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا شَنُوا الْإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانًا

مفعول به بدليل أنها وقعت نائب فاعل في قول سيدنا علي لما حذف الفاعل . فأما قول الشيخ الحضري في حاشيته على ابن عقيل إن مفعول شن محذوف والإغارة مفعول لأجله فلا داعي له .

(٧) جمع مسلحة وهى الثغر حيث يمشى طروق العدو .

(٨) الحجل : الخلخال . القلب . السوار . الرعات جمع رعثة وهى الفرط .

(٩) تامين لم ينقص منهم أحد . (١٠) جرح .

وَتَرَضُونَ . إِذَا قُلْتُمْ أُغْزَوْهُمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذَا أَوَانٌ قُرٍّ وَصِرٌ ^(١) ، وَإِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ أُغْزَوْهُمْ فِي الصَّيْفِ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَةٌ ^(٢) الْقَيْظِ . أَنْظِرْنَا يَنْصَرِمِ الْحَرُّ عَنَّا ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفِرُونَ ، فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفْرٌ ، يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ، وَيَا طِفَامَ ^(٣) الْأَحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ^(٤) ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَى رَأْيِي يَا لِعَصِيَّانِ ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ : ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي الْحَرْبِ . لِلَّهِ دَرَاهِمُهُ ^(٥) !! وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي وَأَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ، وَلَقَدْ نَيْمْتُ الْيَوْمَ عَلَى السَّتِينِ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ (يقولها ثلاثاً) ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَمَعَهُ أَخُوهُ ، فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَا وَأَخِي هَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي » قَرُّنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَنَنْتَهِيَنَّ إِلَيْهِ وَلَوْ حَالَ دُونَهُ جَمْرُ الْغَضَى وَشَوْكُ الْقِتَادِ ، فَدَعَا لَهَا بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ .

ومن خطبه كَرَّمَ اللَّهُ وجهه حين استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل قال :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآخر المرسلين .
أما بعد : فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الثَّقَاتَيْنِ كَافَّةً ، وَالنَّاسُ فِي اخْتِلَافٍ ، وَالْعَرَبُ بِشَرِّ الْمَنَازِلِ مُضْطَبُّونَ لِلشَّنَانِ ^(٦) بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . فَرَأَبَ بِهِ اللَّهُ

(١) القر بالضم : البرد ، ويوم قر بالفتح وليلة قره كذلك باردة والقرة بالكسر البرد والرجل مفرور . والصر : الريح الشديدة كالصرصر .

(٢) حمارة القَيْظِ شدته ومثلها صبارة الشتاء .

(٣) الطفام : السفلة من الناس والواحد طفامة .

(٤) الحجال جمع حجلة وهي الستر : أى ذوات الخدود كناية عن النساء أو جمع حجل بكسر فسكون وهو الخلل .

(٥) الدر : النفس ، واللبن ، والعمل ، والمراد من نسبة الدر إلى الله بأحد هذه المعاني هو تعظيمه لأن المنيء إذا نسب إلى العظيم كان عظيمًا .

(٦) يقال : أضبن المنيء إذا جعله في ضبنه ، والضبن بكسر فسكون : الإبط وما يليه .

الثَّأْيُ^(١) ، ولَأْمٌ به الصَّدْعُ ، ورتَقَ به الفَتْقُ^(٢) ، وأَمَّنَ السَّيْلَ ، وَحَقَّنَ به الدَّمَاءَ ، وَقَطَعَ به العداوةَ المُورِغَةَ للقلوبِ^(٣) ، والضَّغَائِنَ المُخَشِّنَةَ للصدرِ . ثم قَبَضَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مشكوراً سَعْيُهُ ، رَضِيّاً عَمَلُهُ ، مغفوراً ذَنْبُهُ ، كريماً عند ربه نُزُلُهُ^(٤) ، فياها مصيبةٌ عَمَّتِ المسلمين ، وَخَصَّتِ الأَقْرَبِينَ ، وَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ ، فسار بسيرة رَضِيَّيْهَا المسلمون . ثم وَلَّى مُحَمَّدٌ ، فسار بسيرة أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، ثم وَلَّى عُمَانُ فَنَالَ مِنْكُمْ وَنَلْتُمْ مِنْهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ أَتَيْتُمُوهُ فَتَنَاتُمُوهُ . ثم أَتَيْتُمُونِي فَقَلْتُمْ لِي بَايَعْنَا . فَقُلْتُ لَكُمْ لَا أَفْعَلُ ، وَقَبَضْتُ يَدِي فَبَسَطْتُمُوهَا ، وَنَازَعْتُمْ كَفِّي فَجَذَبْتُمُوهَا^(٥) وَقَلْتُمْ لَا نَرْضَى إِلَّا بِكَ ، وَلَا نَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَيْكَ وَتَدَا كُتْمٌ^(٦) عَلَى تَدَا كُكِّ الْإِبِلِ الْهِيمِ^(٧) عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرُودِهَا ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْكُمْ قَاتِلِي ، وَأَنْ بَعْضَكُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ ، فَبَايَعْتُمُونِي وَبَايَعَنِي طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ^(٨) . ثُمَّ مَا لَبِثْنَا أَنْ اسْتَأْذَنَانِي لِلْعُمْرَةِ ، فَسَارَا إِلَى الْبَصْرَةِ^(٩) فَحَقَّقَتَا بِهَا الْمُسْلِمِينَ وَقَمَلَا الْأَفَاعِيلَ ، وَهَمَا يَغْلَمَانِ ، وَاللَّهُ أَتَى لَسْتُ بِدُونِ وَاحِدٍ مِنْ مَضَى . وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ . اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قِطْعَا قِرَابَتِي ، وَنَكْثَا بَيْعَتِي ، وَأَلْبَا عَلَى عَدُوِّي . اللَّهُمَّ فَلَا تُحْكِمْ لَهَا مَا أَبْرَمَا ، وَأَرْهِمَهَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا عَمِلَا وَأَمَلَا .

(١) رَأْبٌ : أَصْلَحَ . الثَّأْيُ بِفَتْحَيْنِ أَوْ فَتْحٍ فَسَكُونٌ : الْفَسَادُ .

(٢) لَأْمٌ (كَنَعٌ) أَصْلَحَ . رَتَقَ (كَقَتَلَ) سَدَّ .

(٣) وَضَرَ (كَتَعَبَ أَوْ وَعَدَ) صَدْرُهُ : امْتَلَأَ غَيْظًا .

(٤) النَّزْلُ بِضَمَّتَيْنِ : مَا يَهْبِئُ لِلضَّيْفِ .

(٥) الْكَفُّ مَوْثٌ

(٦) فِي اللَّسَانِ . تَدَاكَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ إِذَا ازْدَحَمُوا عَلَيْهِ .

(٧) الْهِيمُ : الْإِبِلُ الْمَطَاشُ وَاحِدُهَا أَهِيْمٌ وَالْأَتْنَى هِيَامٌ وَوَزَنَ هِيْمٌ فَعَلَ (كَقَفَّلَ) وَإِنَّمَا كَسَرَتْ الْمَاءَ لِمُنَاسَبَةِ الْبَاءِ

(٨) هُمَا ثَنَانٌ مِنَ الْعُمْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ وَالسَّيِّئَةِ أَهْلُ الشُّوْرَى وَكَلَامُهُمَا قَتَلَ سَنَةً سَنَةً وَثَلَاثِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ الْأَوَّلِ فِي وَقْعَةِ الْجَلِّ وَالثَّانِي عِنْدَ مَنْصَرِفِهِ مِنْهَا .

(٩) الْبَصْرَةُ : بِالْفَتْحِ أَوْ الْكُسْرِ أَوْ الْحَرَكِ أَوْ فَتْحِ الْبَاءِ مَعَ كَسْرِ الْعَادِ فِيهَا أَرْبَعُ لُغَاتٍ وَلَيْسَ فِي النَّسَبِ إِلَيْهَا إِلَّا الْفَتْحُ أَوِ الْكُسْرُ مَعَ سَكُونِ الْعَادِ .

بلاغات النساء في هذا العصر

للرأة كما تعلم منزلة بين العرب بقيت لها إلى ما بعد الإسلام ، ولقد أثارَت الحوادث التي جرت بعد رسول الله كوا من البلاغة فيهن ، فكم ترى لهن من قول ألُهب القلوب حمية يوم القتال ، وفَصَلَ الخطاب يوم الخِصام . وإنه ليروعك منهن جِهارة الرأى وصدق اليقين حين ترى التشيعات أو العلويات يَجِبْنَ معاوية ، وهو على سرير ملكه ، والحراس من حوله بالقول الجارح ، والتهمة الشنيعة ، ويذكرنه بما كان منه من خروج على الجماعة ، ونبذ للطاعة . ولقد فعان من ذلك ما لم يفعله كثير من الرجال الذين انقلبوا إلى معاوية بعد موت علي التماساً للدنيا ، واستدراراً للعطاء . أما هن فإذا اتفق لإحداهن أن تطلب حاجة فإنما تطلبها في عزة وأتفة ، باسم الحق المغتصب ، والوديعه المحتججة ، وإذا أردت أن ترتع من روض هذا الكلام في أحسن مرتع ، فعليك بكتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، فقد جمع من ذلك رى الصادى . وإنما نقل من ذلك أمثلة فنقول :

من كلام عائشة أم المؤمنين

بلغها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى أز قلة^(١) من الناس فلما حضروا أسدلت أستارها وعَلَّتْ وسادها ، ثم قالت :

أبى وما أَيْبَهُ ۝ ۱ ۝ أبى والله لا تَعْطُوهُ^(٢) الأيذى . ذلك طَوْذُ مُنِيف ، وظلٌّ مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أُنْجَحَ إِذْ أَكْذَيْتُمْ^(٣) ، وَسَبَقَ إِذْ وَنَيْتُمْ « سبق الجواد إذا استولى على الأمد » فتى قريش ناشئاً ، وكهفها كهلاً ، يَفُكُ عانيها ،

(١) الجماعة . (٢) لا تتناولوه . (٣) جبتهم .

وَيَرِيشُ^(١) مُمْلِقَهَا ، وَيَرَأَبُ شَعْبَهَا^(٢) ، وَيَلْمُ شَعْبَهَا ، حَتَّى حَلِيَّتَهُ قُلُوبُهَا ، ثُمَّ اسْتَشْرَهُ^(٣) فِي دِينِ اللَّهِ ، فَمَا بَرَحَتْ شَكِيمَتُهُ^(٤) فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى اتَّخَذَ بِفِنَائِهِ مَسْجِدًا يَحْيَى فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطَلُونَ . وَكَانَ رَحْمَةُ اللَّهِ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ ، وَقَيْدَ^(٥) الْجَوَانِحِ شَجِيءَ النَّشِيجِ^(٦) ، فَانْعَطَفَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » فَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رَجَالَاتُ قَرِيشَ ، لَحْنَتْ قِسِيهَا ، وَفَوْقَتْ سَهَايَا ، وَامْتَلَاوَهُ^(٧) غَرَضًا ، فَمَا قَلَّوَالَهُ صَفَاةٌ ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَافَةً ، وَمَرَّ عَلَى سَيْسَائِهِ^(٨) حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينَ بِجِرَانِهِ^(٩) ، وَأَلْقَى بَرَكَةً ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا ، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَلَا وَأَشْتَاتَا ، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ الشَّيْطَانُ رِوَاقَهُ ، وَمَدَّ طُنْبُهُ ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الْإِسْلَامِ ، وَمَرَجَ^(١٠) عَهْدُهُ ، وَمَاجَ أَهْلُهُ ، وَبُعِيَ الْغَوَائِلُ ، وَظَنَّتْ رَجَالُ أَنْ قَدْ أَكْتَبَ نَهْزُهَا^(١١) ، وَلَاتَ حِينَ الذِّى يَرْجُونَ ، وَأَتَى وَالصَّدِيقَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ؟ فَقَامَ حَاسِرًا مُشْمِرًا ، فَجَمَعَ حَاشِيَتَهُ ، وَرَفَعَ قَطْرِيهِ ، فَرَدَّ رَسْنَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ ، وَلَمْ شَعْنُهُ بِطَبِئِهِ ، وَأَقَامَ أَوْدَهُ بِنِقَافِهِ ، فَابْذَعَرَ النِّفَاقَ يَوْطُنُهُ ، وَاتَنَاشَ الدِّينَ فَنَعَشَهُ^(١٢) ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقَّ عَلَى أَهْلِهِ ، وَقَرَّرَ الرِّءُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا ، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْبِهَا ، أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ ، فَسَدَّ ثُلَمَتَهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ ، وَشَقِيقِهِ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدَلَةِ ، ذَاكَ ابْنَ الْخَطَّابِ

(١) يعطى ويفضل من راس السهم إذا جعل فيه ريشا ليكون أسد له وكذلك المحسن يقوى الفقير على الحياة .

(٢) الشعب: الصديق . (٣) جد واجتهد . (٤) أفتته وحجته . (٥) عليل .

(٦) الشجى الحزين . النشيج : صوت البكاء .

(٧) نصبوه . (٨) شدته . والسياء : عظم الظهر ، والعرب تضربه مثلا للشدّة .

(٩) الجران : الصدر وكذلك البرك . (١٠) اختلط .

(١١) أكتب : قرب . النهز : اختلاس المنيء والظفر به مبادرة . (١٢) رفعه .

لله أُمُّ حَفَلَتْ لَهُ ، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ ! ! لَقَدْ أَوْحَدَتْ بِهِ ، فَفَنَخَّ الْكَفَرَةَ وَذَبَّحَهَا ^(١) ، وَشَرَّدَ الشَّرَّكَ شَدْرَ مَدَرٍ ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَغَمَهَا ^(٢) . فَقَاتَتْ أَكَلَهَا ، وَلَفِظَتْ جَنِينَهَا ، تَرَاهُ وَتَصُدِّفُ عَنْهَا ، وَتَصُدِّي لَهُ وَيَأْبَاهَا ، ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فِيئُهَا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحِبَهَا . فَأَرْوِنِي مَا تَرْتَابُونَ ، وَأَيُّ يَوْمِي أَبِي تَنْقِمُونَ ؟ أَيُّومَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدِلَ فِيكُمْ ، أَمْ يَوْمَ ظَعْنِهِ وَقَدْ نَظَرَ لَكُمْ ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهَا . فَقَالَتْ : أَنْشُدُكُمْ اللَّهَ ، هَلْ أَنْكَرْتُمْ مِمَّا قُلْتُمْ شَيْئًا ؟ قَالُوا : اللَّهُمَّ لَا .

من كلام أم الخير بنت الحريش البارقية

وَفَدَتْ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهَا كَيْفَ كَانَ كَلَامُكَ يَوْمَ قَتَلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ؟ قَالَتْ لَمْ أَكُنْ وَاللَّهِ زُورَتُهُ ^(٣) قَبْلَ وَلَا رَوَيْتُهُ بَعْدَ . وَإِنَّمَا كَانَتْ كَلِمَاتُ نَفْسِي لِسَانِي حِينَ الصَّدْمَةِ ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أُحَدِّثَ لَكَ مَقَالًا غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلْتُ . قَالَ : لَا أَشَاءُ ذَلِكَ . ثُمَّ انْتَفَتْ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلَامَهَا ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا أَحْفَظُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَحَفَظِي سُورَةَ الْحَدِّ . قَالَ : هَاتِهِ . قَالَ نَعَمْ ، كَأَنِّي بِهَا تَقُولُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » . إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ ، وَأَبَانَ الدَّلِيلَ ، وَنَوَّرَ السَّبِيلَ ، وَرَفَعَ الْعَلَمَ ، فَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي عَمِيَاءٍ مُبْهَمَةٍ - وَلَا سُودَاءٍ مَدْهَمَةٍ . فَأَنَّى تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، أَفَرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمْ فَرَارًا مِنَ الرَّخْفِ ، أَمْ رَغْبَةً عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ؟ أَمَا سَمِعْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : « وَانْبَلَوْا نَكْمًا حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلَوْا أَخْبَارَكُمْ » . ثُمَّ

(١) صغرها . (٢) بعج الأرض وبغمها : شقها . (٣) أعدده .

رفعت رأسها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم قد عِيلَ الصبر ، وضَعُفَ اليقين ، وانتشرت الرغبة ، ويديك ياربُّ أزمّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وأتف القلوب على الهدى ، ورُدَّ الحقُّ إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصيِّ الوفيِّ ، والصدِّيق الأكبر . إنها إحْنٌ بِدْرِيَّة^(١) ، وأحقّادُ جاهلية ، وضغائنُ أُحْدِيَّة ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليُدرِك بها ثارات بنى عبد شمس . ثم قالت :

« قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنْتَهُونَ » صبراً معشر المهاجرين والأنصار . قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم . وكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كَحُمُرٍ مستنفرة ، فَرَّتْ من قَسْوَرَةٍ^(٢) . لا تَدْرِي أين يُسَلِّكُ بها من فِجَاجِ الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، و « عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ » حتى تَحِلَّ بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة . إنه والله من ضلَّ عن الحقِّ وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار فقال معاوية : والله يَأْمُ الْخَيْرِ ما أردت بهذا الإقتلى ، والله لو قَتَلْتُكَ مَا حَرَجْتُ^(٣) في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يا بن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه^(٤) . قال : هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون ؛ فقال : إِيَّاهُ^(٥) يَأْمُ الْخَيْرِ ، هذا والله أصلك الذي تَبْنِيْنِ عليه ، قالت : لكن الله يشهد « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » ما أردت بعثمان نقصاً ، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجات ، وما زال يسألها عن رجال وتجيبه ، ثم قال لها : قد أعفيتك وردّها مُكْرَمَةً إلى بلدها .

(١) إحْنٌ : جمع لإحْذ وهو الضغن . وبدرية نسبة إلى بدر أي لأنها تولدت من هذه الواقعة وبكذا قولها بعد ذلك ضغائن أُحْدِيَّة . (٢) القسورة : الأسد .
(٣) حرج : ارتكب حرجاً : أي إثمًا .
(٤) تريد بقولها من يسعدني الله بشقائه ، معاوية ، وفي الكلام التفات لأنه مبني أولاً على الخطاب . ثم صار إلى الغيبة . (٥) أمر بالسكوت .

كلام أروى بنت الحارث بن عبد المطلب

دخلت رحمها الله على معاوية بالموسم وهي عجوز كبيرة ، فلما رآها قال : مرحباً بك يا عمة . قالت : كيف أنت يا بن أخي ؟ لقد كفرت بعدى بالنعمة ، وأسأت لابن عمك الصعبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام . ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس الله منكم الجلود^(١) ، وأصعر^(٢) الخدود ، حتى ردّ الله الحق إلى أهله ، وكانت كلمة الله هي العليا ، ونبينا محمد هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون . فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ونصيباً وقدراً ، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً . فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم . وصار ابن عمّ سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : يا بن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، ولم يجمع بعد رسول الله لنا كمل ، ولم يسهل لنا وعراً ، وغايتنا الجنة ، وغايتكم النار . قال عمرو بن العاص : أيتها العجوز الضالة أقصرى من قولك وغضّي من طرّفك . قالت ومن أنت لا أم لك ؟ قال . عمرو بن العاص . قالت يا بن اللخناء النابغة^(٣) أتكلمني ؟ اربّع على ظلمك^(٤) ، واغن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادّعاك ستة من

(١) الجلود : جمع جدّ ، وهو الحظ .

(٢) أصعر الخدود : جعلها تميل عن الناس كبراً . والمعنى : أن الكبر غلبهم ، فلم يسلموا فتعس حظهم .

(٣) اللخناء : التي لم تحفض . النابغة : البهيّ .

(٤) أي أقم على ما فيك من ضعف وأبصر بمجرك واسكت على ما فيك من عيب ، وقد يسهل أخذ هذا المعنى إذا لوحظ أن الظلم التهمة والظالم التهم ، ويقال : ارق على ظلمك ، أي لا تتكاف إلا ما تطيق كما يصعد الظالم على سلم ، فيكون ذلك على قدر عرجه .

قريش كلهم يزعم أنه أبوك^(١). ثم كلمها مروان بن الحَكَم بمثل كلام عمرو، فردت عليه بمثل ما ردّت به على عمرو، فقال لها معاوية : يا عمة ، اقصّدي قصّدت حاجتك ، فقالت حاجتي أن تأمر لي بألفي دينار ، وألفي دينار ، وألفي دينار ، فقال : ما تصنعين بها ؟ قالت أشتري بألفين عينا خَرَّارة في أرض خَوَّارة تكون لولد الحرّث بن عبد المطلب ، وبألفين أزواج فتيان المطلب من أكفائهم ، وبألفين أَسْتَعِين على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام . فقال نعم الموضع وضعتها ، وأمر لها بستة آلاف دينار ، وقال لها يا عمة ! أنفقي هذه فيما تحبين ، فإذا احتجت فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صَفَدك ومعونتك إن شاء الله .

نهج البلاغة

تحقيق نسبته إلى عليّ كرم الله وجهه

جمع الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ما نسب إلى عليّ كرم الله وجهه من خطب وكتب وحكم ، في كتاب سماه : « نهج البلاغة » وفي هذا القول ضربان من الشك : أولهما هل الجامع لذلك هو الرضى كما قدمنا أو أخوه المرتضى ؟ قال ابن خلكان في ترجمة المرتضى : وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : أهو جمعه أم جمع أخيه الرضى ؟ وقد قيل إنه ليس من كلام عليّ ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه والله أعلم ، كما نصّ الحافظ الذهبي في كتاب ميزان الاعتدال على أنه مكذوب عليه جزماً .

(١) كانت أم عمرو بن العاص من العواصر اللاتي ينشاهن الرجال ، وكنّ إذا ولدت لإحدها من ولدٍ نسب إلى من هو أدنى شَبهاً به من هؤلاء الذين يشبهونها ، فلما ولد عمرو نسب إلى العاصي لشبهه به .

أما أسباب الشك في نسبة هذا الكلام إلى عليّ فترجع إلى ما يأتي :

١ - خلوة الكتب الأدبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضى من كثير مما في نهج البلاغة .

٢ - ما ورد فيه من فكرة عويصة ونظرة دقيقة مما لا يصح نسبته إلى عصر عليّ

٣ - إطالة الكلام إلى الحد الذي لم يؤلف إذ ذاك كما في عهد الأئمة النخعي .

٤ - ما في النهج من قول جراح وشم صريح للصحابة من مثل ماورد في الشقشقية مما لا يصح قبوله من مثل عليّ في الصحابة رضى الله عنهم .

٥ - الأسلوب الصوفي والعبارات التي لم تعهد إلا في أزمان متأخرة عن زمن الإمام جرت على ألسنة المتكلمين ، ومنها ما هو خطأ لغوي لا يصح نسبته إلى عصر الإمام .

ردّ هذه الشبهة

أما الشبهة الأولى : فنقول في شأنها : إن جمع كلام بليغ من البلاء في كتاب واحد لم تجربه العادة قبل عصر الشريف الرضى إلا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أما من عداه فقد كان كلامهم يرد في المناسبات مفرقاً في كتب التاريخ وغيرها . ولقد كان كلام عليّ مع ذلك مذكوراً معروفاً بالكثرة ، فقد قال المسعودي في مروج الذهب : « والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثلاثون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس عنه ذلك قولاً وعملاً » .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين بعد أن أورد خطبة قال إنها لمعاوية في نفر من قريش تباشروا بموته : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفي الاخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية

والخوف أشبه بكلام عليٍّ وبمعانيه وحاله منه بحال معاوية . . . وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم .

وهذه الخطبة ذكرها الشريف في النهج : (ج ١ ص ٨٥) ، ومنها :
 « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ^(١) ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ ^(٢) ، يُعَدُّ فِيهِ
 الْحَسَنُ مَسِيئًا ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ عُتُوًّا ، وَلَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ،
 وَلَا تَتَخَوَّفُ قَارِعَةٌ حَتَّى تَحُلَّ بِنَا ، فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ : مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُمُ
 الْفَسَادَ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ ، وَكَلَالَةً ^(٣) حِدَّةٍ ، وَنَضِيضُ ^(٤) وَفَرِهِ ^(٥) . وَمِنْهُمْ الْمُصَلِّتُ لِسَيْفِهِ ،
 وَالْمَلْعَنُ بِشِرِّهِ ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجُلُهُ ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ^(٦) ، وَأَوْبَقَ ^(٧) دِينَهُ ، لِحُطَامٍ
 يَتَنَهَرُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ ^(٨) يَقُودُهُ ، أَوْ مَنْبَرٍ يَفْرَعُهُ ، وَلِبَاسٍ الْمُتَجَرُّ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ
 ثَمَنًا ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا ، وَمِنْهُمْ . . . » .

ثم قال الشريف : « أَقُولُ وَهَذِهِ الْخُطْبَةُ رُبَّمَا نَسَبَهَا مِنْ لَا عِلْمَ لَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ ،
 وَهِيَ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي لَا يَشْكُ فِيهِ ، وَأَيْنَ الذَّهَبُ مِنَ الرَّغَامِ ،
 وَالْعَذْبُ مِنَ الْأَجَاجِ . وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الدَّلِيلُ الْخَرِيتُ ، وَقَدَّه النَّاقِدُ الْبَصِيرُ عَمْرُو
 ابْنُ بَحْرِ الْجَا حِظْ » .

أما الشبهة الثانية : وهي استكثار هذه الحكمة ، والنظرة الدقيقة على عليٍّ
 كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَإِنَّهَا مُرَدُّوَةٌ إِذَا عَرَفْنَا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ حَصَافَةِ الرَّأْيِ الَّتِي اسْتَفَادَهَا
 عَنْ عَشْرَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَهُوَ مُشْرِقُ النُّورِ الْإِلَهِيِّ ، وَلَا يَسْتَبْعَدُ ذَلِكَ مِنْ عَرَفِ عَشْرَةِ
 عَلَى لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْذُ الصَّغَرِ ، وَمَلَا زِمَتَهُ لَهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ فِي غَزْوَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِ
 إِلَّا غَزْوَةَ تَبُوكَ ، فَقَدْ خَلْفَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِهِ وَقَدْ عَرَفَ عَلَى بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِالذِّكَاةِ ،

(١) جائر . (٢) كافر . (٣) ضعف . (٤) قلة ماله .

(٥) أشرط نفسه لكنا: أعدها ، والمراد هنا للمر . (٦) أهلك .

(٧) الطائفة من الخيل .

وفناذ البصيرة ، حتى كانوا يصذرون عن رأيه ، وهو الذى قال فى شأنه عمر : « لولا على هلاك عمر » ، وقال : « لَا يُفْتَنُّ أَحَدٌ فى المسجد وعلى حاضر » ، وقبل ذلك قال رسول الله : « أقضاكم على » ، ودعاه له حين بعثه إلى اليمن قاضياً فقال : « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما استفاده من التجارب أيام خلافته وما درس من طباع الناس وأحوالهم ، حكماً بأنه جدير بأن يكون بالمشابة التى أضافوها إليه من بعد النظر وقوة الفراسة ، وكيف نستبعد على أن يكون كما وصفنا ، وهذا عمر بن الخطاب قد دوخ الممالك بسياسته التى كانت موضع عجب المؤرخين .

أما الشبهة الثالثة : شبهة الطول فى عهده للأشتر النخعي الذى بلغ ٢٧٥ سطرًا وفى خطبته المسماة بالقاصعة البالغة ٢١٧ سطرًا ، وخطبة الأشباح البالغة ١٧٠ سطرًا ، والتى يدل كلام الشريف الرضى فيها أنه لم يوردها كلها ، إذ يقول فى ثناياها . . . ومنها . . . ومنها . . .

فالذى نقوله على الجملة : إن الطول ليس مستبعداً على فصاحة على التى صارت مضرب الأمثال ، وإذا وهب المرء ملكة البيان سهل عليه القول ، فإذا اتجهت نفسه إلى القول أفاض فيه ، وإذا أضفنا إلى ذلك زهد على وانصرافه عن زخارف الدنيا ، واهتمامه بصلاح الناس ، وإقامة عمود الدين ، سهل علينا إدراك الداعى إلى هذه الكثرة فى كلامه والطول فيه ، فإذا أطال على فى خطبه ، فلأن الوعظ أحب الأمور إلى نفسه لأنه يعظ نفسه حين يعظ الناس ، ويحرك قلبه حين يحرك القلوب ، ثم هو يرى من العبادة لله أن يهذى الناس إلى الحق بعد ما بدا منهم الانصراف عن الدين ، فهو يرى فى ذلك نوعاً من الجهاد الذى وقف حياته عليه ، فليجاهد بلسانه حين يستريح من الجهاد بيمينه ، وليخط ذلك بذلك حين يحتاج إلى التذكير فى مواطن القتال . فلو أن علياً ظل متكلماً فى هذا النوع الذى كثر المروى عنه فيه ما كان ذلك كثيراً من مثله .

وشبهة الناس في عهد عليّ للأشتر خاصة أن الإمام عهد قبل ذلك إلى غير الأشتر فلم يطل ، وأضافوا إلى ذلك أن الأشتر كان من أصحاب عليّ الملازمين له ، وكان ساعده الأيمن في صفين ، فكأنه كان في غنى عن هذه النصائح الطويلة ، ولكننا نقول : إن العهد إلى الأشتر لا يقصد به وحده ، بل إنه يتناول جميع من معه من عماله وأعوانه ، والكتاب بعد ذلك يعدّ دستوراً للعمل في القضاء والجباية وغيرها . وأما أن عليّاً لم يعهد لغير الأشتر بمثل هذا الطول ، فلعلّ ذلك قد ضاع فيما ضاع من آثار عليّ الكثيرة ، أو لعلّ الناس لما رأوا العهود متقاربة المعنى ، احتفظوا بمثل منها لعله أجمع لمعانيها .

ولا نستبعد مع ذلك أن يكون الشيعة نسبوا لعلّيّ هذا العهد ليدلوا على فضله ، وأنه لم يفته في عصره الأول ما تنبه الناس في عصور متأخرة كما فعل طاهر ابن الحسين في عهده لابنه عبد الله حين ولّاه المأمون الرقّة ومصر وما يليهما ، فلما اشتهر هذا العهد شهرة عظيمة حرك ذلك من رغبة الشيعة في نسبة مثله إلى مثلهم الأعلى في الفصاحة والتدبير .

أما الشبهة الرابعة : وهي ما في النهج من سبّ صريح للصحابة ، فنقول في شأنها : إنه قد انحصر ما ورد من سبّ عليّ لعمر وعثمان وبعض الصحابة في خطبته المعروفة بالشُّشُتِيَّة (ج ١ ص ٣٤) وورد ذمه لمعاوية وعمر بن العاص في كتب أرسل بها إليهما ، وفي بعض خطبه يعرض بهما أو بأحدهما .

والكلام في نحل الشُّشُتِيَّة أو تحقيق نسبتها إلى عليّ قد تحدّث به المتقدّمون ، فقد روى ابن أبي الحديد ما يؤيد نسبتها إليه في كلام طويل أثبت إليه أنها مروية في كتب أخرى قبل أن يولد الرضى ، ولكن نفيه لاختراع الشريف لها لا ينفي أنها مدسوسة على عليّ قبل ذلك .

أما نحن فنعرض عليك المقام الذى قيلت فيه هذه الخطبة . قالها عليّ عليه السلام بعد أن بايعه الناس فأقبلوا إليه كعرف الضبُع (كما يقول) حتى وُطئ الحسنان ، وشقّ عطفه من كثرة الزحام ، فلما نهض بالأمر يريد إصلاح الفاسد ولم الشبّع لم

يجد من القلوب ثباتا معه على الحق ، فبلغ منه اليأس كل مبلغ ، وهمّ بخلع نفسه لولا لزوم البيعة في عنقه ، وذلك إذ يقول : « أَمَّا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِبَاطَةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَعْبَ مَظْلُومٍ ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا »

فجدير بك أن تعتبر هذه الخطبة نفثة مصدور ، وأنة مكولوم ، طال عناؤه فيها يحاول من رد الكيد ، وخدع الحرب .

تنبئ الخطبة على معنى عام ، هو أن الخلافة فانت عليا في أول أمرها ، فلما صارت إليه كانت الأمور قد اضطربت ، والنفوس قد تدارت ، فلم يتحقق غرضه من الإصلاح ، وحسن القيام على هذا التراث المستخلف عن رسول الله . وينبغي أن تؤمن يقينا أن طلب هؤلاء الصحابة الكرام للخلافة وحرصهم عليها ، لم يكن لغرض دنيوى ، وإنما طلبوها ليقيموا عمود الدين ، ويحققوا العدالة بين الناس . وفي سيرهم جميعا ما يدل على أنهم بذلوا ثروتهم ، وأفنوا جهدهم ، وخالطوا الناس نهارهم ، وعشوا عليهم ليلهم التماسا لتحقيق العدالة وإرضاء الله .

لذلك لا نستبعد أن يكون على قد أسف على حرمانه من الخلافة أيام كان يستطيع أن ينفع ويثر خيرا للإسلام ، فنستبيح له أن يقول في أول هذه الخطبة : أما والله لقد تقيمتها فلان (يريد أبا بكر) ، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي » ، وفي تأخر على عن مبايعة أبي بكر (كما يحدثنا التاريخ) ما يساعد على أن عليا يستجيز أن يقول هذه الكلمة .

ثم هو يقول في الخطبة أيضا : « حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى فلان بعده (يريد عمر) .

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمَ حَيَاتِ أَخِي جَابِرٍ^(١)

(١) حبان : سيد من بنى حنيفة كانت له حظوة عند ملوك الفرس ونعمة واسعة وكان الأعشى ميمون بن قيس قاتل هذا البيت بنادمه . ومعنى البيت : أن فرقا كبيرا بين يومه وهو مسافر يماني متاعب السفر ، وبين يوم حبان في رفايته ونعمته

فيا عجباً ! بينا هو يستقيها في حياته ، إذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشد ما تشطراً ضرعها
فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مشها .

ولا يستوقفنا من هذه الفقرة إلا قوله : « لشد ما تشطراً ضرعها » ، فهي كلمة
صريحة في أن الخليفين قد تقاسما النفع في تولى أمر المسلمين ، فجعلوا الخلافة ناقة ، أخذ
كل شطراً من ضرعها . ورأى أن هذه الجملة مقحمة بين الكلام بدليل أن ما بعدها
معطوف بالقاء على ما قبلها ، وهي لا تسمح بمثل هذا الاعتراض ، وإذاً يكون على
بريثاً من هذه التهمة التي لا يستسيغ إيمانه وعدالته أن يلصقها بالإمامين . وأما تعجبه
من جمع أبي بكر بين الاستقالة منها أول توليه ، وحرصه على اختيار عمر لها بعد وفاته ،
فتلك حقيقة لا ينكرها أحد . وأما قوله : فصيرها في حوزة خشناء ، فذلك أمر مشهور
متعالم ، فإن عمر كان شديداً ، وقد أعلن ذلك في خطبه ، وفي الخطبة بعد ذلك أقوال
لا شك أنها مبدوسة على علي كقوله في وصف عمر : « فَمَنِّي النَّاسُ يَحْبِطُ وَشِمَاسٍ ،
وتلوئن واعتراض » ، وقوله في حديث الشورى : « فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لُضْغَنَهُ ، وَمَالَ
الْآخِرَ لُضْغَرِهِ » يعنى بالأول طلحة ، وبالثاني عبد الرحمن بن عوف ، وكان طلحة قد
وهب حقه لعبد الرحمن بن عوف لانحرافه عن علي ، وكان عبد الرحمن صهراً لعثمان ،
لأن زوجته أخت عثمان من أمه .

أما ما كان من علي في شأن معاوية ، وعمر بن العاص من كلام يعرض فيه بهما ،
أو بأحدهما ، أو كتاب يوجهه إلى أحدهما ، فذلك تقبله من علي فيهما ، وتقر أنه يقوله
ولا حرج عليه في ذلك ، لأن علياً كان يعتبرهما شاقين لطاعة المسلمين ، خارجين على
جماعتهم ، مريقين للدماء في غير حق ، ومن كان مثلهما يعتبر كافراً محارباً لله ورسوله ،
فكيف يستكثر من علي شتم أو ذم أو لعن لأحدهما ، وقد ثبت أنه هو الذي بدأ
بلعن معاوية على المنابر بعد مكيدة التحكيم ، ففعل مثله معاوية ، وصارت بدعة في
جميع خلفاء بني أمية حتى أبطلها عمر بن عبد العزيز .

ومن كلام عليّ فيهما قوله في ردّ كتاب محمد بن أبي بكر حين أخبره بنزول عمرو بن العاص قريباً من مصر :

« وقد قرأت كتاب الفاجر بن الفاجر معاوية ، والفاجر بن الكافر عمرو ، المتحايين في عمل المعصية ، والمتواقفين المرتشيين في الحكومة » .

وأما الشبهة الخامسة : وهى العبارات التى لم تعهد إلا فى أزمان متأخرة عن زمن عليّ ، فهى شبهة قويّة ، إذ نرى بين كلامه قوله : « ولا حدّهُ من كيفه » فإنه لم يعهد إلى أيام عليّ اشتقاق فعل من كلمة كيف الجامدة ، وكذلك قوله : « كلّ قائم فى سواه معلول » ، قال صاحب القاموس : « وأعله الله فهو مُعلّلٌ وعليل ، ولا تقل معلول ، والمتكلمون يستعملونها ولست منها على ثلّج » ، وقوله : « لا يجرى عليه السكون والحركة ، وكيف يجرى عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه إذاً لتفاوتت ذاته ، ولتجزأ كُنْهُهُ ، ولا تمتنع من الأزل معناه » ، وكلمة الأزل غير عربية . قال فى شفاء الغليل : « أزلى والأزل وأزليتة كله خطأ لا أصل له فى كلام العرب ، وإنما يريدون المعنى الذى فى قولهم لم يزل عالماً ، ولا يصحّ ذلك فى اشتقاق ولم يسمع ، وإن أولع به أهل الكلام » وكذلك قوله فى القاصعة : « الذى نازع الله رداء الجبريّة » قال فى المصباح : « الجبر خلاف القدر ، وهو القول بأن الله يجبر عباده على فعل المعاصى وهو فاسد ، وتعرف أدلته من علم الكلام ، وينسب إليه على لفظه ، وإذا قيل قدرية وجبريّة جاز التحريك للازدواج » ، وظاهر من المصباح أن الجبر من اصطلاح المتكلمين .

ونحن أمام هذه الشبهة لا نستطيع إنكار أن كلام عليّ تناولته الأقلام على مرور الأيام بالزيادة حتى دخلت هذه التعابير إن لم تكن خلقت أيام عليّ ، وهذا شأن كلّ كلام نال إعجاب الناس كما جرى لكتاب كريمة ودمنة مثلاً ، فإن عبارات فيه وأبواباً برمتها زيدت على توالى العصور حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، ولا يمنع هذا أن يكون نهج البلاغة فى جلته هو كلام عليّ الذى لا شكّ فيه .

الكتابة في هذا العصر

عرفت في دروس السنة الماضية تاريخ الخط العربي ، وأنه صار إلى مكة من طريق الحيرة والأنبار على يد حرب بن أمية ، وقد تعلمه من بشر بن عبد الملك ، الذي قدم معه إلى مكة وتزوج ابنته الصهباء . فجاء الإسلام وفي أهل مكة كتاب ولكنهم بضعة عشر رجلا ، وأغلبهم ممن كانوا أصحاب رسول الله في الإسلام .

كان الكتاب بمكة لما جاء الإسلام سبعة عشر رجلا ، منهم : عمر ، وعلي ، وعثمان ، وأبوسفيان ، وابناء معاوية ويزيد وغيرهم . وكان من النساء قليل ، كحفصة ، وأم كلثوم ، وكانت عائشة تقرأ ولا تكتب .

وكان بالمدينة أول عهد الإسلام أحد عشر كاتباً ، منهم زيد بن ثابت وقد تعلم فيما بعد كتابة اليهود بأمر رسول الله كما تعلم السريانية بأمره أيضاً في سبعة عشر يوماً .

وما زال عدد الكتاب يكثر بحث رسول الله حتى صار كتابه عليه الصلاة والسلام نيفاً وأربعين .

وكان كتاب رسول الله نوعين : كتاب وحى ، وكتاب أعمال ؛ ومن كتاب الأعمال كما رواه القضاى فى كتابه عيون المعارف : الزبير بن العوام ، وجهم بن العسل ، وكانا يكتبان الصدقات ، وحذيفة بن اليمان وكان يكتب خرص النخل ، والمغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير ، وكانا يكتبان التداين والمعاملات .

وبعد غزوة بدر كثر الكتاب من المسلمين بالمدينة ، لأن النبى قبل فى فداء الأسير من قريش إذا كان كاتباً تعليم عشرة من أولاد المسلمين ، وبذلك حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمية كما كان يحارب الوثنية . وصار هؤلاء الكتاب ذخيرة الدولة ، فقد كتبوا القرآن ، واستخدمهم الخلفاء فى رسائلهم إلى العمال والقواد ، وفى وصاياهم إلى قضائهم ، ومناشيرهم إلى عامة المسلمين من أهل الأمصار ، وفى مصالحتهم لأهل البلاد

المفتوحة . وقد اجتمع من هذه الرسائل القدر الجمّ ، لأن نشاط المسلمين في الفتح استوجب ذلك .

وبقيت الكتابة عمل الخليفة أو العامل يكتب أحدها بيده ، أو يختار من جلسائه من يملئ عليه ، فلم تصر صناعة يؤجر عليها الكاتب ، أو يستوزر من أجلها كما صار الأمر كذلك فيما بعد . ويتجلى في رسائل هذا العصر طابعها السهل ، وقصدها إلى الغرض ، وبعدها من التكلف ، وميلها للإيجاز ، وخلوها من عبارات التفتيح ، فما عرفوا ضمير الجمع إلا له ، فيقولون أنت وأنا ، ويكتب الوالى أو القائد إلى الخليفة ، فيقدم اسمه عليه ، فيقولون مثلاً : من سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر .

ومن أمثلة إيجازها عهد أبي بكر إلى عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد أبو بكر إلى المسلمين ، أما بعد : فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً .. حتى لقد كان من رسائلهم ما لم يتجاوز جملة واحدة ، ككتاب خالد بن الوليد إلى عياض ابن غنم ، وكان قد استنجده وهو محاصر بدومة الجندل .

من خالد بن الوليد إلى عياض :

« إياك أريد » .

وهو أخصر كتاب عرف في الأدب العربى .

وكان النبىّ قبل نزول القرآن يبدأ رسائله بقوله : باسمك اللهم ، على حين كانت قريش تقول : باسم اللات أو اسم العزى ، فلما نزل القرآن صار المسلمون يبدأون رسائلهم بالبسملة ، ثم بقولهم : من فلان إلى فلان ، ثم يعقبون ذلك غالباً بقولهم : « السلام عليكم ، أو السلام على من اتبع الهدى » ، ثم يثنون بالحمد في قولهم : « إني أحمد الله إليك » ، ثم يتخلص الكاتب إلى غرضه بذكر أم بعد أو بدونها ، ويختتمون الرسالة غالباً بإحدى صيغتي السلام السابقتين ، وقد يتركون شيئاً من هذه اللوازم ، والمثال الذى يجمعها كلها كتابه عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد ، وكان قد بعثه إلى بنى الحارث فأجابوه إلى الإسلام ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد : سلام عليك ،
فإني أحمّدُ إليك^(١) الله الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ كتابك جاءني مع رسولك
يُخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه
من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ قد هداهم
الله يهديه ، فبشّرهم وأنذرهم ، وأقبل ولّيُقبل معك وفدّهم ، والسلام عليك
ورحمة الله وبركاته . »

نماذج من كتابة هذا العصر

من وصاياهم إلى أولياء عهدهم وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب :
« إني مُستخلفك من بعدى ، ومُوصيك بتقوى الله ، إنّ الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ،
وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبلُ نافلةً حتى تُؤدّى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين
من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحقّ^(٢) لميزان
لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلًا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه
يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن
يكون خفيفًا ، إنّ الله ذكّر أهل الجنة فذكّرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن
سيئاتهم ، فإذا ذكّرتهم قلت : إني أخاف ألا أكون من هؤلاء ؛ وذكّر أهل النار
فذكّرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكّر حسناتهم ، فإذا ذكّرتهم قلت : إني لأرجو
ألا أكون من هؤلاء ، وذكّر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا ،

(١) أى أحمد الله ملك أى أنت محمد وأنا أحمد أو أحمد الله حمداً أشهدك عليه أو أوجهه
إليه في مقابلتك .

(٢) يقال حق على أن أفعل كذا (بالبناء للفاعل) وحق لى أن أفعل كذا (بالبناء للمفعول) .

وَلَا يَتَمَنَّيْ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يُلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَإِذَا حَقَّتْ وَصِيَّتِي
هَذِهِ فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَهُوَ آتِيكَ ، وَإِنْ ضَيِّعْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ
غَائِبٌ أَبْغَضُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ . وَلَسْتَ بِمُعْجِزِ اللَّهِ » .

ومن إرشادهم لقضائهم كتابُ عُمَرَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَقَدْ وَلاَهُ الْقَضَاءُ :
« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ،
سلام عليك ، أما بعد : فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ^(١) . فَافْتَهُم ^(٢)
إِذَا أَدُلِّيَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمُ بَحْقٍ لَا نَفَاذَ لَهُ ، أَسَ ^(٣) بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ ،
وَعَدْلِكَ ، وَمَجْلِسِكَ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ ^(٤) ، وَلَا يَيْئَسَ ضَعِيفٌ مِنْ
عَدْلِكَ ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَالصَّلَاحُ ^(٥) جَائِزٌ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صَلَاحًا أَحَلَّ حَرَامًا ، أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا . لَا يَمْنَعَنَّكَ ^(٦) قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ الْيَوْمَ
فَرَاغَتْ نَفْسُكَ ، وَهُدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ .
وَمَرَّاجِعُهُ الْحَقُّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ . الْفَهْمُ لِفَهْمٍ ^(٧) فِيمَا يَتَلَجَّلِجُ ^(٨) فِي صَدْرِكَ
مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . ثُمَّ اغْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ فَتَقِسْ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ ،

-
- (١) يريد بالفريضة المحكمة ما حده الله في كتابه . وبالسنة المتبعة ما بينه الرسول وسار عليه .
(٢) يريد أن من يدلي بحجته لا ينفيه قوله مهما كان مصيبا إذا لم ينتبه له القاضى ويعقل ما يقوله حتى
يحسن الحكم ويرد الحق إلى صاحبه .
(٣) أى سوى بين الناس ، وهو أمر من آسى على وزن فاعل (٤) الحيف : الظلم .
(٥) اتفقت القوانين على أنه لا قيمة للصالح إذا خالف القانون فإنها لم توضع إلا لأنها الصالح العام
فإذا خولفت اضطرب الأمر .
(٦) يريد أن القاضى لا ينبغي أن يتعبد بحكم حكمه فإذا ظهر له خطأه كان عليه أن يحكم بما تجدده
في نفسه من رأى . وقد حدث أن عمر حكم في حادثة بحكم ثم حكم في غيرها بغيره ولم يغير
السابق وقال ذاك على ما قضينا وهذا على ما قضى .
(٧) هذا أصل ثالث من أصول الحكم وهو القياس ، ومن هنا اشتروا قديما في القاضى أن
يكون مجتهدا لا مقلدا .
(٨) اللجج كالتلجج : التردد .

وَأَعِزُّهُ إِلَى أَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهْهَا بِالْحَقِّ، وَاجْعَلْهُ^(١) لِمَنْ أَدْعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهَى إِلَيْهِ . فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى . والمسلمون عدولٌ بعضهم على بعضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ ، أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ ، أَوْ خَلِينًا فِي وِلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ . إِيَّاكَ وَالْفَلَقَ^(٢) وَالضُّجْرَ وَالتَّأْدَى بِالْخُصُومِ وَالتَّنَكَّرَ عِنْدَ الْخُصُومَاتِ ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُعْظَمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحَسِّنُ الذُّخْرَ . فَمَنْ صَحَّتْ نَيْتُهُ وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ كِفَاهُ اللَّهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ تَخَلَّقَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَاكُهُ اللَّهُ . فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ ؟ وَالسَّلَامُ » .

وَمِنْ رِسَائِلِهِمْ إِلَى أَمْرَاءِ الْأُمُصَارِ مَا كَتَبَهُ عُمَانُ إِلَى عَمَالِهِ حِينَ وَلِيَ الْخِلَافَةَ :
أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْأُمَّةَ أَنْ يَكُونُوا رِعَاةً وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمْ^(٣) أَنْ يَكُونُوا جُبَاةً . وَإِنْ صَدَرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خُلِقُوا رِعَاةً وَلَمْ يُحَلِّقُوا جُبَاةً ، وَلَكَيْوَشَكَنَّ أَتَمَّتْكُمْ أَنْ يَصِيرُوا جُبَاةً وَلَا يَصِيرُوا رِعَاةً . فَإِذَا عَادُوا كَذَلِكَ انْقَطَعَ الْحَيَاءُ وَالْأَمَانَةُ وَالْوَفَاءُ . أَلَا وَإِنْ أَغْدَلَ السَّيْرَةَ أَنْ تَنْظُرُوا فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَفِيَا عَلَيْهِمْ فَتَعْطُوهُمْ مَا لَهُمْ ، وَتَأْخُذُوهُمْ بِمَا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ تَعْتَنُوا بِالذِّمَّةِ^(٤) فَتَعْطُوهُمْ الَّذِي لَهُمْ وَتَأْخُذُوهُمْ بِالَّذِي عَلَيْهِمْ . ثُمَّ الْعُدُوَّ الَّذِي تَتَنَابُونَ فَاسْتَفْتَحُوا^(٥) عَلَيْهِم بِالْوَفَاءِ .

وَمِنْ مَنَاشِيرِهِمْ إِلَى عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَتَبَهُ عُمَانُ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا بَلَغْتُمْ مَا بَلَغْتُمْ بِالْإِقْدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ فَلَا تَلْفَنَنَّكُمْ الدُّنْيَا عَنْ أَمْرِكُمْ . فَإِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَائِرٌ إِلَى

(١) يشير إلى جواز تأجيل الحكم لمن طلب ذلك من الخصوم لسبب معقول كغيبه اليهود مثلاً .

(٢) هكذا رواها البرد ولم يروها بالشاف (الفلق) وقال في معناها يقال في سوء الخلق رجل غلق

(كحذر) وأصل ذلك من قولهم أغلق عليه الأمر إذا لم يتضح ولم يفتح . اهـ . ولا شك أن

سوء الخلق من ضيق الفطن وانعدام الروية والفهم الصحيح للأمر .

(٣) تقدم إليه : أمره . (٤) أي أهل الذمة .

(٥) استفتح عليه : استقوى واستعان .

الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وُبُوغِ أَوْلَادِ السَّبَايَا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن^(١) . فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الْكُفْرُ فِي الْعُجْبَةِ^(٢) . فَإِذَا اسْتَعْجَمَ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ تَكَلَّفُوا وَابْتَدَعُوا .

ومن مصالحتهم لأهل البلاد المفتوحة ما كتبه عمر إلى أهل إيلياء « بيت المقدس » .

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، ومقبراتهم وبريئتها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا شهدتهم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الزوم ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الزوم ، ويحلب بيعتهم وصلبانهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم .

عمر بن الخطاب

[مولده ونسبه] : قال عمر عن نفسه : ولدت قبل حرب الفجار الأعظم بأربع سنين . فيكون قد ولد قبل مبعث النبي بعشرين سنة ، لأن حرب الفجار كانت قبل

(١) المراد بقراءة هؤلاء القرآن : انتشار الإسلام فانهم لا يقرءونه حتى يكون الإسلام قد انتشر .
(٢) العجبة : عدم الافصاح . والأعجم والأعجمي : من لا يفصح . والعجم بالضم والعجم بالتحريك : خلاف العرب من أى جنس كانوا .

البعثة بنحو ست عشرة سنة ، وهو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح -
ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب وهو الأب الثامن للنبي .

وأمه حَنْتَمَة بنت هاشم بن المغيرة ، وليست بنت هشام بن المغيرة إذ يتبع هذا أن
يكون أبو جهل خاله وليس كذلك .

[خَلَقَهُ وَخُلِقَ] : كان عمر رجلاً طوالاً جسيماً أبيض ، شديد حمرة العينين ،
أصلم ، في عارضيه خفة ، كثير شعر السبلة ، أعسر يسراً ، « أضبط » ، شديد الوطء
إذا مشى ، جهر الصوت إذا تكلم ، وكان قليل الضحك ، مقبلاً على شأنه ، شجاعاً حازماً
أيداً ، شديد العارضة ، مهيب الجانب ، ذكى الفؤاد .

[حياته في الجاهلية] : كان في بدء أمره يرعى غنماً لأبيه ، ثم اشتغل بالتجارة ،
وهي عمل الأشراف من قريش .

ولقد عرفت له قريش في الجاهلية شدة عارضته ، وشجاعة قلبه ، وذكاءه ،
وحسن بيانه ، فجعلته السفير بينها وبين قبائل العرب في المفاخرات والمنافرات والمصالحات
والحروب . وذلك شرف عظيم لا يناله إلا من كان كابن الخطاب .

ولقد جاء الإسلام فلقى النبي وأصحابه عنتاً شديداً من عمر ، ومن كل من كان
على نحو صفاته ، كأبي جهل من رؤساء قريش ، فقد جاءت بعثة النبي مؤذنة بزوال
سلطتهم ، وتطامن مكاتهم ، حتى لقد روى عن النبي أنه كان يقول : اللهم أعز
الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل ، فأجاب الله دعاءه
بدخول عمر في الإسلام ، فكان أحب الرجلين إلى الله تعالى .

[إسلامه] : حدث عمر رضى الله عنه عن أول وقوع الإسلام في قلبه قال :
خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقامت
خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب بتأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما
قالت قريش ، فقرأ : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا
مَا تُؤْمِنُونَ » ، فقلت كاهن ، فقرأ : « وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا بَدَّكُمُْونَ تَنْزِيلٌ

مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » قال فكان ذلك أول وقوع الإسلام بقلبي .

خرج عمر متقلداً سيفه ليقتل محمداً الذي سب آلهم ، وسفه أحلامهم ، وعاب دينهم ، وفرّق جماعتهم ، فقابله رجل من بني زُهرة ، فقال له : ألا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن أختك وختنك قد صَبَوَا ، فشى عمر دامراً^(١) حتى أتاها وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب حسّ عمر توارى في البيت فدخل عمر ، فقال لأخته وختنه^(٢) ما هذه الهينة التي أسمعها عندكم ؟ (وكانوا حين يجيئه يقرءون حله) ، فجعلتا يخفيان أمرهما ، ثم أظهرتا إسلامهما ، وطلب عمر الصحيفة التي فيها طه فقرأها ثم قال : دلوني على محمد ، فذكروا له أنه في دار بني الأرقم عند الصفا ، فقصد إليه عمر فأسلم ، ثم قال يا رسول الله : ألسنا على الحقّ ققيم الاختفاء ؟ فكان ذلك أول إعلان الرسالة ، فسماه رسول الله الفاروق لفرقه بين الحقّ والباطل ، وكان إسلامه رضى الله عنه في السنة السادسة من البعثة .

وكان كفار قريش إذا رأوا رجلاً دخل في الإسلام يقولون : قد صبا فلان ، وإذا عثروا به أكثروا ضربه وأذاه ، وهكذا فعلوا بعمر حتى خاف عليه خاله العاص بن وائل ، فقال : عمر في جوارى ، فامتنع الناس عنه ، ولكن عمر كان يلتذّ بالأذى في سبيل الله فردّ على خاله جواره ، فكان يُضْرَب وَيَضْرِب ، ومن شجاعته أنه حين خرج مهاجراً لم يخف هجرته كما فعل غيره ، بل تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، واتّصى في يده أسهماً ، ومضى قبل الكعبة ، والملاّ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف بالخلق واحدة واحدة ، فقال لهم : شأهت^(٣) هذه الوجوه ، لا يُرْغمُ الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تتشكّل^(٤) أمه أو يتيّم^(٥) طفله

(١) من دمر : بمعنى دخل بغير إذن وهجم هجوم المر .
(٢) الخن : الصهر ، وكل ما كان من ناحية المرأة كإيها وأخوتها .
(٣) قبيحت . (٤) شككت المرأة (كفرج) فقدت ولدها .
(٥) يتم (كضرب وعلم) فقد أباه دون الرشد .

أَوْ يُرْمَلُ^(١) زوجته ، فليقنني وراء هذا الوادي ، ثم خرج ، فلم يتبعه أحد .

[تشریف النبی له] : كان من تشریف النبی له أن لقبه بالفاروق يوم إسلامه ، وكناه بأبي حفص لما رأى من شجاعته ، وناداه بيا أخى حين استأذنه في العمرة ، فقال له : يا أخى لا تنسانا من دعائك ، تزوج النبی ابنته حفصة بعد موت زوجها ، ووصفه بأنه محدث أو مُعْتَمٍ أو مُلْهَمٌ ، فقال كما جاء في الصحيحين : إنه كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون ، وإنه إن كان في أمتي هذه أحد فإنه عمر بن الخطاب ، وذلك لما كان يأتي به الوحي من تأييده كما حدث فيما يأتي :

١— لما أراد النبی أن يصلى على عبد الله بن أبي . قال له عمر : أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين ؟ فقال النبی أنا بين خيرتين . قال تعالى : « اُسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ، ثم صلى عليه فنزل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

٢— أسر النبی في بدر سبعين رجلا ، فاستشار فيهم أبا بكر فقال : قومك وعشيرتك فخل سبيلهم ، وقال عمر : اقتلهم ، ففاداهم النبی ، فعتب الله عليه بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ »^(٢) ، فقال رسول الله : لقد كاد يصيبنا في خلافتك شر يا عمر .

٣— وكانت نساء النبی يظهرن للناس ، فكان عمر يغار عليهن ، ويرى من

(١) أرملت المرأة : فقدت زوجها .

(٢) معنى الآية : أنه ما يستقيم للنبي أن يكون له أسرى ويتغلب على أعدائه حتى يكثر القتل فيكون ذلك ذلا للكفر وإضعافا ، وعزا للإسلام . ولما كثر المسلمون بعد ذلك قال الله : « فَإِمَّا مِنْهُ بِمَدُّ وَإِمَّا فِدَاءٌ » .

اللائق بشرفهن أن يحتجن وكلم النبي في ذلك ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » الآية .
 ع — عاتب النبي بعض نسائه ، فجعل عمر يمرّ عليهنّ واحدة واحدة ، وهو يقول :
 لئن اتهميتن وإلا لبيدن الله رسوله منكنّ خيراً ، فنزل قوله تعالى : « عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » .

إلى غير ذلك حتى قيل : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر .

ومن مزايا عمر : صواب رأيه ، واجتهاده فيما لم يرد فيه نص من كتاب الله ، ولا سنة نبيه حتى يقول الفقهاء في باب الاجتهاد : إن عمر عمدة هذا الباب ، ومن أمثلة اجتهاده : أن رجلاً قتلته امرأة أبيه وحليها ، فتردّد عمر ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له علي : لو أن جماعة سرقوا جزوراً ، فأخذ هذا عضواً ، وذاك عضواً ، أ كنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك . فكتب عمر رأيه إلى عامله : أن اقتلها ولو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم .

وسئل في شارب الخمر فقال : من شرب فقد هذى ، ومن هذى فقد اقترى ، فأرى عليه حدّ المفترى « القاذف » .

وكان يفهم روح التشريع فيجعل للملابسات دخلاً في فهم المراد ، ومن أمثلة ذلك : أن النبي كان قد تألف أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعُيينة بن حصن ، وصَفْوَان ابن أمية ، وأعطى كلاً مائة من الإبل ، فجاء عيينة والأقرع إلى أبي بكر يطلبان أرضاً فكتب لهما بها ، ثم حضر عمر فزق الكتاب وقال : إن الله أعزّ الإسلام وأعزى عنكم فإن ثبتم عليه ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم .

وفي مرة لم يقطع في السرقة ، وذلك أنه في عام المجاعة سرق غلامه لحاطب بن أبي بلمعة جزوراً ، وأقرأوا على أنفسهم ، فبعد أن أمر عمر بقطع أيديهم أعادهم ، وقال

لابن حاطب : أما والله لولا أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل الميتة حلّ له ، لقطعت أيديهم ، وإيم الله إذ لم أفعل لأغرمّك غرامة توجعك .
وكان طلاق الثلاث على عهد رسول الله وأبي بكر ، وسنتين من عهد عمر يقع واحدة حتى قال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه وجعله يقع ثلاثاً تأديباً للناس .

خلافته

عهد أبو بكر إليه بالخلافة بعد أن استشار الصحابة في أمره ، وكان بدء خلافته سنة ١٣ هـ ، وقتل سنة ٢٣ هـ ، فكانت خلافته عشر سنوات . وقد قتله رجل من السبائيا يسمى فيروز ، ويكنى أبا لؤلؤة ، وهو غلام المغيرة بن شعبه ، وقد فرض عليه المغيرة درهمين في اليوم ، فشكا الغلام ذلك إلى عمر وهو يطوف في السوق . فقال له : ما صناعتك ؟ قال : نجار حداد نقاش . قال عمر : فما أرى خراجك كثيراً ، فاضطغن عليه الغلام ، وقتله بعد ثلاثة أيام ، وهو يريد صلاة الفجر ، وحمد الله عمر حين علم أن قاتله غير مسلم .

[أعماله في خلافته] : أما فتوحه التي لم يعرف مثلها لغيره من الخلفاء وملوك الإسلام كافة ، فإن التاريخ العام كفيل بشرحها ، وبيان مساجدة رقعتها وسرعة حدوثها وإحكام أمرها ، فلعمري ذلك الأمر حديث عجب ، فلقد كان يرسل للقائد بوصف البلاد التي سيقدم عليها ، وبيان أخلاق أهلها ، وطريقة محاربتهم ، فيكون في العمل برأيه النصر المؤزر . ويكفي أن نروى لك كتابه إلى سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية قال :

أما بعد : فسر من سيراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على كل أمر . واغلم أنك تقدّم على أمة عددهم كثير ، وعُدّتهم فاضلة ،

وَبَأْسُهُمْ ^(١) شَدِيدٌ ، وَعَلَى بَلَدٍ مَنِيعٍ . وَإِنْ كَانَ سَهْلًا ، كَوُودٌ ^(٢) ؛ لِبَحُورِهِ ، وَفُيُوضُهُ
وَدَّادِيهِ ^(٣) . إِلَّا أَنْ تَوَاقَفُوا غَيْضًا ^(٤) مِنْ قَيْضٍ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ
فَابْدُوهُمْ الضَّرْبَ . وَإِيَّاكُمْ وَالْمَنَاظِرَةَ ^(٥) لِمُجُوعِهِمْ ، وَلَا يَخْذَعُكُمْ فَإِنَّهُمْ خُدَعَةٌ ^(٦)
مَكْرُةٌ ، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ إِلَّا أَنْ يَجَادَوْكُمْ ، وَإِذَا اتَّهَيْتَ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ ، وَالْقَادِسِيَّةُ
بَابُ فَارَسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَتِهِمْ ، تَكُونُ مَسَالِحُكُمْ ^(٧) عَلَى
أَنْفُسِهِمْ ^(٨) وَيَكُونُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ ، عَلَى حَافَاتِ الْحَجَرِ وَحَافَاتِ الْمَدَرِ ، وَالْجِرَاعُ ^(٩)
بَيْنَهُمَا . ثُمَّ الزَّمْ مَكَانَكَ فَلَا تَبْرَحْهُ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَحْسَوْكَ أَنْقَضَتْهُمْ ^(١٠) رَمْوَكٌ يَجْمَعُهُمُ الَّذِي
يَأْتِي بِخَيْلِهِمْ وَرَجُلِهِمْ وَحَدَّثَهُمْ وَجِدَّهُمْ فَإِنْ أَتَمَّ صَبَرْتُمْ لَعْدُوَكُمْ وَاحْتَسَبْتُمْ ^(١١) لِقِتَالِهِ وَنَوَيْتُمْ
الْأَمَانَةَ رَجَوْتُمْ أَنْ تُنْصَبُوا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ لَا يَجْتَمِعُ لَكُمْ مِثْلُهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَتَجَمَّعُوا
وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ . وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى كَانَ الْحَجَرُ مِنْ أَرْضِكُمْ ثُمَّ كُنْتُمْ عَلَيْهَا أَجْرًا
وَبِهَا أَعْلَمُ ، وَكَانُوا عَنْهَا أَجَبْنَ ، وَبِهَا أَجْهَلُ ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ وَيَرُدَّ لَكُمْ
الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ .



وَأَمَّا سِيرَتُهُ فِي رَعِيَّتِهِ فَقَدْ بَنَاهَا عَلَى أَسْنَنِ عَظِيمِينَ مِنْ سِيَاسَةِ الْأُمَمِ ، فَأَطَاعَتْهُ
الْعَرَبُ وَالغَنَمُ أَحْسَنَ طَاعَةٍ . وَجَرَتْ لَهُ الْأُمُورُ عَلَى أَذْلَالِهَا ^(١٢) .
فَأَحَدُ أَسَى سِيَاسَتِهِ هُوَ الشَّدَّةُ فِي الْعَدَالَةِ ، وَعَدْلُهُمُ الْهُوَادَّةُ فِي حُدُودِ اللَّهِ ، وَذَلِكَ هُوَ

(١) الْبَأْسُ : الشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ . (٢) صَعْبٌ .

(٣) أَوْدِيَتُهُ الْمَنَسَةُ . (٤) الْغَيْضُ : الْقَصَصُ .

(٥) الْإِنْتَظَارُ وَالْإِمْهَالُ .

(٦) يُقَالُ هُوَ خُدَعَةٌ بِضَمِّ فَتْحٍ : أَيُ كَثِيرُ الْخِدَاعِ ، فَإِنْ سَكَنْتِ الدَّاءُ صَارَ مَعْنَاهَا كَثِيرُ الْإِنْخِدَاعِ .

(٧) الْمَسَالِحُ الثَّغُورُ . (٨) الْأَتَابُ : جَمْعُ قَبٍ بِالْفَتْحِ أَوْ الضَّمِّ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ .

(٩) الْأَرَاضِي الرَّمْلِيَّةُ . (١٠) تَحَرَّكَتْ إِلَيْهِمْ .

(١١) رَجَوْتُمْ ثَوَابَ اللَّهِ .

(١٢) جَمْعُ لَامِفْرَدٍ لَهُ أَوْ الْمِفْرَدُ ذَلْ ، وَالْمَعْنَى جَرَتْ عَلَى وَجْهِهَا وَطَبِيعَتِهَا .

خلق عمر منذ جاهليته ، ولكنه كان في الجاهلية صرامة وغلظة كبد وحمية جاهلية . ثم صار في الإسلام تحرياً لرضا الله ، وتنفيذاً لأوامره ، وحرصاً على حبل الإسلام أن يضطرب .

ومن أمثلة ذلك : أنه كان إذا شكى إليه عامل مهما عظم قدره دعاه . للثول بين يديه ، فإن ظهرت إدانته أقام عليه الحد ، وإن شك في أمره غزله . وقد شكاً إليه رجل أبا موسى الأشعري وذكر أنه ضربه ، فكتب إليه : إن كنت ضربت فلاناً على ملاء من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملاء من الناس حتى يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك . ولولا عفو الرجل بعد أن قعد له أبو موسى الأشعري للقصاص ، لجري القصاص على أبي موسى وهو هو سابقة في الإسلام وبلاء ، ومثل ذلك جرى لعمر بن العاص .

وقد استحضر عمر سعد بن أبي وقاص فاتح القادسية والمدائن ومصر الكوفة والبصرة . وكان قد شكاه أهل عمله بالكوفة ، فجمع بينه وبينهم ، فوجده بريئاً . وكان للوصول إلى العدالة يأمر عماله أن يوافوه في موسم الحج ليجمع بينهم وبين الشاكين منهم .

ولقد كان له عامل يقتص آثار العمال فيرسله في كل شكوى ليحققها في البلد الذي جرت فيه ، وهذا العامل هو محمد بن سلمة ، وكان يثق به ثقة تامة .



وكان عمر يرى أن العدالة تقتضى سهره على الرعية واستطلاعها لأحوالها ، فكان يمس بالمدينة ليلاً ، وقد روى عن عسه قصص تمثل حرصه التام على منع الظلم عن رعيته .

فمن ذلك أن قدمت رفقة من التجار ، فنزلوا بمسجد المدينة ، فقال عمر لعبد الرحمن ابن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ، فسمع عمر بكاء صبي ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك . ثم عاد ،

فسمع بكاءه ثانية وثالثة ، ثم قال لها : إني لأراك أم سوء^(١) ! مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ! فقالت : إني أريقه على الفطام فيأبى ، قال ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض إلا لفطيم ، فقال وكم عمره ؟ فقالت كذا شهراً ، فصلى عمر الفجر ما يستبين الناس قراءته من البكاء . فلما أتمّ صلاته قال : يا بؤساً لعمر . كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا ينادى : ألا لا تعجلوا عن الفطام ، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام .

قال أسلم : مررت مع عمر في عسبه ، فرأى ناراً فدنا ، فإذا امرأة معها صبيان يتَضَاغُونَ^(٢) جُوعاً ، فقال : ما بال الصبية ؟ فقالت الجوع . قال فأى شيء في القدر ؟ فقالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . فقال : أى رحمك الله وما يدري عمر بكم ؟ قالت يتولى أمرنا ثم يغفل عنا . فقال عمر لأسلم : انطلق بنا حتى أتيا الدقيق ، فأخرج عدلا منه ، وكُبة من شعهم ، فقال : احمله على ، قال أسلم : أحمله عنك . قال عمر : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ ! ! فانطلق عمر به يهرول حتى ألقاه عندها ، ثم أخرج شيئاً من الدقيق ، فجعل يقول لها : ذرى على وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، فكان الدخان يخرج من خلال لحيته ، ثم أنزلها وقال لها : ابغيني شيئاً ، فأثنته بصحفة فأفرغها فيها . ثم جعل يقول لها : أعطيهم وأنا أسطح لهم ، فلم يزل حتى شبعوا . ثم قام فقالت المرأة : جزاك الله خيراً كنت أولى بهذا الأمر من عمر ، فيقول لها قولى خيراً . إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تركها وجعل يرقب الصبية حتى رأيهم يصطرعون ، ثم ناموا ، فقال يا أسلم : إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت .

ومن أمثلة عدله : أنه بينما كان يمشى بسكة من سكك المدينة إذا هو بصبية تطيش على وجه الأرض تقوم مرة وتقع أخرى ، فقال : يا ويحها ! يا بؤسها ! من يعرف هذه منكم ؟ فقال عبد الله بن عمر : هي إحدى بناتك . قال : وأى بناتى هي ؟ قال :

(١) أى أما قبيحة ، ولا يقال لإبفتح السين من سوء مع إضافة ما قبلها اليها وتنكيرها .

(٢) يصيحون ويتلوان .

هى ابنتى . قال : ويحك ! ما صيرها إلى ما أرى ؟ قال منعك ما عندك . قال : ومنعنى ما عندى منعك أن تطلب لها ما يكسب الأقوياء لبناتهم ، إنه والله مالك عندى غير سهمك فى المسلمين وسعك أو عجز عنك ، هذا كتاب الله بينى وبينك .



وثانى أسئ سياسسته : أنه كان يبنى أمره على الاستشارة ، فكان يستشير الناس على مراتب ، فيأخذ رأى العامة أولاً ، ثم رأى الخاصة . فقد فعل ذلك عند زيارته للشام سنة ١٧ هـ حتى إذا كان بَسْرَغَ^(١) لقيه أمراء الأجناد ، فأخبروه أن بالشام طاعونا ، فجمع الناس ، فرأى خاصتهم أنه يجب أن يرجع ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ فقال : أفر من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد كان ينزل على رأى الحق مهما صغر ، فقد بدا له ، وقد رأى مغالاة الناس بالهور أن يخطب فى منع الناس من ذلك ، فقالت له امرأة من أقصى المسجد : كيف ؟ والله يقول : « وَآتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً » ، فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ رجل . كل الناس ألقه منك يا عمر . وقد تمثل ميله للاستشارة فى اختياره خليفته ، فقد جعله أحد ستة هم خير المسلمين حينئذ ، وقد شهد لهم رسول الله بأنهم من أهل الجنة ، وهم : عثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، والزبير ابن العوام ، وطلحة ، ولم يقطع رأياً فى ذلك ذون المؤمنين .



وأما غير ذلك من أعماله فى خلافته ، فهى أنه أول من أرخ بالتاريخ الهجرى لما رأى من اضطراب الأمر فى تواريخ الكتب ، فقد رفع إليه صك محله شعبان ، فقال أى شعبان هو ؟ الذى مضى ، أو الذى هو آت ، أو الذى نحن فيه ؟ وقيل إن سعد

ابن أبي وقاص شكاً إليه أنه تأتبه كتبه ولا يعرف السابق منها من اللاحق . فاستشار أهل الرأي في ذلك ، فاجتمع رأيهم على جعل الهجرة مبدأ التاريخ للمسلمين ، وكان العمل به في ربيع الأول سنة ست عشرة من الهجرة ، وقيل سنة ثمانى عشرة ، أو تسع عشرة .

وهو أول من مَصَّر الأمصار ، وأول من دوَّن الدواوين ، وأول من استقضى القضاة في الأمصار ، وأول من وضع الخراج على الأرض ، وكان العرب يريدون قسمة السواد كما فعل رسول الله بخيبر ، فقال لهم : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وهو أول من سمى أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن العاص ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له : ما بدا لك من هذا الاسم ؟ لتخرجن مما قلت ، قال نعم . قدم لبيد بن ربيعة ، وعدي بن حاتم ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : أتما والله أصبها اسمه ، إنه لأمير ونحن المؤمنون ، فجرى عليه هذا اللقب وعلى من بعده من الخلفاء .

الأدب في حياة عمر

ذكرنا عن عمر أنه كان يقوم بالسفارة لقريش . وتلك منزلة لا يسمو إليها إلا كل مَذَرٍ جزل البيان ، قوى العارضة ، وهكذا كان عمر ، فقد تجلَّت فيه نزعة لغوية جليلة الشأن ، فلقد كان يعرف قدر الشعر ، ويدعو الناس إلى تعلُّمه ، وهو الذى يقول : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم . وكتب إلى أبي موسى الأشعري يقول : بُرٍّ من قبلك يتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب . وهو الذى يقول : تعلِّموا العربية ، فإنها تثبت العقول وتزيد المروءة .

وكان يحب سماع الشعر ، وقد أُناب عليه بقميصه الذى لم يجد ما يعطيه غيره ،

وهو الذي قال لبعض ولد هرم ، وقد أنشده قول زهير في أبيه ، إنه كان ليحسن فيكم القول ، فقال له : ونحن كنا نحسن له العطاء ، قال : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم كذلك كان يأخذ الناس بأدب الخطاب . ويرشدكم إلى مواضع الصواب في القول ، فقد روي أنه لما حضر خراج العراق ، خرج مع مولى له يعد الإبل ، وهي تفوق الحَصْر ، فقال له الغلام : هذا من فضل الله ورحمته ، فقال له عمر : كذبت ليس هذا هو النبي يقول الله فيه : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » يقول بالهدى وبالسنة والقرآن فبذلك فليفرحوا : « هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

وأثنى أمامه رجل على رجل في وجهه ، فقال له : عَقَرْتَ الرجلَ عَقَرَكَ اللهُ .
وسمع رجلا يقول : إني أنفق مالى ونفسي في سبيل الله ، فقال عمر : ألا يسكت أحدكم ، فإن ابْتَلَيْ صبر ، وإن عُوِيَ شكر .
وأراد أن يستعين برجل في عمل ، فسأله عن اسمه ، فقال : ظالم بن سراق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ، ولم يستعن به .
وكان عمر في حديثه مع الناس يحاسب نفسه على اللفظ ، ويتجنب مأخذ القول ، فلقد أقبل على قوم يوقدون نارا ، فقال السلام عليكم يا أهل الضوء ، وكره أن يقول : يا أهل النار .



ولعمر غير خطبه كلمات سامية ، وعبارات تدل على سمو خياله ، فقد قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر شيئاً ، إن فاتني ريحه ، لم يفتني ريحه .
وسمع سائلا يقول : من يعشى السائل ، فقال عمر : عشوا السائل ، ثم سمعه ثانية ، فقال : ألم أقل لكم عشوا السائل ؟ فقالوا : قد فعلنا ، فأرسل إليه ، فإذا جرابه مملوء خبزاً ، فقال له : لست سائلا ، بل أنت تاجر ،
وسمع نادبة تنوح فضربها وقال : إنها لا تبكي بشجوكم ، ولكنها تهريق دمعها

لأخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أموالكم في قبورهم ، وأحياءكم في دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأسر بالجزع وقد نهى الله عنه .

وكان إذا سمع رجلاً يتلجج في كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .
ومرّ بِذِيْرَ راهب فناداه فأشرف عليه ، فجعل عمر يبكي ويقول : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً » .

ورأى رجلاً يحمل ابناً له ، فقال : ما رأيت غُرَابًا أشبه بغراب من هذا بهذا .
ومن كلامه قوله : ثلاث يثبتن لك المودة في صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه .

وقوله : كفى بالمرء غيًّا أن تكون فيه خَلَّةٌ من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتي مثله ، أو يبدوله من أخيه ما ينفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه .

ورؤى وهو يهنأ بغيراً من إبل الصدقة ، فقيل له : هلا قام بذلك عبد من عبيد الصدقة ، فقال : وأى عبد هو أعبد مني !!

ومرّ عمر بينيان يبنى بآجِرٍ وجِصٍّ ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل لعاملك على البحرين ، فقال : أبَتِ الدِراهُمُ إلا أن تُنْخَرِجَ أعناقها .



ومن حكمه قوله : للأحنف بن قيس : من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عُرِف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه .

ومن حكمه : من عرض نفسه للثَّمة فلا يُلوَمَنَّ من أساء به الظن . من كتم سرّه كان الخيار بيده . كفى بالمرء سرّاً أن يأكل كلّ ما اشتهاه . الطمع فقر واليأس غنى . أعقل

الناس أَعَذَّرُهُمْ للناس . أشقى الولاية مَنْ شَقِيَّتْ به رعيته . لا تُؤَخَّرْ عمل يومك لِعَدِكَ . من لم يعرف الشرَّ كان جديراً أن يَقَعَ فيه .



ومن آثار عمر الأدبية شعر يرويه بعض الناس له وينكره آخرون ، فمن قوله يوم فتح مكة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ قَبْلَ ذَلِكَ حَائِدٍ
وَأَسْلَبَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَ مَا تَدَاعَوْا إِلَى أَمْرِ مِنَ الْغَىِّ فَاسِدٍ
عِدَّةَ أَجَالِ الْخَيْلِ فِي عَرَصَاتِهَا مُسَوِّمَةً بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَخَالِدٍ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ قَدْ عَزَّزَتْهُ وَأَمْسَى عِدَاؤُهُ مِنْ قَتِيلٍ وَشَارِدٍ

وإن فاتته قول الشعر لم يفته التمثل به في كلِّ مقام ، فقد قال الأصمعي ما قطع عمر رضى الله عنه أمراً إلا تمثّل فيه ببيت من الشعر .

قيل خرج عمر وعليه حُلَّةٌ قطن ، فنظر الناس إليه نظراً شديداً ، فتمثّل :
لَا شَيْءَ مِمَّا يُرَى تَبَقَى بَشَاشَتُهُ يَبْقَى الْإِلَهُ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ



أما ترسله فهو في الكثرة يجارى فتوح عمر ، فقد كان من حرصه على فوز جنوده لا يكاد يتركها من غير نصيحة بتعبئة أو هجوم أو توقف ، كما كان يطالب قوّاده ومُعَاَلة بموافاته بالأخبار ، وما تمّ من أمورهم أو لا فإو لا ، فكانت الكتب لا تنقطع بينه وبينهم .

كذلك لم يكن يُنَبِّ الناس خطابة ، فكان يقوم بها في مواعيد الصلاة وغيرها كلما بدت له عظة يريد النفع بها ، أو رأى بدعة يريد حمل الناس على تركها ، أو أتاها خبر عن فتح يريد إعلانه للقوم .

ونرى أنه إذا أحصى كل ذلك ، وجمع شتيته من كتب الأدب والسير كان منه أثر جليل القدر ينتفع الناس بتداوله .

وسنقل هنا شيئاً من رسائله وخطبه التي لم يسبق لنا إيرادها آنفاً .

خطب عمر فقال : أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ أَظْهَرِنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ وَيُنَبِّئُنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ . فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ . وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ : مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَخْبَيْنَاهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ . سَرَأْتُمْكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ . أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَى حِينٍ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ وَمَا عِنْدَهُ ، وَقَدْ حِيلَ إِلَى بَآخِرَةٍ ^(١) أَنَّ رِجَالًا يَقْرَهُونَ الْقُرْآنَ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ . فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ وَعَمَلِكُمْ .

وشكى إليه جماعة من عماله فأمرهم أن يوافوه بالموسم ، فلما حضروا قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أَيُّهَا الرِّعِيَّةُ ، إِنَّا لَنَا عَلَيْكُمْ حُسْنُ النِّصِيحَةِ بِالْغَيْبِ ، وَالْمَعَاوَنَةِ عَلَى الْخَيْرِ ، أَيُّهَا الرِّعَاةُ : إِنَّا لِلرِّعِيَّةِ عَلَيْكُمْ حَقًّا . اْعْلَمُوا أَنَّهُ لَا حِلَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا أَعَمُّ مِنْ حِلِّ إِمَامٍ وَرَفِيقِهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمُّ مِنْ جَهْلٍ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ . اْعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَأْخُذُ بِالْعَافِيَةِ ^(٢) فِيمَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ ^(٣) يُرْزَقِ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ .

وكان إذا بعث أمراء الجيش أوصاهم بتقوى الله ثم قال عند عقد الأولوية : بِاسْمِ اللَّهِ ، وَعَلَى عَوْنِ اللَّهِ ، وَامْضُوا بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَالنَّصْرِ ، وَلِزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . ثُمَّ لَا تَجْبُنُوا عِنْدَ

(١) أى أخيرا .

(٢) العافية : دفاع الله عن المرء . والمعنى في قوله يأخذ بالعافية أن يترك لله حقوقه عند الناس يتولاها جل شأنه .

(٣) تنبيه ظهر على القياس ، وقد يقال هو بين ظهرانيهم أو أظهرهم والمراد بينهم

اللقاء ، ولا تُمَتِّلُوا^(١) عند القدرة ، ولا تُسْرِفُوا عند الظهور^(٢) ، ولا تَنَكَّلُوا^(٣) عند الجهاد ، ولا تَقْتُلُوا امرأة ولا هَرَمًا ولا وَلِيدًا ، وَتَوَقَّوْا قَتْلَهُمْ إِذَا اتَّقَى الرَّخْفَانِ ، ولا تَغْلُوا عند الغنائم ، وَتَزَهُوا الجهاد عن عَرَضِ الدُّنْيَا . وَأَبْشِرُوا بِالْأَرْبَاحِ^(٤) فِي الْبَيْعِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ .

ومن رسائله ما كتبه إلى معاوية عامله على الشام : أما بعد ، فالزَّمِ الْحَقَّ يُنْزِلُكَ الْحَقُّ مَنَازِلَ أَهْلِ الْحَقِّ يَوْمَ لَا يُقْضَى إِلَّا الْحَقُّ ، وَالسَّلَامُ .

ومنها وصيته للخليفة من بعده ، قال ابن عمر : رفع إلى أبي كتابًا ، فقال : إذا اجتمع الناس بعدى على رجل ، فارفع إليه هذا الكتاب وأقرئه مني السلام .

أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أَنْ يَعْرِفَ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ كِرَامَتَهُمْ ، وَأَوْصِيَهُ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّأُوا^(٥) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً^(٦) مِمَّا أُوتُوا . إِلَى قَوْلِهِ : الْمُفْلِحُونَ ، أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ ، وَأَنْ يُشْرِكُوا فِي الْأَمْرِ ، وَأَوْصِيَهُ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُؤْفَى بِهِمْ ، وَلَا يُكَلَّفُوا قَوْقَ طَائِفَتِهِمْ وَأَنْ يُقَاتِلَ مِنْ وَرَائِهِمْ .

(١) التمثيل : التشويه . (٢) الظهور : الغلبة .

(٣) نكل (كنصر وعلم) نكص وجبن . (٤) الأرباح : جمع ربح .

(٥) تبوؤوا الدار : أى سكنوا وتوطنوا المدينة وعطفوا الإيمان على الدار على معنى وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر * علقها تبنا وماء باردا * أى وسقيتها ، أو المعنى دار الهجرة ودار الإيمان وتكون آل قد قامت مقام المضاف إليه فى دار الهجرة ويكون المضاف إليه قد قام مقام المضاف فى دار الإيمان .

(٦) أى شيئًا من حسد وخقد وقبل حاجة بمعنى محتاج إليه : أى ولا يجسدون فى أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون .



وبعد : فرسائله وخطبه وحكمه وكلّ ما عرف له من قول يتجلى فيه خشية الله والإخلاص له ، والعمل على رضائه ، ثم هو بعد من الجهة اللغوية ، نقيّ اللفظ ، سامى الغرض ، لا تكلف فيه ، ولا محاولة للمباهاة به ، أو المساماة بفصاحته ، وذلك شأن رجال هذا العصر لم يستوقفهم اللفظ فيتأثقوا في اختياره ، ولا شغلهم شيء غير إفهام المخاطب حكمتهم التي كانت ذوب قلوبهم .

الشعر في هذا العصر

كان الشعر في الجاهلية سمة العرب التي بها يعرفون ، ومجيزاتهم التي بها يُلَهَّجون ، وكان حجتهم على الفضل ، ودليلهم على النبل . وسجل أيامهم المشهورة ، وأعمالهم الماثورة . وكان الفراغ وخلو البال والانطلاق من قيود الدين يجعلهم يهيئون به في كل واد : فمن غزل لا يتحرّزون فيه من ذكر الغافلات المقصورات في خدورهن إلى هجاء ومدح مبناها والمباغة والكذب . كذلك كانت العصبية تسيطر في الشعر على جملة أغراضه ، فهي التي كانت تهيج الفخر والمباهاة ، وتحمل على إثارة الضغائن وتأريث العداوات والتحريض على القتال . حتى كانت الجزيرة العربية تنثورا ينفخ فيه الشعراء ويحضّثون بمآولهم نيرانه . ومن هذا نستطيع أن ندرك مقدار حرص القبيلة على أن يكون لها شاعر ينافح عنها ويسجل مفاخرها ، وأنها كانت لا تزال متطامنة منكسة الرأس حتى ينبغ فيها شاعر ، فيتباشر أهلها ، ويأتيها المهثوثون بنبوغه .

جاء الإسلام بالجدّ الذي لم يعرفه العرب في العمل للدنيا والآخرة ، فامتثلت أوقاتهم بالمساعي النافعة في تحصيل الدين أو نشر كلمته ، جاء بإبطال كثير من أمور الجاهلية . وأولها العصبية التي كانت قاضية على اجتماعاتهم ، مبددة لشملهم ، وكذلك قيدهم بالحدود لا يتعدونها في دين أو أدب ، فحرم عليهم الكذب وحاسبهم على الهمز

واللزم . وإشاعة الفاحشة في الناس ، وقذف المحصنات . فكانوا جديرين أن تعطل آلاتهم في الشعر ريثما يصلحون أوتارها . ويغيرون نعمتها . فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من نخوة الجاهلية ، وفخرها الكاذب ، والوقوع في الأعراض ، وذكر العورات ، وتأريث العداوات . لذلك نرى الشعر في بدء هذا العصر قد قترت حركته لبطلان أغراضه القديمة لسيهم ، ولما رأوا من بلاغة القرآن الذي حقر في نظرهم بلاغتهم وضائل فصاحتهم . وإن من شعرائهم من وصل به الانبهار من بلاغة القرآن ، والعكوف على تذوقها وتزويد النفس من محاسنها ، أن انقطع عن قول الشعر كلبيد (وهو من المجليين بين شعراء الجاهلية) ، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرّاً
ومن حديث لبيد أن عمر أرسل إلى عامله على البصرة أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثنا في الإسلام ؟ فقال الأغلب :

أرجزاً سألت أم قصيدا فقد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين ، فلما ولى معاوية قال يا أبا عَقِيل : عطاؤك وعطائي واحد ، لأراني إلا سأحطك قال : أو تدعني قليلاً ثم تضم عطائي إلى عطائك ، فتأخذ العطاءين جميعاً .

وأما من لم ينقطع منهم عن قول الشعر فقد تركت فيه مفاجأة القرآن أثراً من الضعف جلياً أجمع النقدة للشعر على كسبه وإحساسه ، ومن هؤلاء حسن بن ثابت الذي كان في إسلامه تام الخضوع لأوامر الدين ، فلم يهتج إلا أعداء الإسلام ، ولم يفخر إلا بالقدر المباح ، ومن الشعراء من أسلم ولكنه كان رقيق الإسلام فلم يتقيد بقيوده ، ولم يتحرّج عن منهياته كالحطّية فإنه ظلّ يهجو ويُسبّب ، ولعله لم يكن يحفل بالاستماع للقرآن كثيراً حتى يتأثر بأدبه وأسلوبه . لذلك ترى شعره في الإسلام بمثابة الجاهلية ، ولقد بلغ من تمسك الحطّية بجاهليته أن استمرّ يهجو حتى حبسه عمر ابن الخطاب لهجائه للزُّبُرّان بن بدر ، ثم أحضره لقطع لسانه ، فلم يُنَجِّهِ إلا شفاعة الشفعاء

وتوبته وأخذَه العهد على نفسه ألا يعود إلى هجاء أحد ، فأعفاه عمر من قطع اللسان ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

ومن هجاء فأخس في هذا العصر غير الخطيئة فحبس مثله ، ضابئ بن الجارث البرُّجُمي ، فإنه كان قد استعار كلباً من بعض بني جرول بن نَهشل ، فطال مكثه عنده ، فلما طلبوه امتنع عليهم ، فعرضوا له وأخذوه منه فغضب ، ورعى أمهم بالكاب وقال : ا

تَجَشَّمْ نحوى وفدُ قُرْحان شُقَّة تَظَلُّ بها الوجناء وهى حَسِير
فأردقتهم كلباً فراحوا كأنما حباهم بتاج الهرمزان أميرُ
وقلدتهم مالمو رميت مُتالماً به وهو مُقْبِرٌ لكان يطير
فيأراكباً إماماً عَرَضَتْ فبالغن أمانة عني والأمور تدور
فإنك كلب قد ضريت بما ترى سميع لما فوق الفراش بصير
إذا عثنت من آخر الليل دُخْنة يبيت لها فوق الفراش هرير

فاستعدوا عليه عثمان فحبسه وقال : لو أن رسول الله حي لأحسبته نزل فيك قرآن . وما رأيت أحدا رعى قوما بكاب قبلك . ومثل هذا قول زهير وقد رعى قوما بفحل إبل حبسوه عنه فقال :

ولولا عسبه لرددتموه وشر منيعة اير مَعار
إذا طمحت نساؤكمو إليه أشطَّ كأنه مَسَدُ مَغار



ولا يدورن بخلد أن إهمال النبي لإقامة وزن الشعر ، وقول الله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » قد كان لهما أثر في هذه الفترة التي حدثت في الشعر أول هذا العصر ، فقد عرفت سببها كما عرفت أن النبي وإن لم يقيم وزن الشعر كان يحسن استماعه ، ويعجب به ، ويثيب على قوله ، ويدعو لقائله ، وأنه القائل : « إِنَّ مِنْ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً » ، وهؤلاء خلفاؤه ومنبعو سنته لهم من الشعر أقوال مأثورة ،

وطالما دعوا إلى العناية به ، وحلوا على الحرص عليه ، وأخذ النشء من أولاد العرب بأدبه ، فهذا عمر بن الخطاب يقول : « رَوْوُوا أولادكم ما سار من المثل وحَسَنَ من الشعر » ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : « مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر ، فإنه يدلّ على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب » ، ويروى عن السيدة عائشة أنها كانت تحفظ جميع شعر لبيد ، وكانت تقول « رَوْوُوا أولادكم الشعر تَعْدُبُ أَسْبَتَهُمْ » . ولم يكونوا يحرصون على الشعر ويدعون إليه لمحض اللهو به ولما فيه من تأديب للنفس فحسب . بل لقد كانوا يجدون تعلمه ضروريا لفهم القرآن . فقد قال ابن عباس : « إذا قرأتم شيئا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب » .



نقول فى لفظ الشعر وأسلوبه ما قلناه فى الكتابة والخطابة ، من هجر الحوشى ، وعذوبة اللفظ ، وحسن السبك ، وإذا كان فرق بين النثر والشعر فى شىء من هذا ، فهو الفرق بين البديهة والروية ، لأن الخطيب منهم لم يكن فى غالب أمره يحفل بإعداد العبارة لخطابته ، وكذلك المترسل يكتب أو يمل على كاتبه من غير تخير للفظ ، أما الشعر فإنه غالباً يهياً قبل إلقائه ، فلذلك ترى فيه دائماً أثر العناية وسما التنوّق .

ونستطيع أن ندلك على بعض أمثلة كان الشعراء فيها متأثرين أسلوب القرآن ، سالكين نهجه ، فهذا حسان يقول فى الردّ على أبى سفيان حين هجا النبىّ :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ أَمْ خَيْرُكُمْ أَلِفِدَاءِ

فإنه ينظر إلى قوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ أَعْلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ويقول فى رثاء النبىّ :

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحْيِدُوا عَنِ الْهُدَى حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

فهو من قول الله تعالى : « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، وقوله :

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسْتَفْهَمُوا عَمَى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمَهْتَدِي
واستعمال هل يستوى أسلوب تكرر في القرآن كثيراً .

ويقول النابغة الجعدي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمًا
الْمُوجِ الْلَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ نَهَارًا يُفَرِّجُ الظُّلُمَاتِ
نقل ألفاظ البيتين من القرآن كما يعرف ذلك حفظاًه .

ويقول معن بن أوس :

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلِي لَهُ وَتَعْطِينِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمِّ
وَخَفَضٍ لَهُ مِنِّي الْجَنَاحَ تَأْلُفًا لِتُدْنِيَهُ مِنِّي الْقَرَابَةَ وَالرَّحْمُ
فهذا الشعر من قوله تعالى : « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »



ولقد زاد الإسلام في أغراض الشعر ونقص . فأما الذي زاده فهو الإكثار من
الحكمة وضرب المثل لكثرة ماورد من هذين في القرآن وللحضافة التي صار عليها عقل
العربي من دراسة الدين . وللتجارب التي استفادها في حياته العملية الناشطة . كل
أولئك أجرى لسانه بالحكمة وأحضر أمامها صورة المثل .

ومما قاله شعراء هذا العصر من ذلك قول الخطيب :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَمْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
وقول حسان :

وَإِنَّ أَمْرًا يُمَسَّى وَيُصْبِحُ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

رَبِّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا لِي وَجَهْلِي غَطَى عَلَيْهِ النَّعِيمُ
وقول كعب بن زهير :

مَقَالَةُ الشُّوْءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
وقول النابغة الجعدي :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْذَرَا^(١)
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرَدَ الْأَمْرُ أَصْدَرَا^(٢)
كذلك زاد في الشعر حديث الورع وتقوى الله ، والتزهيد في الدنيا ، وذكر البعث
والجنة والنار .

يقول بجير أخو كعب بن زهير :

إِلَى اللَّهِ (لَا أَلْمُزَى وَلَا أَلَلَاتِ) وَخَدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنُ زُهَيْرٍ (وَهُوَ لَا شَيْءَ) بَاطِلٌ وَدَيْنُ أَبِي سُؤْلَمَى عَلَى مُحَرَّمُ
ويقول أبو ذؤيب الهذلي :

أَبَا عُبَيْدٍ رُفِعَ الْكِتَابُ وَأَقْتَرَبَ الْمَوْعِدُ وَالْحِسَابُ

وتلك هي مادة علم العربي التي أفادها من الإسلام .

ولقد بان في شعر هذا العصر فهم الشعراء لحقائق كانوا يسيئون فهمها ، فأدركوا
حقيقة القضاء والقدر ، وأن الآجال محدودة ، لا يستقدم المرء ساعة ولا يستأخر ، ولو كان
في برج مشيد .

(١) البوادر : جمع بادرة وهي ما ييدر من الغضب والحدة .

(٢) أورد الإبل أي بها الماء ، وأصدرها : أمادها بعد العرب .

وهذا قول زهير بن أبى سلمى على كونه من أعقل العرب ومع شهادة النبى له بأن حكمته من كلام النبوة يقول :

رَأَيْتُ الْمَنَائِيَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِيبُ مُنْتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ

ويقول

لَوْ كُنْتُ أُعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَا أُعْجَبِي سَعَى الْفَقَى وَهُوَ مُحْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسْعَى الْفَقَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُذَرِّكُهَا فَأَلْنَفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُنْتَشِرٌ^(١)
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مُحْدُودٌ لَهُ أَجَلٌ لَا يَنْتَهِي الْعُمُرُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَثَرُ^(٢)

أما ما نقص من الأغراض فهو ما أبطله الإسلام من وصف الحجر لأنه حرم شربها وفي وصفها دعوة إليها . كذلك الغزل الفاحش الذى يتناول اسم محبوبه بذاتها ويصف لقاءها والخلوة بها مما لا يبيحه الشارع إلا فى زواج شرعى .

وقد ورد فى كتاب : [طبقات الشعراء] أن كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود شجب بنساء النبى والمسلمين ورثى قتلى بدر من الكفار ، فأمر رسول الله ، محمد ابن مسلمة ورهطاً من الأنصار أن يقتلوه ففعلوا .

لذلك ترى حسناً وكعب بن زهير وغيرهما أشدوا النبى والخلفاء غزلاً ، ولكنه عفيف ليس فيه قصد إلى امرأة بعينها حتى يكون ذلك قذفاً لها . ثم هو بعد خال من كل ما ينكره الدين ، وليس فيه إلا وصف للخلق ، أو جمال الأعضاء الظاهرة التى لا تحرم رؤيتها :

قال كعب بن زهير :

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُقَدْ مَكْبُولٌ^(٣)

(١) متفرق .

(٢) الأثر من كل شيء : بقيته ، والمعنى لا يموت المرء حتى تنتهى كل بقية من عمره .

(٣) تباه الحب : ذهب بقلبه . وتامت المرأة قلب الرجل وتيمته : عبدته وذلته ، كباه : قيده .

وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا . إِلَّا أَغْنَىٰ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ^(١)
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةٍ عَجْزَاهُ مُدِيرَةٌ . لَا يُشْتَكَىٰ قِصْرٌ مِنْهَا وَلَا طُولُ
تَجَلُّو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ . كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَقْبُولٌ^(٢)
إِخَالَتْهَا خِلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ . مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصِيحَ مَقْبُولُ
فَمَا تَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ تَكُونُ بِهَا . كَمَا تَلَوْتُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
وَلَا تَمْسُكُ بِالْوَعْدِ الَّذِي زَعَمْتَ . إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْفَرَائِيلُ
فَلَا يَمُرُّ نَكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ . إِنَّ الْأُمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا . وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٣)

ويسمى الشاعر الذى شهد عصرى الجاهلية والإسلام مخضرمًا (إذا كان شعره قد تأثر بالإسلام) .

فحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ومعن بن أوس مخضرمون لظهور أثر الإسلام فى قولهم .

ولكن لبيدًا والخنساء غير مخضرمين لامتناع الأول من القول فى الإسلام ولبقاء صبغة الجاهلية فى شعر الخنساء لأنها لم تقل فى غير الفخر والثناء قبل الإسلام وبعده .
وكلمة مخضرم من الألفاظ التى استعملها الإسلام هذا الاستعمال ، وأصلها على رأى الأخفش من قولهم ماء خِضْرَمٍ : أى مثناه فى السعة والكثرة ، فنه سمي الذى شهد الجاهلية والإسلام مُخَضَّرًا كَأَنَّهُ استوفى الأمرين . وهى فى رأى الأصمعى من المخضرم أى قطع آذان الإبل فى موضع غير الذى كانت تقطع منه فى الجاهلية ليكون ذلك علامة إسلامهم ، فسمى كل من أدرك العصرين مُخَضَّرًا ، ثم خص اللفظ بالشعراء أو هى من خضرم عطيته إذا قطعها ، فسمى الشعراء مخضرمين لأن مرتبتهم فى الشعر

(١) الأغنى : الطي ، لأنه يخرج صوته من خيشومه وتلك هى الغنة . غضيض الطرف : فاطر

النظر ، كل العين (كمن) ولصر) وكملت العين (كفرح) اسودت منابت أهدابها خلقه .

(٢) العارض : السن فى مقدم الفم . الظلم : بريق الأسنان .

(٣) عرقوب : رجل من المالحى يضرب مثلاً فى خلف الوعد .

قصت في الإسلام ، وبعضهم يجعلها مُحَضَّرِمًا (بالحاء) من الحضرة وهي الخلط لأن الشاعر خلط الجاهلية بالإسلام .

ومن هؤلاء : حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَكَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ . وَمَعْنُ بْنُ أَوْسٍ ، وَأَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِيُّ ، وَالنَّزْرُ بْنُ تَوَلَّبٍ ، وَالنَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ .

وسنثبت لك بعض تراجم هؤلاء الشعراء بين إجمال وتفصيل :

أبو ذؤيب الهذلي

[اسمه ونسبه] : هو خُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ مَحْرُوثِ بْنِ مَخْزُومٍ . ينتهي نسبه إلى نزار .
[حياته] : عاش جاهليته وصدرًا من إسلامه بالبادية . وقد أسلم ولم ير النبي ، حتى إذا سمع أنه عليل قدم المدينة وقد مات رسول الله ، فحضر مبايعة أبي بكر في السقيفة ، ثم شهد الصلاة على النبي ودفنه . ثم عاد إلى قومه ولبث بالبادية حتى خلافة عمر ، فقدم عليه ، ورغب في الجهاد ، فأغراه عمر حتى مات وجيش المسلمين عائد من فتح إفريقية في خلافة عثمان سنة ٢٦ هجرية .

وكان له خمسة بنين هاجروا قبل ذلك إلى مصر ، فأصيبوا في عام واحد بالطاعون ، فرائهم بقصيدته المشهورة :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ

[منزله في الشعر] : سئل حسان من أشعر الناس ؟ فقال : حَيًّا أَمْ رَجُلًا ؟ قالوا : حَيًّا ، فقال : هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب .

كان فصيحًا كثير الغريب ، للزومه البادية ، وقصيدته العينية في بنيه الخمسة ، جليلة القدر ، تبلغ ثمانية وستين بيتًا ، وهي قديمة الشهرة . يقال : إن المنصور لما انصرف من دفن جعفر ابنه قال للربيع : ابغني من أهلي من ينشدني : أَمِنَ الْمَنُونِ . . .

حتى أتسلى عن مصيبتى فلم يجد الربيع فيهم أحداً يحفظها ، فعاد إليه ، فقال المنصور :
والله لمصيبتى بأهل بيتى لا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلّة رغبتهم فى الأدب
أعظم من مصيبتى بابنى ، ثم قال : انظر ، هل فى القواد أو العوام من يحفظها ؟ فوجد
شيخاً مؤدّباً يحفظها ، فجاء به ، فلما قال : (وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ) . قال
صدق والله . أنشدنى هذا الشطر مائة مرّة ، وما زال الرجل ينشده حتى شفى نفسه
وأذهب منه حزنه .

ومن شهرتها : أن عبد الله بن عباس استأذن على معاوية فى مرض موته ليعوده ،
فأمر معاوية أن يُقَعَدَ وَيُسَنَدَ ، وقال : ائذنوا له ليسلم قائماً وينصرف ، فلما سلم عليه
وولى أنشد معاوية قول الهذلى :

وَتَجَلَّى لِلشَّامِتِينَ أُرْيَهُمْ أَنَّى لِرَيْبِ الذَّهْرِ لَا أَنْصَعُ
فأجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فما خرج من الدار حتى سمع الناعية عليه .

وفى هذه القصيدة وصف أبو ذؤيب حاله بعد موت أبنائه ، ثم وصف الحمار
الوحشى وطيب عيشه ، وتباعده عن كثير من الآفات بشديد نفاذه ، وكثير حذاره
وبعد مراتمه ، ثم هو مع ذلك إلى الفناء ، ثم وصف ثور الوحش ، وأن مصيره إلى
الموت ، ثم الكى الذى ضاعف الدروع ، واستلأم فى الحديد ، ثم نازل القرن على
غاية من الاستعداد والحذر ، فلم ينبجه ذلك من الموت .

مختار شعره

أول قصيدته العينية :

أَمِنْ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ^(١)

(١) يقول الأخفش : المنون جمع لاواحد له ، ويقول الأصمى : واحد لا جمع له ، وهو

قَالَتْ أُمِّيَّةُ مَا لِحِجْسِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ^(١)
أَمْ مَا لِحِجْسِكَ لَا يُلَاقِيهِمْ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَى عَلَيْهِ ذَاكَ الْمَضْجَعُ^(٢)
فَأَجَبْتُهَا أَنْ مَا لِحِجْسِي أَنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا^(٣)
أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرِّقَادِ وَعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتَخَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ^(٤)
فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالُ أُنَى لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعُ^(٥)
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تُنْفَعُ
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ جُفُونَهَا سَمِلَتْ بِشَوْلٍ فَهِيَ عَوْرًا تَدْمَعُ^(٦)
وَتَجَلَّى لِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيَهُمْ أُنَى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرُوءَةٌ بِصَفَا الشُّقْرِ كُلِّ يَوْمٍ تُرْعُ^(٧)
لَا بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُقِيمٍ فَأَنْتَظِرُ أَبَارِضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى الْمَضْجَعُ
وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ وَلَسَوْفَ يُوَلِّعُ بِالْبُكَاءِ مَنْ يُفْجَعُ

يذكر ويؤث ، وسمى الموت منونا ، لأنه بمناء المرء : أى ينقصه . ريب المنون : ما يأتى به من الفواجع . الاعتاب : فعل ما يرضى العاتب .

(١) ابتدل الرجل (بالبناء للفاعل) : عمل عمله بنفسه . وقوله : ومثل ما لك ينفع أى فى شراء العبيد وقيامهم بالعمل بذلك .

(٢) أقضى عليه المضجع : أى امتلاءً قضيضاً (حصى) والمراد أنه أرق ولم يهدأ .

(٣) أن هنا مخففة من الثقيلة ، أى أجبتها أن الذى حصل لجسدى أن أولادى هلكوا . وتركونى

(٤) أصل هوى هوى (لغة هذيل قلب ألف المقصور فى هذه الحالة ياء وتدغمها فى ياء المتكلم) أعنقوا : ساروا سيرا فسيحاً سريعاً ، والمراد أنهم ماتوا فى مقبل العمر فوصلوا إلى الغاية قبل غيرهم . تخرموا : أخذوا واحداً بعد واحد .

(٥) غبرت : بقيت . مستتبِع : لاحق ، من قولك : استتبعتى فلان ، أى جعلنى أتبعه .

(٦) ويروى كأن حداثها وذلك مناسب لقوله سملت : أى فطنت وعورا مقصور عوراء .

(٧) المروءة : القطعة من أصلب الحجارة . الصفاة : جم صفاة ، وهى الحجر الصلد الضخم . المشقر : حصن بالبحرين .

وَلَتَأْتِيَنَّ عَلَىكَ يَوْمٌ مَرَّةٌ يُبْكَى عَلَيْكَ مُقْتَمًا لَا تَسْمَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّعْلِ مُلْتَمِئِي الْهَوَى كَانُوا بِعَيْشٍ نَاعِمٍ فَتَصَدَّعُوا
فَلَتُنْ يَبِهِمُ جَمْعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفْجَعُ
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ^(١)
أَكَلَ الْجَمِيمَ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجُ مِثْلُ الْقَنَاةِ وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرُعُ^(٢)
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ شَبَّ أَفْزَتُهُ الْكَلَابُ مَرْوَعُ^(٣)
شَغَفَ الْكَلَابُ الضَّارِيَاتِ فَوَادِهِ فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ الْمَصْدَقَ يَفْزَعُ
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ مُسْتَشْعِرُ حَلْقِ الْحَدِيدِ مَقْنَعُ
حَمِيتَ عَلَيْهِ الدَّرْعَ حَتَّى وَجْهَهُ مِنْ حَرِّهَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ أَسْفَعُ
وَقَالَ فِي مَوْتِ النَّبِيِّ :

كَسَفْتُ لِمَصْرَعِهِ النُّجُومَ وَبَدَرُهَا وَتَضَعَنْفَتُ أَرْكَانُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلِّهَا وَنَحِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفَدَحِ^(٤)

النابعة الجعدى

[اسمه ونسبه] : هو حسان بن قيس بن عبد الله الجعدى العامرى ، ويكنى
أبا ليلي ويلقب بالنابعة ، لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أجبل حيناً . قيل ثلاثين سنة
ثم نبغ فيه فى الإسلام كما ذكر حماد الراوية .

- (١) جون السراة : أسود الظهر . جدائد : آئن جافة الثدي .
(٢) الجميم : النبات الطويل . السمحج : الأتان الطويلة . أزعلته : نشطته . الأمرع : جمع
مرع وهو المكان الخصب .
(٣) الشبب : الثور السن . أفزته : استخفته وأفزعه .
(٤) يقال أفدح الرجل الأمر إذا وجده فادحا .

[حياته] : نشأ في الجاهلية ، وهو أقدم من النابغة الذبياني ، لأنه أدرك المنذر ابن مخرق ، ولم يدرك النابغة الذبياني إلا ابنه النعمان وفي ذلك يقول الجعدي :

تَذَكَّرْتُ شَيْئًا قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مَخْرَقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفِرًا^(١)
كُهُولَ وَفَتْيَانَ كَأَنَّ وَجُوهَهُمْ دَنَائِيرُ مِمَّا سَيَقُ فِي أَرْضٍ قَيْصَرَا

وكان في جاهليته قد حرّم الخمر على نفسه ، وهرم الأوثان ، ووحد الله وعبدته على دين إبراهيم . ولما جاء الإسلام وفد على النبي فأسلم وأنشده ، فاستحسن شعره ودعاه .

وقد وفد على عمر فأنشده :

لَبَسْتُ أَنْسًا فَأَفْنَيْتُهُمْ وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أَنْسٍ أَنْسًا
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ وَكَانَ الْإِلَهُ هُوَ الْمُسْتَأْسَا^(٢)

فقال له عمر : فكم لبثت في كلّ أهل ؟ قال : ستين سنة . وإذا علمنا أنه مات في خلافة عبد الملك صحّ ما ذكره ابن قتيبة من أنه عاش مائتين وعشرين سنة ، إذ المدّة بين عمر وخلافة عبد الملك تتم هذا المقدار فيكون قد أدرك ثلاثة عصور .

ولقد كانت ضلع الجعدي مع عليّ ، فحارب معه في صفين ، وأعاناه بلسانه ، ونال من معاوية . فلما صار الأمر إليه خشي لسانه ، فلم يعاقبه على ما كان منه ورد إليه ما كان بدأ بأخذه منه من مال وولد وذلك على معاوية وإنشاده :

فَإِنْ تَأْخُذُوا أَهْلِي وَمَالِي بِظَنَّةٍ فَإِنِّي لِحَرَابِ الرِّجَالِ مُجَرَّبٌ^(٣)
صَبُورٌ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْبَرُّ كُلَّهُ سِوَى الظُّلَمِ إِنِّي إِنْ ظَلَمْتُ سَأْغُضِبُ

وقد شايع بعد ذلك ابن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك .

(١) الندمان : يطلق على الأسيف كالنادم وعلى النديم كالنادم وجمعه فيها ندامي .

(٢) المستأس : الستعاض من الأوس ، وهو العطية عوضا .

(٣) حربه : سلبه وحراب صيغة مبالغة .

وقد مات بأصبهان في رحلته إلى الأمصار المفتوحة بعد ما عمر ما عمر .
 [شعره] : لم يعرف عنه أنه كان يهذب شعره في جاهلية ولا إسلام بل كان
 يقوله عفو الخاطر لذلك كان منه الجيد والردىء والمتوسط حتى قال الأصمعي : (وكان
 معجباً به لذلك) عنده مطرف^(١) بالآلاف . وخمار بواف^(٢) . فخالف بذلك زهيراً
 والحطيئة ، ووافق الذبياني الذي كان مثله لا يَنْظُرُ في شعره حتى يسمعه من المغنيات
 فيدرك ما فيه من إقواء^(٣) وغيره فيصلحه .

وقد ذكروا أنه كان مغلباً ما هاجى أحداً ولا نافره إلا غلب . هاجى أوس
 ابن مفرأ . وكعب بن جعيل . وليل الأخيلية فغلبوه جميعاً .
 ونرى أن السبب في ذلك ما كان في طبعه من كرم وإسجاح . يتجلى ذلك في
 ميله إلى التوحيد أيام الجاهلية وإطلاقه عنان الشعر لا يتكلف له ، فلم يستطع مجارة
 من غلب على أنفسهم الشر ، واشتعلت صدورهم بالأحقاد ، ولقد كان إذا عرف أن
 منافره أربى عليه أسرع بالاعتراف بالهزيمة ، لا يكابر ولا يمارى ، فإنه سمع قول أوس
 ابن مفرأ في منافرته :

لَعَمْرُكَ مَا تَبَلَّى سَرَّابِيلُ عَامِرٍ مِنْ اللَّوْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا
 فقال : لقد غلب أوس .

ولقد أجاد في الفخر والثناء والهجاء والمدح ووصف الخيل . وكان أحد ثلاثة أجادوا
 وصفها وهم : طفيل الغنوى ، وأبو داود ، والنابعة الجعدى .

(١) الطرف (مثلثة الميم) : ثوب من خز مربع ذو أعلام .

(٢) لواف : هو الدرهم قدر درهم ومثلث .

(٣) هو اختلاف حركة الروى المطلق بالكسر والضم مثل قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير
 كأنهم قَصَبٌ جَفَّتْ أَسَافِلُهُ مثقَّبٌ فَعَجَتْ فِيهِ الْأَعَاصِيرُ

شعره :

لعل أشرف شعره قصيدته التي مدح بها رسول الله ، وهي طويلة تبلغ مائتي بيت :
 خَلِيلِي عُوْجَا سَاعَةً وَتَهَجَّرَا وَلَوْ مَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا (١)
 وَلَا تَهْجُرَا إِنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ خِفْنَا رِوَعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرَا (٢)
 وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ فَلَا تَهْجُرَا مِمَّا قَفَى اللَّهُ وَاصْبِرَا
 أَلَمْ تَرَيَا أَنَّ الْمَلَأَمَةَ نَفَعَهَا قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَّى وَأَذْبَرَا
 تَهْيِجُ الْبُكَاءِ وَالنَّدَامَةُ ثُمَّ لَا تُغَيِّرُ شَيْئًا غَيْرَ مَا كَانَ قُدْرَا (٣)



أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرَا
 أَقِيمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَخْذَرَا (٤)
 خَلِيلِي قَدْ لَاقَيْتُ مَا لَمْ تَلَاقِيَا وَسَيَّرْتُ فِي الْأَحْيَاءِ مَا لَمْ تُسَيِّرَا
 تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرُ تَهْيِجُ لَذِي الْهُوَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا

ومنها في الفخر :

وَتُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسِبُ الْجَوْنَ أَشْقَرَا (٥)
 وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَعُوذُ خَيْلِنَا إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ نَحْمِذَ وَتَنْفِرَا
 وَمَا كَانَ مَعْرُوفًا لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صَحَاحًا وَلَا مُسْتَنْكَرًا أَنْ نَعْقِرَا (٦)

- (١) تهجر : سكن وقت الهجرة : والمراد هنا مجرد اللبث .
 (٢) قر بالكسر أمر من وقر (كوعد) بمعنى رزن وبالفتح أمر من قر (كمر) وخففت بمحذف إحدى الراءين وبهما قرئ قوله تعالى : « وَقُرْآنَ فِي يُبُوتِكُنَّ » .
 (٣) لا يصبح المعنى إلا إذا فهم من تغير معنى تحدث .
 (٤) أحذر : تفضيل من حذر .
 (٥) تنكر : تجهل . الجون هنا الأبيض . أشقر : أحمر .
 (٦) المفرد صحيج وصحاح (بالفتح) والجمع صحاح (بالكسر) . العقر : ضرب قوائم الدابة لتمنع عن الحركة مقدمة لدبحها . فارادة معنى الذبح من العقر مجاز .

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَّاوُنَا وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : فَأَيْنَ الْمَظْهَرِ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ فَقَالَ الْجَنَّةُ . قَالَ لَهُ النَّبِيُّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ومنها في الحكم :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَذَّرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكً ، فَأَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةُ سَنَةٍ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ سِنَّةٌ ، ثُمَّ
كَانَ إِذَا سَقَطَتْ لَهُ سِنَّةٌ نَبَتَتْ غَيْرَهَا ، وَكَانَ قُوهُ يَتَلَأَلُ وَيَبْرِقُ .

ومن حكمه أيضاً :

المرء يهوى أن يعيش وطول عيش قد يضره
وتتأبَعُ الأيامُ حتى ما يرى شيئاً يسره
تفنى بشاشته ويبقى من حلوا العيش مره
كم شامت بي إن هلكت وقائل لله دره

معن بن أوس

[اسمه ونسبه] : هو معن بن أوس بن نصر بن زِيَادٍ ينتهي نسبه إلى مُزَيْنَةَ
بنت كَلْبٍ بن دُبْرَةَ .

[حياته] : عاش بدويا أيام جاهليته وإسلامه ، ووفد على عمر بن الخطاب في
خلافته مستعيناً به في بعض شأنه ، وخطبه بقصيدته التي أولها :

تَأَوَّبَهُ طَيْفٌ بِذَاتِ الْجَرَاحِمْ فَنَامَ رَفِيقَاهُ وَلَيْسَ بِنَاخِمْ

ورحل في بعض أيامه إلى البصرة ليمتار منها ويبيع إبلاله ، فتزوج امرأة ذات جمال
ويسار ، وأقام معها حولا ، ثم حنَّ إلى موطنه ، فأذنت له أن يقيم سنة يصلح فيها من

شأنه ويدبر ماله ، فلم يعد بعد العام ، ثم خرجت حاجة فعمرت به في الطريق ، وقد أضلَّ إبلا له ، وحملها على المقام بوطنه فلم تقبل ، فطلقها وندم ، فقال :

فَقُولَا لِلنِّسَى هَلْ تُعَوِّضُ نَادِمًا لَهُ رَجْعَةٌ قَارَ الطَّلَاقَ نُمَازِحًا
وقد كُفَّ بصره في آخر حياته .

منزلته في الشعر :

كان معاوية يفضل مزينة في الشعر ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم ، وهو زهير ، وأشعر أهل الإسلام منهم ، وهما كعب ابنه ومعن بن أوس .

وقد شهد له بالسبق عبد الملك بن مروان حين كان عنده عدّة من أهل بيته وولده ، فقال : ليقبل كلٌّ منكم أحسن شعر سمع به ، فذكروا لامرئ القيس والأعشى وطرفة فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك أشعرهم الذي يقول :

وَذِي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِفْنِهِ بِحِلْيَةٍ عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ^(١)
قالوا فمن قائلها ؟ قال معن بن أوس :

وقد حضر مرّيد البصرة وأنشد فيه ، فمرّ به الفرزدق وهو بالمرّبد ، فقال : يامعن ، من القائل :

لَعَمْرُكَ مَا مَزِينَةُ زَهْطُ مَعْنٍ بِأَخْفَافٍ يَطَّانَ وَلَا سَنَامٍ^(٢)

فقال معن : أتعرف يا فرزدق الذي يقول :

لَعَمْرُكَ مَا تَمِيمٌ أَهْلُ فَلَجٍ بِأُذْرَافِ الْمُلُوكِ وَلَا كِرَامٍ^(٣)

قال الفرزدق : حسبك أنا جرّبتك . قال قد جرّبت وأنت أعلم ، فانصرف وتركه .

(١) الرحم : القرابة : الأظفار : جمع ظفر بضمّتين أو ضم فسكون ، وأما كسر الظاء مع سكون الفاء فلغة شاذة .

(٢) أى ليس لهم صفة الأخفاف في الدوس ولا شرف الأسنمة في الارتفاع .

(٣) الأرداف : جمع ردف وهو الرديف الذي يكون خلف الراكب على دابة واحدة .

وقد تجلت في شعر معن عبارة رصينة وقول جزل في حكمته البارعة ، ومدحه ، وفخره ، وهجائه .

مختار شعره

قال في صفة ابن عمه :

وَذِي رَحِمٍ قَلَّتْ أَظْفَارُ ضِغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرُهُ وَكَأَلَوْتِ عِنْدِي أَنْ يَحُلَّ بِهِ الرِّغْمُ^(١)
فَإِنْ أَغْفُ عَنْهُ أَغْضِ عَيْنًا عَلَى قَذَى وَلَيْسَ لَهُ بِالصَّنْعِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ^(٢)
وَإِنْ أَنْتَصِرَ مِنْهُ أَكُنْ مِثْلَ رَائِسٍ سِهَامٍ عَدُوٍّ يُسْتَهَاضُ بِهَا الْعَظْمُ^(٣)
صَبَرْتُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَمَا تَسْتَوِي حَرْبُ الْأَقَارِبِ وَالسَّلَامُ
وَبَادَرْتُ مِنْهُ النَّأْيَ وَالْمَرَّةَ قَادِرٌ عَلَى سَهْمِهِ مَا دَامَ فِي كَفِّهِ السَّهْمُ^(٤)
وَيَشْتُمُ عِرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ
إِذَا سُمِّتُهُ وَصَلَ الْقَرَابَةُ سَامِنِي قَطِيعَتَهَا تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ^(٥)
وَإِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصِفِ يَأْبَ وَيَعْصِنِي وَيَدْعُو لِحُكْمٍ جَائِرٍ غَيْرُهُ الْحُكْمُ^(٦)
فَلَوْلَا اتَّقَاءُ اللَّهِ وَالرَّحِمِ الَّتِي رِعَايَتُهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمٌ
إِذَنْ لَمَلَأَهُ بَارِقِي وَخَطَمْتُهُ بِوَسْمٍ شَنَارٍ لَا يُشَاكِهِ وَسْمٌ^(٧)

(١) الرغم : القسر والاذلال .

(٢) أغضى عينه : أطبق جفنها . القذى : ما يقع في العين فيؤذيها .

(٣) راس السهم : وضع فيه الريش ليكون أسد له وأصوب . هاض العظم : كسره بعد جبر وذلك أشد وأنكى .

(٤) بادر الشيء : سبق إليه . النأي : البعد .

(٥) سامه الشيء : كافه إياه .

(٦) النصف مثلثة : العدل ، اسم من الالصاف .

(٧) خطمه : ضرب خطمه (أفقه) .

وَيَسْعَى إِذَا أُبْنِي لَيْهَدِمَ صَالِحِي
يَوَدُّ لَوْ أُنِّي مُعْدِمٌ ذُو خَصَاصَةٍ
وَيَعْتَدُّ غَنًّا فِي الْحَوَادِثِ نَكْبَتِي
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْبِي لَهُ وَتَعَطُّي
وَحَفِيزُ لَهُ مِنِّي الْجَنَاحَ تَأَلُّفًا
وَقَوْلِي إِذَا أَخْشَى عَلَيْهِ مُصِيبَةً
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءٍ مِنْهُ تُرِيبِي
لَأُسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنُ حَتَّى أُسْتَلَّاتُهُ
رَأَيْتُ أَنْثِلَامًا بَيْنَنَا فَرَقَعْتُهُ
وَأَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوْشَعًا
فَدَاوَيْتُهُ حَتَّى أَرْفَأَنَّ نِفَارُهُ
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ

ومن أحكم شعره وأعنه :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرَيْبَةٍ
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا
وَلَا سَحْمَتْنِي نَحْوُ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
وَلَا دَلَّتْنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

(١) الخصاصة : الفقر أو كل خلل أو خرق في باب أو نحوه . الجهد بالفتح المشقة وبالضم المشقة أو الطاقة .

(٢) السناء : الشرف . وباقصر الضوء .

(٣) الرحم : بالكسر لغة في الرحم .

(٤) الفداء بالكسر ممدود ويقصر ، والفدا بالفتح مقصور لا غير فهي في البيت صالحة لهما وأن تكون أيضا فعلا . المقد : العهد .

(٥) رابني الأمر وأرابني : جعل في قلبي ربيا أي شكا .

(٦) يروي الحلم والحزم وما ظاهران ، وأما الجرم فعناه الجسم والحلق .

(٧) ارفأنا : سكن . صرم : قطيعة .

(٨) سلم : هي هنا بمعنى مسلم .

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِبنِي مُضِيبَةٌ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتِي قَبْلِي
وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيَّيْتُ لِمُنْكَرٍ مِنْ الْأَمْرِ مَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤَثِّرًا نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَتِي وَأَوْثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي
ومن أمثاله السائرة قوله في ابن أخته :

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدَهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نِظَامَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

الخنساء

[اسمها ونسبها] : هي مُنَمَّاضِرُ بنت عمرو بن الشريد السلمي من أهل نجد
وكنيتها أم عمرو ، ولقبت بالخنساء لجمالها تشبيهاً لها بالبقرة الوحشية ، أو لجمال أنفها ،
لأن الخنس^(١) من جمال الأنف . وكان أبوها من سادات سليم .

[حياتها] : نشأت الخنساء جميلة تزينا وفرة عقلا ، وتمتع بشرف أبيها الذي كان
أحد سادات العرب العشرة الذين أوفدهم النعمان على كسرى .

وكان لها أخوان : صخر ، ومعاوية . كان أبوها يأخذ بيديهما في الموسم ويقول :
أنا أبو خيرى مضر ، فن أنكر فليغير ، فلا يغير ذلك عليه أحد .

وقد رآها دُرَيْدُ بن الصمة فارسُ هَوَازِنَ تَهْنَأُ بعيراً لها فلكه جمالها ، وخطبها
إلى أبيها فلم تقبل ، وآثرت الزواج في قومها وقد حياها عند رؤيتها بقوله :

حَيُّوا مُنَمَّاضِرَ وَأَرْبَعُوا صَحْبِي وَقِفُوا فَإِنَّ وَقُوفَكُمْ حَسْبِي^(٢)

(١) هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

(٢) ربح (كنه) وقف وانتظر

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ كَالْيَوْمِ طَالِيَ أَيْتِي جُرْبٍ^(١)
مُتَبَدِّلًا تَبْدُو مَحَاسِنُهُ يَصْعُقُ الْهَنَاءُ مَوَاضِعَ النَّقْبِ^(٢)
أَخْنَسُ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ وَأَعْتَادَهُ دَاءٌ مِنَ الْحُبِّ
فَسَلِّمُهُ عَنِّي خُنَاسُ إِذَا غَضَّ الْجَمِيعُ هُنَاكَ مَا خَطْبِي^(٣)

تزوجت في قوما ، وكان زوجها مثلافا ، فشاطرها أخوها صخر ماله مرات ، وفي كل مرة يعطيها خير الشطرين : وكان صخر أخاها لأبيها .

كانت الخنساء في أول أمرها تقول البيت أو البيتين ، فلما مات أبوها وأخوها هاج الحزن عليهم طبيعة الشعر في نفسها ، فأتت في رثائهم بما لم يعهد كثرة وجودة . وقد وفدت مع قوما وهي مجوز على النبي ، فأسلمت وأعجب النبي بشعرها ، فكان يستنشد بها ويقول : هيه يا خناس ! ويومي ييده .

وكانت مع إسلامها تلبس الصَّدَارَ^(٤) ، وقد كلمتها عائشة رضي الله عنها فيه لأنه منهي عنه في الإسلام ، فقالت : إن سببه أن أخاها شاطرها مرة ماله وخيرها فيما تأخذ فلامته امرأته وقالت : أما كفأك أن تقسم مالك حتى تخير فقال :

وَاللَّهِ لَا أُمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَهِيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَتْنِي عَارَهَا^(٥)
وَلَوْ أُمُوتُ مَزَقْتُ خِمَارَهَا وَجَعَلْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا
فَأَتَّخَذْتُ الشَّعَارَ تَصْدِيقًا لَهُ . وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهُ حَتَّى أَمُوتَ .

قال لها عمر رضي الله عنه يوما وقد رأى ندوبا في وجهها : ما هذا يا خنساء ؟ فقالت

(١) ثامة على وزن فسلة بالتحريك ، تجمع للقلة على أفعل فيقال أنوق وقد يستقلون الضمة على

الواو فيقومون الواو فيقولون أوتق وقد يعوضون من الواو ياء فيقولون أيتق .

(٢) الهناء : الفطران . النقب بالفتح أو الضم : الجرب .

(٣) يقال غص المكان (بالبناء للفاعل) إذا امتلأ بالقوم . وقد أسند الفعل هنا لأهل المكان مجازا .

(٤) الصدار : شعر المرأة الخزينة تجزعه ثم تلبسه في صدرها .

(٥) خنار : جمع شير ككريم وكرام . حصان : عفيفة .

من طول البكاء على أخوى ، فقال لها : أخواك في النار ، فقالت : ذلك أطول لحزنى وإني كنت أبكيهما من الثأر . فأنا اليوم أبكيهما من النار .

وبقدر جزعها على أخويها في الجاهلية كانت رابطة الجأش في أمر بنينا الأربعة الذين حضرت معهم حرب القادسية ، وحرّضتهم على القتال بقولها :

يا بني : إنكم أسلتم طائعين وهاجرتم مختارين . والله الذي لا إله إلا هو إنكم ليُنُو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة . ما هَجَنْتُ حَسْبَكُمْ . ولا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ ، واعلموا أن الدَّارَ الآخِرَةَ خير من الفانية . اصْبِرُوا وصابروا واتَّقُوا اللهَ لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قد شَمَرَتْ عن ساقها ، فَيَمِّمُوا وَطِيسَهَا ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خَمِيسِهَا تَظْفَرُوا بِالْعُغْمِ والكرامة في دار الخلود والمقامة^(١) .

فقاتل أبناؤها حتى قتلوا جميعاً ، فلما نُعُوا إليها قالت : الحمد لله الذي شَرَّفَنِي بموتهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقرِّ رحمته . وقد أعطاهَا عمر أرزاق أبنائها طول حياته . وقد ماتت الخنساء بالبادية في خلافة معاوية سنة ٥٠ هـ .

[منزلتها في الشعر] : عرف قدرها في الشعر جاهلية وإسلاماً ، فقد حضرت سوق عكاظ ، ففضاها النابغة ، (وكان له الحكم في الشعر) على كل من حضر السوق إلا الأعشى ، فهاج ذلك غضب حسان .

وسئل جرير من أشعر الناس ؟ فقال : أنا لولا الخنساء ، وكان بشار يقول : لم تقل امرأة الشعر إلا ظهر الضعف فيه ، فقليل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، وقد فضاها معاوية على الأخطل ، وهو حاضر عنده للإنشاد ، فأقرَّ لها الأخطل بالفضل ، وإذا ثبت أن النبيَّ قال عنها إنها أشعر الناس في رده على عذِّي ابن حاتم لما وفد عليه وقال : فينا أشعر الناس . وأسحى الناس . وأفرس الناس^(٢) . فذلك شرف لها لا يعدله شرف .

(١) المقامة بالضم : الإقامة .

(٢) أشعر الناس : . امرؤ القيس . وأسحام : حاتم . وأفرسهم : عمرو بن مقزذ كرب .

وأغلب شعر الخنساء في رثاء أبيها وأخويها ، وما تبع ذلك من فخر بالكرم ،
ووصف للشجاعة ، ولشعرها وقع في القلب ، وهزة في النفس ، والنساء أشجى الناس
وأشدّهم حزنا على هالك .

ويقول نقدة الشعر : إن شعرها لم تتغير صيفته بعد الإسلام ، ولم تعدل به عن
موضوعه القديم من البكاء على أخويها وأبيها . ونرى أن ذلك لأنها امرأة لا تجول
بجال الرجال في تعلم الدين ، ومخالطة رجاله ، ودراسة القرآن ، وآثار النبي ، ثم هي لم
تترك الإسلام إلا عجوزا لاهمة فيها لشيء من ذلك .

شعرها :

فضلها جرير على جميع الشعراء بقولها :

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا يُفْنِي لَهُ عَجَبٌ أَبْقَى لَنَا ذَنْبًا وَأَسْتَوْصِلَ الرَّاسُ
أَبْقَى لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَجَمْعَنَا بِالْحَامِلِينَ فَهُمْ هَامٌ وَأَرْمَاسُ^(١)
إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

وفضلها النابغة على كل من حضر السوق إلا الأعشى لقولها :

قَدَى بِمَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمُّ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ^(٢)
كَأَنَّ دَمْعِي لِلدِّكْرَاءِ إِذَا خَطَرَتْ فَيَفُضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَلْدَيْنِ مِدْرَارُ
تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَهَتْ وَدَوْنَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أُسْتَارُ
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا إِذْ رَاجَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

ومنها :

وَإِنَّ صَخْرًا كَأَنِّي وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ

(١) الحاملون : الذين يحملون المفارم عن القوم أي الأسياد . هام : جمع هامة ، يقال فلان

هامة اليوم أو الغد : أي هو ميت اليوم أو غدا . الأرماس : جمع رمس وهو القبر .

(٢) القدى : ما يقع في العين فيؤذيها . العوّار : كل ما أعل العين .

وَإِنَّ صَخْرًا لَقَدَامُ إِذَا رَكِبُوا وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهُدَاةُ بِهِ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
حَمَلِ أَلْوِيَةِ هَبَّاطُ أَوْدِيَةِ شَهَادُ أُنْدِيَةِ لِلْجَيْشِ جَرَارُ

ومن قولها في صخر أيضاً :

أَمِنْ حَدَثِ الْأَيَّامِ عَيْنُكَ تَهْمِلُ نُبِكِي عَلَى صَخْرٍ وَفِي الدَّهْرِ مَذْهَلُ
أَلَا مَنْ لِعَيْنٍ لَا تَجِفُّ دُمُوعُهَا إِذَا قُلْتُ أَفْنَتْ تَسْتَهْلُ فَتَحْفِلُ
عَلَى مَا جِدِ ضَخَمَ الدَّسِيعَةِ بَارِعُ لَهُ سَوْرَةٌ فِي قَوْمِهِ مَا تَحْوَلُ
فَمَا بَلَغَتْ كَفْتُ أُمْرِي مُتَنَاوَلَا مِنْ الْمَجْدِ إِلَّا وَالَّذِي نِلْتَ أَطْوَلُ
وَلَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْبَعُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ومن أجل البيتين الأخيرين فضلها معاوية بمحضر الأخطل ، وأقر لها الأخطل بالفضل .

ومن جيد رثائها لصخر :

يَذْكُرْنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
فَلَوْلَا كَثْرَةُ آبَا كَيْنِ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَلَكِنْ لَا أَزَالُ أَرَى عَجُولًا وَنَائِمَةً تَنُوحُ لِيَوْمٍ نَحْسٍ
هُمَا كِلْتَاهُمَا تَبْكِي أَخَاهَا عَشِيَّةَ رُزْنِهِ أَوْ غَبَّ أُمْسٍ

(١) المقر : ضرب قوائم الدابة لتسقط على الأرض وتمتنع حركتها ، وهو عندهم مقدمة للنحر فاستعماله في النحر مجاز .

(٢) هملت العين (كضرب) كثر نزول دمعها . المذهل : هنا مصدر ميمي : أى الدهول ، والمعنى إن الدهر في ذهول عنك لا يهيمه أمرك ولا يردّ لك بالبكاء فائتاً .

(٣) استهل المطر : بدأ نزوله . حفلت السماء (كضرب) كثر مطرها .

(٤) الدسيعة : الجفنة . أو المائدة الكريمة . برع : تم في كل فضل وكال .

(٥) تقول أذكره في أول النهار لأنه الوقت الذي كان يخرج فيه للغارة وأذكره في المساء لأنه الوقت الذي يتجمع فيه الضيفان في فئائه . كذا ذكره في الكامل .

(٦) العجول : الشكلى والواله من النساء والابل لعجلتها في حركتها جزعاً .

وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ^(١)
فَقَدْ وَدَّعْتُ يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ أَبِي حَسَّانَ لَدَاتِي وَأُنْسِي
فِيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَكَلَفَ أُمِّي أَيُضِيحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُنْمِي

ومن قولها : وقد تسابق أبوها وأخوها فسبق أبوها ، فقيل لها : لئن مدحت أباك
لقد هجوت أخاك ، فقالت : وتخلصت من الموقف أحسن تخلص يجعل سبق أبيها ليس
عن عجز أخيها ، ولكنه اعتراف بحقه وتسليم لكبر سنه .

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةً الْحُضْرِ^(٢)
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ نَزَّتْ هُنَاكَ الْمُنْذِرُ بِالْمُنْذِرِ^(٣)
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ إِلَيْهِمَا قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ لَا أَدْرِي
بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِهِ وَالِدِهِ وَمَضَى عَلَى غُلُوبِهِ يَجْرِي^(٤)
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ^(٥)
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَبَا إِلَى وَكْرٍ

حسان بن ثابت

[اسمه ونسبه] : هو حَسَّانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ حَرَامِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ عَدِيٍّ
ابْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ النُّجَارِ وَيَنْتَهِي إِلَى الْخَزْرَجِ .

(١) النَّاسِ : اتخاذه الناس أسوة لك (أشباهها) في المصيبة .

(٢) الْحُضْرُ وَالْإِحْضَارُ : السرعة .

(٣) نَزَّتْ : تحركت واضطربت . لَزَهُ بِهِ . أَلْصَقَهُ بِهِ . المنذر بسكون الذال : الشعر الذي على
كاهل الفرس . أو أصلها المنذر بضمين فتسكون جمع عذار وهو جانب اللحية أو ما وقع

عليه من اللجام .

(٤) الْغُلُوبَاءُ : الغلو .

(٥) الْكِبَرُ : الصرَف والعظمة .

ويكنى أبا الوليد ، وأبا المضرب ، وأبا الحسام ، وأبا عبد الرحمن ، وابن الفريرة وأمه الفريرة أدركت الإسلام ، فأسلمت .

[حياته] : ولد حسان بالمدينة قبل عام الفيل بثمان سنين (قبل الهجرة بنيف وستين عاماً^(١)) ، فلما شبّ وحصف عقله انطلق يقول الشعر . وقد اشتهر أمره في الجاهلية فانتجع بشعره الملوك وقبل عطايهم . وقد مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة كما مدح الغساسنة ملوك الشام ، وكانت بينه وبين أهل يثرب واشجة نسب ، وأكثر ما كان مدحه لجبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، حتى اشتهر قوله فيه كما اشتهر عطاء جبلة له ، فقد أقسم جبلة لا يطيف به ذكر حسان إلا أرسل إليه ، ولا يمرّ به غاد أو راح إلى المدينة إلا بعث معه ما يطرف به حسان .

دخل الإسلام المدينة وعمر حسان قرابة ستين سنة ، فأسرع إلى الإسلام ، وأبلى فيه بلسانه بلاءً حسناً ، فقد تصدّى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشدّ من وقع الحسام في غبش الظلام » .

لم يبدأ بهجائهم حتى أتى أبا بكر وهو أعلم العرب بأنساب قريش ، فجعل يده على عوراتهم ، فيقول له : كفّ عن فلان ، واذكر فلانا ، وكفّ عن فلانة . واذكر فلانة . وذلك لموضع رسول الله من قرابة قريش ، فجعل يقع في أعراضهم ما شاء غير متعرّض لآل النبي ، واستله منهم استلال الشعر من العجين كما يقول .

ومن شعره في هجاء أبي سفيان وقد تمثل فيه حذقه لنسب قريش بما علمه أبو بكر حتى قالت قريش لقد قال : ابن أبي قحافة الشعر بعدنا ، قوله :

وَإِنْ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بِنْتٍ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ^(٢)

(١) كان عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام وهو العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) بنت مخزوم هي غاطمة بنت عمرو وهي أم عبد الله (جدة رسول الله) . والعبد يريد به الحرث ابن عبد المطلب (أبو أبي سفيان) وكانت أمه أم ولد . وأبناء زهرة يريد آمنه وهالة (أم حزة وصفية) وهما زهرتان فهما بنتا وهب بن عبد مناف بن زهرة .

وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ مِنْكُمْ كِرَامٌ وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ
وَأَنْ أَمْرًا كَانَتْ سُمِّيَتْ أُمُّهُ وَسَمَرَاءُ مَثْلُوبٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ
وَأَنْتَ هَجِينٌ نَيْطَ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطَ خَلْفَ الرَّائِبِ الْقَدَحُ الْقَرْدُ

ولقد أبلى حسان في الدفاع عن النبي وتعظيم أمر الإسلام والمسلمين ، فلم يترك مقاما
إلا قال فيه : فمن هجاء لقريش وتناول لإشرافها ، إلى وصف لنفوز المسلمين في الغزوات ،
إلى مدح للنبي وصحابته . ولم تقتصر همته في القول بعد موت النبي ، فقد استمر يرثيه
ويمدح خلفاءه ويؤثبهم .

كان حسان موضع الرضا منذ دخل في الإسلام . فقد وهب له النبي سيرين أخت
مارية أم المؤمنين ووالدة إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام . وأعقب حسان من
سيرين ابنه عبد الرحمن ، كذلك وهب له رسول الله ﷺ ، وهو قصر بالمدينة كان
لأبي طلحة فتصدق به على آل النبي .

كذلك عرف الخلفاء لحسان فضله فقرضوا له العطاء الكافي من بيت المال .
ولما شاع حديث الإفك كان حسان أحد الذين خاضوا في عرض السيدة عائشة
رضي الله عنها ، وكانوا خمسة : عبد الله بن أبي بن سلول . وزيد ابن رفاعة وحسان .
وحمنة بنت جحش^(١) ، ومسطح بن أثانة . وقد تاب حسان فلم يحد ، ونزل فيه قوله
تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولا نستبعد حدوث ذلك من حسان ، فهو شاعر يسرع إلى تصديق الوهم ، ويجري
وراء الخيال . ويؤيد خوضه في هذا الحديث ما جرى له من صفوان بن المعطل حين
اعترضه فضربه بالسيف . كذلك شعر حسان في الاعتذار للسيدة عائشة بقوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُرْزَنُ بِرَبِّبَةٍ . وَتُصْبِحُ غُرْفِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ^(٢)

(١) حمنة : هي أخت زينب زوج رسول الله .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ملازمة موضعها . ترن : تبهم . غرثي : جوعي

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ . فَلَا رَقَعْتَ سَوْطِي إِلَى أَنَا مِلِي .
وَكَيْفَ وَوُدِّي مِنْ قَدِيمٍ وَنُصْرَتِي لِيَا لِرَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمُحَافِلِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَا يُطِ وَلَكِنَّهُ قَوْلُ أَمْرِي بِي مَا حِلْ^(١)
فلما أنشدها السيدة عائشة قالت له : ولكنك يا حسان ما تصبح غرثان من الحومن .



وقد ذكروا عن حسان الجبن ، لأنه لم يشهد زحفاً ولا غزوة . وكان يقيم مع
الأطفال والنساء في الحصون ، فقد حدث عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية بنت
عبد المطلب في فارح حصن حسان يوم الخندق ، وكان حسان مع النساء والأطفال في
الحصن ، فرى يهودى فجعل يطوف بالحصن ، فخشيت صفية أن يعرف اليهودى موضعهم
فيدلّ عليهم اليهود وأهل الحصن بحيث لا يغيثهم المسلمون لاشتغالهم عنهم ، فقالت له :
انزل فاقتل اليهودى فقال لها : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب !! ما أنا بصاحب هذا ،
فنزلت هى فقتلته ورجعت إلى الحصن ، ثم قالت : يا حسان انزل فاسلبه فإنه لم يمنعنى
من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى إلى سلبه حاجة .

ويزوى أنه أنشد رسول الله :

لَقَدْ غَدَوْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ مُنْتَطِقًا بِصَارِمٍ مِثْلُ لَوْنِ الْمِلْحِ قَطَاعٍ^(٢)
تَحْفِزُ عَنِّي نِجَادَ السَّيْفِ سَائِفَةً فَضْفَاضَةً مِثْلُ لَوْنِ النَّهْيِ بِالقَاعِ^(٣)

فتبسم رسول الله فأنكسر حسان لظنه أن تبسم رسول الله لوصفه نفسه بالشجاعة مع
جبنه ، ونرى أن تهمة الجبن واقعة على حسان لأنه أكثر من الفخر بشجاعته ، ولم تعرفه

(١) لا يط : لائق . ماحل : تمام . يقال محل به إلى السلطان : أى مسمى . ونم .

(٢) منتطقا بصارم : أى حامله معلقا ومنطقى .

(٣) تحفز : تدفع . النهى : الغدير .

أله مواقع شهدها لا في جاهلية ولا إسلام، فدلّ ذلك على أنه يستر بالقول عاراً لاحتقابه، على أن شهود الغزوات مع النبي كان شرفاً كبيراً للصحابة فكانوا يحرصون على شهودها ويتفاضلون بمقدار ما حضروا منها، فقد حكوا عن عمر أنه حضر مع النبي جميع غزواته، وأن عثمان لم يتخلف إلا عن بدر، وأن علياً شهدها جميعاً إلا تبوك، فلو أن حسان ليس جباناً وعواعا لشهد ولو واحدة منها. ولقد ذكروا أنه كان يخضب شاربه ومقدم لحيته بالحناء، فإذا قيل له: لم تفعل ذلك؟ قال لأكون كأني أسد والغ في دم. وما نرى ذلك إلا تضليلاً للرأى فيه وتمويهاً لجنبه.

وإن نشأة حسان بالقري واشتغاله في جاهليته بزيارة الملوك في شرق وغرب لتجعله بعيداً عن مواقف الشجاعة التي تقتضيها حياة الخشونة والغارة.

وقد عمّر حسان في الإسلام ستين سنة أخرى، قتم له مائة وعشرون سنة قضى معظمها موفور الصحة تامّ الحواس، ثم وهن في آخر أيامه، وكفّ بصره، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

منزلته في الشعر:

قال المبرد في الكامل: «وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعدّون ستة في نسق، وكلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام». فهو إذاً شاعر مطبوع يضرب بعرق بعيد في الشاعرية. لذلك لم يكن معروفاً بتنقيح شعره. وموقفه من وفد تميم شاهد عدل على قوة سليقته. فإنه فوجئ بأن طلب منه النبي الردّ على الزبرقان بن بدر شاعر الوفد، فارتجل قصيدته:

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فِيهِمْ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
وهي من خير قصائده.

ولقد ذكروا أن حسان كان شاعر الحضرة في الجاهلية. ونحن نعلم أن شعر الحضرة دون شعر الوبر. لذلك كانت منزلته وسطاً بين الشعراء، فلم يسام المجيدين، ولم ينحط إلى درجة المقصرين. وفي القصة الآتية بيان لمكانة حسان بين شعراء الجاهلية.

وفد على عمرو بن الحرث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبياني ، وعلقمة ابن عبدة ، فقال له عمرو : إني باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي ، (لأنه يمت إليه بالنسب) ، فقال حسان : لا بدّ من القول ، واستأذن الشاعرين في الإنشاد ، فأنشد :

أَسَأَلْتُ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بين الجوابي فالْبُضَيْعِ فَخَوْمَلِ

فكان شعره دون شعر النابغة وعلقمة ، ولكنه حسن معدود .

وفي الإسلام زمن البعثة ارتفع شأنه ، لأنه لم يكن في أصحاب رسول الله ، ولا في أعدائه شاعر مثله ، فصار الشاعر المقدم عند النبي ، وطارت له شهرة عظيمة ، ونال من إكرام النبي كثيراً ، فقد قال له : « اجهم وجبريل معك » ، وقال له أيضاً : « شنّ الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام » ، وكان ينصب له منبراً في المسجد ويسمع هجاءه لأعدائه .

فهذه الشهرة والشعر الكثير الذي قاله جعلاه بحقّ شاعر الإيمان في الإسلام . و بقيت منزلته دون منزلة الفحول من المضرية .

[أغراض شعره] : كان موضوع شعره في الجاهلية التشبيب ووصف الخمر والمهجاء والمدح والفخر بنسبه وشجاعته وفصاحته . فلما جاء الإسلام بطل من أغراضه التشبيب ووصف الخمر ، وانصرف هجاؤه إلى أعداء رسول الله ، واقصر مدحه على النبي وأصحابه ، وبقى فخره بنسبه وشجاعته وبلاغته ، وزاد عليه الفخر بالإسلام .

وإن من يقرأ شعره في المهددين يرى فرقا ظاهراً في الأسلوب واللفظ : ففي الجاهلية ، عبارة جزلة ، ولفظ ضخم . وفي الإسلام أسلوب سهل ، ولفظ لين . لذلك قال بعض نقدة الشعر إن حسان في الإسلام دونه في الجاهلية لما رأى من هذا الفرق ، وهذا القول حقّ واضح وعذر حسان فيه أن معاني الإسلام جديدة عليه . ليست تلك المعاني التي ألّفها في الجاهلية ودرج عليها ، وسمع كثيراً من نماذجها في شعر فحولها ، ثم

غذره كذلك أنه أدرك الإسلام كبيراً قد زايته همة الشباب وسوزته ، وأنه أكثر من القول ، ومن التعويل على البديهة في أغلب المواقف ، فبان في شعره الضعف واللين . وللقول في ضعف شعره في الإسلام تفصيل اهتدينا إليه من كثرة ترديد الطرف في كل ما قاله في الإسلام . وذلك أننا نرى أن ما قاله في الدفاع عن النبي أقوى وأرصن ، وأشدّ قوافي ، وأحسن سبكاً مما قاله في أغراض أخرى ، ولا نرى لذلك من سبب إلا وعد النبي له بأن روح القدس يؤيده ما كافح عنه في قوله عليه الصلاة والسلام : «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كلفت عن الله ورسوله» ، فهو في هذا كان ملهماً مؤيداً ، فكان لا ينزع عن قوسه ، ولا يرى من كنائته ، وسترى برهان ما قلنا فيما نعرضه عليك من مختار قوله .

رأى النقاد في شعر حسان

ننقل لك في هذا المقام آراء النقاد في شعر حسان كما وردت مجملة مفرقة في كتب الأدب ليكون في كل رأي منها شبه الدليل على منحى من مناحي قولنا الذي فصلناه في الحكم على شعره .

قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر أهل يثرب في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمين كلها في الإسلام ، وقال : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر .

قال الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ، فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة . قال : تنسب إليه أشياء لا تصح عنه ^(١) ، وقال الأصمعي مرة : الشعر نكد يقوى في .

(١) وقد آتى على بعض المنحول حسان ابن هشام صاحب البيرة النبوية فإنه اختصر سيرته من سيرة ابن اسحق وكان هذا ضعيف النقد للشعر فدس عليه أهل المدينة شيئاً ولسبوه إلى حسان . فكان ابن هشام إذا أورد شيئاً منه نبه على أنه منحول فيقول مرة (وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان) أو يقول (وتروى هذه الأبيات لفلان) وهكذا .

الشرّ ويشتدّ ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فخل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

وقال أبو الفرج الأصبهاني : حسان فخل من فحول الشعراء ، وقال النابغة الذبياني لحسان يوماً : إنك لشاعر .

وشهد الأعشى له (وكان صديقه) بالشاعرية ، وقال الحطيئة حين احتضر :
أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حين يقول :

يُشَشُّونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
ومن حكم حسان على نفسه أنه قيل له : لان شعرك أو هرم في الإسلام ؟ فقال للقاتل : يابن أخى ، إن الإسلام يحجز عن الكذب .

ووقف الحطيئة على حسان وهو ينشد شعراً ، فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف تسمع يا أعرابي ، فقال : ما أرى بأساً ، فقال حسان : اسمعوا لقول الأعرابي ! ما كنتك ؟ قال أبو مليكة ، قال : ما كنت قط أهون على منك حين تكنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . قال : فامض بسلام .

مختار قوله :

أَنشَدَ حَسَانُ عُمَرَو بْنَ الْحَرِثِ بِحَضْرَةِ النَّابِغَةِ وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ :
أَسَأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ يَبْنَ الْجَوَابِي قَالْبُضَيْعِ فُحْوَمَلِ
فَالْمَرْجُ مَرْجُ الصُّفَرَيْنِ فَجَاسِمِ فِدْيَارِ سَلْمَى دُرَّسَا لَمْ تُحْلَلِ
دِمْنٌ تَعَاقَبَهَا الرِّيحُ دَوَارِمْ وَالْمُدْجِنَاتُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ^(١)
دَارٌ لَقُومٍ قَدْ أَرَامَ مَرَّةً فَوْقَ الْأَعْرِزَةِ عِزُّهُمْ لَمْ يُنْقَلِ

(١) المدجنات : الغيوم الممطرة . السماء في السماء سما كان أحدهما أغزل والثاني رامج ، وسمى الرامح رامحا لأن له شعاعا مستطيلا منه كالرمح . أما الأعزل فلا شعاع له . ومن في قوله المدجنات من السماء للسببية : أى ممطرات بسبب السماء لأن سقوطه أو طلوعه كان عندهم سبب المطر .

لِلَّهِ دَرَّ عَصَابَةً نَادَتْهُمْ يَوْمًا يَجْلِقُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)
يَمُشُونَ فِي الْحُلَلِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهَا مَشَى الْجَمَالِ إِلَى الْجَمَالِ الْبَزْلِ (٢)
الضَّارِبُونَ الْكَبْشَ يَزْرُقُ بَيْضُهُ ضَرْبًا يَطِيحُ لَهُ بَنَانُ الْفَصْلِ (٣)
وَالْخَالِطُونَ قَعِيرُهُمْ بَغْنِيهِمْ وَالْمُنْعَمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الرُّمْلِ
أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْفَضْلِ (٤)
يُغَشُّونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ (٥)
يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ (٦)
بَيْضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ (٧)
فَلَبِثْتُ أَرْمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ ثُمَّ أَذْكَرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَفْعَلِ
أَوْ مَا تَرَى رَأْسِي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ شَمَلًا فَأَصْبَحَ كَالثَّغَامِ الْمُحْوَلِ (٨)
وَلَقَدْ يَرَانِي مُوْعِدِي كَأَنِّي فِي قَصْرِ دُومَةٍ أَوْ سَوَاءِ الْهَيْكَلِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ كَطَعْمِ الْفَلْفَلِ (٩)
يَسْعَى عَلَى بَكَاسِهَا مُتَنَطِّفٌ فَيُعَلِّنِي مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أَنْهَلِ (١٠)

(١) جلق : دمشق .

(٢) البزل : جمع بازل ، وهو الجمل بلغ تسع سنين .

(٣) الكبش : سيد القوم . البيض : الخوذة . يطيح : ينفصل بعيدا .

(٤) حول قبر أبيهم ، كناية عن الاستقرار . وأنهم دائمو الحصب لا يرتحلون .

(٥) هريز الكلب : صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد . والراد هنا مطلق الصوت .

(٦) البريص : فرع من بردى . يصفق : يخلط . الرحيق : الحار البيضاء .

(٧) الطراز : كلمة فارسية الأصل ، معناها التقدير المستوى . والمعنى هنا من الشكول الجيدة .

وشم الأنف كناية عن السيادة ، إذ كانت الأمة العربية مكونة من صنفين : عبيد وأسياد

وميزة العبيد فطس الأنوف وميزة الأحرار شممها .

(٨) وفي رواية : أما ترى ، ويرد على الأولى حذف النون من ترى بلا موجب ويرد على الثانية عدم

توكيد الفعل مع قرب تأكيد كيد . هنا من الوجوب .

(٩) الحانوت : دكان الحار . صهباء : متخذة من عنب أبيض . كطعم الفلفل : لاذعة .

(١٠) متنطف : لابس النطفة (كهمزة) وهي القرط . النهل : الدمرب الأول أو العطش

إِنْ إِلَى نَاوَلْتَنِي فَردَدْتُهَا قُتِلَتْ قُتِلَتْ فَهَاتَهَا لَمْ تُقْتَلِ (١)
 كَلَّتَاهَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطَنِي بِرُجَاجَةٍ أَرْحَاهَا لِمُقْصِلِ (٢)
 وَلَقَدْ تَقَلَّدْنَا الْعِشِيرَةَ أَمْرَهَا وَنَسُودُ يَوْمَ النَّائِبَاتِ وَنَعْتَلِي
 وَنَسُودُ سَيِّدُنَا جَحَاجِحَ سَادَةٍ وَيُصِيبُ قَائِلُنَا سَوَاءَ الْمُفْصِلِ (٣)
 وَنُحَاوِلُ الْأَمَرَ الْمُهِّمَ خُطَابَةً فِيهِمْ وَنُقْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْصِلِ
 وَتَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رِكَابُنَا وَمَتَى نُحْكَمُ فِي الْبَرِيَّةِ نَعْدِلِ

وفد على رسول الله وفد بني تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ودخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله من وراء الحجرات ، فتأذى رسول الله ، ثم خرج إليهم ، فقالوا : يا محمد جئناك نفاخر بك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطار بن حاجب ابن زُرارة ، فأمر رسول الله ثابت بن قيس ، فرد عليه ، ثم قام الزُّبَيْرُ قَانُ بْنُ بَدْرٍ شاعرهم فقال :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيَّ يُعَادِلُنَا مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا يُقْسَمُ الرَّبْعُ
 وَنَحْنُ نَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْمَعِنَا مِنَ السَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُوْنَسِ الْقَرْعُ
 ثُمَّ تَرَى النَّاسَ تَاتِينَا سَرَائِهِمْ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ نَضْطَنِعُ

وكان حسان غائباً ، فأرسل إليه رسول الله فحضر ، فلما فرغ الزُّبَيْرُ قَانُ أمر رسول الله حسان بالرد عليه ، فارتجل حسان :

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ النَّاسِ تَتَّبِعُ (٤)

والمراد هنا الثاني: أى يسبقني منها ولولم أكن عطشان. عل (كضرب ولصر). لازم ومتعدد بمعنى شرب بعد شرب ، أو سقاء مرة بعد مرة .

- (١) قُتِلَتْ : مزجت بالماء فذهبت سورتها .
- (٢) كَلَّتَاهَا : كلا الماء والحر . والمعنى فى البيت أن الماء والحر ناتجان عن عصر شيء فالألمع عن عصر السحاب والحر عن عصر العنب .
- (٣) جَحَاجِحُ : جمع جحجج ، وهو السيد . سواء المني : وسطه .
- (٤) الدَّوَابَّ : جمع ذؤابة وهى أعلى المني . فهر : أصل قرش وهو فهر بن غالب .

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْبُهُمْ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ
وَلَا يَضْنُونَ عَنْ مَوْلَى بِفَضْلِهِمْ
لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلَتْ جَهْلُهُمْ
أَعْفَةٌ ذُكِرَتْ فِي الْحَيِّ عَقَّتُهُمْ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كِرَامَتَهُ
أَعْطَوْا نَبِيَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُ
إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجِدُوا السَّيْرَ جُهْدَهُمْ
مَا زَالَ سَيْرُهُمْ حَتَّى اسْتَفَادَ لَهُمْ
خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا
فَإِنْ فِي حَرِّهِمْ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ

تَقْوَى الْإِلَهِ وَالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا^(١)
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَأَعْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعَ^(٢)
عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَفَعُوا
فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذْنَى سَبَقِهِمْ تَبِعُ
وَلَا يُصِيبُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبِيعَ^(٣)
فِي فَضْلِ أَخْلَامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسِعُ^(٤)
لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يُزْرِي بِهِمْ طَمَعُ^(٥)
وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدِ جَدَعُوا^(٦)
فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
أَوْ قَالَ عُوجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا^(٧)
أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُمْ بَيْعُ^(٨)
وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِي مَنَعُوا
شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلَمُ^(٩)

- (١) أشياع : جمع شبيعة ، وهي للواحد والجمع ، تقول فلان شبيعة على وهؤلاء من شيعته .
(٢) الخلائق : جمع خليفة ، وهي الطبع .
(٣) الطبع : الدنس والعيب وكل شين في دين أو دنيا . وفي الحديث « نفوذ بالله من طبع يهدي إلى طبع » .
(٤) أعفة : جمع عفيف . أزرى به كذا : جابه وألحق به النقص .
(٥) نالوا كرامته : مقولوب عن نال كرامتهم وهذا ما يؤيده ويدل عليه السياق . جاهد : مجتهد جدعوا : قطعوا .
(٦) ربيع بالمكان : أقام به .
(٧) استفاد (مطاول فاد) بمعنى ذل وخضع . البيع : جمع يبعة (كشيم جمع شبيعة) وهي متعبد النصارى .
(٨) الصباب والسلم : شجران مران .

لَا تَخْرَ إِنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا حُوزَ وَلَا جُزُعَ^(١)
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتِ مُكْتَنِعٌ أَسَدٌ بَيْبِشَةٌ فِي أَرْسَاعِهَا فَدَعُ^(٢)
أَكْرَمُ بَقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَى قَلْبٍ يُؤَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانُ حَائِلِكُ صَنْعُ
فَأَيُّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا^(٣)

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس (أحد رجال الوفد) : والله إن هذا الرجل
(يريد محمداً) لمؤتى^(٤) له ، نخطيبه أخطب من خطيبنا ، وأشاعره أشعر من شاعرنا ،
ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ، فأحسن جوازهم .
ومن قصيدة له أولها في الجاهلية وآخرها في الإسلام ، يصف في أولها الحجر ،
ويهجو في آخرها أبا سفيان^(٥) :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلِهَا خَلَاءَ^(٦)
دِيَارُهُ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرُهُ تُعْفِيهَا الرَوَاسِ السَّمَاءُ^(٧)

(١) خور : جمع خوَار على غير قياس لأن قياسه أن يكون جمع أخور . وجزع : جمع جزوع .
(٢) مكتنع : قريب دان . ببشة : من أعمال مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل منها . وفي وادي
ببشة شجر كثير الأسود . الفدع : عوج المفاصل .

(٣) شمعوا : لم يجدوا . والشع : الطرب والضحك والمرح ، والفعل كنع .

(٤) فلان مؤنث له : سهل الأمر ، من أنثت للنساء : إذا سهلت سبيله .

(٥) وردت هذه القصيدة في سيرة ابن هشام بعنوان أنها قيلت في فتح مكة ، والظاهر أنها قيلت
في هذا المكان قبل حصول الفتح ، بدليل أنها ليس فيها إشارة إلى ماجرى في الفتح ، بل فيها
التوعد بدخول مكة عنوة ، وفيها سب لأبي سفيان وكان قد أسلم بعد الفتح فلا داعي لسبه ، وبدليل
أن النبي لما رأى النساء يلطمن الحيل قال لأبي بكر ماذا قال حسان؟ يريد قوله في القصيدة :
يظل جياننا متمطرات تلطمهن بالحجر النساء .

(٦) ذات الأصابع ، والجواء ، وعذراء : مواضع . ومنزلها أي منازلها ، لأن المفرد المضاف يعم .

(٧) الحسحاس : قوم من بني النجار . تعفيها : تمحو أو تزيل . الرواس : الرياح التي ترمس
الآثار (تسترها) . السماء هنا : المطر .

وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ خِلالَ مُرُوجِها نَعَمَ وشاءَ^(١)
 فدَعَ هذا ولكن من لطيفٍ يؤرِّقني إذا ذهبَ العِشاءُ
 لَسَعْناءَ التي قد تيمَّنتُ فليس لقلْبِهِ منها شِفَاءُ^(٢)
 كأن سبيثَةً من بيت رأسٍ يكون مزاجُها عسلٌ وماءُ^(٣)
 إذا ما الأشرباتُ ذُكرنَ يوماً فهنَّ لطيبُ الراحِ الفِداءِ
 نُؤليها الملامَةَ إن أَلَمْنَا إذا ما كان مَعَثٌ أو لِحاءُ^(٤)
 ونشربها فتتَرَكُّنا ملوكا وأَسَدًا ما يُنهنِّها اللقاءُ^(٥)



عَدِمْنَا حَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ موعِدُها كَدَاءُ^(٦)
 يُتَارَعْنَ الْأَسِنَّةُ مُصْغِيَاتٍ عَلَى أَكْتافِها الْأَسْلُ الظَّمَاءُ^(٧)
 يَظْلُ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخَمْرِ النَّسَاءُ^(٨)
 فَإِذَا تُعْرَضُوا عَنَّا أَعْتَمَرْنَا وَكانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

(١) شاء : جمع شاة ، وهى للمذكر والمؤنث من الغنم ، أو منها ومن المعزى وغيرها ، وأصل شاء شاه قلبت الهاء همزة .

(٢) شَعْناء : اسم امرأة وكانت إحدى زوجات حسان ، وقد قيل إنه لم يعشق كغيره من الشعراء ولأنما كان يذكر نساءه في شعره ، وفي البيت التفات لقوله تيمنته بعد قوله في البيت قبله يؤرِّقني .

(٣) السبيثة : الخمر المشتراة . بيت رأس : موضع بالشام مشهور بالخير ، لذا رفع مزاج مع رف عسل تكون الجملة خبر يكون واسمها ضمير الشأن ، وإذا نصب يكون ذلك ضرورة .

(٤) ألام الرجل : فعل مايلام عليه فهو ملوم بمعنى ملوم . المعث : القتال والفر . الاحاء والملاحاة : المعارضة باللسان .

(٥) ينهنها : يردھا .

(٦) كدء : الثنية العليا بمكة ، وهى التى دخل منها النبي فاتھا .

(٧) معنى منازعة الخيل للأسنة : أن الفارس يضجع رمحہ فتكون شبابه بمساماة رأس الفرس فيجرى محاولا سبق الريح . الأسل : جمع أسلة وهى الرمح . الظماء جمع أظمى : أى أسمر ، يقال رمح أظمى ، وشفة ظمياء : أى سمراء .

(٨) تطمر الفرس : أسرع . تلطمهن النساء بالخير : أى ينفضن ماعليها من الغبار بضرها بالخير .

وَالْإِلَافَاصِرُوا لِحِلَادِ يَوْمٍ يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ يَشَاءُ
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جَنْدًا لَهُمُ الْأَنْصَارُ عُرَضَتَهَا الْقَلَاءُ^(١)
 لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سَبَابُ أَوْ قِتَالٍ أَوْ هِجَا
 فَنُحْكِمُ بِالْقَوَائِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ^(٢)
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
 شَهِدْتُ بِهِ وَقَوْمِي صَدَّقُوهُ فَقُلْتُمْ مَا نُجِيبُ وَمَا نَشَاءُ
 وَجِبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
 أَلَا أَبْلُغُ أَبَاسُفِيَانِ عَنِّي مُعَلَّمَةً فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ
 بَأَنَّ سُوْفَنَّا تَرَكْنَا عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتَهَا الْإِمَاءُ^(٣)
 هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّ كَمَا لَخِيرِكَا الْفِدَاءُ^(٤)
 هَجَوْتُ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينَ اللَّهِ شِيَمَتُهُ الْوَفَاءُ
 أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ^(٥)

(١) يقال فلان عرضة حرب : أى يتعرض له كثيرا فهو عرضة الحرب ، والحرب عرضته كلامها عرضة للآخر .

(٢) نحكم : نمنع ونرد .

(٣) عبد الدار : بطن من قريش كانت لهم السقاية واللواء والحجابة والرفادة . وفي غزوة أحد قال لهم أبو سفيان إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر فادفعوه إلينا ففضضوا وإنما أراد أن يحملهم على الصبر، وكان قد أخذهم منهم طلحة بن أبي طلحة فقتله على ثم أخذهم عثمان ابنه فقتله حمزة ثم سعيد بن أبي طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص ومازال اللواء ينتقل حتى أخذهم عبد لهم يسمى صوابا فقتل فأخذته امرأته . فهذا ما أشار إليه حسان في قوله « سادتها الاماء » ويصبح أن تقرأ سادتها فعلا فتكون تأوها ساكنة ، أو اسما فتكون التاء مضمومة والوزن يجيز الأمرين .

(٤) لما أشد حسان البيت قال الحاضرون : هذا أنصف بيت قالته العرب . وأنت تعلم أنه احتذاء لقوله تعالى (ولما أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

(٥) العطف في قوله ويمدحه على تقدير من : أى ومن يمدحه لأن المادح غير المهاسبي .

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِـرْضِي لِعِـرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ^(١)
لِسَانِي صَارَتْ لَاعِيبَ فِيهِ وَبَحْرِي مَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ^(٢)
وقال يذكرك يوم أُحُد ويغفر بنصر قومه لرسول الله :

وقد ضَارَبَتْ فِيهِ بَنُو الْأَوْسِ كُلُّهُمْ وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرُ هُنَاكَ رَفِيعُ
وَحَامِي بَنُو النَّجَارِ فِيهِ وَضَارَبُوا وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللَّقَاءِ جَزُوعُ
أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَخْذُلُونَهُ لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعُ
وَفَوْا إِذَا كَفَرْتُمْ يَا سَخِينُ بِرَبِّكُمْ وَلَا يَسْتَوِي عَبْدٌ عَصَى وَمُطِيعُ^(٣)
بَأَيْمَانِهِمْ بِيَضُّ إِذَا حَمَى الْوَعَى فَلَا بُدَّ أَنْ يُرْكَدَى بِهِنَّ صَرِيعُ
أُولَئِكَ قَوْمِي سَادَةٌ مِنْ فُرُوعِهِمْ وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ سَادَةٌ وَفُرُوعُ
فَإِنْ تَذَكَّرُوا قَتَلْتُمْ وَحَزَمْتُمْ فِيهِمْ قَتِيلٌ نَوَى لِلَّهِ وَهُوَ مُطِيعُ
فَإِنَّ جَنَّاتِ الْخُلْدِ يُنْزَلُ بِهَا وَأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلَكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعًا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ^(٤)



اتصل عطاء آل جفنة بحسان حتى بعد أن أسلم وتنصروا . فقد أرسل إليه جَبَلَة

- (١) العرض هنا: بمعنى النفس .
(٢) الدلاء : جمع دلو ، والمعنى أن بحره واسع كثير الماء بعيد الفور ، يريد أنه كثير الشعر فصيح اللسان .
(٣) سخين: كناية عن قريش لأنها كانت تكثر من أكل السخينة فعبرت بها ، وقد مازح معاوية الأخنف بن قيس، فقال له: ما الشيء الملفف في البجاد ؟ قال السخينة يا أمير المؤمنين . أشار معاوية إلى وطب اللب يلف في الصوف وكانت تميم (قوم الأخنف) تعبد بحب الأكل قال الشاعر :

إذا مامات ميت من تميم فسررك أن يعيش غيُّ بَرَادٍ
بجُبْزٍ أو بتمر أو بسمن أو الشيء الملفف في البجاد

- (٤) الحميم : الماء الحار . الضريع : طعام أهل النار ، وقيل ان هذه الكلمة لم يكن العرب يعرفونها قبل القرآن .

ابن الأيهم بعد أن ارتدَّ عن الإسلام ، ولحق بهرقل قيصر الروم خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج ، فلما صارت الهدية إلى حسان قال :

إِنَّ ابْنَ جَفْنَةٍ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لَمْ يَغْذُهُمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّومِ
لَمْ يَنْسِنِي بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا كَلَّا وَلَا مُتَنَصِّرًا بِالرُّومِ
يُعْطَى الْجَزِيلَ وَلَا يَرَاهُ عِنْدَهُ إِلَّا كَبْعُ عَطِيَّةِ الْمَذْمُومِ
وَأَتَيْتُهُ يَوْمًا فَقَرَّبَ بَجْلِسِي وَسَقَى فُرَوَانِي مِنَ الْخَرْطُومِ^(١)

وقال يرثي رسول الله :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا كَحِلَتْ مَاقِيهَا بِكُحْلِ الْأُرْمَدِ
جَزَعًا عَلَى الْهَدْيِ أَصْبَحَ ثَاوِيًا يَاخِرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الْفَرْقَدِ^(٢)
بَأبِي وَأُمِّي مِنْ شَهْدَتِ وَفَاتِهِ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمُهْتَدِي
فَظَلِمْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا مُتَبَلِّدًا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدْ^(٣)

موازنات بين أقوال حسان وغيره من الشعراء

يقول حسان :

إِذَا انصرفتُ نَفْسِي عَنِ الشَّرِّ لَمْ تَكْذُ إِلَيْهِ بَوَجْهِهِ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبَلُ
ويقول معن بن أوس البيت بألفاظه ، ولكنه يجعل كلمة الشيء بدل الشر . والاتحاد

(١) الخرطوم : الحمر .

(٢) الفرقد : مقبرة المدينة .

(٣) متبلدا : حيران . متلدا : كثير التلفت .

البيتين في جميع لفظهما لم تبق موازنة إلا بين كلمتي شرّ وشرّاء ، ونرى أن بيت حسان صار بكلمة الشرّ أحكم وأليق بارعواء المسلم وتقواه . أما بيت معن ، فقد صيرته كلمة « الشيء » جاهلياً يني عن ركوب الرأس ، والتمادى في العناد ، واطراح التعقل .

ويقول حسان :

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ رِ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ

ويقول امرؤ القيس :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحَوِّلٌ مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَثَرًا

وبيت حسان خير من بيت امرؤ القيس ، فإن المبالغة فيه مقبولة ، إذ جعل ديب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من المعقول أن يحصل التأثير ، ولكن امرؤ القيس غلا وأحال بإثبات التأثير مع صيانة الجسم بالإتب . على أن في بيت حسان تفصيلاً للتأثير بذكر إحداثة الكلوم ، وهو مجمل في بيت امرؤ القيس ، ولا شك أن الوصف بركة البشرية يناسبه ذلك التفصيل .

وقال حسان :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَالَتِي لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَاتِي بِمُجَمَّدٍ

وقد سبق كل الشعراء إلى هذا المعنى ، ولم يأت بعده من زاد فيه ، بل لا يزال بيت حسان خيراً فيما نعلم من كل بيت سرق منه .

فهذا المتنبي يقول :

الطَّيِّبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طِيبُهُ وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْغَاسِلُ

ولا شك أن اللفظ في بيت حسان قد حاز الفضيلة لأنه قد تيسر له من غير تكلف ذلك النوع البدعي المسمى بالعكس .

وكذلك قد سرقه أبو تمام في قوله :

وَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً لِّشَعْرِي وَلَكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ الْمَدِيحَا

وهو يحاول تحقيق العكس ، فيأبى عليه اللفظ ، إذ جعله كلمة « المديحا » بدل الشعر منع من ذلك .

ولقد ذكروا أن حسان لما أنشد النابغة بسوق عكاظ ، ففضل عليه النابغة الخنساء غضب وقال :

أنا والله أشعر منها ومنك وأبيك ، قال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرَّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَأَبْنَى مُحَرَّقٍ فَأَكْرِمُ بَنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بَنَا ابْنَمَا

قال النابغة : لقد قلت جفانك وأسيفك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . وقالت الخنساء : تقول ، يلعبن بالضحى ، وكان حقّه بالدجى ، ليكون أكثر طراقا ، وقلت الغرّ ، وكان حقّه البيض ، ويقطرن ، وكان الأجل يسلمن أو يفضن . . . وبعض هذه للمآخذ حسن مقبول ، ولكن منها المتكاف الذى يصح أن يكون مدسوسا على هؤلاء العرب الأخفاح الذين لا يعرفون هذه المناقشات اللفظية التى لا تدلّ كثرتها إلا على فساد الذوق . وأرى أن كلمة يقطرن لا غبار عليها ، وليس الفيضان ولا السيولة بأبلغ فى الدلالة على الشجاعة ، لأن السيف مهما كثر القتل به ، فإنه لا يزيد على أن يقطر الدم .

وقد روى بعض الكتب هذه القصة بزيادات لا شك أنها مدسوسة ، كقولهم : إن الخنساء عابت كلمة نجدة ودما ، وقالت : لو قال نجيدات ودماء لكان أبلغ ، وهو قول ظاهر الفساد ، فإن نجدة مصدر ، والدم اسم جنس ، وهما يدلان على الكثير والقليل سواء .

هذا وديوان حسان رضى الله عنه مطبوع فى مصر وغيرها ، ومشروح بعدة شروح ، ونرى أن أليقها وأقربها إلى الصحة والضبط ، شرح الأستاذ الجليل عبد الرحمن البرقوقي ذى الآثار الأدبية الكثيرة .

الحطيئة

نشأ الحطيئة لا يعرف له نسباً صريحاً ينتمى إليه ، وكان كلما سأل أمه عن نسبه خلطت عليه القول وموهت ، فحقد عليها من أجل ذلك كما حقد على أبيه ، لأنه يعرف أن صراحة النسب في العرب شرف لا يعدله شرف . ولكنه لم يستطع مداراة هذه الفضيحة البادية ، فكان يصرح بقوله : أنا موضوع النسب . سأل أمه مرة عن أبيه ، فخلطت عليه ، وكان اسمها الضراء ، فقال :

تَقُولُ لِي الضَّرَاءُ لَسْتُ لَوَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ فَانْظُرْ كَيْفَ شِرْكُ أَوْلَئِكَ
وَأَنْتَ أَمْرٌ تَبْغِي أَبَا قَدْ ضَلَلْتَهُ هَبِلْتُ أَلَمْ تَسْتَفِقْ مِنْ ضَلَالِكَ^(١)

والذي عرف من نسبه أن أمه كانت أمة لأوس بن مالك الذي ينتهي إلى عبس ، وكان أوس متزوجاً بنت رياح بن عوف بن الحارث ، وتنتهي إلى ذهل ، وكان لبنت رياح أخ يقال له الأقم . فيقال : إن أوساً أعلق جاريته الضراء بالحطيئة ، فلما ولدته جاء شبيهاً بالأقم ، وسألها مولاتها : من أبو هذا الصبي ؟ فقالت لها : هو من أخيك ، وهابت أن تقول لها : من زوجك . فلما شبهت الصبي بأخيها قالت لها : صدقت ، فلما مات أوس ترك بنين من الحرة ، وتزوج الضراء رجل من عبس ، فولدت رجلين ، فكانا أخرى الحطيئة من أمه ، وقد أعتقت بنت رياح أم الحطيئة ، فلما صارت حرة

(١) يقال هبله أمه : أى تكلمه ، والقياس أن يقال في الدعاء هبلت (بالبناء للمجهول) لأنه زعموا

يدعو عليه أن يشككه أمه ولكن صاحب لسان العرب نقل عن ابن الأعرابي أنه يقال في الدعاء

هبلت (بالبناء للفاعل) .

اعترفت أنها اعتلقت بالخطيئة من أوس . . وإنما ذكرنا هذا لنريك كيف أن الخطيئة اتخذ من هذا التاريخ وسيلة لإشباع طمعه ، وإرضاء نفسه الخريصة على المال فإنه قام يطالب بميراثه من نواح كثيرة : طالب ابني أوس بنصيبه مما خلفه أوس ، فامتنعا وقالا : أقم معنا ونواسيك ، فلم يرض حكمهما ، وقال يهجوها :

أَأْمَرْتُمَانِي أَنْ أَقِيمَ عَلَيْكُمَا كَلًّا لَعَمْرُ أَبِيكُمَا الْحَبَّاقِ (١)
عَبْدَانِ خَيْرُهَا يُشَلُّ بِضَبْعِهِ شَلَّ الْأَجِيرِ قَلَانِصَ الْوَرَّاقِ (٢)

ثم لحق بإخوته من الأقم وسألهم ميراثه ، وتملقهم أولاً بالمدح ، فقال :

إِنَّ الْيَمَامَةَ خَيْرُ سَاكِنِهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ مِنْ بَنِي ذُهَلِ (٣)
الضَّامِنُونَ لِمَالِ جَارِهِمْ حَتَّى يَتِيمٌ نَوَاهِضُ الْبَقْلِ (٤)
قَوْمٌ إِذَا أُتْسَبُوا فَفَرَّعُهُمْ فَرَعِي وَأَثْبَتُ أَصْلِهِمْ أَصْلِي

فأعطوه نخلات سميت بعدُ نَخَلَاتِ أُمِّ مَلَيْكَةَ ، وهي أُمَامَةُ امرأة الخطيئة . ثم لم تقنعه النخيلات ، وقد قام فيهم زمانا ، فسألهم ميراثه فلم يعطوه ، وضربوه فقال :

تَمَنَيْتُ بُكَرًا أَنْ يَكُونُوا عِمَارَتِي وَقَوْمِي وَبَكَرْتُ شَرُّ تِلْكَ الْقَبَائِلِ (٥)
إِذَا قُلْتُ بُكَرَى نَبَوْتُمْ بِحَاجَتِي فَيَالِيَتَنِي مِنْ غَيْرِ بُكَرٍ بَنِ وَائِلِ (٦)

وغاضبهم فعاد إلى بني عبس وانتسب إلى أوس بن مالك .

(١) الحباق : الكثير لإخراج الریح .

(٢) يشل : يطرده . الضبع : وسط العضد . الوراق : صاحب الورق ، وهو المال : من ابل ودراهم وغيرها .

(٣) القرية : موضع باليمامة مساكن بني ذهل .

(٤) نهض البقل : استوى على سوقه ، يقول : إذا أجذب الناس ضمن هؤلاء المدوحون لجارهم وضيقتهم ماله ، لا يمتدى عليه ، ولا يهلكه الجذب حتى يعود الحصب .

(٥) العمارة : أصغر من القبيلة .

(٦) نبوتم : تباعدتم .

ذلك هو الخطيئة الذي كان متدافماً فيه بين قبائل العرب، يأوى إلى هذه إذا غضب على تلك، ويصحح نسبته من واحدة إذا عتب على الأخرى .



اجتمع على الخطيئة اختلاط النسب، (وهي شنة ما بعدها شنة)، وقبح الخلقة إذ كان قصيراً، (وقيل إنه سمي الخطيئة: لقصره) قريباً من الأرض دميماً، صغير العينين مضغوط اللحيين: وانضم إلى ذلك حرص منه على المال، وشدة نهم إليه، حتى كان أحد بخلاء العرب المشهورين، وهم فيما عدوا أربعة: الخطيئة، وحديد الأزقظ، وأبو الأسود الدؤلى، وخالد بن صفوان. كان الخطيئة يطرد أضيافه، فقد مر به رجل، وهو فى غنم له، فقال الرجل: يا صاحب الغنم، فرغ الخطيئة العصا وقال: إنها تجبراء^(١) من سلم، فقال: الرجل إني ضيف، فقال للضيفان أعددتها. وقيل مر به ابن الحمامة، وهو جالس بفناء بيته، فقال: السلام عليكم، فقال: قلت ما لا ينكر، فقال: إني خرجت من أهلى بغير زاد. قال ما ضمنت لأهلك قراك. قال أفتأذن لى أن آتى ظل بيتك أنقياً به؟ قال: دونك الجبل ينفى^(٢) عليك. قال: أنا ابن الحمامة. قال انصرف وكن ابن أى طائر شئت.

ونستطيع أن نفسر بهذه الصفات التى قد منها بين يديك كثرة تعرضه للطلب من الناس، وكثرة جشعه، وقلة اقتناعه بما يصل إليه منهم ولجوه إلى الهجاء من أجل منعهم أو إعطائهم المصرد، فقد ذكروا أنه قدم المدينة والناس فى سنة مجلبة، وفى غلبة من خليفة، فشئ أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض وقالوا: قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر، والشاعر يظن فيحقق، وهو يأتى الرجل من أشرافكم فيسأله، فإن أعطاه جهد نفسه بهرها، وإن حرمه هجاه، فأجمع رأيهم على أن يجعلوا شيئاً معداً يجمعونه بينهم، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون العشرة والعشرين

والثلاثين ديناراً، حتى جمعوا له أربعمائة ديناراً، وظنوا أنهم قد أغنوه ، فاتوه فقالوا : هذه صلة بنى فلان ، وهذه صلة بنى فلان . فأخذ جميع ذلك ، ثم إذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلاً ينادى من يحملنى على بغلين وقاه الله كبة جهنم .

وفى أخباره : أنه مضى إلى عتيبة بن النّّاس ، فسأله فقال له : ما أنا على عمل فأعطيك ، ولا فى مالى فضل عن قومي ، فقال له : لا عليك ، وانصرف ، ثم لام عتيبة قومه ، وقالوا : هذا الخطيئة ، وهو لا بدّ هاجبنا أخبث هجاء ، فقال : ردّوه ، ثم أرسل معه وكيله إلى السوق ، وقال له : لا يطلب شيئاً إلا اشتريته له ففعل حتى قضى أمره ومضى ، وفيما عتيبة جالس فى نادى قومه إذ أقبل الخطيئة ، فلما رآه عتيبة قال : هذا مقام العائذ بك يا أبا مليكة من خيرك وشرّك ، فقال : إني قد كنت قلت بيتين فاسمعهما ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْجَلْهُ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلًا فِسِيَّانٍ لَازِمٌ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ لَا الْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَتُعْطَى وَلَا يُعْدَى عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ^(١)

ثم ركض فرسه وذهب .

وحديثه مع الزبرقان بن بدر يدلّ على الشره وقلة الوفاء ، فأما الشره فلأنه تعجل عطاء بفيض ولم ينتظر الزبرقان حتى يعود إليه كما وعده ، وأما غدره فلأنه ترك جوار الزبرقان من غير إساءة لحقته من الرجل ، ولم يكتف بذلك بل هجاه من غير أن يكون منه إليه منع ، ولكنها النفس الشريرة كالنار تكمن فى الحطب فيؤججها عود ثقاب ، وإليك قصته مع الزبرقان ترى فيها نفس الخطيئة ودنائه وشدة جشعه .

قدم الزبرقان على عمر ليؤدّي صدقات قومه ، فلقى الخطيئة بقرقرى^(٢) ، وهى أرض باليامة ، وكان مع الخطيئة ابنه أوس وسودة وبناته وامراته ، فقال له الزبرقان :

(١) أعداه على الأمر : ساعده عليه . الوجد : الغنى ، ومعنى لا يعدى على النائل الوجد ، ليس الغنى هو الذى يعين المرء على العطاء . بل لا بد له من أن يكون الكرم طبعاً فيه حتى يعطى .
(٢) أرض باليامة فيها قرى ومزارع ونخيل .

وقد عرفه ، ولم يعرفه الحطيئة : أين تريد ؟ قال العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة . قال : وما تصنع بها ؟ قال : وددت أن أصادف رجلاً يكفيني مئونة عيالي وأصفيه مدحى^(١) أبداً ، فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبناً وتمراً ، ويجاورك أحسن جوار وأكرم ، فقال له الحطيئة : هذا وأبيك العيش قال قد أصبته عندي . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا الزبرقان بن بدر . قال : وأين محلك ؟ فدلّه عليه وكتب معه كتاباً إلى أمه أو زوجه لتحسن إليه ، فلهق الحطيئة بمنزل الزبرقان ، ولقي الإكرام والإحسان ، وكان للزبرقان قوم ينازعونه الشرف ، وهم بغيض وإخوته ، وكانوا أشرف من الزبرقان إلا أنه استعلاهم بنفسه ، فأعملوا الحيلة ليحوّلوا الحطيئة إليهم ، ووعدوه وأطعموه ، ودسوا إلى امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج ابنة الحطيئة ، وكانت جميلة كاملة ، فظهرت من المرأة جفوة ، وهى فى ذاك مدارية ، وكانت الأطماع من بنى أنف الناقة قد اعتلجت بنفس الحطيئة ، فلما احتاج أهل الزبرقان للنجعة ، قال لهم الحطيئة تقدموا وأنا لاحق بكم ، ثم لحق ببغيض وقومه ، فبالغوا فى إكرامه وأعطوه لقاءً وكسوة ، فلما قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته ، فجمع قومه وركب فرسه ، وأخذ رمحه ، ووقف بنادى القوم وقال : ردّوا علىّ جارى ، فقالوا : ما هولاك بجار ، وقد تركته بمضيعة ، وألم أن يكون بين الحيين حرب ، فغضّهم أهل الحجا من قومهم وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاختر بغيضاً وقومه ، فجاءه الزبرقان ، فقال له : يا أبا مليكة أفارقت جوارى عن ذمّ وسخط ؟ فقال : لا ، فتركه وانصرف .

فلو أن فى نفس الحطيئة بقية من وفاء لمدح بغيضاً ، ولم يهيج الزبرقان ، فقد اعترف له آنفاً بأنه لم يترك جواره عن سخط أو ذمّ ، ولكنه كان مع طمعه دنىء النفس ساقط المروءة لا يرى الغدر إلا أمراً هيناً ، فقال يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان :

وَاللّٰهُ مَا مَعَشَرُهُ لَأُمُوًّا أَمْرًا جُنُبًا فِي آلِ لَأَيِّ بْنِ سَمَّاسٍ بِأَكْيَاسٍ

ما كان ذنبُ بَغِيضٍ لَأَبَائِكُمْ في بائس جاء يحدو آخرَ الناسِ
لقد مرَّيتُكمُ لو أنَّ دِرَّتَكُمْ يوما يحىء بها مَسْحَى وإِسْأَسَى^(١)
وقد مَدَحْتُكمُ عَمْدًا لَأَرْشِدَكُمْ كَيْفَا يَكُونُ لَكُمْ مَنَحَى وإِمْرَاسَى^(٢)
لَمَّا بَدَأَ لِي مِنْكُمْ عَيْبُ أَنْفُسِكُمْ ولم يكن لِحِرَاحِي مِنْكُمْ آسَى
أَزْمَعْتُ يَا سَا مُبِينًا مِنْ نَوَالِكُمْ ولا يُرَى طَارِدًا لِلْحُرِّ كَالْيَاسِ
جَارٌ لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنَزِلِهِ وغَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسِ^(٣)
مَلَّوْا قِرَاهَ وَهَرَّتُهُ كَلَابِهِمْ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَصْرَاسِ
دَعَرَ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلُ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسَى^(٤)
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
مَا كَانَ ذَنْبِي أَنْ فُلْتُ مَعَاوِلَكُمْ مِنْ آلٍ لَأَيِّ صَفَاةٍ أَصْلَهَا رَاسَى
قَدْ نَاضُلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كَنَائِهِمْ مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلًا غَيْرَ أَنْكَاسِ^(٥)

وكان منذ إقامته فيهم لا يزال يمدحهم ، وهو القائل فيهم :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

(١) مري الناقة يمر بها : مسح ضرعها . الدرة : اللين . المسح : لإمرار اليد على الضرع . الإيساس :

اللطيف للناقة بأن يقال لها بس بس لتسكن ويدبر لبنها .

(٢) المتح : نزع الماء من البئر . أُمِرَسَ الحبل : أعاده إلى مجراه بعد أن يكون قد نشب بين

البكرة والعقو .

(٣) الهون : الذل . الأرماس : جمع رمس ، وهو القبر .

(٤) قال الفراء : إن طاعما وكاسيا في البيت بمعنى مطعوم ومكسو . وعليه ففي البيت مجاز عقلي .

ولا أرى داعيا لهذا مادام في اللغة طعم الرجل بمعنى أكل وكسى بمعنى اكتسى فيكون

استعمال اسم الفاعل على أصله .

(٥) أنكاس : جمع نكس ، وهو أضعف السهام ، وكان العرب إذا أسروا أسيرا خيروه بين التخلية

مع جز الناصية وبين الأسر ، فإذا اخذوا التخلية جعلوا شره المجزوز في كنائهم فإذا

افتخروا أخرجوه ، فهذا هو المراد بقوله « مجدا تليدا » .

فقلب القلب من ذم إلى مدح ، وقد كانوا يطأطئون رؤوسهم لهذه الكلمة ، فصاروا إذا سئل أحدهم عن نسبه قال : أنفى يملأ بها فمه .

وسبب تلقيبهم بهذا القلب أن جدّهم قريعا نحر ناقة ، فقسمها بين نساؤه ، فبعثت جعفرًا أمّه فأتى أباه ، ولم يبق إلا رأس الناقة ، فقال له شأنك بهذا ، فأدخل يده في أنفها وجرها منه ، فسمى أنف الناقة .

وما زال الحطيئة نازلا بالقوم حتى أحيوا ، وكانوا قد وعدوه إذا أصابهم الحيا أن يعطوه مائة من الإبل ، فجمعوها له ودفعوها إليه مع راعيين ، فرحل عنهم وقال :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِذْ وَدَّعْتُ أَرْضَهُمْ أَخِي بَغِيضًا وَلَكِنْ غَيْرُهُ بَعْدًا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ مَنْ يُعْطَى الْجَزِيلَ وَمَنْ يَحْبُو الْجَلِيلَ وَمَا أَكْدَى وَلَا نَكِدًا^(١)
وَمَنْ تَلَاقِيهِ بِالْمَعْرُوفِ مُبْتَهَجًا إِذَا أُجْرَهُدَّ صَفَا الْمَذْمُومِ أَوْ صَلَدًا^(٢)
لَا قِيَتُهُ ثَلَجًا تَنْدَى أَنَا مِـلَهُ إِنْ يُعْطَى الْيَوْمَ لَا يَمْنَعُكَ ذَاكَ غَدًا^(٣)
إِنِّي لَرَأْفِدُهُ وَدَّى وَمَنْصَرَّتِي وَحَافِظُ غَيْبِهِ إِنْ غَابَ أَوْ شَهَدَا

ويظهر أن الغدر الذي غدره الحطيئة كان لا يزال يحز في ضميره ، فإنه أتى ابن عباس ، وقد كفّ بصره والناس حوله يستمعون له ، فقال يابن عم رسول الله أفتى . قال : فيم ؟ قال : أتخاف على جناحا ، إن ظلمني رجل فظلمته ، وشتمني فشتمته ، وقصر بي فقصرت به ، فقال ابن عباس : العفو خير ، ومن انتصر فلا جناح عليه ، أرأيت أمرا أتأني فوعدني وغرني ومناني ، ثم أخلفني واستخفّ بجرمتي ، أيسعني أن أهجوه ؟ قال لا يصلح الهجاء ، لأنه لا بدّ أن تهجو غيره من عشيرته ، فتظلم من لم يظلمك ، وتشتم من لم يشتمك ، وتبغى على من لم ينبغ عليك ، والنبغ مرتعه وخيم ، وفي العفو ما قد

(١) يحبو : يعطى . أكدى الرجل : حفر فصادف الكدية (الصخرة العظيمة) ويقال سأله

فأكدى : أى وجدته مثله : ويقال أكدى الرجل بمعنى بخل . نكد : منع العطاء أو أعطى قليلا

(٢) اجرهدهت الأرض : لم تنبت . الصفا : جمع صفاء ، وهى الصخرة العظيمة لا تنبت . صلد : صلب

(٣) ثلجا : فرحا مبتهجا .

علمت من الفضل . قال الخطيئة : صدقت وبررت ، ثم لم يلبث الخطيئة أن عرف ، فقال له ابن عباس : أجروا ؟ قال : نعم . قال ابن عباس : لله أنت أي مردى قذاف^(١) ، وذائد عن عشيرة ، ومثن بعارفة تؤتاها يا أبا مليكة ، والله لو كنت عرّكت بجنبك بعض ما كرهت من أسر الزبرقان كان خيراً لك ، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك ، وشتمت من لم يشتمك . قال : إني والله بهم لعالم ، ثم أنشأ يقول :

أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهِمْ عِلْمًا وَتَجَرِبَةً فَسَلِّ بِسَعْدٍ تَجِدُنِي أَعْلَمَ النَّاسِ^(٢)
سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ كَثِيرٌ إِنَّ عَدَدَتَهُمْ وَرَأْسُ سَعْدٍ بْنُ زَيْدٍ آلُ شَمَّاسٍ^(٣)
وَالزَّبْرَقَانُ ذُنَابَاهُمْ وَشَرُّهُمْ لَيْسَ الذُّنَابِيُّ أَبَا عَبَّاسٍ كَالرَّاسِ

فقال له ابن عباس : أقسمت عليك أبا مليكة ألا تقول إلا خيراً . قال : أفعل .



أما موقع قول الخطيئة من الزبرقان ، فقد كان شديداً جداً كان خطأ لكرامته وسلباً لمروءته ، فهم ذلك الزبرقان من قوله : « واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي » ، عرف كما يعرف كل خبير بالأسلوب العربي أن مراده أنك ضعيف الهمة ، زمر المروءة^(٤) لا مطمع لك في الحياة إلا أن تكون آكلاً كاسياً . ذلك هو منتهى أملك ، ومرتقى سعيك ، فلست للرياسة ، ولا للدفاع من العشيرة ، فكأنه قد سلبه بهذه الكلمة جميع صفات المجد ، وحلى الشرف ، وهو خبث من الخطيئة ، ولؤم ضريبة ، ومعرفة بمواطن الإيلام من النفوس ، يأتيها من أيسر الطرق بلا جلبة ولا ضوضاء ، أترأه كيف جعل

(١) الردى : حجر يرمى به ، ويقال للشجاع هو مردى حرب أو مردى قذاف .

(٢) البجدة : الأصل ، وباطن الشيء ، والصحراء ، ويقال : أنا ابن بدمتها : أي العالم بها والضمير للصحراء .

(٣) الباء في « بسعد » بمعنى عن كقوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع » . وسعد : هي القبيلة الكبرى التي يرجع إليها آل شماس والزبرقان .

(٤) زمر المروءة : قليلها ، ويقال فلان زمر الشعر : أي قليله ، فزمر بمعنى قليله .

هجاءه في صورة نصيح يسديه إلى هذا الذي يعنى نفسه في طلب المجد ، وهو غير قادر عليه ولا يملك أدواته من كرم وشجاعة وغيرها ، فيقول له في لهجة الناصح :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعْثِيهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

ويدلك على شناعة هذا الهجاء أن عمر لما اشتكى إليه الزبرقان قال : ما أرى هجاء وهو العالم بموضع الإيذاء في الكلام ، ولكنه يريد أن يدرأ الحدود بالشبهات ، ثم حكم الشعراء ، فكان منهم إجماع على فحش هذا الهجاء ، فإن حسان قال : لم يهجه ولكن سلح عليه وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حُمْرَ النَّعَمِ ، وأنه قد قيل في هذا البيت .

ولم يعرف للحطيئة موقف لم يُصنَح فيه إلى داعى شرهه إلا حين طلب منه هجاء أوس بن سُمْدَى ، وكان النعمان قد أقدم إليه وفود العرب وقال : أحضروا غداً فإني ملبس أكرمكم حلة ثمينة فتخلف أوس ، فلما جلس القوم لم ير النعمان أوسا فيهم فطلبه ، فلما حضر ألبسه الحلة ، فحسده قوم من أهله وقالوا للحطيئة : اهجه ولك ثلثائة تاقه ، فقال : كيف أهجو رجلا لا أرى في بيتى أثاثاً ولا مالا إلا من عنده ، ثم قال : كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لأى بظهر الغيب تأتيني



وقد رأيت أن الحطيئة على هجنة نسبه وقبح منظره ، وإخافه في السؤال كان مهيأ مخشى الجانب ملقى بالإكرام من كل من عرفه ، والاعتذار من كل من سبقت إليه منه جفوة ، وما ذلك إلا لأنه كان سفيهاً حقير الشأن لا يتحرج من عيب ، ولا يترفع عن خسيصة فهو يهجو ، وقد أمن أن يهجو ويؤذى الناس في أعراضهم على حين لا عرض له يحرص على ثقافته ، ولو قال الناس فيه لذهب قولهم هباء . هذا هو السر الذى جعل الحطيئة يخلع عذاره ، ويطلق لسانه في أعراض الناس لا يبالي أين وقع ولو رأى الناس له عرضاً يرمى لوجدوا مكان القول ذا سعة ، فهو كما قال القائل :

نَجَا بِكَ لَوْ مُكَّ مَنَجِي الذُّبَا بِ سَحْمَتِهِ مَقَاذِيرُهُ أَنْ يُصَادَا



كان الحطيئة فاسد الدين ، وقد تجلى هذا الفساد في ارتداده بعد وفاة رسول الله وتهكمه بأبي بكر حين ولي الخلافة ، وقد قال في ذلك :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لَعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ
أَيُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ وَتِلْكَ لِعَمْرُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ
كما يتجلى ذلك الفساد أيضاً في نهشه الأعراس ، وقد نهى الدين عنه وفي عودته للهجاء بعد أن تاب على يد عمر وعاهده ألا يعود . فلما مات رجع إلى ما كان فيه من سب الناس كما ترى ذلك ظاهراً في حديثه مع ابن عباس ، فإنه بعد أن أفتاه بحرمته الهجاء لم يبرح مجلسه حتى هجا الزبرقان ، وإنك لتري في وصيته وقد احتضر أن جعل للإناث من أولاده مثل حظ الذكر ، وفي بعض الروايات أنه حرمهن ، فلما قيل له : إن هذا غير ما قضى الله . قال : لكنى هكذا قضيت .



لم يكن الحطيئة صادقاً في قوله حتى يصح أن نتخذ قوله في كل أحواله دليلاً على ذات نفسه ، فقد اختلف قوله وناقض فعله في كثير من الأمور ، ولعل السبب في ذلك أنه ولع بالمباينة في المدح رجاء لما في أيدي الناس كما بالغ في الهجاء ، وادعى على الناس ما ليس فيهم حين يئس من عطايتهم ، ومن أمثلة تلك المناقضات التي وقعت في شعره ، وخالفت فعله قوله :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدٌ

فإنك إذا قست هذا القول بما تعلم من جشعه وبخله وفساد دينه تجد أنه يقول بلسانه ما لا يوقن بجنانه ، وإلا فما الذي حمله على جمع المال وهو يتقدم أن السعادة في غيره .

وهو الذى يُعَدُّ له من حكمه قوله :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ^(١)
ثم لا تعثر له فى أخباره على عارفة أسداها أو كلمة طيبة يرجو ثواب الله عليها حتى إنه
فى وصية وفاته . قالوا له : فما توصى لليتامى ؟ قال : كلوا أموالهم ، وقيل له : ما تقول فى
عبيدك وإمائك ؟ قال : هم عبيد ماعاقب الليلُ النهارَ ، وقيل له أوص للفقراء بشيء ؟
فقال : أوصيهم بالإلحاح فى المسألة ، فإنها تجارة لا تبور .

وقال رجل : دخلت على الخطيئة ، وهو مضطجع على فراشه وإلى جانبه سوداء
قد أخرجت رجلها من تحت الكساء ، فقال له : ويحك ! أفى رجلك خف ؟ قال :
لا والله ولكنها رجل سوداء ، أتدرى من هى ؟ هى والله التى أقول فيها :

وَأَثَرْتُ إِذْ لَاجِي عَلَى لَيْلٍ حُرَّةٍ هَضِيمِ الْحَشَا حُسَانَةَ التُّجْرَدِ ^(٢)
تُفَرِّقُ بِالْمِدْرَى أَثْبَثًا نَبَاتُهُ عَلَى وَاضِحِ الذِّفْرِى أَسِيلِ الْمُقْلَدِ ^(٣)
والله لو رأيته يا أخى ما شربت الماء من يدها . فانظر كيف وصفها بالحسن مع موضعها
من القبح وسوء رأيه فيها .

ومن كذبه يمدح نفسه بالكرم ، وقد علمت مقدار بخله .

وَقَدْ عَلِمْتُ هَنْدًا عَلَى النَّأْيِ أَنَّنِي إِذَا عَدِمُوا يُنْسَرَأُ لَنِعَمِ الْمَكْفُ
أَرْدُ الْخَاضِ الْبُرْلِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُوسِعَ الْمُتَضَيِّفُ ^(٤)

(١) قال الزمخشرى فى أساسه : الجوارى ألطاف الله وأسباب رحمته وأنشد هذا البيت ثم قال :
أو أراد جمع جازية بمعنى الجزاء .

(٢) الادلاج : السير أول الليل والادلاج (بتشديد الدال) السير آخره (وزيادة المبنى تدل على
زيادة المعنى) . هضم الحشا : دقيقة الحصر . حسانة : شديدة الحسن . التجرد : مصدر
ميمى بمعنى التجرد ، أو اسم مكان بمعنى الجسم ، وكل ذلك يفتح الرأء المشددة . وقد تكسر
الرأء على معنى اسم الفاعل ويراد به الجسم .

(٣) الدررى : المشط . الأثيث : الكثيف ، والمراد به الشعر . الذفرى : العظم النابت خاف
الأذن ، وتقدير الكلام على عنق واضح الذفرى .

(٤) الخض : الابل الحوامل ، أو العشار التى أنى عليها من حملها عمرة أشهر ، والواحدة خلفه

وكنْتُ إِذَا دَارَتْ رَحَى الْأَمْرِ رُعْتُهُ بِمَخْلُوجَةٍ فِيهَا عَنِ الْعَجْزِ مَصْرَفٌ^(١)

شعره

أساس القول في شعره أن نقول : إنه تلميذ زهير وراويته وراوية آله من بعده ، وقد علمنا أن زهيراً كان ينقح شعره ويصفيه ، وأن له الحوليات التي لم يكن يظهرها حتى يأتي عليها الحول . وقد ورث عن زهير خير ما يرث تلميذ عن معلمه ، فإن لقوافيه أسر قوافي زهير ، ولقوله نقاء قول زهير ، وخلوّه من المعازلة والتعقيد ، ثم له حكمته التي شاعت شيوع حكمة زهير ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : إن أصدق بيت قالته العرب هو قول الخطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
فقل له فقول طرفة :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ
فقال من يأتيك بها ممن زودت أكثر ، وليس بيت قالته الشعراء إلا وفيه مطعن إلا قول الخطيئة هذا .

وقد مرّ بك من حكمته قوله : (ولست أرى السعادة جمع مال) .

وإنك لتراه في كلّ مجال قوى اللفظ مجتمعه ، شريف المعنى بارعه ، لم يعدّ عليه الناقدون كما عدوا على غيره ، بل لقد عقبوا أقواله بأحكام تجعلها في الذروة من كلام العرب ، فلقد قال حماد الراوية : سمعت أبي يقول ، وقد أنشد قول الخطيئة الآتي أما إنى ما أزعم أن أحداً بعد زهير أشعر من الخطيئة ، وهذا قوله :

بفتح فكسر (واستعمال المفرد نادر) . البزل : جمع بازل وهو الجمل ، أو الناقة في السنة التاسعة وليس بعده سن تسمى . أوسع الرجل : صار ذاسعة . المتضيف (بصيغة الفاعل) الضيف ، من قولهم : تضيفته أى نزلت ضيفاً عليه .
(١) المخالوجة : المزيمة . مصرف : مصدر مبيع بمعنى الانصراف .

وَفَيْنَاكَ صَدَقَ مِنْ عَدِيٍّ عَلَيْهِمْ صَفَاحُ بُصْرَى عُلِّقَتْ بِالسَّوَاتِقِ ^(١)
 إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ وَلَمْ يُمَسِّكُوا فَوْقَ الْقُلُوبِ الْخَوَافِقِ
 وَطَارُوا إِلَى الْجُرُودِ الْعِتَاقِ فَأَلْجَمُوا وَشَدُّوا عَلَى أَوْسَاطِهِمْ بِالْمَنَاطِقِ ^(٢)
 أُولَئِكَ آبَاءُ الْغَرِيبِ وَغَاةُ الصَّرِيخِ وَمَثْوَى الْمُرْمِلِينَ الدَّرَادِقِ ^(٣)
 أَحَلُّوا حِيَاضَ الْمَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ مَكَانَ النَّوَاصِي مِنْ وَجْهِ السَّوَاتِقِ ^(٤)
 وَكَانَ ابْنُ شُبْرُمَةَ يَقُولُ : أَنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِجَيْدِ الشَّعْرِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْحَطِيشَةَ حَيْثُ يَقُولُ
 فِي آلِ شَمَّاسٍ قَوْمٍ بَغِيضٍ :

أَلَا طَرَقْتَنَا بَعْدَ مَا هَجَعُوا هِنْدُ وَقَدْ جُزْنَ غَوَرًا وَاسْتَبَانَ لَنَا نَجْدُ
 وَإِنْ الَّتِي نَكَبْتَهَا عَنْ مَعَاشِرِ عَلَى غِضَابٍ أَنْ صَدَدْتُ كَمَا صَدُّوا
 أَتَتْ آلَ شَمَّاسٍ بَنَ لَا يُيِّ وَإِنَّمَا أَتَاهُمْ بِهَا الْأَحْلَامُ وَالْحَسَبُ الْعِدُّ ^(٥)
 فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ تَعَادَى صَدُورُهُمْ وَذُو الْجَدِّ مَنْ لَانُوا إِلَيْهِ وَمَنْ وَدَّوَا
 يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاثَهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيزَةُ وَالْجَدُّ ^(٦)
 أَقْسَمُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ مِنْ اللَّوْمِ أَوْ سَدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
 أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبَنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا ^(٧)
 وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَةُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا ^(٨)

-
- (١) الصدق : الشدة في القتال . بصرى : مدينة بالشام . صفائح بصرى : الدروع .
 (٢) المناطق : جمع منطقة (بكسر الميم) وهي ما يشد على الوسط .
 (٣) غاة : جمع غاث . الصرغ : طالب النصرة . المرمل : الفقير . الدرادق : جمع دردق وهو الصبي الفقير .
 (٤) عبارة حياض الموت : معناها المنية . السوايق : جمع سابق ، وهو الجواد .
 (٥) العد : القديم .
 (٦) الحفيظة : الحمية .
 (٧) عقدوا : أى عقدوا الألوية للحرب . شدوا : اشتدوا في الحملة .
 (٨) الضمير في كدروها للنعمة المفهومة من أنعموا . والمراد تكديرها بالن . وكدوا : أى أنعموا ، والمراد أنعموا المنعم عليه بطلب الشكر .

وإن قال مولاہم عَلَى جُلِّ حَدِثٍ من الدهرِ رُدُّوا فاضلَ أحلامِكم رُدُّوا
مطاعين في الهيحاء مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجسد
ولقد بكى عمر من شدة التأثر حين أنشد الخطيئة ، وقد أحضر من سجنه للمحاكمة
في أمر الزبرقان :

ماذا تقول لأفراخِ بنى مَرخٍ زُغِبِ الحواصلِ لآماء ولا شجرٍ^(١)
أَلْقَيْتَ كاسِيتَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ^(٢)
أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرِ^(٣)
لَمْ يُؤْتِرْوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِهَا الْأَثَرُ^(٤)
فَانْتَنَ عَلَى صَبِيَةِ بِالرَّمْلِ مَسْكَنُهُمْ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ تَفْشَاهُمْ بِهَا الْقِرَرُ^(٥)
أَهْلِي فِدَاؤُكَ كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مِنْ عَرَضٍ دَاوِيَةٍ تَعْمَى بِهَا الْخُبَرُ^(٦)
لقد حاول الخطيئة أن يؤثر في نفس عمر والتبس كل ذرائع التأثير التي عرف أن البشر
يخضعون لها ، فوصف حال بنيه من صغر وفقر ، ثم التبس التأثير بالمدح الذي يملأ
النفس كبراً وعظمة . ولكن عمر لم يتأثر من كل هذا إلا بوصف الصبية ، فإن دموعه
استهلت عند قوله : ماذا تقول لأفراخ ، وهذا عهدنا بعمر . ولو أن خليفة من بنى أمية
سمع هذا القول لزحف إلى الشاعر وقبل بين عينيه وحكمه في ماله كما سنرى عند دراسة
هذه الدولة ، وبيان مقدار غرام خلفائها بالمدح .

وقال الخطيئة يمدح بغيضاً ، وما أكثر ما قال فيه وفي قومه احتى قال المتقدمون :
إن الخطيئة استفرغ شعره في بنى قريع . قال :

-
- (١) مَرخ : واد بالحجاز . زُغِب : جمع أزغب ، وهو الفرخ يعلوه الريش الأصفر .
(٢) المظلمة هنا : البئر ، وكان الخطيئة قد حبس فيها .
(٣) المقاليد : جمع مقلاد كفتاح وزنا ومعنى . النهي : جمع نهية ، وهى العقل ، أو النهي مفرد
بمعنى العقل أيضا .
(٤) الأثر : جمع أثره وهى الفضيل .
(٥) القِرَر : جمع قررة وهى البرد .
(٦) الداوية : الصحراء الواسعة . الخبر : جمع خير ، وهو العالم بالشيء .

تَزُورُ فَنَى يُعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَمَانَ الْحَامِدِ يُحْمَدُ
تَزُورُ فَنَى مِنْ يُعْطَى الْيَوْمَ نَائِلًا بِكَفَيْهِ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ نَائِلِ الْغَدِ
مَفِيدٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَاسَ أَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَأَهْتَزَّ اهْتَزَّازَ الْمُهَنْدِ (١)
مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ (٢)

قال النقاد ما زال الناس يفضلون قول الأعشى في وصف النار :

تُشَبُّ لِلْمَقْرُورِينَ يَصْطَلِيَانَهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
حتى قال الخطيئة : متى تأتاه . . . فأحل بيت الأعشى .



لم يمر بك من قوله في المجيء إلا ما جاء في حديث الزبرقان ، أو التهم بأبي بكر ،
ولكنك تستطيع أن تمثل حقاً إغراقه في الدم وروحه الخبيثة فيه من تصويره لبخيل
في قوله :

كَدَحْتُ بِأُظْفَارِي وَأَعْمَلْتُ مِعْوَلِي فَصَادَفْتُ جُلُودًا مِنَ الصَّخْرِ أَمْلَسَا (٣)
تَشَاغَلَ لَمَّا جِئْتُ فِي وَجْهِ حَاجَتِي وَأَطْرَقَ حَتَّى قَلْتُ قَدْ مَاتَ أَوْعَسِي
وَأَجَمْتُ أَنْ أَنْعَاهُ حِينَ رَأَيْتُهُ يَفُوقُ فُوقَ الْمَوْتِ حَتَّى تَنْفَسَا (٤)
وَقَلْتُ لَهُ لَا بَأْسَ لَسْتُ بِعَائِدٍ فَأَفْرَخَ تَعْلُوهُ السَّيَادِيرُ مَلْبَسَا (٥)

وغريب أن يكون هذا من شاعر جاهلي ، وهم لم يعرفوا بغير بساطة الفطرة وسذاجة
الفكرة ، فالبعد في الخيال إلى هذا الحد يجعل هذا البخيل قد مات من خوف الاستجداء ،

(١) مفيد : مستفيد : أى كاسب . متلاف : مضيع . تهلل : فرح واستبهر .

(٢) تمشو : تقصد .

(٣) كدح : كدّ واجتهد .

(٤) أجمع : عزم . الفواق : ما يأخذ الميت عند الاحتضار .

(٥) أفرخ : سكن وهدأ . السبادير : ضعف البصر ، أو شيء يترأى للسان من ضعف بصره
عن سكر أو دوار .

وأنه أجمع أن يشيع في الناس موته ، وأنه بعد ذلك تنفس قتركه ليستعيد روحه ،
فذلك ما لا نعرفه إلا لمن كان كابن الرومي من شعراء الدولة العباسية ، وقد نشأ في
المدنية ، وتفلسف بدراسة آراء الحكماء .

ومن أمثلة شعر الخطيئة التي تجمع ثقاء اللفظ ، وجزالة التركيب ، ودقة الوصف
قوله يصف أعرابيا جواداً صاحب صيد ألوفاً للفلوات ، ويصف ما كان من نزول
الضيف به وحيرته لعدم وجدانه ما يطعمه ، ثم ما كان من سمنوح حر الوحش
واصطياده منها وسروره بتوقفه لإكرام ضيفه :

| | |
|--|--|
| وطاوى ثلاث عاصب البطن مُرْمِلٍ | بَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَشْمًا ^(١) |
| أَخَى جَفْوَةَ فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَخَشَّةٌ | يَرَى الْبُؤْسَ فِيهَا مِنْ شِرَاسْتِهِ نُعْمَى ^(٢) |
| وَأَفْرَدَ فِي شَعْبٍ عَجُوزًا إِزَاءَهَا | ثَلَاثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَاهُلُهُمُ بَهْمًا ^(٣) |
| حَفَاةٌ عَرَاءٌ مَا اغْتَذَوْا خُبْرَ مَلَّةٍ | وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مَذْ خُلُقُوا طَعْمًا ^(٤) |
| رَأَى شَبَحًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَرَاغَهُ | فَلَمَّا رَأَى ضَيْفًا تَشَمَّرَ وَاهْتَمَّ |
| وَقَالَ هَيَّا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلَا قَرَى | بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمُهُ تَا اللَّيْلَةَ اللَّحْمَا |
| فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِحَيْرَةٍ | أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لِي طُعْمًا |
| وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعُدْمِ عَلَى الَّذِي طَرَا | يُظَنُّ لَنَا مَالًا فَيُوسِعُنَا ذِمًّا ^(٥) |
| فَرَوَى قَلِيلًا ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً | وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمًّا |

(١) الطاوى : الجائع . ثلاث : أى ثلاث ليال .

(٢) أخى جفوة : صاحب جفاء .

(٣) الشعب : الطريق في الجبل . البهم : اسم جنس واحده همة ، وهى ولد الضأن ذكرا أو أنثى

(٤) الملة : الرماد الحار .

(٥) طرا : مسهل من طرا : أى آتى . يقال وسع الرجل المكان (يجعل الرجل فاعلا) على

سبيل القلب والأصل وسع المكان الرجل . وعلى الأول يقال أوسع فلان الرجل المكان

فيتعدى لمقولين ، ومنه قوله : يوسعنا ذمًا ، يجعل « نا » مفعولا أولًا ، فإن اعتبرت مفعولا

ثانياً خرج الكلام على الأصل .

فبينما عانت على البعد عانةً قد انتظمت من خاف مسجلها نظماً^(١)
 عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظماً
 فأمهلها حتى تروّت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهماً
 فخرّت نحو صوّ ذات حبش سمينّة قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً^(٢)
 فيا بشره إذ جرّها نحو قومه ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدي
 وباتوا كراماً قد قصّوا حقّ ضيفهم وما غرّموا غرماً وقد غنّموا غنماً
 وبات أبوم من بشاشتة أباً لضيفهم والأثم من بشرها أماً

وإننا بوجود هذه القصة العجيبة في شعر الخطيئة نردّ على من يزعم خلوّ الشعر العربي من القصص ، فهذه قصة لا ينكر منكر اتساقها وتسلسل معانيها ، وهو ما يطلبون تحقّقه في القصص .



ونحن وإن كنا قد روينّا ظمأك من شعر الخطيئة ، وجعلناك تلّس فيه أنه مدّاح هبّاء وصّاف متين في كلّ المعاني والأغراض يتناولها أحسن تناول ، لانهب أن نختم قولنا في الخطيئة ، حتى نطلمك على هذه القصيدة في وصفه للجيش وعظمه ، ومقدار بلائه في العدو ، وذلك في معرض مدحه للوليد بن عُقبة أخى سيدنا عثمان بن عفان ، وقد جمع جيشاً للقتال :

أَبِي لِابْنِ أَرْوَى خَلَّتَانِ اصْطَفَاهَا قَتَالَ إِذَا يَلْقَى الْعَدُوَّ وَنَائِلُهُ^(٣)

(١) عن كضرب ونصر (ظهر . العانة : القطيع من حر الوحش ، المسجل : الحمار الوحشى .
 (٢) النحوص : الأتان التي لا ولد لها ، أو التي منعها اللبن من الحمل . الحبش : ولد الحمار .
 اكتنزت : امتلأ الحما .

(٣) أوري : هي أم عثمان والوليد ، وهي بنت كرز بن ربيعة . والكلام في البيت يحتاج إلى تلمّة وهي مفعول أبي وتهديره : الدم . يعنى أن هاتين الخلتين : القتال والنائل أبنا للوليد أن يلحقه عليه دم .

فَتِي يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيَرْوَى بِكَفِّهِ سَنَانُ الرُّدَيْنِيِّ الْأَضْمُ وَعَامِلُهُ (١)
يَوْمُ الْعَدْوِ حَيْثُ كَانَ يَجْهَلُ يُصِمُّ السَّمِيعَ جَرُّهُ وَصَوَاهِلُهُ
إِذَا حَانَ مِنْهُ مَنْزِلُ اللَّيْلِ أُوقِدَتْ لِأَخْرَاهُ فِي أَعْلَى الْيَقَاعِ أَوَائِلُهُ (٢)
تَرَى عَافِيَاتِ الطَّيْرِ قَدْ وَثِقَتْ لَهَا يَشْبَعُ مِنَ السَّخْلِ الْعَنَاقِ مَنَازِلُهُ (٣)
بَنَاتُ الْأَغَرِّ وَالْوَجِيهِ وَلَا حَقِي يُفَوِّدُنَ بِالْأَشْطَانِ ضُخْمًا جَحَافِلُهُ (٤)
يَظَلُّ الرَّدَاءُ الْعَصْبُ فَوْقَ جَبِينِهِ بَقِيَ حَاجِيهِ مَا تُثِيرُ قَنَابِلُهُ (٥)
وَكَمْ مِنْ حَصَّانٍ ذَاتِ بَعْلٍ تَرَكَتْهَا إِذِ اللَّيْلُ أَدْجَى لَمْ تَجِدْ مَنْ تَبَاعِلُهُ
وَذِي تَحْجِزٍ فِي الدَّارِ وَسَعَتْ دَارُهُ وَذِي سَعَةٍ فِي دَارِهِ أَنْتَ نَاقِلُهُ (٦)
وَإِنِّي لِأَرْجُوهُ وَإِنْ كَانَ نَائِيًا رَجَاءُ الرَّبِيعِ أَنْبَتَ الْبَقْلَ وَابِلُهُ
لِزُغْبٍ كَأَوْلَادِ الْقَطَارِاثِ خَلَقُهَا عَلَى عَاجِزَاتِ النَّهْضِ مُخَرَّ حَوَاصِلُهُ (٧)

هذه هي حياة الخطيئة ، ويظهر أنه قد عاش طويلا ، لأنهم يقولون : إنه عمر في الجاهلية وبقى في الإسلام حيناً ، فإذا علمنا أنه مات في خلافة معاوية سنة ٥٩ ، وأن حياته في الإسلام قليلة ، بالإضافة إلى حياته في الجاهلية ، نفهم أنه كان من المعمرين ، وإذا

(١) الشيزى : القصعة . الأضم : المصمت (غير الأجوف) . حامل الرمح : صره ومقدمه .

والرمح يقال له رديني أو سمهري . وردينة وسمهر كانا رجلا وامرأته يعملان في تثقيف الرماح فنسبت إليهما .

(٢) اليقاع : مفرد بمعنى التل .

(٣) العافيات : جمع عافية بمعنى طالبة الرزق . السخل : جمع سخلة ، وهي ولد الضأن ما كان .

(٤) الأغر والوجيه ولاحق : خيول مشهورة . الأشطان : جمع شطن ، وهو الجبل .

(٥) العصب : من برود اليمن . القنابل : جمع قنبلة بفتح القاف ، وهي الطائفة من الخيل أو الناس .

(٦) أنت ناقله : أى من السعة إلى الضيق .

(٧) راث : أبطأ . وقوله راث خلقها : أى أبطأ كبرها لضعف غذائها . النهض : النهوض .

الضمير في حواصله عائد إلى الخلق . والمعنى أنى أرجو هذا الكريم لأولادى الذين يشبه أحدهم فرخ القطا الذى أبطأ تكوّنهُ فجيز عن النهوض .

أضفنا إلى ذلك أنه راوية زهير ، وأن زهيراً عاش حتى أظله الإسلام ومات في طريقه إلى النبي وهو شيخ فاني ، فلا بد أن يكون قد شارف المائة أو زاد عليها .

وله ديوان شعر قد طبع في مدينة لبسك سنة ١٨٩٣ م قامت بطبعه الجمعية الألمانية الشرقية ، ثم طبع في مصر والشام بشروح مختلفة ، وله شرح خطي في دار الكتب الملكية المصرية ، وتجد أخباره في ديوان مختارات ابن الشجري ، وفي طبقات الشعراء لابن سلام ، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفي الأغاني ، والعقد الفريد ، والمستطرف وخزانة الأدب ، وجمهرة أشعار العرب وغيرها .



العصر الأموي

٤١ - ١٣٢ هـ

كان قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتحاً لباب فتنه ظلّ المسلمون يقيسون جرائرها أمداً طويلاً . فإن آل بيته وهم بنو أمية امتنعوا عن مبايعة الخليفة الذى بايعه جمهور المسلمين ، وهو على بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان السبب الظاهر الذى يبيده معاوية كبير الأمويين ووالى عمر ، ثم عثمان على الشام ، أنه يجب قبل تولية خليفة للمسلمين أن يبحث عن قتلة عثمان فيقتلوا به ، فكان من ذلك حجاج فقتل بين على ومعاوية ، ثم تبع ذلك خروج جماعة من رجال على عليه على أثر الدسيسة التى دسّها معاوية ورجاله من رفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله ، وكان على يرى خطأ هذا رأى ، ويعلم مبعث تلك الفتنة ، فلم يقبل التحكيم أولاً ، ثم رضى به إيصاداً لباب من أبواب الشر ، وإطفاء لجانب من فتنة اندلعت ألسنتها من كل ناحية ثم كان من تمام الدسيسة أن ادعى معاوية الخلافة لأن صاحب على من الحكيم خلع علياً وصاحب معاوية أقرّ معاوية : واستمرّ على يقاتل حتى اغتاله أحد الخوارج فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ ، وبذلك خلص الأمر لمعاوية ، لأنه لم يكن من الحسن ابن على الذى بايعه أصحاب أبيه إلا التسليم العاجل لمعاوية حقناً للدماء وإخماداً للثورة . وكان ذلك فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ .

الخِلافة والمُلك

انقلبت ولاية المسلمين من خلافة إلى ملك ، فكان من آثار ذلك أن عادت العصبية الجاهلية جذعة قتيّة واسعة النطاق متعدّدة النواحي ، فهي من ناحية بين بنى هاشم آل النبيّ وأحقّ الناس بولاية أمر الناس من بعده ، وبين بنى أمية أندادهم في شرف الجاهلية الذين لم يكن لهم في بدء الإسلام نصيب من الشرف والمكانة لتأخرهم عن تلبية دعوته . فاتخذوا من قتل عثمان سبيلا إلى استبدادهم بالأمر ، وزحزحة الهاشميين عن مقام يقرهم عليه جمهور الناس . . . ثم هي من ناحية أخرى بين اليمنيين ، ومنهم الأنصار الذين رأوا أن يبقوا على عهد رسول الله بنصرة آل بيته ، وبين المضريين الذين يتألف منهم جيشه معاوية بالشام .

كان من هم معاوية أن يحجي العصبية التي عمل النبيّ وخلفاؤه على قتلها ، لأنه يرى في حياتها صرفاً للعرب عن التفكير في اغتصابه للسيادة ، ثم خضدا لشوكتهم بجعل بأسهم بينهم ، وظفرا بعد ذلك باصطناع من يريد اصطناعه منهم . وكذلك فعل فإنه لم يقنع بالتحياز المضرية إليه حتى ضمّ قبيلة كلب من اليمنية إلى حظيرته بأن تزوّج منها بجحدل أم يزيد ابنه .

وكان في حياة هذه العصبية حياة لكثير من أمور الجاهلية من المهاجة والمفاخرة . وفاحش الغزل والاجتماع في الأسواق بظاهر الكوفة « الكُناسة » ، أو بظاهر البصرة « المرّبد » .

وبلغ من شأن هذه العصبية أن رجلا من الأزديّ كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأهلك ، فقال : إنها يمنية ؛ وقال رجل من بنى أسد ابن خزّيمة يمدح يحيى بن حيان أخا النخع :

ألا جعل اللهُ اليَمانين كلَّهُم
فَدَى لفتى الفتيان يحيى بن حَيَّان

ولولا عُزَيْقُ فِيَّ مِنْ عَصْبِيَةٍ لَقُلْتُ وَأَلْفًا مِنْ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ
وَلَكِنْ نَفْسِي لَمْ تَطِبْ بِعَشِيرَتِي وَطَابَتْ لَهُ نَفْسِي بِأَبْنَاءِ قَحْطَانَ

وقد قوى أمر هذه العصبية حتى صار في كل بلد من بلاد الإسلام حزبان : مضرى
ويعنى يتنازعان المنزلة بتقلب الأحوال ، واختلاف العمال ، وبلغ من شأن هذه العصبية
أن عملت في تولية الخلفاء والأمراء ، فقد نصرت اليمنية الأمويين بعد موت يزيد ،
وطلبت الخلافة لابنه خالد ، ولكن كبار بني أمية رأوا تولية مروان بن الحكم على أن
يكون الأمر بعده خالد ، فلم يف مروان له . وظلت اليمنية تناصر الأمويين حتى كانت
أيام هشام ، فكانت القيسية نصيرته ، واستمر الحال كذلك إلى آخر أيام الدولة .
ولما مات يزيد بن الوليد أقامت القيسية مروان بن محمد خليفة لأنه كان يطالب
بدم يزيد مستجدًا بذلك عطف القيسية ، وكانت أم يزيد منهم .

وكما أعانت العصبية الأمويين أيام دولتهم ، كانت سبب القضاء على ملكهم ،
فإن شيعة بنى العباس إنما كانت من اليمنية ومن انضم إليها .

وكان معاوية يتلمس الذرائع لاستتباب ملكه ، واجتماع الأمر بيده ، فكان يحلم
على أعدائه فيقبل من العلوى أو العلوية التجبيه في مجلسه وبين أمرائه ، وبمسع من
حجابه ، ثم لا يكون منه إلا إجزال العطية والحمل على أوطأ مركب وهو القائل لعمر
ابن العاص في بيان سياسته : ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .

قال عمرو : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إن هم شدوا أرخيت ، وإن هم
أرخوا شددت .

كذلك عمد إلى الألسنة فقطعها بالمال ، فكان يصل العطاء أو يقطعه ويزيد فيه
أو ينقص على حسب ما تقضى السياسة ، حتى لقد جعل عطاء الحسن والحسين مائتى
ضعف لما كان عليه أيام عمر بن الخطاب فقد كان خمسة آلاف درهم فجعله ألف ألف . وقد
صار الحجاز ، وهو موطن أبناء المهاجرين والأنصار مثابة للهو والترف لكثرة ما أغدق
عليهم معاوية وخلفاؤه من العطاء ليوقعوهم في أسر اللهو وليشغلوهم عن المطالبة بالخلافة .

ولقد تعمّدوا أن يملثوا عليهم المدينة بأسباب الفساد . قتهاونوا في إقامة حدود الشرع بها حتى شربت الخمر، وارتكبت الفواحش، وصارت أكثر بلاد المسلمين مخنثين ومغنين، ومنها انتشر الغناء في المملكة العربية .

ولم يقف معاوية وخلفاؤه في أمر مال المسلمين عند توزيعه بغير العدل بين مستحقّيه بل لقد تعدّوهم إلى من لا يستحقّ ذلك المال ممن لم يشهد موقعة، ولا كان من أبناء المجاهدين، فجعلوا للشعراء نصيباً في بيت مال المسلمين، وتلك بدعة ابتدعوها ليقطعوا بها ألسنة هؤلاء وليلقوا لأنفسهم الرعب في قلوب الناس بما يبالغ به هؤلاء في وصفهم، ويرفعون من شأنهم : وما زال الشعراء يأخذون عطية من بيت المال حتى ولى عمر بن عبد العزيز، فأبطل ذلك فيما أبطله من مظالم بني أمية .

وفي سبيل تأييد بني أمية لملكهم حاربوا الخوارج الذين كان خطرهم يشتدّ حتى يهدّد الدولة في كثير من نواحيها كما ثقّفوا العلويين فشردهم وعصفوا بهم . وكان ولائهم يتقرّبون إليهم بتذبيح نسائهم وأولادهم والتثليل بأبطالهم، وحمل رءوسهم إلى دار الخلافة حيث خزانة الرءوس .

ولقد كان لهؤلاء الخوارج قول قويّ النزعة قويّة يقينهم في معتقدهم شديد الوقع على مقدار استماتتهم في الدفاع عن آرائهم، كما كان المظلومين من العلويين أنين ولقتلام رثاء يخرج من قلوب حزينة أدامها عسف الغائب وقسوة قلب الظالم .

ولقد كان للعصبية التي عمّ أمرها في هذه الدولة أثر عظيم في احتفاظ بني أمية بالصبغة العربية لا يبدلون بها غيرها، ولا يحاولون الخروج منها، بل لقد زادوا تعلقاً بحياتهم الأولى، فأنشئوا أولادهم بالبادية، وثقّفهم برواية الشعر، وعقدوا المجالس للسمر به، وأرسلوا في طلب رجاله ليسألوا أحدهم عن بيت أو قصيدة، وأكثر من كان يفعل ذلك هشام بن عبد الملك، ثم أجزلوا العطاء على ذلك، فشدّت إليهم الرحال، وتنافس الناس في الزلفى إليهم بطريف الأخبار، ونادر الرواية، ووجدت آداب الجاهلية سوقاً نافقة، وحنّ الشعراء والخطباء إلى جزالة الجاهلية . بل لقد أحيوا مازهد فيه القرآن من الحوشى والغريب . وهذا الفرزدق يرى نقاد الشعر أنه أحيّا ثلث العربية في شعره .

كذلك كان من أثر هذه العصبية ، وترفع العرب عن أهل البلاد المفتوحة وعدم تعويلهم على غير العربي ، أن اجتهدوا في تحويل الدواوين في كل الأمصار إلى العربية ، فكانت الدولة عربية في كل مظاهرها من جيش وولاية وعمال ، وتركوا محقر الأمور ، (وهي في نظرهم الزراعة والصناعة) إلى الموالى وأهل البلاد المفتوحة ، فلم يكن عمل العربي إلا السياسة والرياسة .

انتشار اللغة في عصر بني أمية

تم على أيدي الخلفاء الرشدين الفتح لأغلب المعمور من الدنيا ، وصاحب الفضل في ذلك هو عمر بن الخطاب الذي كانت جيوشه تقاتل في المشرق والمغرب ، فوصلت شرقاً إلى نهري السند وجيحون ، وفتحت في الغرب مصر وبلاد الشام متوغلين في شمالها . وفي أيام بني أمية وصلت الفتوح إلى الهند والصين شرقاً . وشملت جميع بلاد الأندلس غرباً . ووصلت إلى السودان جنوباً ، وبلاد سيبيريا شمالاً ، وملكوا كذلك جزر البحر الأبيض المتوسط بأساطيلهم ، وحاول معاوية فتح القسطنطينية كما حاول سليمان بن عبد الملك ، فامتنعت عليه لمئات أسوارها ، وشدة فعل النيران الإغريقية بسفن العرب .

وإلى أغلب هذه البلاد نزح العرب من جزيرتهم تاركين حرّ الصحراء وقحطها إلى بلاد أكلها دائم وظلها ، فأقاموا متوطنين ، وعمرّوا الأمصار ، وخالطوا أهل البلاد بالتعامل في الأسواق ، وتبادل المتاجر والمصاهرة والتسرى ، فكان العربي يعقد على الأعجمية أو يملكها بحكم الفتح ، فيعقب منها الأولاد المهجن^(١) الذين لا تخلص عريتهم.

(١) في القاموس المحيط جمع المهجن هجن (يضم ففتح) وجمع المهجنة هجن (يضم فسكون) والمهجن من أبوه عربي وأمّه غير عربية . وعكسه القرف (يضم الميم وسكون القاف وكسر الراء) وهو من أبوه أعجمي وأمّه عربية .

للسامعهم رطانة أمهاتهم ، أو حواضنهم الروميات ، أو الفارسيات ، أو القبطيات ،
فينشأ ناشئهم ملثاث اللهجة مضطرب الملكة ، فكان هذا وهنًا دخل على اللغة لم تعهده
أيام انزواء أهلها في جزيرتهم .

وإلى جانب هذا الفساد الذى طرأ على الملكات استفادت اللغة إنباراً ، وكثر عدد
المتكلمين بها ، فإن هؤلاء الأعاجم كان لابد لهم أن يتعلموا لغة أسيادهم بحكم المعاشرة
والخالطة تقرباً إليهم وزلفى ، على أنه لم يقف أمر هؤلاء الأعاجم عند حذق التخاطب
باللغة ، بل إنهم تعلموا العربية دراسة ، وقرأوا القرآن وزاولوا علومه ، وقرضوا الشعر
ليستفيدوا مما يدره الخلفاء من جزيل العطاء على العلماء والشعراء ، على أن الدين كان
من عوامل نشر اللغة أيضاً فإن جبهة البلاد المفتوحة كانوا يدخلون فى الإسلام تفضيلاً
له على وثنيهم أو دياناتهم القديمة ، أو فراراً من أداء الجزية التى يدفعها من يبقى على
دينه من أهل البلاد المفتوحة ، فكانوا يتعلمون العربية لفهم الدين وأداء الصلاة .

وإن هذا لقوز للعربية لم تظفر به لغة من اللغات منذ عمرت الدنيا ، فإن الإسكندر
الأكبر مثلاً قد استولى حقا على أكثر المعمور فى زمنه ولكن ملكه لم يلبث أن تقلص
فلم يكن لغته تغلب على الداخلين فى سلطانه . على أن سلطان المسلمين قد زال عن بعض
البلاد المفتوحة ، وبقيت فيها اللغة العربية مصاحبة الدين .

١٠ قيام اللغة بمقتضيات الملك والسياسة

لقد كانت دولة بنى أمية ملكاً عضوياً لم يقم على أساس التقوى ، وتوزيع العدالة
بين الناس وإعلاء كلمة الله كما كان الشأن فى الخلافة أيام الخلفاء الراشدين الذين
اجتهدوا فى رسم آثار النبىؐ ، والحيولة بين العرب وبين التورط فى مفاصد الدنيا وعاجل
نعيمها ، بل إن بنى أمية إنما طلبوا الملك إشباعاً لنهمتهم إليه ، واستعادة لنصيبهم من
الرياسة الذى كان لهم فى الجاهلية ، فخرمهم منه تأخر إسلامهم إلى حين الفتح ، فإن

أبا سفيان كبيرهم وأولاده ، ومنهم معاوية ظلوا على الكفر حتى لم يجدوا من الإسلام بدا . لذلك لم يكن أبو بكر يثق ببني أمية ، فحال بينهم وبين الولايات والأعمال وجعل ذلك من نصيب المهاجرين الأولين ، ولقد شكوا إليه حالهم ، فقال لهم : « لقد جئتم الإسلام متأخرين ، فأدركوا إخوانكم بالجهاد » فجاهدوا في حرب الردة .

ولما تولى عمر عرف ما في نفوسهم من التطلع إلى السيادة ، فرمى بهم الروم ، ورجعهم في الشام . واستعمل يزيد بن أبي سفيان ثم أخاه معاوية على الشام ، فعادت إلى بني أمية الرياسة التي كانت لهم في الجاهلية .

فكانوا جديرين وقد حصلوا على الخلافة أن يجعلوها ملكاً عضوضاً ، فاستكثروا من الحجاب والحرّاس ، ولم يظهروا للناس إلا في المواكب الحافلة بالجند تحفّ بهم ، وقد شهرت السيوف وشرعت الرماح . وكذلك أنشئوا الأساطيل تقاتل في البحر^(١) كما أتموا عدّة جيوشهم في البرّ حتى لقد قلدوا الفرس في اتخاذ الموسيقى للجيش تفخيماً لأمر الملك وإرهاباً بسلطانهم . وكذلك اتخذوا البريد لتسرع الأخبار من أطراف المملكة ، وأوّل من اتخذ معاوية وجعل مقرّه دمشق ، ثم ينفرج عنها إلى نواحي المملكة . كذلك ضربوا النقود ، وأنشئوا ديوان الخاتم ، وديوان الخراج إلى غير ذلك من مظاهر الملك التي كانت على أيامهم يقتبسونها من فرس وروم ومصريين ، لا يتحرّجون من شيء منها ، ولا يتناهون عن بدعة فيها لم يعاملها السلف الصالح .

لقد استشيرت اللغة العربية في تسمية هذه المستحدثات والمصطلحات ، فنهضت بما طلب منها . فمن ألفاظ في تمييز الجند من مرتزقة ومتطوعة ومهاجر وأعرابي إلى أسماء لأنواع

(١) لما ألح معاوية على عمر أن يأذن له في ركوب البحر ورغبه في الفائدة من وراء ذلك كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر فكتب إليه : إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خافي صغير ليس إلا السماء والماء . إن ركذ أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول زداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق « معنى برق : تحير لا يظرف ، أو دهش فلم يبصر وبابه فرح أو نصر » .

الأدوات المستعملة في الحرب ، كالدبابة ، والكبش ، والعرّادة ، والمنجنيق ؛ وأسماء الحِمَلات ، كالشِوَاتِي ، والصوائف ؛ إلى مصطلحات الدواوين ، كقولهم : الثغور ، والعواصم ، والأقاليم ، والقصبّات ، والعمل ، والولاية ، والحكومة ، والسّكة ، والتوقيع ، والوظيفة ، والمرصد ، ودار الضرب ، والدفاتر ، والجرائد ، والخرائط . كما عرّبوا ألفاظاً سمعوها من جيرانهم ، وكانوا محتاجين إليها في معيشتهم ، فمن ذلك الطّست ، والطبق ، والفيروز ، والبلور ، والكعك ، واللوز ، والدولاب ، والميزاب ، والجاموس ، والفرسخ ، والبند ، والشكّر ، والطنبور . والغالية^(١) . ولقد كان من نهوض اللغة بمقتضيات الملك أن حوّلت دواوين الخراج إلى العربية ، وكانت منذ عهد الخلفاء الراشدين تكتب في العراق بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية . ففي أيام عبد الملك بن مروان تمكن الحجاج من تحويل ديوان العراق إلى العربية على يد صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم ، وأبوه من سبى سجستان . وكان صالح يكتب بالعربية والفارسية لزدان فروخ بن يبرى كاتب الحجاج . فلما قتل في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه إلى منزله استكتب الحجاج مكانه صالحاً ، فأبدى للحجاج أنه يستطيع نقل الديوان إلى العربية ، فعزم عليه الحجاج أن يفعل . فقال له الفرس الذين خافوا انقطاع أرزاقهم من هذا العمل : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ فقال : أكتب عُشراً ونصف عُشر ، فقيل له : وكيف تصنع بويّد ؟ فقال أكتب : أيضاً فقال له قائلهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن ذلك ، فأبى إلا نقل الديوان فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درّ صالح ما أعظم منته على الكتاب (أى من العرب) .

أما ديوان الشام فقد كان بالرومية والذي كان عليه سُرْجُون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ، ثم إن عبد الملك أحس من سرجون بإدلال لاسمته بأمير هذا الحساب ، وقد أمره مرّة بشيء فتراخى فيه فأحفظه ذلك ، واستشار كاتبه على

(١) نوح من الطيب ، وأول من سماه هوسليان بن عبد الملك .

الرسائل سليمان بن مسرور ، فقال : لو شئت لحولت الديوان من الرومية إلى العربية ، فقال افعل وأنظره سنة ، فلما وقف سُرجُون على عمل سليمان ، قال لكتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وحول في أيام الوليد بن عبد الملك على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر ، فصرف عنه أثناس ، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب ، وقد كان ديوان الجند والرسائل ، وجميع مرافق الدولة عربية لم يكن ينقصها إلا ديوان الخراج حتى حول .

طروء اللحن على اللغة

تمتاز اللغة العربية من بين أغلب اللغات بميزة الإعراب ، وهو مراعاة أواخر الكلمات ، وتغيير حركاتها باختلاف الأساليب . وتلك المراعاة دقيقة لا تتم إلا للملكة سليمة لم تشبها شائبة . وهى سليقة العرب الخالص الذين سلموا من الخالطة ، وعاشوا في وسط الجزيرة آمنين لؤنة الألسنة ، متجانسين عن مخالطة الفرس في ريف العراق أو الروم في مشارف^(١) الشام ، أو الهند في البحرين ، أو القبط على حدود مصر . فتغلب وبكر جاؤروا الفرس ، وعبد القيس وأزدعمان خالطوا الهند ، واللخميون وقضاة وغسان عاشروا الروم ، فكانت لغاتهم غير نقية لأثر الجوار ، أما قریش وثقيف وهذيل وكنانة وعطفان وأسد وتميم ، فهم أفصح العرب وأصرحهم لغة لبعدهم عن الخالطة ، وهؤلاء هم الذين سلمت لغتهم من اللحن ولم يجرب على أحدهم خطأ ، ولذلك قيل : إن العربيّ الفصيح لا يخطئ ، لأن الاعراب جزء من لهجته لا ينفصم عنها . وقد قال

(١) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المقرفية .

ابن جنى فى الخصائص : إذا اتفق شىء من مخالفة الوجوه المعروفة فى الاعراب ، فإن كان العربى فصيحاً حمل ذلك على أنه قد وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدا وعفا رسمها وتآبدت معالمها . وقد قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقبله . وقال : إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كقبل فى أصول رَقْل (نخل طويل) .

وإذا كان قد وقع لحن على أيام النبىؐ ، فإنما ذلك على السنة قوم طارئین على العرب من الموالى والمتعربين ، كسلمان الفارسى ، وكان يرتضخ لكنة فارسية ، وبلال مولى أبى بكر وكان يرتضخ لكنة حبشية ، وصهيب ، وكان يرتضخ لكنة رومية . فقد حدث أن رجلاً لحن بحضرة النبىؐ ، فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضلّ » ، كما حدث أن كاتب أبى موسى الأشعرى كتب عنه كتاباً إلى ابن الخطاب فلحن ، فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك سوطاً . وكان ما كتبه هو قوله فى أول الكتاب : « مِنْ أبى موسى . . . » .

كان ذلك قليلاً معدوداً فى أيام الخلفاء الراشدين لقلة اختلاط العرب وقرب عهدهم بالبدواة ، وسلامة الملكات ، فلما انساحوا فى البلاد ، وخالطوا أهلها ، ونشأ أولادهم من السبايا يسمعون عجمة أمهاتهم وحواضنهم ، وكثر الداخلون فى الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ، وأقبلوا على العربية يتعلمونها لِيَرْضُوا أسيادهم من العرب ، وليقرأوا بها القرآن ويسيّموا الصلاة ، فشا اللحن ، وتعدى الأعاجم وأبناءهم إلى العرب الخالص لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ، ففسدت ملكاتهم حتى كان الخلفاء وكبار الدولة يدرءون هذا السيل الجارف ، والعيب اللاحق عن أبناءهم بتنشئتهم فى الصحراء ، أو إحضار المعلمين من أفصح الناس وأعلمهم ليروضوهم على الفصاحة منذ الحداثة .

وما زال رجال هذه الدولة يرون اللحن عاراً لازماً لا تمحى سوءته ولا تزول سبته . لذلك قال عبد الملك بن مروان ، وقد سئل عن سبب إسراع الشيب إليه : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . وهو القائل : الإعراب جمال للوضيع وهجنة للشریف .

وكانت جماهير العرب تحضر مجلسه ، وتنادى كل طائفة باسم قبيلتها ، فيقال مثلاً :
لتقم همدان ، ولتقم تميم : أى من حضر من رجال هذه القبائل . فكان عبد الملك
يستسقط من يلحن .

واستأذن عليه رجل من عليّة أهل الشام ، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ،
فقال : يا غلام غطّها ، فلما تكلم الرجل لحن ، فقال عبد الملك : يا غلام اكشف عنها
الغطاء . ليس للآحن حرمة .

ولقد عدّوا من اللّحّانين : عبد الله بن زياد وكانت أمة فارسية . والوليد بن
عبد الملك أشفق عليه أبوه ، فلم يرسله إلى البادية ، فترجى بالمصر ، وتعلّم العربية
بالصناعة فعرض لكلامه اللحن ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وكانت أمه نصرانية ،
وكان من أبلغ الناس وأخطبهم ، ولكن عدّ عايه بعض اللحن .

كذلك كانت السلامة من اللحن شرفاً عظيماً يعدّ من مفاخر الرجل ، ولقد ذكروا
أن أربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل : الشعبيّ ، وعبد الملك ، والحجاج ، وابن القريّة ،
وكان الحجاج أفصحهم ، على أنه قد نسب للحجاج لحن في بعض المواطن ، فقد قال
للسّعيّ يوماً : كم عطاءك ؟ فقال ألفين . قال الحجاج : ويحك ! كم عطاؤك ؟ قال ألفان ،
قال الحجاج : فلم لحت فيا لا يلحن فيه مثلك ؟ قال : لحن الأمير فلهنت ، وأعرب
فأعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه ، فأكون كالمقرع له بلحنه ،
والمستطيل عليه بفضل القول .

وكان اللحن يقع في محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم ، فكان محتماً مع الفضاضة
وقد أسرعوا بوضع النحو لتلافيه ، فلما طمت المصيبة بوقوع اللحن في القرآن ، ولم يكن
وضع النحو كافياً لتداركه ، أعملوا الحيلة ، فاهتدوا إلى ما سنبينه في موضوع
الشكل والإعجام .

أمثلة من اللحن وضعف الملكة

كان الوليد بن عبد الملك لحانة ، فدخل عليه أعرابي ، فقال له الوليد : من خَتَنُكَ ؟ قال : رجل من الحَيِّ لا أعرف اسمه ، فقال عمر بن عبد العزيز : إن الأمير يقول : من خَتَنُكَ ؟ فقال : هو ذا بالباب ، فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنت أخبرتك عنه ، فقال : لا جرم لا أصلى بالناس حتى أتعلمه .

سمع أعرابي رجلاً يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله ، فقال : يفعل ماذا ؟ وجاء رجل إلى زياد ، فقال : إن أئينا هلك ، وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا ، فقال زياد ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك ، فلا رحم الله أباك حين ترك ولدك مثلك .

اختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز فجعل يلحنان . فقال الحاجب : قسا فقد أدبتما أمير المؤمنين ، فقال عمر : أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

قال الحاجب ليعحي بن يعمر : أسمعني ألحن ، قال : في حرف واحد . قال : في أى ؟ قال : في القرآن . قال ذلك أشنع ، ثم قال : وما هو ؟ قال تقول : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ » فترفع أحب .

وقال بشر بن مروان (وعنده عمر بن عبد العزيز) اغلام له : ادع لى صالحاً ، فقال الغلام : يا صالحاً ، فقال : بشر ألق منها ألف ، فقال له عمر : وأنت فزد فى ألفك ألفاً .

صعد يزيد بن عبد الملك المنبر ، فقال فى سبِّ على : لُصِّ بن لُصِّ ، فقال أعرابي كان تحت المنبر : فى قوله أعجوبتان ، أنه رمى علياً بأنه لُصٌّ ، وأنه بلغ من جهله أن ضمَّ لام لُصِّ .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أمير المؤمنين . اقتل أبي فُديك^(١) ، وقال مرة
لغلامه : يا غلام ردّ الفرسان الصادان عن الميدان .

وخطب يوماً فقرأ في خطبته : ليتها كانت القاضيةُ (بالرفع) ، فقال عمر بن العزيز :
علينا وأراحنا الله منك .

قال يوسف بن خالد التيمي لعمر بن عبيد : ماتقول في دجاجة ذبحت من قفأها ؟
فقال له عمرو : « أحسن » . قال من قفأها ، قال « أحسن » ، قال من قفأها ، قال
له من عنّاك هذا ؟ قل من قفأها واسترح وسمع يوسف هذا يقول حتى يشجّه ، وهي
مضمومة ، وكان يقول : هذا أحمر من هذا يريد أشدّ حمرة منه .

وقال رجل لبعض الأعراب : كيف أهلك (وكسر اللام) ، فقال قتلاً بالسيف
إن شاء الله . فهمّ العربي أنه يسأله عن موته ، ولو قال « أهلك » لأجابه .

وقيل إن أوّل لحن سمع بالبادية قولهم : هذه عصاتي ، وأوّل لحن سمع بالعراق :
حيّ على الفلاح بكسر الياء وهي مفتوحة .

ومن ضعف الملكة والعجز عن تأدية المعنى بألفاظه الموضوعة له ، وذلك أنكى من
اللعن وأدلّ على الارتضاح بالعجمة ، قول عبد الله بن زياد يوماً للجنّد : « افتحوا
سيوفكم ، وقد عبّره بذلك يزيد بن مفرّغ^(٢) بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع
ومثل ذلك ما وقع لخالد بن عبد الله القسري ، فقد عدّوا عليه أنه قال مرة : أطعموني
ماء ، وقد عبّره بذلك يحيى بن نوفل ، إذ يقول :

بلّ المنابر من خوف ومن وهَلٍ واستطعم الماء لما جدّ في الحرب
وألحن الناس كلّ الناس فاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب
وقال المبرّد عن خالد القسريّ « كان متقدماً في الخطابة ومتناهيّاً في البلاغة ، فخرج

(١) أحد الخوارج تنسب إليه طائفة الفديكات .

(٢) سمى مفرّغاً لأنه راهن على أن يشرب عسا من لبن فشربه حتى فرغه .

عليه المغيرة بن شعبة بالكوفة في عشرين رجلا فمطعوا به ، فقال خالد وهو على المنبر :
أطعموني ماء فغير بذلك ، فكتب إليه هشام في رسالة يعيره بذلك ، وقال يحيى بن نوفل :
لأعلاج ثمانية وعبد لثيم الأصل في عدد يسير
هتفت بكل صوتك أطعموني شراباً ثم بلت على السرير

وذكر عن يزيد بن المهلب أنه لم تؤخذ عليه زلة في لفظ إلا واحدة . فإنه قال على المنبر
(وقد ذكر عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب) ، فقال هذه الضبعة
الرجاء ، فاعتدت عليه لحناً ، لأن الأنتى ضبُع والذكر ضِبْعان

وبسبب من اللحن وضعف الملمكة تلك اللكنة ، وهي العجز عن وضوح اللهجة
وصحة مخارج الحروف ، فقد حكوا أن زيادا النبطي وكان شديد اللكنة دعا غلامه ثلاثا ،
فلما أجابه قال : « من لدن داوتك ، قلت لبي إلى أن جئتني ماذا كنت تصناً » ،
يريد دعوتك وتصنع . وكانت أمّ نوح وبلال ابني جرير أعجمية ، فقالت يوما :
« يا نوح جردان دخل في عجان أمك » ، تريد أن الجرذ أكل عجينا . وأهدى إلى
زياد حمار وحشي ، فقال له مولاه أهدوا لنا همار وهش ، فقال زياد : « أي شيء
تقول » . قال : أهدوا لنا عيرا « بقلب العين همزة » ، فقال زياد الثاني شرّ
من الأول .

وقال بعض الشعراء في أمّ ولد له يذكر لكنتها :

أكثر ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنتى وتأنيث الذكر
* والسوءة السوءاء في ذكر القمر *

ومن لكنة عبید الله بن زياد أنه أملى على كاتب له ، فقال : اكتب الهاصل ألف
كر ، فكتبها بالهاء كما لفظ بها ، فأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الكاتب ، فلما فطن
لاجتماعهما على الجهل ، قال : أنت لا تهسن أن تكتب ، وأنا لا أهسن أن أملى
أكتب الجاصل ألف كر فكتبها بالجيم .

وضع النحو

يعدّ العرب أسبق الأمم إلى وضع قواعد النحو ؛ فإن الرومان واليونان والفرس وغيرهم لم يفكروا في مثل ذلك إلا بعد قرون مرّت على انتقالهم من البداوة ، والذي حدا بالعرب إلى هذا الإسراع هو ما امتازت به لغتهم من حركات الإعراب ، فإن الفساد إلى هذه أسرع لدقة فروقها ولكثرة دواعيها .

بدأ العرب بوضع النحو ولم يقضوا في الإسلام إلا نصف قرن . ويروون في أمر وضعه روايات مختلفة ، فبعضها يدلّ على أن عليّاً كرم الله وجهه هو الذي فكر في ذلك إذ يذكرون أن أبا الأسود دخل عليه ، فوجد في يده رقعة ، فقال له : ما هذم يا أمير المؤمنين ، فقال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحراء ، « يعني الأعاجم » ، فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الرقعة إلى أبي الأسود ، فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال عليّ لأبي الأسود : انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر . وأراد بذلك الاسم المبهم . قال أبو الأسود : ثم وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ، فلم أذكر لكنّ ، فلما عرضتها على عليّ عليه السلام أمرني بضمّ لكن إليها . وكنت كلما وضعت باباً عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال لي : ما أحسن هذا الذي نحوت ، فسمى النحو من ذلك .

ومن هذه القصة نرى أن عليّاً يعدّ واضع النحو ، لأنه أوّل من لأبي الأسود طريق الوضع بتقسيمه الكلام والاسم إلى أقسامها .

ويذكرون غير ذلك وهو أن بنتاً لأبي الأسود نظرت في السماء ، ثم قالت لأبيها :
ما أحسن السماء ؟ فقال : نجومها ، فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها :
قولى ما أحسن السماء ! ثم لما أصبح دخل على عليّ كرم الله وجهه ، فقصّ عليه قصة
ابنته ، وقال : إننى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الجراء . فأذن له عليّ
في أن يضع النحو ، فكان أول ما وضعه أبو الأسود الدؤلى باب التعجب ، ثم أتبعه بكثير
من الأبواب سداً لما كان يسمع من الخطأ ، فوضع باب العطف وإن . . .

وذكر ابن الأثير في المثل السائر : أن أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة ، فقالت
له : يا أبت ما أشدّ الحرّ ؟ فقال لها : شهر ناجر . قالت له : إنما أخبرتك ولم أسألك .
فأتى عليّاً كرم الله وجهه ، فقال له : ذهبت لغة العرب ، ويوشك أن تطاول عليها
الزمن أن تضمحل ، فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره بالخبر ، فقال : هلمّ بصحيفة ، ثم أملئ
عليه : الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف .

ويقال إنه أتى زياد بن أبيه ، وقال له : إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم ،
وتغيرت ألسنتها أفأذن لى أن أصنع ما يقيمون به ألسنتهم ؟ فقال لا ، فلما خرج من
عنده دخل رجل على زياد ، فقال : أيها الأمير : مات أبانا وخلف بنون ، فقال زياد :
ردّوا عليّ أبا الأسود . وقال له : اصنع ما كنت نهيتك عنه .

وعلى هذه الروايات يكون أبو الأسود هو صاحب علم النحو ، لأنه أول من فكّر
فيه ، ويكون عليّ عليه السلام بمكان المساعد إن صحّ أنه قال له : الكلمة اسم وفعل
وحرف ، وعلى هذا فأنح يا أبا الأسود .

ومما روينا نرى أن الفضيلة في وضع هذا العلم ترجع إلى أحد رجلين عرفا بالفضل :
فأما أحدهما وهو عليّ فهو إمام مشهور بعلمه ، وقد دعا له رسول الله حين أرسله إلى اليمن
قاضياً ، فقال : « اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه » ، وهو حلال المشكلات في الفقه
ومسائل الميراث ، والذي يقول عنه رسول الله : « أقضّاكم عليّ » ، ويقول عنه عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه : « لو لا عليّ لهلك عمر » ، كما يقول : « لا يفتنينّ

أَحَدُهُ بِالْمَسْجِدِ وَعَلَيْ حَاضِرٍ » . وأما ثانيهما : فهو أبو الأسود الدؤلى المشهور بالذكاء المشارك فى كل فن من فقه وشعر وحديث وبديهة حاضرة ودهاء مشهور . فليس بكثير عليهما أن يتعاونوا فى وضع النحو ، وهو الذى حفزت إليه ضرورة فساد اللسان ، فأقضت على ولادة الأمر مضاجعهم خوفاً على القرآن ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول ما يدعيه بعض من أن أبا الأسود لم يضع النحو إلا بعد أن عاش السريان بالعراق وتعلم لغتهم ، ونقل نحوها للشبه القريب بين اللغتين ، مستدلين بأن أقسام الكلمة فى العربية هى عينها فى السريانية ، وهذا هو والله العجب ! ! فإن أقسام الكلمة فى جميع اللغات واحدة لا تختلف ، ولو أن أبا الأسود نقل نحو السريانية إلى العربية لوجب أن ينقله جملة ، ولكن الروى عنه أنه كان يضع أبواباً لما يقع تحت سمعه من الخطأ .

ولم يقف أمر الوضع فى النحو عند ما فعله أبو الأسود ، فقد أخذ عنه جماعة ، منهم : عنبة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر وكلهم من البصرة ، فنشأ علم النحو بصرياً ، ودرس فى مساجدها ، ونشأ فيما حولها ، حتى ألف فيه عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى كتاباً فى الهمز ، وكان رئيس الناس وواحدهم فى هذا العلم فى عصره .

وبقيت الكوفة لا تشغل بالنحو حتى أظلت القوم الدولة العباسية ، فظهرت فى الكوفة طبقة أخذت عن أبى عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين .

وقد غلا ابن فارس غلوّاً قبيحاً حين زعم أن العرب العاربة كانوا يعرفون النحو والعروض بمصطلحاتهما ، وكان ذلك بتوقيف من قبلهم حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى علم آدم الأسماء كلها . قال ثم أتت الأيام على هذين العالمين ، وقلا فى أيدي الناس حتى جدّد النحو أبو الأسود ، وجدّد العروض الخليل بن أحمد .

وهذا قول ظاهر البطلان لا يستحق الاحتفال لدحضه .

الشكل

لم يكن الخطر الذي وصل إلى العرب مضبوطاً بالحركات والسكنات ، بل كان خلوا منها ، فكلمة حمل مثلاً تصلح أن تكون فعلاً أو اسماً ، وكان التميز بالقرائن ودلالة السياق .

ولما انتشر الإسلام واختلط العرب بالعجم ، ونشأت النابتة من الهجناء والمقرفين ، وخشى أن يتطرق الخطأ إلى القرآن ، فكروا في تدارك هذا اللسان قبل استفحال الفساد . وحدثت عدة حوادث استفزتهم إلى النهوض لصيانة القرآن واللغة . فوضع أبو الأسود الدؤلى النحو بمعونة سيدنا على . وتعلم من أبي الأسود كثيرون ، منهم : يحيى بن يعمر ، ونصر ابن عاصم ، ولكن ما وضعه أبو الأسود من الضوابط لم يصدّ التيار الجارف ، فطلب زياد بن سُمَيَّة أو ابن أبيه أو ابن أبي سفيان كما كان يكنيه بنو أمية ، وكان عامل البصرة من قبل معاوية ، طلب من أبي الأسود أن يضع طريقة لإصلاح اللسان ، وقال له : إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، فلو وضعت لنا شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله ، فامتنع أبو الأسود أن يضع ذلك ضئلاً بما يعرف ، ولأنه موتور من بنى أمية لعزله عن البصرة بعد موت على رضى الله عنه ، وكان من شيعته وواليه عليها . فاحتال زياد على أبي الأسود بأن جعل رجلاً يقعد فى طريقه ، ويتعمد اللحن فى القرآن ، ففعل الرجل ذلك ، وقرأ : « إِنَّ اللَّهَ بَرِّى مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ » (بكسر اللام) ، فاضطر أبو الأسود أن يجيب زياداً إلى طلبه ، وقال له : ابغنى كاتباً ، فأرسل له ثلاثين اختارهم واحداً ، وقال له : خذ صبغاً يخالف لون المداد ، فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فاقتط واحدة فوقه ، وإذا كسرتهما فاقتط واحدة أسفله . وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدي الحرف . (وكان الساكن يترك بلا نقط) ، فإذا أتعت شيئاً من هذه الحركات غنة ، فاقتط

تقطعتين ، وما زال يقرأ بتأنٍ ، والكاتب يعمل بما أمره حتى أتمَّ القرآن . وكان الصبغ الذى اتخذهُ الكاتب أحمر ، ولون المداد أسود .

واتبع الناس طريقة أبى الأسود ونوّعوا فيها ، فكانوا إذا رأوا الحرف الذى بعد المنون حرف حلق وضعوا تقطعتين إحداهما فوق الأخرى علامة على أن النون مظهرة وإلا وضعوها متجاورتين علامة على الإدغام أو الإخفاء . وهذا مثال يبين لك طريقة أبى الأسود فى الشكل :

سلام .. قولاً من ربّ رجب

هذا كلّ ما عمله أبو الأسود فى ضبط الحروف بالشكل ، وقد زاد أهل المدينة للحرف المشدّد علامة على شكل القوس طرفاه من أعلى هكذا : (س) يوضع فوق الحرف المفتوح ، وتحت المكسور ، وعلى شمال المضموم ، ويضعون نقطة الفتحة فى داخل القوس والكسرة تحت حذبه والضمة على شماله هكذا : (ن ب س) ثم استغنوا عن النقطة ، وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة (ن س ب) .

ثم زاد أتباع أبى الأسود علامات أخرى ، فوضعوا السكون جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه (-) .

هذا هو ما انتهى إليه تصوير الشكل فى عهد الدولة الأموية ، ثم حدث تغيير فى صورة الشكل على يد الخليل بن أحمد فى الدولة العباسية .

ولم تشتهر طريقة أبى الأسود إلا فى المصاحف ، أما الكتب والرسائل فكان شكلها نادراً ، لأن المكتوب إليهم كانوا يعدّون ذلك تجميلاً لهم حتى قال بعضهم : شكل الكتاب سوء ظنّ بالمكتوب إليه .

وفى دار الكتب الملكية بالقاهرة مصحف كوفى عثر عليه فى جامع عمرو بن العاص وهو من أقدم المصاحف فى العالم ، مشكول على طريقة أبى الأسود .

الإعجام

الإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع ققط لمنع اللبس بين المتشابه منها ، كالباء والثاء والطاء مثلاً ، فالهمزة فيه للسلب : أى إزالة العجمة . والمشهور أن اختراع الإعجام كان فى زمن عبد الملك بن مروان ، والتحقيق أنه كان قبل الإسلام ، فقد روى ابن عباس : أن عامر بن جندرة هو الذى وضع الإعجام . ونحن نجد للباء والثاء والطاء مع اختلافها فى النطق صورة واحدة ، وكذلك الجيم والحاء والحاء والذال والذال الخ ، ويبعد كل البعد أن تكون الحروف موضوعة من أول أمرها على هذا اللبس الذى لا تستطيع القرآن تمييزه بسهولة . على أنه عثر على كتب كتبت قبل زمن عبد الملك فيها إعجام بعض الحروف كالباء وما يشبهها .

ويمكن التوفيق بين الرأيين بأن المراد بحدوث الإعجام فى زمن عبد الملك أنه تكامل ووصل إلى التمام .

فكان الناس إلى أيام الحجاج بالعراق بعد أن مضى على مصاحف عثمان نيف وأربعون سنة يصحفون القرآن ، ويحرفون كثيراً من الآيات عن مواضعها ، فمنهم من يقرأ : وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار كفور ، والأصل : ختار . ومنهم من يقرأ : عذابى أصيب من به من أساء ، والأصل : أشاء . وقرأوا : هم أحسن أثاثاً وزياً ، والأصل : ورثياً ، كذلك قرءوا : والذين كفروا فى غرة وشقاق ، والأصل : فى عزّة ، وقرأوا : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه ، والأصل : إياه . ففرع الحجاج إلى كتابه ، وسألهم وضع علامات للتمييز بين الحروف ، ودعا نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود لهذا الأمر . وقد قرروا بعد البحث والتروى والاقدام والاحجام إدخال هذا الإصلاح ، وهو تمييز الحروف المتشابهة بإهال بعض وإعجام آخر .

ولما كان هذا الإصلاح يستدعى اشتباه نقط الشكل بنقط الإعجام قرّروا أن يكون نقط الشكل بالمداد الأحمر كما فعل أبو الأسود ، ونقط الإعجام بلون المداد المستعمل في كتابة الحروف . وقد توقف الناس في قبول ذلك العمل كما توقفوا قديما عن العمل بإصلاح أبي الأسود ، ولكن شدة الحجاج جعلتهم يخضعون لرأيه ، وعم الإعجام جميع الكتابة في القرآن وغيره حتى عدّ إهماله خطأ يلام عليه فاعله ، وفي دار الكتب أيضاً مصاحف اجتمع فيها شكل أبي الأسود ، وإعجام نصر بن عاصم .

تدوين العلوم

مضى زمن النبيّ وعصر الخلفاء الراشدين ، ولم يكن العرب قيديوا شيئاً من العلوم غير القرآن الكريم . ويرجع امتناعهم عن ذلك إلى أسباب :

أولها : أنهم يرون في القرآن غنية عن كل شيء ، فقد قيل : إن عمرو بن العاص لما رأى مكتبة الإسكندرية أرسل بخبرها إلى عمر ، فقال له : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليه ، فتقدّم بإعدامها ، فأحرقها عمرو .

وثاني هذه الأسباب : أنهم كانوا منصرفين إلى الفتح ، وإعلاء كلمة الله ، على أن النصابة من علوم الجاهلية وأشعارها أغفلوها كذلك ، لاشتغالهم بالدعوة إلى الدين وتأنيده قال عمر رضى الله عنه : كان الشعر علم القوم ، ولم يكن لهم علم أصحّ منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولَهَيْت عن الشعر وروايته . فلما كثّر الإسلام ، واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يثوبوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم أكثره .

وأما ثالث الأسباب : فهو أنهم لقرب عهدهم من البداوة كانوا ذوى ملكات

صحيحة وحواظ قوية ، فلم يشعروا بالحاجة إلى التدوين ، وهذا هو شأنهم الذى غبروا عليه مدّة جاهليتهم يحفظون أنسابهم وأخبارهم وأشعارهم لا يعتمدون فى ذلك إلا على قوّة حفظهم .

وتضاربت أقوال المؤرخين فى بيان رأى رسول الله وأصحابه فى التدوين ، فمنهم من ينقل أقوالاً يستنبط منها حظره على المسلمين ، ومنهم من ينقل ما يؤيد الدعوة إليه والحث عليه . فقد روى أصحاب الرأى الأول عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الكتابة ، وقال : إنما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة كما ورد أنه رأى فى يد عمر ورقة من التوراة ، فغضب وقال : ألم آتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى .

ويروى أصحاب الرأى الثانى أن رسول الله لما فتح مكة قام فخطب ، فقال له رجل من اليمين يقال له أبو شاة : يا رسول الله اكتبوا لى ، فقال رسول الله : اكتبوا لأبى شاة كما يروى عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : أكتب كل شىء تسمعه ورسول الله يتكلم فى الرضا والغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، ثم ذكرت ذلك لرسول الله ، فأوماً بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق .



والذى نراه فى هذه المرويّات المتناقضة فى ظاهرها أن النهى فيها إنما كان عن كتابة الأديان ، لأن فى ذلك إحياء لها ، وهو يناقض عمل رسول الله . أما كتابة غير ذلك من الحديث أو القرآن فليس بمستساغ فى عقل أن ينهى عنه رسول الله ، وفى أول سورة من القرآن حصّ على الكتابة . قال تعالى : « أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ، ورسول الله هو الذى حارب الأمية فجعل فداء الأسرى من الكتاب يوم بدر

تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة . أما ما حدث من تخرج الصحابة والتابعين عن كتابة الحديث فإنما كان مبالغة منهم في توقي الابتداع وخوفاً من اختلاط الحديث بالقرآن . فلما شاعت الفتن ، واجترأ الناس على رسول الله ينسبون إليه ما لم يقل ، لم ير الأئمة بدءاً من الإذن بتدوينه ، وقد أمن اختلاطه بالقرآن .

العلوم المدونة في هذا العصر

لقد ذكروا أن معاوية استدعى رجلاً من اليمن اسمه عبيد بن شريم الجرمي ، فسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم وتبليب الألسنة ، فأجابه عن كل ذلك ، فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد ، فكان هذا أول كتاب ألف في التاريخ ، وقد عاش الرجل إلى أيام عبد الملك وعمل كتباً أخرى منها : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك الماضين كما ذكروا أن وهب بن منبّه المتوفى سنة ١١٦ هـ وضع كتاباً في الأخبار . كذلك يقال : إن زياد ابن أبيه ألف كتاباً في نسبه ومثالب العرب ، ودفعه إلى ولده وقال : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون به عنكم .

وقيل : إن واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ له كتاب في المرجئة ، وآخر في التوبة ، وكتاب في خطبته التي أخرج منها الراء ، وكتاب معاني القرآن .

كذلك ألف يونس الكاتب كتباً في الأغاني ونسبتها إلى المغنين ، وقد أخذ الغناء عن معبد وابن سريج . وفي علم النحو وضع عبد الله بن إسحق الحضرمي كتاباً في الهمز كان يعلّمه على تلاميذه .

أما الحديث فلم يدون إلا في أيام عمر بن عبد العزيز . استخار الله أربعين يوماً ثم أمر ابن شهاب الزهري ، أو ابن جريج ، أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فكان ذلك ، وبعث بما جمع إلى الأمصار ، ثم فقد هذا المدون ولم يوقف له على أثر .

وكان الدافع لعمر إلى تدوين الحديث هو ما كان من اجتراء الناس على رسول الله باختلاق الأحاديث لابطال حجة خصومهم أو لاكتساب تأييد العامة فيما يحتاجون فيه إلى تأييد . وقد ذكروا أن المهلب بن أبي صفرة وضع أحاديث كثيرة ليشد بها أزر المسلمين ، ويضعف أمر الخوارج مع أنه معدود من الأتقياء ، ولعله كان يعد ذلك من خدع الحرب ، وهي يباح فيها ما لا يباح في غيرها ، وأمثال ابن المهلب كثير وبعض مختلق الحديث كان يفعل ذلك نكاية في الإسلام . فقد ذكروا أن عبد الله بن المقفع اعترف بأنه دس على المسلمين أربعة آلاف حديث كما ذكروا أنه لما أخذ عبد الكريم ابن أبي العوجاء أحد وضائع الحديث لتضرب عنقه ، قال : قد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحلل . وأن البخاري اختار أحاديثه ، وهي سبعة آلاف ، فيها ثلاثة آلاف مكررة من ستمائة ألف حديث ، وقد تجرد العلماء لبيان الصحيح والفاقد من الحديث ولكن ذلك لم يكن إلا في العصر العباسي .

أما علم التفسير فقد ظل الصحابة والتابعون يتناقلون ما سمعوه عن النبي من بيان مشكل القرآن ، وتوضيح غامضه ، وتمييز ناسخه ومنسوخه إلى نهاية القرن الأول .

ولابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ تفسير مدون ، وفي دار الكتب الملكية المصرية بضع نسخ منه ، ولكن يظهر أنه إنما نقل عنه بالرواية ولم يدون في أيامه ، والمشهور أن أول من دون التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولم تقف هماتهم في هذا العصر عند العلوم العربية أو الدينية ، بل إنهم ترجموا في الطب والكيمياء ، فقد ذكروا أن ما سرّجويته السرياني اليهودي متطبب البصرة نقل كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية ، وكان ذلك في الدولة الأموية . كما ذكروا أن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان يدعى حكيم بن مروان كان فاضلا في نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى في ذلك عمره وأسقط نفسه ، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما ، وقد أخذ هذه الصنعة عن رجل من الرهبان يسمى مريانس ، وقد استبعد ابن خلدون

أن يكون من العرب في هذا العهد من يشتغل بهذه العلوم . قال في مقدمته عن علم الكيمياء : « وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها إلى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ، ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي والبدواة إليه أقرب ، فهو بعيد من العلوم والصناعات جملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى ، مبنية على طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم » . واستغراب ابن خلدون لا موجب له ، فإن الذى نفى عن العرب في ذلك العصر إنما ينفي عن جملةهم وجمهورهم ، وقيام فرد بالإقبال على علم أو علوم غريبة تشغف بها النفس غير مستبعد خصوصاً إذا كان القائم بذلك له من ذات يده وفراغ باله ما يمكنه من محاولته على يد معلم ماهر كمعلم خالد الراهب ، والأمرأء في كل عصر لا بد لهم من اشتغال بعلم أو لهُو تزجية للوقت وقتلا للسام .

وصف الكتب المدونة في هذا العصر

ولم تكن تلك الكتب التى عرفت في هذا العصر على الحالة التى نرى عليها الكتب اليوم ، أو على ما صارت عليه في العصر العباسى من التقسيم والتبويب ، وحسن التنسيق - التسمية والعنونة - ولكنها كانت مخض روايات لأثر فيها للاستنباط أو الاستدلال ، ولا عمل للمؤلف فيها إلا الجمع لما وصلت إليه يده وانتهى إليه سماعه ، فالحديث الذى دَوّن في أيام عمر بن عبد العزيز كان مجموعة أحاديث بسندها ليس لها نصيب من التبويب الذى عرفناه في البخارى ومسلم اللذين هما من عمل الدولة العباسية فيما بعد . فالذى كان يطلق عليه اسم كتاب في ذلك العصر هو مجموعة من الأوراق في موضوع واحد لاصبغة لها إلا الرواية والسند في حديث أو غيره .

وبعض هذه الكتب بقيت إلى عهود متأخرة ، فابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ هـ يقول : إنه رأى في أسود الدوى في النحو كما رأى كتاب

عبيد بن شَرِيَّة . وابنُ خَلْكان المتوفى سنة ٦٨١ يقول : إنه رأى كتاب ابن مُنَبِّه في تاريخ الين .

وفي وصف حركة العلم والاشتغال به في هذا العصر يقول ابن خلكان عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ إنه كان إذا جلس في بيته وضع حوله كتبه ، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا . فقالت له أمراؤه يوما : والله لهذه الكتب أشدّ على من ثلاث ضرائر ، وإن أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تسك) فأخرجها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأوّل لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن عرب الجاهلية .

عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب

إن العصبية التي بنيت عليها سياسة الدولة الأموية قد عادت على اللغة والأدب بأجلّ نفع ، فإن من آثارها أن أغرم رجال هذه الدولة بحديث آبائهم من العرب يرفعون من ذكركم ، ويمجدون أعمالهم ، ويعتدون أيامهم ، ويسجلون مفاخرهم . ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا رواية شعرهم ، وإحياء ما درس من أخبارهم . وكان الإسلام قد شغل العرب عن ذلك أيام النبي والخلفاء الراشدين ، فاقطع ما كان متصلاً من رواية هذه الأخبار ، وكاد ينسى ما كان محفوظاً من تلك الأقوال . فكان عمل الخلفاء والأمراء جهاداً كبيراً ، وسعيّاً مشكوراً في سبيل إحياء ما درس ، وتأبّدت معالمة من تلك الآداب ، فبذلوا العطاء الكثير لمن أحيا لهم منها شيئاً برواية قصيدة ، أو تحقيق كلمة ، أو نسبة بيت لقائله .

ولقد كان الخليفة أو الأمير يارق ، فلا يخطر بباله إلا شيء من ذلك ، فينطلق حاجبه ينادي في الناس لعله يرى طلبه سيده ، أو يرسل الشرط في جوف الليل إلى

فلان الراوية ليأتوه به من ساعته . أو يطلب بالبريد من عامل على أطراف مملكته حمل ذلك الأديب الذى يؤمل فى علمه ردّ شبهته ، فإذا اطمأنّ الرجل بمجلس الخليفة وسأله فروى ظمأه ، أجزل له العطاء وقرب منزلته .

فن أجل ذلك كان العلماء لا يألون جهداً فى إحياء أدب هذه اللغة بالمدارس والبحث ، ومشافهة الأعراب واستخبارهم ، يتلقونهم بالبصرة أو الكوفة ، أو يخرجون إليهم فى البادية ، فما يدعون صبيّاً ، ولا شيخاً ، ولا فتاة ، ولا عجوزاً إلا حاوروهم واستنشدوهم ، ثم يرجعون وقد امتلأت جعابهم بالعلم الذى يؤملون رواجه والإثراء به عند رجال هذه الدولة .

ولقد كان الخلفاء والأمراء أنفسهم علماء مُلمّين ، ورواة ثقات يعلمون جلساءهم ما يجهلون ويرشدونهم إلى ما لا يفهمون . وقد أعدوا لهذه المذاكرات مجالس يحشدون لها العلماء والأدباء ، وتجرى بين أيديهم مناظراتهم ، ويكون لهم الرأى فى تصويب وتخطئة ، ولكنهم لم يكونوا يكتفون بهذه المجالس . بل لقد امتلأت كتب الأدب بما يدل على أن هذه اللغة وآدابها كانت موضوع سمرهم ، وحديث موائدهم ، بل هى العنصر الذى ملأ أوقات فراغهم وشغلهم ، لا يصدّهم عنها غضب ، ولا يلهيهم طرب ، ولم يكتفوا بأن يهبوا فى سبيلها المال الجزيل والجاه العظيم ، بل لقد وهبوا الأرواح لأصحابها لأدب راعهم ، أو شعر ترنحت له أعطافهم ، فيؤمنون الخائف ، ويرفعون السيف عن المقتول ، وينقلب حنقهم عليه صفحاً ورضاء .

وإن هذا لغرام ما سمعنا بمثله فى الناس ، لذلك كان من نتائج المحتومة أن اجتمع لدينا لهذه اللغة أدب لا يظن أن مثله اجتمع لأمة عن أيام بداوتها ، فحفظت الأمة العربية بهذا الأدب صورة صادقة من بداوتها . وشأن البداوة فى كل أمة ألا يبقى منها إلا حديث خرافة ، ولقد كان من سعادة اللغة أن الذين كانت عنايتهم بها أتم من خلفاء هذه الدولة هم أطول خلفائها أعماراً فى الخلافة ، وهم : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ،

وهشام بن عبد الملك ، وكل منهم حكم زهاء عشرين سنة ، فكان مجموع مدتهم ثلاثة أرباع عمر هذه الدولة .

أمثلة من عناية الخلفاء والأمراء بالأدب واللغة

١ - أنشد عبد الملك يوما قول عِمْران بن حِطَّان^(١) يمدح عبد الرحمن بن مُلْجَم قاتل على كرم الله وجهه :

يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّالْيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَفْكَرُ فِيهِ ثُمَّ أَحْسِبُهُ أَوْ فِي الْبَرِّيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا^(٢)

ثم قال جلسائه : من يعرف قائلها ؟ فسكت القوم جميعا ، فقال لَرَوْح بن زَنْبَاع : سل ضيفك . قال نعم أنا سألهم ، وما أراها تخفى على رجل فيهم ما سألته عن شيء قط إلا وجدته به عالما . فلما راح إلى ضيفه ذكر لهم البيتين ، وكان عِمْران بن حِطَّان من ضيوفه يكتنهم خبره خوفا من الخليفة ، فقال له : قائلها عِمْران بن حِطَّان في ابن مُلْجَم قاتل على فقال له : فهل فيها غير هذين البيتين تفيدنيه ؟ قال نعم :

لِللَّهِ دَرْؤُ الْمَرَادَى الَّذِي سَفَكْتُ كَفَّاهُ مُهْجَةً شَرًّا خَلَقَ إِنْسَانَا
أَمْسَى عَشِيَّةً غَشَاهُ بِضَرْبَتِهِ مِمَّا جَنَّاهُ مِنَ الْأَثَامِ عُرْيَانَا

ثم أتبع البيتين بقوله : صلوات الله على على ، ولعن الله عِمْران وابن مُلْجَم ، فلما أصبح رَوْح غدا على أمير المؤمنين فأخبره بالحديث ، فقال له ضيفك هذا هو عِمْران بن حِطَّان ،

(١) عمران بن حطان السدوسي شاعر فصيح من الفراء ودعاتهم والمقدمين فيهم ، وكان في آخر أيامه من القعدة لأن عمره طال فضعف عن القتال فكان يدعو بلسانه . وهو من البصرة فلما اشتهر بالخروج طلبه الحجاج فهرب إلى الشام ثم طلبه عبد الملك فهرب إلى عمان وما زال ينتقل حتى مات .

(٢) فكر (من باب ضرب) كأفكر وتفكر . حسب بمعنى الظن (كفرح) والمضارع بالوجهين

قتل له : إن الخليفة أمرني أن آتيه بك ، فأظهر عمران السرور بذلك ، ثم فرّ خوفاً من عبد الملك لأنه كان خارجاً عليه .

٢ — نَصَدَ عبد الملك يوماً الموائد يطعم الناس ، فجلس رجل من أهل العراق على بعض تلك الموائد ، فنظر إليه خادم عبد الملك فأنكره وضايقه ، فقال له الأعرابي : دعني أتهنأ بزد أمير المؤمنين ولا تنفصني به ، ثم إن عبد الملك وقف على تلك المائدة ، فقال من القاتل :

إِذَا الْأَرْضُ تَوَسَّدَ أَبْرَدِيهِ خُدُودُ جَوَازِي بِالرَّمْلِ عَيْنِ^(١)

وما معناه ؟ ومن أجاب فيه أجزناه . والخادم يسمع ، فقال العراقي للخادم : أُنْتَجِبَ أن أشرح لك قائله وفيم قاله ؟ قال نعم . قال : يقوله عدى بن زيد في البطيخ الرَّمْسِي . فقال ذلك الخادم . فضحك عبد الملك وقال له : من ذلك على هذا ، قال : هذا العراقي فعل الله به ، فقال عبد الملك للعراقي : أنت لقنته هذا ؟ قال : نعم ، لأنه كدر على طعامك بازدرائه لي ، ثم قال له عبد الملك : فكيف الصواب ؟ قال يقوله الشَّيْخُ^(٢) ابن ضِرَارٍ الغطفاني في صفة البقرة الوحشية قد جزئت بالرطب عن الماء ، قال صدقت وأجازه ، ثم قال له . ما حاجتك ؟ قال : تنحى هذا عن بابك فإنه يشينه .

٣ — قال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام

(١) الأَرْضُ : شجر أحر السيقان . الأبردان : الظل والنّس ، أو الغداة أو العَمَى . الجَوَازِي : المكتفية بالعشب الأخضر عن الماء . العين : جمع عينا ، وهي التي عظم سواد عينيها في سعة (فائدة) كما تقصد العرب بالأبردان الظل والنّس أو الغداة أو العَمَى . تقصد بالأبيضين اللبن والماء أو الخبز والماء أو الشحم واللبن . وبالأحمرين الحمر واللحم . ويكون تقدير البيت إذا توسدت حدود البقر الأَرْضُ في الغداة أو العَمَى . . . ويكون نصب أبرديه على الظرفية . وبعد البيت :

بشت إليك راحتي تشكي هزالا بعد محفدها السمين
والحفند : السنام .

(٢) الفماخ : شاعر مخضرم وهو أحد من هجا قومه وعشيرته ومن عليهم بالقرى . قال فيه الحطيفة إنه أشعر غطفان ، وكان يجيد وصف القوس والحمار الوحشي ، وكان أرجز الناس على البديهة

يجفوني لذلك ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فكثت في بيتي مدة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سرّاً ، فلما لم أسمع أحداً يذكرني سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، فإذا شرطيان يقولان : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت في نفسي : من هذا كنت أحذر ، وحاولت أن آتي أهلي أودعهم فلم يمكناني ، فلما صرت إلى الأمير يوسف رمى إلى كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متعنع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجلا يسير عليه إلى دمشق . فلما صرت إلى هشام استداناني فدنوت ، ثم قال لي : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت لا . قال بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر قائله . قلت وما هو ؟ قال :

فَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمَا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
 قُلْتُ هَذَا يَقُولُهُ عَدِيٌّ بْنُ زَيْدٍ^(١) فِي قَصِيدَةٍ لَهُ . قَالَ فَأَنْشَدْنِيهَا ، فَأَنْشَدْتُهُ :

بَكَرَ الْعَادِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيقُ
 وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
 لَسْتُ أَذْرِي إِذَا كَثُرُوا الْعَدْلُ فِيهَا أَعْدُوْا يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ
 فَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمَا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ^(٢)
 قَدَمْتُهُ عَلَى عُقَارٍ كَمَيْنِ الدِّ دِيكَ صَنَى سُلَافَهَا الرَّأُوْقُ^(٣)
 مَزَّةٌ قَبْلَ مَرْجِهَا فِذَا مَا مَرْجَتْ لَدَّ طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ

(١) عدى بن زيد: شاعر جاهلي نصراني قروي كان من أهل اليمامة ثم تحول جده إلى الحيرة لدم أصحابه في بلاده . وفيها لقاء عدى والتصل بملوكها حتى لقد كتب في ديوان كسرى بالبرية وكان يعرف الفارسية ، وليس من الفحول قالوا عنه : إنه بين الشعراء كسهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

(٢) الصبوح : شراب الصبح .

(٣) العقار : الخمر لما قرنتها (ملازمتها) الدن أو لقرنها شاربيها: أى قيدها لإياه عن المشى .

وَطَمًا قَوْعَهَا قَفَاقِيعُ كَالْدُرِّ رِ صِفَارٌ يُبَيِّرُهَا التَّصْفِيقُ^(١)
 ثم كان المزاجُ ماءً سحابٍ لا صرعى آجنٌ ولا مطرُوق^(٢)
 فطرب هشام ، ثم قال أحسنت : فسل حاجتك كائنة ما كانت ، فقال حماد قتل :
 إحدى الجاريتين لجاريتين كانتا واقفتين في خدمة الخليفة ، فقال : هما لك ، ثم بت في
 ضيافة الخليفة ، فلما أصبحت إذا بعدة من الخدم بيد كلٍّ منهم بدرة^(٣) ، فقال لى أحدهم
 أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لك : انتفع بهذا المال فأخذته والجاريتين
 وانصرفت .

ع — قال عبد الملك يوما لجلسائه ، وكان يتجنب غير الأدباء : أى المناديل أفضل ،
 فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقىء البيض ، وقال آخر : مناديل الين كأنها
 أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئا أفضل المناديل كما قال أخوتهم ، يعنى
 عبدة بن الطبيب :

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أُخْبِيَةٍ وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الرَّاجِيلُ
 وَرَدُّ وَأَشْقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ مَا غَيَّرَ الْغُلَى مِنْهُ مَأْكُولُ^(٤)
 نَمَتَ قُمْنًا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ أَغْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

قال فى الكامل : وإنما أخذ الشاعر هذه الأبيات من بيت أمرى القيس ، فإنه جمع
 ما فيها فى بيت واحد مع فضل التقدم :

نَمَشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكْفَنًا إِذَا نَحْنُ قَمْنَا عَنْ شِوَاءِ مُضَهَّبٍ
 والمضهب الذى لم يُدْرِك .

(١) القفاقيع : هنات صغار مستديرة تتولد من مزج الحجر بالماء واحدها قفاعة . التصفيق .
 مزج الحجر بالماء .

(٢) الصرعى : الماء يطول مكثه . آجن : متغير اللون والطعم . المطروق : الذى خوضته الابل وبولت فيه

(٣) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . أو سبعة آلاف دينار .

(٤) مايؤنيه : أى يؤخره حتى يبلغ أناه : أى إدراكه ، والعرب لاتنضج اللحم لاستعجالها للضيف
 ولأن ذلك مستحب عندها . الورد : الأحمر . الأشقر : الذى بين الحمرة والبياض .

٥ — كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يعظم أمر قطريّ بن الفُجاءة المازني ، فكتب إليه عبد الملك : أوصيك بما أوصى به البكري زيداً ، فقال الحجاج لحاجبه : ناد في الناس من أخبر الأمير بما أوصى به البكري زيداً فله عشرة آلاف درهم ، فقال رجل للحاجب : أنا أخبره فأدخله عليه ، فقال له : ما قال البكري لزيد ؟ قال : قال موسى بن جابر البكري لابن عمه زيد :

أَقُولُ لِزَيْدٍ لَا تُتَرِّتْهُ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي^(١)
فَإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فَضَعُوهَا وَإِنْ أَبَوْا فَشُبَّ وَقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ^(٢)
فَإِنْ عَصَتْ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ يَنَابِهَا فَعُرْضَةُ نَارِ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي^(٣)

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين عُرضة نار الحرب مثلي أو مثله .

٦ — جيء إلى الحجاج بالأسرى بعد حرب ابن الأشعث ، فوقفوا بين يديه ، وجعل يقتلهم ، ثم صاح به رجل : « والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا بالذنب ، فما أحسنت بالعفو ، ولقد خالفت الله فينا وما أظعته ، فقال له : « كيف ؟ ويلك ! » . قال : لأن الله تعالى يقول : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْبَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ، وقد قتلت فأثخنت حتى تجاوزت الحد ، فامنن ولا تقتل ، فقال الحجاج : « ويلك ! ألا كان هذا الكلام قبل هذا ؟ » ، ثم أمر رفع السيف وأمن الناس .

٧ — فرّ الكميّة الشاعر التشيعيّ لبنى هاشم من سجن هشام ، فكان شديد الحق عليه لتشيعة وفراره من سجنه ، ثم احتال الكميّة حتى دخل على هشام ، فقال له : يا كميّة ، أأنت القاتل :

(١) التترّة : التزلزل والتقلقل ، وهي أيضا استرخاء في الكلام والبدن .
(٢) الوقود بالفتح والضم : شبوب النار . وبالفتح خاصة : الحطب كالوقيد والوقاد .
(٣) يقال هو عرضة لذلك : أي مقرر له قوى عليه . وجعلته عرضة لذلك : أي نصبته له ، والمعنيان مناسبان هنا : أي نحن نقاوم نار الحرب ، أو نحن معرضون لها .

قَتَلُ لِبْنِي أُمَيَّةَ حَيْثُ خَلَوْا وَإِنْ خِفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا^(١)
أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مَنْ يَجُورُكُمْ أُجَيْعَا
بِمَرْضِي السِّيَاسَةِ هَاشِمِيَّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمْتِهِ رَيْبَعَا

هتقال : لا تثریب یا امیر المؤمنین ، إن رأیت أن تمحو عنی قولی الکاذب . قال :
بماذا ؟ قال : بقولی الصادق :

أَوْرَثْتُهُ الْخَصَانُ أُمُّ هِشَامٍ حَسَبًا ثَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرًا^(٢)
وَتَعَاطَى بِهِ ابْنُ عَائِشَةَ الْبَدَنُ رَفَأْتَنِي لَهُ رَقِيًّا نَظِيرًا
وَكَسَاهُ أَبُو الْخَلَّافِ مَرَوَا نُسْنَاءَ الْمَكَارِمِ الْمَأْثُورَا
لَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْبِطَاحُ وَلَكِنْ وَجَدْتَهَا لَهُ مَعَانًا وَدُورًا^(٣)

وكان هشام متكئا فاستوى جالسا وقال : هكذا فليكن الشعر ، ثم قال : رضيت عنك
يا كميت ، فقبل يده ، وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوبا شاميا ، وكتب إلى خالد
ابن عبد الله القسري عامله على العراق ينهيه عن التعرض للكميت ، ويأمره بإخلاء سبيل
أمرأته ، وأن يعطيها عشرين ألفا وثلاثين ثوبا .

٨ - وصفت لعبد الملك جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه
فيها ، فامتنع وامتنعت ، ثم أضعف لصاحبها الثمن وأخذها على كره منها ، فأعجب بها
عبد الملك ، وأمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه ، فبينما هي عنده ومعه ابنه الوليد
وسليمان ، وقد أخلاها للمذاكرة إذ أقبل عليهما ، فقال : أي بيت قالته العرب أمدح ؟
فقال الوليد : قول جرير فيك :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ

(١) القطيع : السوط أو القضيبي تتخذ منه السهام ويصبح إرادة المعينين .

(٢) أم هشام ، هي بنت إسماعيل الخزومي ، وهي زوج عبد الملك وكانت له أيضا عاتكة وهي بنت
طلحة التيمي وقد ولدت له أبا بكر واسمه بكر .

(٣) البطاح : أراد بها الأماكن المقدسة : أي الكعبة وما حولها . المان : الباءة والمنزل .

وقال سليمان : بل قول الأخطل :

مُسْمِسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَاصًا إِذَا قَدَرُوا

فقلت الجارية : بل قول حسان :

يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

فأطرق عبد الملك ، ثم قال : وأى بيت قالته العرب أرق ، فقال الوليد قول جرير :

إِنَّ الْعُمُونَ أَلَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا

فقال سليمان : بل قول عرب بن أبي ربيعة :

حَبْذَا رَجَعُهَا إِلَيْهَا يَدَيْهَا مِنْ يَدَيِّ دِرْعِهَا تَحُلُّ الْأَزْرَا

فقلت الجارية : بل بيت حسان :

لَوْ يَدِبُ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عَلَيْهَا لِأَنْدَسَتْهَا الْكُلُومُ

ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد قول عنترة :

إِذْ يَتَقَوْنَ بِي الْأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَاقِقَ مَقْدَمِي

فقال سليمان : بل قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَالْمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

فقلت الجارية : بل بيت كتب بن مالك :

نَصِلُ الشُّيُوفَ إِذَا قَصَرْنَ بِخَطُونَا قُدَمَا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك : أحسنت ، ومانرى شيئاً فى الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك ،

فأجل كسوتها ، وأحسن صلتها ، وردّها إلى أهلها .

٩ — ضمّ مجلس عبد الملك جماعة من خواصه وسنّاره ، وكلهم من أهل الأدب ،

لأنه كما علمت كان يتجنب غيرهم فى مجالسه . فقال « أَيُّكُمْ يَأْتِنِي بِحُرُوفِ الْمَعْجَمِ فِي

بَدَنِهِ ، وَلَهُ عَلَى مَا يَتَنَى ، فقام إليه سُؤْيِدُ بْنُ غِفْلَةَ ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ،

فقال : قل ما عندك ، فقال :

«أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خدّ . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غُدْبَة^(١) . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نُغْنَعُ^(٢) هامة . وجه . يد . فهذه حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين » .
فقام بعض الجالسین وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان ثلاثا . فقال عبد الملك : قل ولك ما تمني ، فقال :

« أنف . أذن . أسنان - بطن . بصر . بز - ترقوة . تمرة . تينة^(٣) - ثغر . ثنايا . ثدى - جمجمة . جنب . جبهة - حلق . حنك . حاجب - خد . خصر . خاصرة - دبر . دماغ . دُرْدُرُ^(٤) - ذكر . ذقن ذراع - رقبة . رأس . ركية - زند . زردمة^(٥) . زغب^(٦) - ساق . سرّة . سبابة - شفة . شعر . شارب - صدر . صدغ . صلعة - ضلع . ضفيرة . ضرس - طحال . طُرَّة^(٧) . طرف - ظهر . ظفر . ظَلَمُ^(٨) - عين . عنق . عاتق - غُدْبَة . غلصمة . غنة - فم . فك . فؤاد - قلب . قدم . قفا - كتف . كف . كعب - لسان . لحية . لوح - مرفق . منكب . منخر - نُغْنَعُ^(٩) نغنوغ . ناب . نَنَ^(١٠) . هامة - هيئة - وجه . وجنة . ورك - يمين . يسار . يافوخ . ثم نهض مسرعا وقبل الأرض بين يدي عبد الملك ، فقال أعطوه ما يمتني .

-
- (١) الغدبة : لحة غليظة تحت لهازم اللسان .
(٢) النغنع : اللحمة في الحلق عند اللهازم .
(٣) التينة : الدبر .
(٤) الدردر : مغارز الأسنان في الصبي .
(٥) الزردمة : الغلصمة ، أو موضع الابتلاع .
(٦) الزغب : صفار الشعر .
(٧) الطرة : الناصية .
(٨) الظلم : بريق الأسنان .
(٩) الفرج .
(١٠) الشعر الضعيف .

مجامع العلم والأدب

كان في عهد هذه الدولة مجامع للعلم وأخرى للأدب . تقوم الأولى على علوم الدين من تفسير القرآن ورواية للحديث وبيان للفرائض والوعظ ، ولم يكن يؤيدها في الغالب ، ولا يدفع إليها إلا رغبة كبار الصحابة والتابعين في نشر الإسلام وتفقيه الناس فيه . فلم يكن للدولة ولا للقائمين بالأمر بذل في سبيل ذلك ولا تشجيع عليه .

أما مجامع الأدب فكانت زاخرة بالشعر والرواية عن العرب تزدهم فيها الأقدام ، ويجرى التنافس ، ويذكيها اشتراك الخلفاء فيها ، ومساجلتهم لرجلها ، وإغداقهم على المبرزين منهم . وإذا كانت مجامع العلم ، وهي حلقات الدروس في مساجد الأمصار ، وفناء الكعبة ، ومسجد رسول الله بالمدينة ، فإن مجالس الأدب هي دور الخلفاء والولاة والمساجد ، وكُناسة الكوفة ، ومربد البصرة .

مجامع العلم

لما كثرت البلاد المفتوحة ، واستقرت في يد العرب ، وكانت كثيرة الخيرات وفيرة الغلات رغب العرب في النزوح إليها للاستمتاع بخيراتها . فكان من ذلك أن انبث في البلاد أصحاب رسول الله الذين عقلوا عنه الدين ، وفهموا معاني القرآن ، وأحصوا حديثه ورأوا فعله ، فالتفت حولهم الناس يتلقون عنهم ، ويرهفون آذانهم لما فاتهم من حكمة رسول الله وأدبه ، وكانت الأمصار إذ ذاك هي : المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والكوفة ، ودمشق ، والفسطاط . وقد أتاح الله لكل مصر من هذه الأمصار علما أو علماء كانوا هداة أهلها ، وخلفوا فيها تلاميذ لهم اقتدوا بأرائهم ، واصطبغوا بصبغتهم ، وشاعت في كل مصر آراء ، وأراجت علوم توافق النزعة التي امتاز بها

ذلك الصحابي والتابعي الذي كان يحدث الناس بهذا المصر .

كان للمدينة ومكة الشأن الأول بين الأمصار في نشر الدين . فأما مكة فلها شرف البيت ونشأة النبي والإسلام بها وكونها مثابة الحاج وأما المدينة ، فلكونها مهاجر النبي ، وبها كان جل التشريع الإسلامي ، وهي مركز الخلافة أيام أبي بكر وعمر وعثمان . ولكن المدينة كانت أعظم شأنًا من مكة (على عظم شأنها) إذ كان بالمدينة جل الصحابة الذين سمعوا من الرسول ، وحضروا غزواته ولازموا مجلسه ، وقد بقوا بالمدينة لم يبرحوها ، ولم يعد إلى مكة من كان بها من المهاجرين . تخرجنا من ذلك والتمسًا للبركة بملازمة الموضع الذي شرف برسول الله حيًا وميتًا .

فكانت المدينة ثم مكة أكثر قصادًا من طلاب العلم لكثرة من بهما من حملة الشرع والذين حضروا التنزيل ، فكان من كبار العلماء بالمدينة زيد بن ثابت الذي كان مترسًا في القضاء والفتيا والقراءة والفرائض ، وكان من فضله أن يأخذ ابن عباس بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء . ثم من علماء التابعين بها سعيد بن المسيب تلميذ زيد بن ثابت ، وعروة بن الزبير ، وأخيرًا أنجبت المدينة مالك بن أنس .

وكان من كبار رجال مكة معاذ بن جبل الذي خلفه رسول الله بمكة بعد الفتح يعلم أهلها ويفقههم ، وعبد الله بن عباس أعلم الناس بتأويل القرآن ، ومنهم سفيان ابن عيينة الذي أخذ عنه الإمام الشافعي قبل أن يتحول إلى المدينة .

ونزل بالكوفة من أصحاب رسول الله كثير كان من أشهرهم : علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ولكن عليًا كان مشغولًا بالسياسة والحروب فلم يجلس للتعليم ، وابن مسعود ، وهو الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة لتعليم أهلها ، فكان له تلاميذ علموا الناس من بعده ، واجتمع بهم من قدموا من المدينة فيما بعد ، فكانت في الكوفة حركة علمية كبيرة ، ومن علمائها شريح القاضي والشعبي والأشتر النخعي . ومن علماء الكوفة فيما بعد (في عصر العباسيين) الإمام أبو حنيفة النعمان .

وفي البصرة كان أول من علم الناس بها أبو موسى الأشعري ، وهو يني قدم مكة .

فأسلم وهاجر إلى الحبشة ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة ، وكذلك علم بها أنس بن مالك الذي كان صبيّاً حين قدم النبيّ المدينة وخدمه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، وكان آخر من مات بالبصرة من الصحابة ، واشتهر بالحديث أكثر من الفقه ، وإنما أتاه ذلك من ملازمته للنبيّ . ومن تلاميذه الحسن البصري وابن سيرين ، وقد ماتا في سنة واحدة هي سنة ١١٠ هـ .

وفي الشام : كان معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وقد أرسلهم عمر حين طلبهم يزيد بن أبي سفيان لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، ثم بعث عمر بعدهم عبد الرحمن بن غنم ، فتخرّج على أيديهم كثيرون من التابعين ، كعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة والأوزاعي إمام أهل الشام الذي انتشر مذهبه في المغرب والأندلس ، ولكن زاحمه فيها مذهب الشافعي ومالك .

وكان في مضر من نزل بها : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ، وكان يدوّن كلّ ما يسمع ، ومن اشتهر بمصر بعد الصحابة : يزيد بن حبيب وهو نوبى من دقّة ، وكان علمه في أخبار الفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق بفتح مصر ، ومن تلاميذه : الليث بن سعد ، وكان صاحب المذهب الذي اتبعه المصريون ، ثم اندرس كما درس مذهب الأوزاعي بالشام .

ومما تجب ملاحظته أن أكثر هؤلاء الذين أذاعوا العلم وأشاعوه في الأمصار ، وأصدروا الفتيا ، واستنبطوا الشرع من القرآن وحديث النبي كانوا من الموالى ، وذلك أنه لما تمّ الفتح اشترك الموالى والعرب في التلقّي عن الصحابة ، وكان الموالى أكثر إقبالا على العلم لأنهم نسل أمم متمدينة عرفت العلم ، ودرجت عليه ، واكتسبت فيه حذقا وسرعة قبول له . ثم إنهم كانوا يطالبون العلم ليرفعهم في نظر أسيادهم ، وليستروا به وصمة الرق . ففهم سعيد بن جبير مولى بنى والبة ، وكان أسود ، ومحمد بن سيرين ، والحسن البصري كان أبواهما من سبي ميسان ، وعكرمة مولى بن عباس ، ونافع

ابن الأزرق مولى ابن عمر ، وربيعة الرأى ، وأبو فروج من الموالى ، ويزيد بن حبيب مولى الأزرد ، وهو بربرى من أهل دقلة .

مجامع الأدب

أما الأدب فهو الذى بذل خلفاء هذه الدولة عنايتهم به ، فراجت أسواقه ، وحفلت مجامعه ، وإنما حملهم على العناية به غرامهم بشعر الجاهلية وأخبارها ، ثم رغبتهم فى المدح والإشادة بالذكر ، فتنافس الشعراء بالزنى إليهم ، وتساوموا إلى الغاية التى ترضيهم . فكانوا يعرضون شعرهم على نقدة الكلام ليعرفوا موقعه من النفوس ، وتظهر لهم شهرة يتقدمون بها إلى الخليفة أو الأمير ، فإذا تم لأحدهم بلوغ هذا الأمل فقد ضمن الرزق الوفير والجاه العريض .

ولقد كان الشاعر ينبغ ويتسامع به الناس ، فيحرص الخليفة أو الأمير على إشخاصه إليه ليضمه إلى أنصاره ويزيد فى رجاله . ولتد زاد الناس عناية بالأدب أن الخلفاء أنفسهم كانوا يساهمون فى معرفته ، ويستطيعون تذوقه والحكم عليه ، بل لقد نصبوا أنفسهم لتعليم جلسائهم وإطرافهم بما لم يسمعوا به . فكان عمل الشاعر أو الأديب الراوية يجمع بين الرغبة والرغبة ، لأنه سيقف أمام ناقد بصير يردّ عليه خطأه ، ويعيب عليه قصصه ، ثم هو بعد ذو أريحية تجعله يهتز للحكمة ، ويملك سمعه اللفظ الجيد ، ويستولى على مشاعره المدح البالغ ، فإن استطاع شاعر أو أديب الوصول إلى قلب الخليفة من إحدى هذه النواحي لم يبق بينه وبين الغنى إلا أمر الخليفة لخدمته أن يحشوا فاه درّاً ، أو يملأوا أوعيته تبرّاً ، ثم يصير من جند الخليفة ، وإن لم يحمل سلاحاً فيكتب فى ديوان الجند ، ويستحقّ الرزق الذى يجرى عليه كل عام .

فهل يكون هذا جزاء الشعر أو الأدب ، ثم يقعد عن التماسهما من يستطيع إليهما سبيلاً .

ولقد كان للعصبة التي أحياها بنو أمية بين القبائل أثر فنيا للأدب من رواج ،
فإن كل قبيلة تتعصب لشاعرها وتنصره ، وتحتج له فيكثر النقاش والجدل ، وتمتلي
الحافل والأسواق بالمفاصلة التي ربما انتهت إلى المحاصمة والقتال .

وكانت مجامع الأدب هي مجالس الخلفاء والولاة ، يجتمع فيها كل أديب نابه ، أو
شاعر نابغ ، وربما بعثوا في طلب الراوية من أقصى مكان ليسمع منه الخليفة أو والي
رأيه في شاعر ، أو ليستطلع رأيه في رواية بيت أو مغزاه . كذلك كانت المساجد من
مواضع مدارس الشعر ، لا بل المسجد الحرام نفسه ، فقد ورد بالأغاني ما يأتي :

بيننا ابن عباس بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه
إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين أو ممصرين^(١) حتى دخل فجلس
فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشد :

أمن آل نعيم أنت غاد فُبكرُ غداة غدٍ أم راحٍ فهُجْرُ

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع ، فقال له : يا ابن عباس ، إنا نضرب إليك
أكباد الإبل من أقصى البلاد ، نسألك عن الحرام والحلال ، فتتناقل عنا ، ويأتيك
غلام مترف من قریش ، فينشدك :

رأت رجلاً أمًّا إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسرُ

فقال : ليس هكذا . قال فكيف قال ؟ قال :

رأت رجلاً فيضحي فيخسرُ

فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت . قال : أجل ، بل إن شئت أن أنشدك
القصيدة فقلت . قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة .

ومن المجامع الحافلة ، والمشاهد الجامعة سوق الكوفة (الكناسة) وسوق البصرة (المربد) ،
فكانت تتألف فيهما حلقات المناشدة والمفاخرة ومجالس الرواية ، وكان كل شاعر يقصد

(١) المصّر : المصبوغ بالمصر ، وهو صبغ أحمر .

السوق ومعه رواته المناضلة عنه . وكان لفحولهم حلقات خاصة أشهرها في المربد حلقة الفرزدق وراعى الإبل .

وقد كان بين الكوفة والبصرة تنافس شديد في العلم والأدب ، ومناظرات بين رجالهما ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلمها من نحو وغيره لقربهم من البادية التي عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .



أما الكوفة فقد اشتهرت بعلم الشعر وروايته ، وقيل في سبب ذلك : إن المختار ابن عبید الله وقف في أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة تحت القصر الأبيض فاستخرجها ، فكانت في يد الكوفيين يتنقلون بها على البصريين ، وكان الذي دفعها فيما ذكروا النعمان بن المنذر ملك الحيرة . وبقيت الكوفة في النحو عالة على البصرة ، ولم ينبغ فيها من علمائه أحد إلا في العصر العباسي .

النثر في العصر الأموي

لقد استفادت اللغة العربية بالإسلام فوائد جليلة تحدثنا عنها في كلامنا عن العصر الماضي وما كان من تأثير القرآن ، وحديث النبي في مادة اللغة وصفاء أساليبها ، وتعدد مناحي القول فيها : وما نقول في هذا العصر إلا أن كل فائدة من تلك الفوائد قد تضاعف أثرها وجل شأنها ، وما نشبه ما كان من ذلك إلا بغرس كانت في أيام الخلفاء الراشدين باكورته ، واليوم تتابع أثماره ، وزادت غاته . فهذا القرآن الكريم كان على عهد النبي والخلفاء بعده لا يحفظ الرجل منه إلا الآيات يصلح بها ، وقليل من المسلمين إذ ذاك من حفظ سوراً بأجمعها .

قال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا ، وأقام

ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكان عثمان وابن مسعود وغيرهما من القراء إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما بها من العلم والعمل . والسبب في ذلك جدانة العهد ، واشتغال الناس بالفتوح ، وضعف وسائل النشر ، ولكنك ترى في آخر أيام الخلفاء الراشدين أن عثمان كتب نسخاً من المصاحف وبعث بها إلى الأمصار ، ولا شك أن الكتابة في عهد الأمويين كانت أعم ، فضمن ذلك انتشار القرآن أكثر مما كان . على أن الناس حين هددوا من الفتوح واستراحوا من القتال ، جاسوا لتلقي العلم ، فكان ابن عباس بمكة ، وزيد بن ثابت بالمدينة ، وغيرهم في الأمصار يعلمون الناس ، ويشرحون لهم المشكل من آيات القرآن ، ويبينون ناسخه ومنسوخه ، فكانت لدراسة القرآن سوق أفق من سوقها أيام صدر الإسلام .

وهكذا الشأن في حديث رسول الله ، كثرت الحاجة إليه والاستدلال به في كل ما كان يقع المسلمين أو يجري بينهم من خلاف ، فكان المحدثون يروونه للعامة ، ويلفتونهم إلى ما حواه من أدب وحكمة ، وانتهى الأمر بجمعه أيام عمر بن عبد العزيز . ولا يفوتنا أن نقول : إن الوعظ وإن كان حاصلًا من الخلفاء وغيرهم في صدر الإسلام لم يصر إلى السكثرة التي كان عليها أيام بني أمية ، فإن معاوية (وقد اتبعه خلفاؤه) رتب الوعاظ في المسجد يعظون الناس ، ويذكرونهم بآخرتهم ، ومدار القول جند هؤلاء إنما هو آيات القرآن ، وحديث النبي ، فهما فيما نرى كانا في عصر بني أمية أشيع وأكثر تداولاً ، فجدير أن يكون أثرهما أقوى ونفعهما أجدى .

وإذا عزونا إلى مخالطة العرب لغيرهم واطلاعهم على أحوال الأمم فضلاً في حصافة عقولهم ، فقد كانت هذه المخالطة أتم ، وذلك الاطلاع أوسع في عصر بني أمية ، فإن العرب فيه أقاموا بين ظهرائي الفرس والروم والقبط في البصرة والكوفة بالعراق ، وفي دمشق وما حولها بالشام ، وفي انمسطاط إلى بلاد النوبة بمصر ، وعاملوهم وصاهروهم ، ونشأت من نسلهم ناشئة تحمل صفات العرب ومزايا تلك الأمم السابقة إلى الحضارة ، فكان لهذه الناشئة أثر في تقدم العرب ، ورواج العلم ، وشيوع الحضارة .

غير أن هنوات دخلت على اللغة من أثر ذلك الاختلاط ، ولكنها لم تتمتع العرض إلى الجوهر ، فقد لحنوا وغيروا الإعراب ، وهذا لم يكن في الغالب إلا من المتعربين من الموالي . أما العرب أنفسهم فقد قلّ ذلك فيهم . ولقد كان من هؤلاء اللحانين من كان بليغاً قوياً الملكة ، بل خطيباً جزل القول بعيد المدى ، فإن الجاحظ يقول عن خالد ابن عبد الله القسري : إنه كان مولعاً بالتشديق في الخطب ، وما كان الجاحظ يستسيغ قبول ما تناقله الناس من لحنه لموضع فصاحته ، لولا أن هذا النقل صح عن الوليد ، وكان كذلك فصيحاً رويت له الخطب المرتجلة .

على أن العصر الأموي ، أفاد النثر في بعض مناحيه فائدة جديدة ، وهي شدة الأسر والعودة إلى صلابة الجاهلية مع هجر عنجهيتها ، فقد علمت أن الأمويين أحبوا الآداب الجاهلية من شعر ونثر وأخبار ، فكان من أثر ذلك أن وجد متعصبون للقول الصلب ، والعبارة الشديدة التي رأينا أهل العصر الأول قد عدلوا عنها كلّ الدول . وإنك إذا ناظرت بين قول الحسن البصري ، أو ابن سيرين ، وقول الحجاج ، أو زياد ، رأيت الفرق ظاهراً ، فإن الأولين لنزعتهم الدينية جارياً أسلوب القرآن ، فجاء قولهما سهلاً ليناً ، في حين أن قول الحجاج أو زياد غليظ شديد نزاعاً فيه إلى صلابة الجاهلية ليناسب قولهما عملهما في أخذ الناس بالقمع والقلبة عليهم بالسلطان .

الكتابة في عصر بني أمية

عرفت ما كان لها في العصر الماضي من بساطة المظهر ، والإيجاز في الأغلب الشائع ، والسهولة التي تكاد تنسيك أنها كتبت في أقرب العصور إلى العصر الجاهلي . كذلك بان لك خلوها من التكلف بجميع أنواعه من سجع ، ومحسن لفظي ومعنوي ، إلا ما وقع عفو الخاطر . وكان من بساطة مظهرها أن يبدأ الكاتب باسمه لا يتحرّج من ذلك ولو كتب إلى الخليفة ، بل لقد كتبوا إلى رسول الله فقدّموا أسماءهم كما فعل أبو بكر

والعلاء الحضرمي وغيرها . وقد بقيت هذه صورتها حتى كانت أيام الوليد ، فاستتبع ما توغلوا فيه من مظاهر الملك من حجابة وحراسة وقصور أن أنف الوليد أن يكتب إليه مع تأخير اسمه ، فصاروا يكتبون إلى أمير المؤمنين فلان من فلان ، فحُرت بذلك السنة إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ويزيد الكامل فإنهما عملا بسنة رسول الله ، ثم رجع الأمر إلى رأى الوليد .

وما زالت الجزالة مظهرها ، والإيجاز وصفها الغالب في بدء العصر ، ثم جعلت تتدرج في اللين والتوسع في الأساليب بكثرة الترادف على حسب ما صارت إليه الدولة من نعيم ، وما اقتبس العرب من نظام الفرس في كتاباتهم . فقد نشأ من الكتاب من حذقوا العربية بعد نشأتهم في لغتهم ، كما حكوا عن سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، ولا شك أن من أجاد لغتين استطاع أن يروى أناساً من إناء أناس . وقد ذكروا عن عبد الحميد أنه أول من جعل الكتابة صناعة عتيقة لها نظامها في البدء والختام ، وتكرار التحميد في فصول الكتاب ، والتوسع في الأسلوب بالترادف وغيره .

وكما اقتضت الحضارة التفضيم في القول والاتساع فيه ، اقتضت كذلك كثرة الأعمال لدى الخلفاء والعمال أن يبالغوا في الإيجاز في ردودهم ، أو ما يدونه من رأيهم فيما يقدم إليهم من شكايات أو مطالب ، فكثرت بذلك النوع المسمى بالتوقيع^(١) يكتبونه في آخر

(١) يطلق التوقيع على معان :

١ — الإصابة .

٢ — رمى لاتباعه ، كأنك تريد أن توقعه على شيء .

٣ — الدبر الذي يكون في ظهر الدابة ويقال بعير موقع .

٤ — إقبال الصيقل على السيف بمقغه مجلوه . وفي الاصطلاح أن يكتب على حواشي الكتاب أو القصة المرفوعة إلى السلطان ما يفيد الإطلاع عليها وإيراد الرأي فيها . وأول توقيع عرف كان لعمر بن الخطاب . فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص في بيان : (ابن ما يذكرك من الهواجر وأذى المطر) ووقع عمرو بن العاص (كن لرعتك كما تحب أن يكون لك أميرك)

الرسالة أو الشكاية ليدلوا على أنهم قرءوها ، فيكون رأيهم واضحاً في تلك الكلمة المجملة التي يذيلون بها الرسالة :

١ — كتب ربيعة بن عسل اليزْ بُوعَى إلى معاوية يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع ، فوقع على رسالته (دارك في البصرة أو البصرة في دارك ؟) .

٢ — وكتب مسلم بن عقبة المرّى إلى يزيد بن معاوية بالذي فعل بأهل المدينة في وقعة الحرّة ، فوقع في أسفل الكتاب : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

٣ — وكتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع ، فوقع سليمان « الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

٤ — كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه يستأذنه في مرمة مدينته فوقع : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

٥ — وكتب إليه عامله على الكوفة أنه فعل في أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ أَقْنَدِهِ » .



ولا تساع الدولة وكثرة أعمال الخلفاء ، لم يستمرّوا يكتبون الرسائل بأيديهم ، أو يملونها على الكتاب ، بل تركوا ذلك إلى من قام به من أبناء العرب ، أو الموالى الذين أجادوا العربية ، وما زالت الكتابة يعظم أمرها حتى صارت في آخر عهد الدولة صناعة محكمة لها نظامها وقوانينها ، وكثر الكتاب ، وتعدّد رؤساؤهم ، كما تعدّدت الدواوين ، ولم يكن منها في العصر الماضي إلا ديوان الجيش ، وأوّل من اتخذه عمر لما اتسعت الفتوح ، وزاد عدد المقاتلين عن الحصر ، وديوان الخراج ، وقد نشأ في كلّ مصر منذ دخول العرب فيه ، وهو ديوان كلّ عمله حساب ، ليس فيه أثر للتنوّق في اللغة أو التفاضل في الأسلوب ، ومع ذلك فقد تبدّل كما تعرف في زمن عبد الملك بن مروان .

وقد زاد معاوية ديوان الخاتم ، وهو ديوان يختم فيه الرسائل التي تصدر عن الخليفة حتى لا يطلع عليها إلا من ترسل إليه ، وسبب إنشاء هذا الديوان : أن معاوية أحال رجلاً على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، فضى الرجل فجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف ، ثم وضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها ولا يمكن تغييرها .



وإننا لنرى في هذا العصر مظهراً للكتابة لم نعهده في العصر الماضي وهو الرسائل الإخوانية ، ونريد بها تلك الرسائل التي تكون بين الناس في عتاب ، أو شوق ، أو شكر ، أو استمناع . وذلك أثر لانتشار العلم والكتابة ، ولاتساع رقعة المملكة ، وتوزع الناس فيها مع اشتباك المصالح واتصال الأواصر ، وقد كثرت هذه الرسائل في أواخر هذا العصر ، ولا غرو إذا رأيت فيها طرفاً من التنوّق ومسحة من الابتداع ، فإن التقسيم والازدواج ، بل السجع لتظهر فيها واضحة ، وذلك فيها بمثابة إرهاب لما تتابع بعد ذلك ، وتزايد في العصر العباسي ، ولا شك أن ختام عصر فاتحة للعصر الذي يليه .

الخطابة في العصر الأموي

لعلك على ذكر لما قلناه في حديثنا عن خطابة صدر الإسلام من الأسس التي تعتمد عليها الخطابة . وما أشرنا إليه من توافرها في ذلك العصر . فاعلم أن هذه الأسس بقيت في عصر بني أمية ، بل لقد زاد بعضها زيادة بينة .

فأما حرية القول ، فقد ضمنها معاوية للناس في قوله : إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا ، وقوله : إن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشفى ، جعلتها تحت قدمي ودبر أذني . وهذه الحرية التي تسامح فيها معاوية أو اضطر إليها

اضطراباً لما يعلم من شدة الشكائم ، هي التي أفسحت المجال لتكون هذه الأحزاب السياسية ، وأنت تعلم أن الحرب أوّلها الكلام .

نعم ، إن الأمويين حاربوا هذه الأحزاب من شيعة وخوارج وزبيريين وغيرهم ، ولكن قتالهم لم يكن إلا بعد استفحال أمرهم واستفلاظ شوكتهم . ولقد كان معاوية وخلفاؤه أعلم الناس بطبيعة العرب ، وأنه لا يستطيع أن يأخذ عليهم مذاهب القول ، أو ليس من هؤلاء العرب من رأى المغيرة بن شعبة يصعد المنبر والياً من قبل أمير المؤمنين معاوية فخصبه !! وليس منهم الذى كان يردّ على الخليفة قوله وهو يخطب وحوله الحرس الأشداء والجند المدججون بالسلاح ، حتى اضطرّ عبد الملك أن يقول ، وهو على المنبر لمن قال له اتق الله : « من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه » أو ليس منهم الذى يقول للحجاج ، وقد كان منه ما أغضب الأمير : إن صدقناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله ، وسأل الحجاج رجلاً عن أخيه محمد ، فقال الرجل : تركته عظيماً سميناً ، فقال له : ليس عن هذا سألتك . قال : تركته غشوماً ظلوماً . قال : أمتعلم أخراك الله أنه أخى . قال : أتراه بك أعزّ منى بالله .

وذكروا أن أعرابياً شهد أمام معاوية بشيء كرهه ، فقال له معاوية : كذبت يا أعرابى ، فقال الأعرابى : الكاذب والله متزمل فى ثيابك ، فقال معاوية وتبسّم : هذا جزاء من عجل .

أما الأسّ الثانى وهو تمام الملكة ، فليس ينكر أنها لم تكن عند الأمويين مثلها عند أهل العصر السابق ، ولكن النقص عند هؤلاء لم يتناول إلا العرض وهو الإعراب ، فأما قوة البيان ، فقد كانت فى أوائل العصر شائعة فى العرب الخالص ، حتى إن منهم من ساموا السابقين فى البلاغة وقوة العارضة ، على أن الأمويين كانوا يجتهدون فى السمو بأنفسهم عن المصير إلى ضعف الملكة ، فكانوا يكثرّون من المذاكرة لكلام العرب ، وينشئون أولادهم بالبادية ليحتفظوا بالبلاغة العربية إذ كانوا يرونها فخرهم وميزتهم ،

وهؤلاء الذين نعدّهم لحانين لم يكونوا يناقضى الملكة فى التعبير، فإن خالدا القسرى ،
والوليد بن عبد الملك معدودان من فصحاء الخطباء، وقد مرّ بك رأى الجاحظ فيهما . وقد
قال بكر بن عبد العزيز الدمشقى ، سمعت الوليد بن عبد الملك يقول على المنبر : إذا
حدثتكم فكذبتكم فلا طاعة لى عليكم ، وإذا غرّبتكم فخمّرتكم^(١) فلا طاعة لى عليكم ،
فيقول مثل هذا الكلام ، ثم يقول لأبيه : يا أمير المؤمنين اقتل أبى فديك ، وصعد
عبد الله بن زياد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية ، وحين بلغه أن سلمة بن ذؤيب
الرياضى قد جمع الجوع يريد خلعه ، فقال : يا أهل البصرة انسبوني ، فوالله ما مهاجر أبى
إلا إليكم ، وما مولدى إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، والله لقد وليكم أبى ومماقاتلكم
إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها مائة
وعشرين ألفاً ، وأتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثرهم جنوداً ، وأبعد مقاداً ، وأغنى
الناس . انظروا رجلاً تولّونه أمركم ، يكفّ سفيهم ، ويجبى لكم فيثكم ، ويقسمه فيما
بينكم ، فإنما أنا رجل منكم . . ولكن لا ينكر أن هذه الملكة أخذت تضعف فى أواخر
العصر ، ولكنه ضعف لا يخرج بأصحابه إلى العجز والانهار .

وأما الأسّ الثالث وهو دواعى الخطابة ، فقد زادت فى هذه الأيام باتساع المملكة
وتعدّد الأحزاب السياسية ، ونشوء الفرق الدينية ، وتكاثر الوفود على أبواب الملوك ،
وحاجة الأمة إلى الوعظ لضعف الوازع الدينى ، ولحملهم على الطاعة لأولى الأمر حتى
رأينا معاوية أوّل من رتب الوعاظ بالمساجد : كما نشأ من التابعين قوم أهل ورع
وصلاح لم يرغبوا الناس وعظاً وإرشاداً كمحمد بن سيرين والحسن البصرى .

ولقد بلغ من شأن الخطابة وظهور الحاجة إليها فى هذا العصر أن كانوا يعلمونها
الفتيان الناشئين ويدربونهم عليها حتى لا يتأخروا عن مواقفها إذا قدموا على أمير أو
تكلموا فى حفل ، والرجل عندهم إنما كان قدره فى أسلة لسانه ، وقوله دليل جنانه .

حكى الجاحظ فى البيان والتبيين : قال ما معناه : مرّ بشر بن المعتز على إبراهيم

ابن جبلة ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحميره وتتميقه ، فإذا فيها من كلام كثير .

ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ . فهذا يدل على أن شأن الخطابة عظيم في هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها .

ولقد ظهر في خطابة هذا العصر تلك العوامل التي كانت تتنازع الأمة ، فقد علمت أن دولة بني أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفي الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معولهم على السياسة ، فبان ذلك في خطاباتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح ، حتى لقد غلبا بعضهم ، فترك حمد الله في أولها كما فعل زياد في خطبته البتراء ، وقد كان أشهى إليه أن يتأمل بيت شعر من أن يحلى خطبته بشيء من كلام الله ، على حين ترى النزعة الدينية عند مثل مضعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طَسْمُ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (وأشار بيده نحو الشام) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (وأشار بيده نحو الحجاز) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (وأشار بيده نحو العراق) .



وقد تجلت ظاهرة في خطابة هذا العصر ، وهى التوقح في السب والغلو في الشتم ، وماجرّ عليهم ذلك إلا الإمعان في الخلاف السياسى ، ومطاوعة شهوة الانتقام ، فقد ولع الأمويون بسبّ على ، وكان ذلك ديدنهم لا تخلو خطبة لهم من النيل منه . والعجيب في ذلك أنهم خلطوا الدين بالسياسة ، فكان سبّ على ملتزما في خطب الجمع ولم يعدل عنه إلا عمر بن عبد العزيز ، فإنه جعل مكان السبّ قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

أما عادات الخطابة فقد بقيت إلى هذا العصر كما كانت في الذى قبله حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة فرطلها في يده فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرته من بيته فخطب بها .

أشهر الكتاب والخطباء في العصر الأموى

لا نستطيع الفصل في هذا العصر بين الكاتب والخطيب ، وذلك بأن أغلب من تولوا الكتابة والخطابة كانوا من ذوى الملكات القوية التى تواتى صاحبها فى أى أنواع القول ، ولم يكن قد أتى بعد ذلك العهد الذى لا يستطيع فيه الكاتب أن يرتجل القول ، اللهم إلا فى أخريات هذا العصر فإنه قد اشتهر قوم بالكتابة وحدها ، ولم تعرف لهم مواقف للخطابة كعبد الحميد الكاتب ، ولعل ذلك يرجع إلى مهنته ، ونوع العمل الذى كان يتقلده ، فإن عمله كان فى النظر فى الرسائل وتسويدها ، فلم يفرغ لموقف الخطابة حتى نعرف بلاده فيه .

كذلك كان الحال في العصر الماضي ، ويرجع ذلك كله إلى تمام الملكة التي تواتى صاحبها في كل ما يحاول منها . فأما في العصر العباسي فاضعف الملكات وحاجتها إلى الاكتساب والمران نرى كتابا لا يحسنون موقف الخطابة ، وربما كانوا في نهاية البلاغة ، ولكن طبعهم لا يواتيهم إلا مع الروية ، واستجماع الخاطر ، وذلك خلاف ما تحتاج إليه الخطابة من حضور الذهن والاعتماد على البديهة .

ومن أشهر رجال هذا العصر في الخطابة والكتابة : معاوية ، ويزيد ابنه ، وعبد الملك ، والوليد ، وسليمان ابنه ، وعمر بن عبد العزيز ، وسخبان وأثل ، والحجاج . ومن الشيعة : المختار بن عبيد الله الثقفي ، والكثير بن زيد . ومن الخوارج : الطرماح ، وقطري بن الفجاءة ، وأبو حمزة الخارجي . ومن رؤساء القبائل : صمصمة بن صوحان ، والأحنف بن قيس ، ومن بني هاشم : أمثال الحسين ابن علي ، وابنه علي ، وحفيده زيد .

الحجاج بن يوسف

[نسبه] : هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الذي ينتهي نسبه إلى ثقيف هو أبو القبيلة المشهورة .

وتجد للمؤرخين كلاما عن ثقيف هذه ، فبعضهم يرجعها إلى مضر ، وبعضهم يجعلها من قحطان ، وبعض يقول إنها من بقايا ثمود ، ولعل هذا القول الأخير لم يقصد به إلا تشنيع اسم الحجاج من الذين كرهوا بطشه وأصعقوا به كل قبيل ، واقتدر عليهم الحجاج حين هتموا بهذا النسب ، فصعد المنبر يوما ، وقال : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » ، وكرر هذا الرد مرة أخرى فقال : لأن كنا بقايا ثمود لما نجنا مع صالح إلا خيبرهم .

وقيل إن أمه سمته كلياً على عادة العرب من تسميتهم بكليب وصخر وفهر وحرب ثم لقبته الحجاج تفاقلاً أن يكون ورعاً كثير الحج .

[أبواه] : أما أبوه فهو يوسف بن الحكم بن أبي عقيل، كان من مشايخ ثقف، وكان نبيلاً جليل القدر . يدلّ على ذلك ما ورد من أنه خرج من مصر، يريد عبد الملك ابن مروان، ومعه ابنه الحجاج، فأقبل سليم بن عمرو قاضياً، وكان من أروع الناس وأتقاهم، فقام إليه يوسف وقال : إن كانت لك حاجة إلى عبد الملك فأدخني بها، فقال له : حاجتي أن يعزّلي عن القضاء، فقال يوسف : والله لوددت قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا . والذي تقصده من هذه القصة أن نذكر أن الحجاج استنكر أن يقوم أبوه لهذا الرجل، فقال له أبوه : هذا قاضى أهل مصر وقاصهم، فقال الحجاج يغفر الله لك يا أبت، أنت ابن أبي عقيل تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه، فقال له أبوه يا بني، إني أرى الناس ما يرحمون إلا بهذا وأشباهه، (يريد أنه ورع تقى) ينتفع الناس بصلاحه) .

وهذه القصة تمثل لك مقام أبيه وجلال شأنه، ويصحّ أن يكون الحجاج مغالياً بقدر أبيه، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وفي أبيه فضل وله مقام يرفعه به الحجاج عن القيام لرجل والسلام عليه، وفي قصد الرجل لأُمير المؤمنين دليل ثان على نباهة شأنه وهذا يجعلنا نستبعد ما ولى به الناس من دعوى أن أبا الحجاج كان معلم صبيان، وأن الحجاج نشأ في عمل أبيه يعلم معه، وفي الحجاج يقول الشاعر مشيراً إلى ذلك :

أَيَنْسَى كُلَّيْبُ زَمَانَ الْهَزَالِ وَتَعْلِيمُهُ سُورَةَ الْكَوْثَرِ
رَغِيفٌ لَهُ فَلَيْتَ دَائِرُهُ وَآخِرُ كَالْقَمَرِ الْأَزْهَرِ

يريد أن خبز المعلمين مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان . ولقد زاد أعداء الحجاج، فنسبوا إليه أحقر الصناعات، فقال بعض : كان دباغاً، وقال آخرون : كان بائع زبيب .

أما أمه فقد تمثل في الحديث عنها ما كان يضره الناس من عداوة الرجل، فبعضهم

يجعلها زوج الحارث بن كَلْدَة طبيب العرب المشهور ، وأنه طلقها لأنه دخل عليها سحرًا ، فوجدها تتخلل ، فبعث إليها بطلاقها ، وقال لها : إن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة ، فقالت كل ذلك لم يكن ، ولكنى تخللت من شظايا سواك ، ثم تزوجها بعده يوسف أبوالحجاج وبعضهم يقول : إن أمه هي المتمنية ، وكانت تحت المغيرة بن شـعـبة ، وإن عمر طاف ليلة ، فسمع امرأة تنشد :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى تَحْرِيرِ فَأَشْرَبَهَا أُمُّ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَضْرٍ بِنِ حَجَّاجٍ

فقال عمر : لا أرى معى في المدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهنّ على بنَضْرٍ ابن حَجَّاجٍ ، فأتى به فإذا هو أجمل الخلق وجهًا وأحسنهم شعرًا ، فجزّ شعره ، وسيره إلى البصرة ، وكانت هذه المرأة زوج المغيرة فطلقها فتزوجت يوسف أبا الحجاج .

[منشأ الحجاج] : نشأ بالطائف ، وهي مدينة على مرحلتين من مكة ، وكانت واحة كثيرة الفواكه طيبة الهواء ، ولعلّ نشأة الحجاج بها هي التي جرّت عليه ما لهج به الناس من وصمه بالدباغة ، أو بيع الزيب ، أو تعليم الصبيان ، لأن هذه الأعمال هي شأن أهل المدن غالبًا . ولقد أثرت في الحجاج نشأته بالطائف ، فإنها لتوسطها وقربها من مكة وإحاطة الصحراء والبدو بها حاز الحجاج فضيلة الإبانة ، وتمت فيه ملكة الفصاحة ، وهي كما تعلم ملكة كانت كاملة فيه ، وقد مرّ بك أنه أحد الأربعة الذين لم يلحنوا في جدّ أو هزل .

عصر الحجاج

لعلك تتساءل عن السبب الذى أنشأ الحجاج بهذه المثابة من الغلظة حتى أسرف في القتل ، فضع له العراق عشّ النفاق والغدر الذى لم يجتمع قبله إلا لرجل واحد كان أشبه بالحجاج في الغلظة والشدة من الصخر بالصخر وهو زياد بن أبيه . هذا الحجاج

الذى يقال : إن قتلاه مائة ألف أو يزيدون ، وأنه مات وفى سجنه عشرون ألفاً ، وكان سجنه غير مسقوف صيفاً وشتاء .

ولسنا ننكر أن يكون للعصر أثر ظاهر فى حياة العائشين فيه ، ولكنه ليس فى نظرنا كل شئ ، فقد رأينا كثيراً من النابغين لم يكن لعصرهم أثر ظاهر فيهم ، بل كان أحدهم نسيج وحده فيما تهيا له ، فقسوة الحجاج يرجع بعضها إلى ما تأثر به من أحوال عصره كما يرجع كثير منها إلى تركيب نفسه والغلظة والقسوة من الأخلاق مثل : الذكاء والبلادة فى النفس تتبع التركيب الذى برأ الله عليه الخلق يؤثر فى ذلك بالزيادة والنقصان ما أفادته الوراثة والبيئة .

وإذا كان العصر يؤثر فى نفس الناشئ ، فسنذكر لك من تاريخ الزمن الذى أظل الحجاج نبذاً يجعلك تحيط به وتعرف جماته .



كانت ولادة الحجاج إبان قيام الدولة الأموية سنة ٤١ وعاش ٥٤ سنة ، فيكون قد نشأ بين صلصلة السيوف ، وخفق البنود ، وحزين القسى ، وجلبة الجيوش ، ولعله إن لم يكن رأى شيئاً من ذلك يكون قد سمع أخباره : والأذن كالعين توفى القلب ما كان .

مضت أيام معاوية لم يكن فيها من القلاقل ما يزعج . نعم ناوأه الخوارج والشيعة بالعراق ، فرماه بالغيرة بن شعبة فى الكوفة ، ثم زياد بن أبيه فى البصرة وخراسان ، ثم ضم إليه الكوفة فيما بعد ، فاستقام لمعاوية الأمر .

ولكن الفتنة اشتعلت وتطير لهما أيام يزيد ابنه ، فإن الخوارج زادت شوكتهم وامتنع عن المبايعة له بالمدينة الحسين بن على ، وبمكة عبد الله بن الزبير ، وذلك لما عرف الناس عن يزيد من الاهو والغرام بالصيد . ومما زاد الفتنة اشتعالاً قتل الحسين فى طريقه للكوفة على يد عمرو بن سعد بن أبى وقاص .

وفى عهد يزيد انتهكت حرمة المدينة على أثر وقعة الحرّة ، وأبيحت ثلاثة أيام ، وكانت جند الشام تمثل بأشرافها ، وتطلب منهم البيعة ليزيد على أنهم عبيده ومن أبى قتل . وقد كثر عدد القتلى فى هذه الفتن حتى لقد قتل سائب خاثر المغنى ، واستعظم يزيد نفسه ما أنته جيوشه حين علم أن القتل تناول أمثال سائب . كذلك توجه هذا الجيش إلى مكة ، فحاصرها ورمّاها بالمنجنيق ، فتصدّعت جوانب الكعبة ، ثم ارتد عنها لموت يزيد ، فقويت شوكة عبد الله بن الزبير حتى بايعه أهل مصر مع العراق والحجاز ، ولم يبايع خليفة بنى أمية معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم إلا أهل الشام .

جرت هذه الحوادث الأخيرة والحجاج شاب يربى على العشرين ، فكان يعى ما يجرى حوله ، وانضمّ ذلك إلى غلظته المركبة فى طبعه ، فتمت له الأسباب التى هيأتها لما جرى على يديه .

الحجاج قبل الولاية

كان اتصال الحجاج بروح بن زُبَيْعَ فعمل فى شرطته ، وكان روح من عبد الملك بمثابة الوزير .

أراد عبد الملك أن يخرج لقتال زفر بن الحرث ، وقد دعا لابن الزبير بعد موت يزيد ، فشكا إلى روح ما يلقاه من الجند من توفان فى طاعته ، وأنهم لا ينزلون بنزوله ، ولا يرحلون برحيله ، فقال له روح : إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لم يرمهم خلافا أو توائفاً ، وهو الحجاج بن يوسف ، فقال عبد الملك : قد قلدناه ، فكان ما حدث به روح ، ولكن قوما من جند روح ، لداتهم ولموضع سيدهم من أمير المؤمنين كانوا يظهرن خلافا ، فمر الحجاج بعد رحيل العسكر فلم يجدهم ارتحلوا فهدم عليهم خيمتهم وأحرقها بما فيها من أثاثهم ، فشكوا إلى روح ، وبلغ الخبر

عبد الملك فطلبه وقال : من فعل هذا بفلمان روح ؟ فقال : أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما ولينا ، ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من يبق من أهل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يعوّض عليهم ما ذهب ، وقد قامت الحرمة وتم المراد ، فأعجب به عبد الملك ، وأقرّه على عمله .

طموح الحجاج

كان الحجاج عظيم الطموح شديد الرغبة في السموّ إلى الدرجات العلا ، وقد تدرّع إلى ذلك بالإخلاص في الخدمة والحرص على رضا مولاه عبد الملك وتمظيمه في مشهده ومغيبه ، فقد أوفده عبد الملك مع رجاء بن حيوة إلى زفر بن الحارث يدعو إلى الصلح فحضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، وسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين ، فلما سمع عبد الملك ذلك عرف إخلاصه ورفع درجته ، فولاه بلدًا يسمى تَبالة من أعمال اليمن ، فلما كان قريبًا منها سأل عنها ، فقيل له إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أفّ لبلدة تسترها أكمة ، ورجع عنها ، فقيل المثل : أهون من تَبالة على الحجاج ، واستعفى عبد الملك من ولايتها وبقى ملازمًا خدمته .

كذلك تدرّع الحجاج إلى تحقيق مطامعه من العظمة ورفعته الشأن بالإقدام والتفاني في خدمة الخليفة عبد الملك ، فإنه يقال : إن عبد الملك لما فرغ من قتال مصعب بن الزبير ورجع إلى الشام قال : من لعبد الله بن الزبير (وكان ممتنعًا بمكة) ، وندب الناس لقتاله ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين أنا له ، أبعثني إليه ، فلقد رأيته بالبنام كأني سلبخته وجردته من جلده فبعثه إليه . فكان من الحجاج أن استحلّ كلّ موبقة ، واستباح كلّ معصية في سبيل إرضاء عبد الملك ، فإنه حاصر مكة وضربها

بالمنجنيق ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ولما اشتدت الحال على أهل مكة تفرقوا عن ابن الزبير ، وخرجوا بالأمان من الحجاج ، وكان من فارق ابن الزبير ابنه حمزة وحبيب ، ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون شيئاً دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ، فقال : يا أماه ! خذني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير ، ومن ليس عنده غذاء أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ قالت : أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ، فقال : يا أمي أخاف إن غلبني أهل الشام أن يثلوا بي ويصلبوني . قالت يا بني ، إن الشاة لا تتألم بالسلاخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذا رأيي والذي خرجت به دائماً إلى يومي . هذا . ماركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله . وأن تستحلّ حرمانه ، ولكنني أحبيت أن أعلم رأيك فقد زدتنني بصيرة .

ثم خرج فقاتل حتى قُتل وصلب ، ولم ينزل إلا بأمر عبد الملك ، ثم كافأ عبد الملك الحجاج بأن ولّاه الحجاز إلى سنة ٧٥ هـ ، ومما يدلك على طموح الحجاج أنه لم ير في ولاية الحجاز إشباعاً لأطماعه العظيمة ، فكتب إلى عبد الملك يقول : إني قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة ، فبعث إليه عبد الملك بعهد العراق .

ولاية الحجاج العراق

لم يكن نجاح الحجاج فيما مضى من أعماله إلا مقدمة لما تجلى من شدته وحذقه لأساليب القمع والضرب على أيدي المائثين بالفساد، فإن العراق كان منذ قديم عهده مثار الفتنة ومبعث الشر. اجتمع فيه الخوارج والشيعة، واشتدت به العصبية، وطال من أهله الخروج على الخلفاء والتمرد على طاعتهم والطرده لولايتهم. ويشمل العراق بلاد خراسان، وطالما امتنع بها الولاة والقواد وخلعوا طاعة الخلفاء لعلهم بوعورة الطريق إليهم. وقديماً أقلق هذه البلاد بال معاوية، فرمى أهلها بالمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه الذي كان قدوة الحجاج ومثله الذي يحتذيه في الشدة وسياسة القهر.

أقبل الحجاج وهو يعلم من أهل العراق كثيراً من خلافهم وعنادهم، وشدة شكيمتهم، فقابلهم بالشدة، واستعان عليهم بالقول الذي زلزل عليهم المجالس حتى سمعوا صلصلة السيوف، وقبقة الخيول، وصوت الغارات من بين ألفاظه، وإن لفصاحة الحجاج لبدأ محمود الأثر في نجاحه، فإن القول تأثيراً قد يتجاوز تأثير السيف، وبخاصة في مثل هؤلاء، وهم عرب يقيمهم الكلام ويقعدهم.

قصد الحجاج إلى الكوفة في أثنى عشر ركباً على النجائب حتى دخلها فجأة، وقد انتشر النهار، فدخل المسجد مُعْتَمِئاً بعمامة خز أحمر قد غطى بها وجهه وهو متقلد سيفاً متنكب قوساً يوم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بنى أمية تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عمير ابن ضبابي البرجمي ألا أحصيه لكم؟ فقالوا أهل الرجل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه، ونهض فقال:

خطبة الحجاج بالكوفة

أَنَا ابْنُ جَلَا^(١) وَطَلَّعُ الشَّائِيَا مَتَى أَضْعُرُ الْعِمَامَةَ^(٢) تَعْرِفُونِي
والله يأهل العراق: إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قِطَافُها^(٣) وإني لصاحبها، وكأني
أنظر إلى الدماء بين العمام والمحي^(٤)، ثم قال^(٥):

(١) ابن جلا . قال بعض النحاة: لأنه فعل محكي وخذه أو مع ضميره المستتر، ويرده أنه ليس في نسب سحيم قائل الشعر من تسمى بهذا الاسم . وقال قوم: لأنه وصف بالجملة المحذوف أى ابن رجل جلا الأمور . وفات هؤلاء أن الجملة لا يوصف بها إلا إذا كان الموصوف بعضاً من متقدم مجرور بمن نحو منا ظعن ومنا أقام أو بنى نحو ماني قومه يفضلته: أى أحد، وإن كان هذا ليس بلازم . والذي يحسن هو أن يقال إن جلا اسم مقصور من الجلاء، فالمعنى أنا ابن الواضح الأمر ويؤيد هذا أنهم يقولون ابن جلا وابن أجلى . وقيل جلا وأجلى معناهما الصبح . هذا ما يرجحه الشيخ الموصفي رحمه الله في شرحه للكمال . ونرى أنه يعكس عليه عدم تنوين جلا ولا موجب لمنع الصرف في الكلمة . لذلك قول: لا مانع أن يكون جلا علماً محكياً، وقد قال صاحب لسان العرب: ابن جلا رجل مغمور بالفتك فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه: أى أنا كإبن جلا في الغارة والشدّة .

(٢) العمامة: من معانيها خوذة الحرب . ووضع هنا، أما بمعنى جعلها على الرأس، والمعنى أنه إذا استعد للحرب ولبس الخوذة رأى الناس منه عجباً، ولما أن يكون بمعنى خلع ويؤيد هذا العادة العربية وهي أن الرجل إذا قتل له قتيلاً لا تُلغى رأسه عمامة وستر بها رأسه وخرج لطلب الثأر وما يزال هكذا مثلثاً حتى يأخذ بالثأر فيضع أوزار الحرب ومن بينها العمامة . ويساعد على هذا أن الحجاج أنشد البيت وهو يزيغ لثامه عن وجهه . قال تلمب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . وعليه يكون المعنى متى أضع العمامة تعلمون أنني الشجاع الذي لم أتم عن ثأري . وقائل هذا البيت هو سحيم بن وثيل الرياحي شاعر مخضرم عاش في الجاهلية ٤٠ سنة وفي الإسلام ٦٠ سنة .

(٣) ينح (كضرب ومنع) أدرك . شبه رءوس العصاة المخالفين لأولياء أنورهم بالثمار التي تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .

(٤) إنما تكون الدماء بين العمام والمحي من الضرب بالسيف في الجباه وأحرار الوجوه

(٥) قال: أى أنشد، لأن قائل هذه الأبيات هو رويشد بن رميض الغزني، والشعر مقول في شريح ابن ضبيعة غزا اليمن فغم وسبها ثم ضل وهو راجع فساق بأصحابه سوقاً عنيفاً حتى نجوا .

هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ^(١)
 لَيْسَ يَرَاعِي إِيْلٍ وَلَا غَمٍّ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمٍّ^(٢)
 قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى^(٣)
 مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ^(٤)

ثم قال^(٥) :

قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا
 وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّعُرْدُ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
 لَا بُدَّ لِمَا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ

إِنِّي وَاللَّهِ يَأْهَلُ الْعِرَاقِ مَا يُقَعِّعُ لِي بِالشَّتَانِ^(٦) ، وَلَا يُغَمِّزُ جَانِبِي كَتَعْمَازٍ

- (١) زيم : اسم ناقة أو فرس . السواق الحطم : الذي لا يبق من السير شيئاً .
 (٢) الوضم : ما يقطع عليه اللحم « القرمة » والمراد أنه ليس بضعيف الشأن كأحد هذين :
 الراعى والجزار .
 (٣) العصلي : الشديد القوى العصب ، وزيادة اللام في عصلي للدلالة على القوة . الأروع : الذكي .
 الدوى : الصعراء لا علم بها ولا أمانة وهي متسعة تسمع لها دويًا وهو صوت يكون من
 وقع أخفاف الابل . وجهلة العرب يظنونهم صوت الجن . والدوى : الصعراء ونسبت إلى
 نفسها كقولهم دهر دوارى أى دوار ، وخارجى مبالغة في خارج أحد الخوارج . والمراد
 بخارج من الدوى أنه خارج من كل شدة متغلب على كل صعوبة ولا صعوبة أشد من الصعراء
 (٤) قال في لسان العرب : كل من أقام من العرب بمباديهم أو حواضرهم ولم يلحقوا بالنسب ولم
 يتحولوا إلى أمصار المسلمين التي أحدثت في الاسلام وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين
 وليس لهم في النماء نصيب ويسمون الأعراب . وفيه أيضا قال الأزهري : المهاجرة
 خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وكذلك كل محل يسكنه منتقل إلى قوم آخرين .
 (٥) لم تقف على قائل هذه الأبيات وهي لاشك لغير رويشد وليست من نسق الأبيات السابقة
 وإن كانت مثلها من الرجز .
 (٦) القعقة : صوت الجلود اليابسة . الشتان : جمع شن ، وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) .
 والمراد لأفزع مما لا يفزع ذوى العقول .

التَّيْنِ^(١) ، وَلَقَدْ فُرِيتُ عَنْ ذِكَا^(٢) وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِ بَه . وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ نَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَمَّ عِيدَانَهَا ، فوجدني أمرها عودًا ، وأصلبها
مَكْسِرًا^(٣) ، فرماكم بي لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ^(٤) فِي الْفِتْنَةِ ، وَأَضْطَجَعْتُمْ فِي مِرَاقِدِ
الضَّلَالِ ، وَاللَّهُ لِأَخْزِ مَنَّاكُمْ حَزَمَ السَّلْمَةِ^(٥) ، وَلَا ضَرْبَ بَنَّاكُمْ ضَرْبُ غَرَائِبِ الْإِبِلِ^(٦)
فإنَّكُمْ لَكَأَهْلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمَنَةً مَطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَإِنِّي وَاللَّهِ
مَا أَقُولُ إِلَّا وَفَيْتُ ، وَلَا أَهْمُّ إِلَّا أَمْضَيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا فَرَيْتُ^(٧) ، وَإِنْ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُرْنِي بِإِعْطَائِكُمْ أُعْطِيَانَكُمْ ، وَأَنْ أَوْجَّهَكُمْ لِحَارِبَةِ عَدُوِّكُمْ مَعَ الْمُهَلَّبِ
ابْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخَلَّفَ بَعْدَ عَطَائِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
إِلَّا أَضْرَبْتُ عُنُقَهُ .

ثم قال : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : باسم الله الرحمن الرحيم .
من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم ، فلم يقل أحد
شيئًا ، فقال الحجاج : أكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : سلم عليكم

(١) رواية صبح الأعشى : التين وهو الحية العظيمة ، والتين والحية لنا الملهس . والمراد لست
بضعيف لين الجانب .

(٢) فر البداية : كشف عن أسنانها . الذكاء : تمام السن أو حدة القلب ، والمراد هنا المعنى الثاني .

(٣) الكنانة : جعبة السهام . عجم العود : عضه ليلو صلابته . أمرها : من المارة وهي طعم شجر
الرار . المكسر : اسم مكان وهو موضع الكسر . وهذه العبارة تمثيل لإفراغ الفكرة فيمن
يختارهم أمير المؤمنين من الرؤساء الذين بصرتهم الحروب .

(٤) الإيضاع : السرعة في السير .

(٥) السلمة : شجرة شاكة يسر خرط وورثها فيشد بعضه إلى بعض ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها

(٦) غرائب الإبل : أي الغريبة عن مواطنها ، وهي تضرب حين تسفل بين الإبل ويكون ضربها بلا
شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٧) خلق الصانع الأديم : قدره لما يريد منه قبل القطع ، والمعنى لا أعزم إلا صُنِّمَتْ :

أمير المؤمنين ، فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نهيّة^(١) . أما والله لأودّ بَنَكُمُ غيرَ هذا الأدب أو لتستقيمُن . أقرأ يا غلام ، فلما بلغ قوله : السلام عليكم ، لم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل فوضع للناس أعظيائهم ، فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يُرْعَشُ كِبَرًا ، فقال أيها الأمير : إني من الضعف على ما ترى ، ولئى ابنٌ هو أقوى منى على الأسفار ، فقال الحجاج : تفعل . فلما ولئى الرجل . قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا . قال : هذا عميرُ بن ضابئِ البرُجمي^(٢) الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكَتُ عَلَى عُمَانَ تَبْكِي حَلَاثِلُهُ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلعه . فقال الحجاج ردّوه ، فلما ردّ قال له : هلاً بمث إلى أمير المؤمنين بدلاً يوم الدارِ ، إن في قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين ، يا حرسئى اضرب عنقه ، فوقعت الرهبة للحجاج في قلوب الناس ، فكان الرجل يضيق عليه أمره ، فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي . من شعراء الدولة الأموية ، وهو من أسد خزيمة لا أسد قریش :

تَجَهَّزْ فَإِنَّمَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضَابِئٍ عَمِيرًا وَإِنَّمَا أَنْ تَزُورَ الْمُهْلَبَا
هُمَا خُطَّتَا خَسْفٍ نَجَاؤُكَ مِنْهُمَا رُكُوبُكَ حَوْلِيًا مِنَ الْبُلْجِ أَشْهَبَا^(٣)

(١) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج .

(٢) ضابئ البرجمي شاعر كان على أيام عثمان ، وهو الذى قدمنا حكاية استعارته للكلب وسبه لأصحابه وعقاب عثمان له فاضطعن على عثمان وحاول قتله فشدد عليه عثمان العقاب (معاهد التنصيص وطبقات الشعراء) .

(٣) الحول : الذى مضى عليه الحول . البلج : جمع أبلج وهو الأبيض . ويروى من التلج . والمدنى أنه أشد شبهة من التلج ، وصياغة التفضيل من اللون على رأي البكوفيين .

فَأَضْحَى وَلَوْ كَانَتْ خُرَّاسَانُ دُونَهُ رَأَاهَا مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ^(١)
فَمَا إِنْ أَرَى الْحَبَّاجَ يُعْمِدُ سَيْفَهُ مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَبْزُلَ الْطِفْلَ أَشَدَّ
فتتابع الناس على المهلب حتى ازدحموا عنده .

ثم خرج من الكوفة إلى البصرة فخطب مثل خطبته بالكوفة ، فقال :
أيها الناس : من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن
أُجَلَّه ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره قصرت
عليه باقيه . إن للشيطان طيفاً^(٢) ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحمت
عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه . ومن لم تسعه العافية^(٣) لم تضق عليه الهلكة ،
ومن سبقته بادرة^(٤) فبه سبق بدنه^(٥) بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أنظر^(٦) ، وأحذر
ثم لا أنذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٧) ولاتكم ، ومن استرخى لبيه^(٨)
ساء أده . إن الحزم والعزم سلباني سوطى ، وأبدلاني به سيفى ، فقامه فى يدى ، ونجاده
فى عنقى ، وذبابه^(٩) قلادة لمن عصانى ، والله لا أسر أحدكم أن يخرج من باب من
أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

-
- (١) دونه : أى دون المهلب : أى قبله أو قريبة منه . السوق : هو سوق حكمة بالكوفة . أقرب : منصوب على أنه ظرف متعلق بخبر هى ، والتقدير أوهى كائنة أقرب من السوق أو على أنه مفعول .
ثان لرأى بمعنى ظن ، ويكون قد وضع الضمير المرفوع « هو » فى موضع المنصوب .
(٢) الطيف : مس الشيطان . وقرئ — إذا مسهم طيف من الشيطان ، أو طائف — . وأصل الطيف : الجنون أو الغضب ومس الشيطان يحدث هذا .
(٣) العافية : السلامة .
(٤) البادرة : ما يخرج من الفم عن غير قصد فى غضب أو غيره .
(٥) المراد سبق بدنه أنه يقتل سريعاً فيكون بدنه إلى الموت أسرع من خروج البادرة من فيه .
(٦) نظره « ككتب » تأنى عليه . وأنظره : أخره .
(٧) الترنيق : الضعف فى الأمر والمراد التسهل .
(٨) اللب : ما يشد فى صدر الدابة لينع استرخاء الرجل .
(٩) ذباب السيف حده .



وفي سنة ٧٩ هـ ولّى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان ، ومحاربة رُتبيل ، وقد كان مصالحا للعرب يدفع لهم خراجا ، ولكنه امتنع ، فتوغل عبد الله في بلاده ، فأصيب وهلك جنده إلا أقلهم ، فرأى الحجاج أن يجهز جيشا كثيفا ، فجهز أربعين ألفا جعل عليهم عبد الرحمن بن الأشعث ، فسار حتى دخل بلاد رتبيل ، وحاز من أرضه أرضا عظيمة ، وملأ يديه من غنائمه ، ثم حبس الناس عن الوغول في الأرض ، واكتفى بما تمّ عامه هذا ، وكتب للحجاج بذلك ، فجاءه كتاب الحجاج :

أما بعد ، فإن كتابك أتاني ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب أمرى بحب الهدنة ، ويستريح إلى المودعة . قد صانع عددا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في الإسلام عظيما ، لعمرُك يا بن أم عبد الرحمن إنك حين تكف عن ذلك العدو مجندى وحدى لسخي النفس عن أصيب من المسلمين ، إني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ، ولكني رأيت أنه لم يملك عليه إلا ضعفك ، واليائت رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم ، واهدم لخصونهم ، وقتل مقاتليهم ، وسبي ذراريهم .

فلم يرض عبد الرحمن هذه الغلظة من الحجاج ، وخلع طاعته ، وأخذ البيعة على الناس لقتاله ، وصالح رُتبيل على أنه إن ظهر فلا خراج عليه أبدا ، وإن هزم لجأ إليه وسحاه . ثم خرج ابن الأشعث لقتال الحجاج ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بخبره ويستنجده فأنجده ، وانهت المواقع بهزيمة ابن الأشعث والتجائه إلى رُتبيل ، فكتب إليه الحجاج يهدده إن لم يسلمه إليه ، فاتحرا ابن الأشعث بأن ألقى بنفسه من قصر عال ، وضرب رُتبيل أعناق بضعة عشر من رجاله ، وأرسل بالرموس إلى الحجاج .

وكان الحجاج مشغولاً كذلك بقتال الخوارج ، وكان يحاربهم قبل توليته على العراق المهلب بن أبي صفرة ، فما زال يرأسه ويستحثه حتى تغلب عليهم ، وقدم عليه ، فأكرمه الحجاج وأجلسه معه على السرير وقال : يا أهل الكوفة ، أتم عبيد المهلب ، ثم قال أنت والله كما قال لقيط الإيادي :

وَقَالُوا أَمْرُكُمْ لِلَّهِ دَرَكُمْ رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا^(١)
لَا يَطْعُمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هُمْ يَكَاذُ حَشَاةٍ يَقْصِمُ الضَّلْعَا^(٢)
لَا مُتْرَفًا إِنْ رَحَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ وَلَا إِذَا عَصَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا^(٣)
مَا زَالَ يَحْبُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا^(٤)
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْرِ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا قَحْطًا وَلَا ضَرَعًا^(٥)

وهؤلاء الذين تغلب عليهم المهلب هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد خرج غيرهم وكان رئيسهم شبيب بن زيد . وقد تعدى أمره حتى دخل الكوفة مرتين ، وفي الثانية بنى بها مسجداً ، ولكن الأمر انتهى بتغلب الحجاج وغرق شبيب .



ولذلك هدأت الأحوال ، واستتب الأمر لبني أمية ، وما لأحد من فضل في ذلك مثل ما للحجاج حتى استحق أن يقول عنه عبد الملك : إن الحجاج جلدة ما بين عيني ، ثم يقول الوليد بعد أبيه : إن كان الحجاج جلدة ما بين عيني أبي فإنه جلدة وجهي كله .

(١) يقال : فلان رحب بكذا إذا كان مطيقاً له . اضطلع بالأمر : احتمله .

(٢) الريث هنا : المقدار . يقصم : يكسر .

(٣) الرخاء بالفتح : سعة العيش ، وبالضم : الريح اللينة .

(٤) شطر الناقة : جانب ضرعها ، ولها شطران وفي كل شطر خلفان .

(٥) استمر الحبل : قوى قتله . الفرز : القتل مما يلي اليسار وهو أقوى له . الميرة الحبل . الفحم :

الكبير السن جداً . الضرع : الصغير السن الضعيف .



وبعد : فهل يحمّد للحجاج ما قام به من إزهاق الأرواح وإزعاج الآمنين والقتل بالشبهة في سبيل جمع الكلمة للخليفة العربي ، بل جمع أمر الإسلام وحفظه من التبدّد ، فإن الأمر لو ترك لغلا الخوارج والمخالفون للطاعة ، فزالت الدولة ولم يبق مكانها دولة أخرى للشعب الآراء واختلاف المذاهب ، ولكن مهما حدثنا للحجاج سعيه ، فإننا لا ننسى أنه قتل الإباء في الأمة العربية ، فذلت النفوس واستخذت ، واستعدّت لاستبداد الأعاجم الذي صار فيما بعد في العصر العباسي .

أخلاق الحجاج

لا يفوتنا أن ننهي إليك حديثاً عن شيء من أخلاق الحجاج يساعد على تصوّر النجاح الذي صار إليه ، فإن الشدة التي اشتهر بها لا تكفي للوصول إلى ما وصل إليه الرجل . فكم من شدة صاحبها الطيش ، وسوء النظر في العواقب ، فلم تعقب إلا وبالا ، لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن نجاح الحجاج مدين كذلك لصفات من شأنها أن تهض بالرجال إلى ما يحاولون من مجد ، وهامى تلك بعض صفاته .

[الكرم] : حكى أنه لما دخل المدينة فرّق عشرة آلاف دينار ، ثم قال : أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من يعذرك وأنت أمير المصرين وعظيم القريتين ، فقال صدقت ، واقترض أموالاً من التجار ففرقها في الناس . ولما تولى العراق كان يطعم كل يوم على ألف مائدة يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس ، ويطاف به في محبة^(١) على أيدي الرجال يشرف على القوم ،

(١) مركب للنساء كالهودج إلا أنه لا يقب .

وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام ، فلما طال ذلك عليه قال : أيها الناس ، رسلى إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون .

[الدهاء] : حكى عبد الله بن ظبيان قاتل مصعب بن الزبير قال : كنت يوماً واقفاً على باب الحجاج ، فإذا به خرج وحده وكانت القائلة ، ما بالباب أحد ، فوقع في نفسي أن أقتله ، فنظر إلى فقال : هل لقيت يزيد بن أسلم يعني كاتبه ؟ فقلت : لا . قال : الله ، فإن عهدك على الرىّ معه ، فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى يزيد فلم يكن عنده عهد بشيء ، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً وشغلاً عما أردته به . وبني هو وعبد الملك في بعض المساجد بابين ، فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك فدخله حسد للحجاج ، فكتب إليه إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى كمثل ابني آدم إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر .

دخل عليه قاتل الحسين رضى الله عنه ، فقال له : كيف قتلته ؟ قال دَسَرْتُهُ بالرمح دَسْرًا^(١) ، ثم هَبَرْتُهُ بالسيف هَبْرًا^(٢) ، ووكلت رأسه إلى أمير غير وِكل ، فقال الحجاج : أما والله لا تجتمعان في الجنة ، وكان قصد الحجاج رضا أهل العراق وأهل الشام ، فخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير لا يجتمع من شق عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين هو وقاتله في طاعة الله في الجنة ، وقال أهل العراق : صدق الحجاج لا يجتمع والله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتله في الجنة .

[الحلم] : حكى أنه خرج إلى ظاهر الكوفة منفرداً ، فرأى رجلاً فقال : ماتقول في الحجاج ؟ قال : زعموا أنه من ثمود وكفى بسوء سيرته شراً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فقال الحجاج : أتعرفنى ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج . قال الرجل :

(١) دسره بالرمح : طعنه .

(٢) هبره بالسيف : قطعه قطعاً كباراً .

أتعرفني أيها الأمير ؟ قال لا . قال : أنا مولى بنى عامر أجن في الشهر ثلاث مرات ، وهذا اليوم أشد الصَّرع علىَّ ، فضحك من قوله وعفا عنه .

كان عنده بعض ندمائه وقد أدركت الحجاج سنة من النوم ، فقطس النديم عطسة مُنْكَرَةً ، ففزع الحجاج وقال : ما أردت بهذه العطسة إلا أن تروِّعني ، فقال : أيها الأمير إنها عادتي ، فقال : والله إن لم تأتني بشاهد على ذلك ضربت عنقك ، فخرج الرجل ، فأتى ببعض أصحابه ، فقال : أيها الأمير ، إني أشهد بأنه عطس يوماً عطسة وقع منها ضرسه ، فضحك الحجاج حتى استلقى ، وكان قليل الضحك إلا أن يغلب على أمره .

[حبة الصدق] : روى الجاحظ قال : خطب الحجاج يوم الجمعة فأطال الخطبة ، فقال رجل : إن الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرك ، فأمر بحبسه ، فأتاه أهل الرجل وكلوه فيه وقالوا : إنه مجنون ، فقال : إن أقرَّ بالجنون خليت سبيله ، فقبل له : أقرَّ بالجنون ، فقال : لا ، والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني ، فلما بلغ ذلك الحجاج أطلق سراحه لصدقه .

ومما يحكى من ذلك أيضاً ما قيل من أنه جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن ابن الأشعث ، فقام رجل فقال : أصلح الله الأمير ، إن لي عليك حقاً . قال : وما حقك ؟ قال سبَّك عبد الرحمن يوماً ، فرددت عليه . قال الحجاج فمن يعلم ذلك ؟ قال الرجل : أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به ، فقام رجل من الأسرى فقال : قد كان ذلك أيها الأمير . قال : خلوا عنه . ثم قال للشاهد : وأنت فما منعك أن تنكر كما أنكروا . قال : لقديم بغضى إياك . قال : ويخلى عنه لصدقه .

أمثلة من كلام الحجاج

كتب إليه الوليد يقول : صف لي سيرتك ، فكتب إليه :
إني أيقظت رأيي ، وأتممت هواي ، فأدريت السيد المطاع في قومه ، ووليتُ
الحربَ الحازمَ لأمره ، وقلدتُ الخراجَ المُوفَّرَ لأمانته ، وصرفتُ السيفَ إلى النِّطْفِ^(١)
المسيء ، وخاف الرُّيبُ صَوْلَةَ العقابِ ، وتمسكَ المُحْسِنُ بحظه من الثواب .
مات للحجاج ابن اسمه محمد في غداة يوم الجمعة ، فلما كان العشي أتاه بريد اليمين
ب وفاة أخيه محمد ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج ، وهبط جناحه ،
فصعد المنبر ، فقال :

أيها الناس : محمدان في يوم واحد . أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة
الدنيا لما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة ، وأتم الله ليُوشِكَنَّ الباقي مني ومنكم أن يَفْئِي
والجديدُ أن يَنْبَلِيَ ، والحيُّ منكم ومني أن يموتَ ، وأن تُدَالَ الأرضُ منا كما أدلنا
منها فتأكلُ من لحومنا ، وتشربُ من دماننا كما مَشَيْنَا على ظهرها ، وأكلنا من
ثمّارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكونُ كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمُ
مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . ثم تمثل بالبيتين :

عزائي رسولُ الله من كلِّ ميِّتٍ وحسبي ثوابُ الله من كلِّ هالكٍ
إذا مالقيتُ الله عني راضياً فإنَّ سرورَ النفسِ فيما هُنالكِ

وأرجف الناس بموته ، فصعد المنبر فقال :
إنَّ طائفةً من أهل العراق ، أهلِ الشَّقَاقِ والنِّفاقِ ، نَزَعَ الشَّيْطَانُ بينهم ، فقالوا
مات الحجاج ومات الحجاج فمه ، وهَلْ يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ، والله ما يسرني

(١) النطف : التلطف بالعيب التهم بالرية .

أَلَّا أَمُوتَ ، وَأَنَّ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَمَا رَأَيْتَ اللَّهُ رَضِيَ بِالتَّخْلِيدِ إِلَّا لِأَهْوَنِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ
إِبْلِيسَ . وَلَقَدْ دَعَا اللَّهُ الْعَبْدَ الصَّالِحَ ^(١) ، فَقَالَ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا
لَا يَنْبَغِي لِأَخْدَرٍ مِنْ بَعْدِي » ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا الْبَقَاءَ ، فَاَعْسَى أَنْ يَكُونَ
أَيُّهَا الرَّجُلُ ، وَكَلَّمَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ كَأَنِّي وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُنَاصِتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابِسًا ،
وَتُقَلِّ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثِ أَذْرُعٍ طَوْلًا فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتْ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ،
وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصَرَفَ الْحَبِيبُ مِنْ وَلَدِهِ يَتَقَسِّمُ الْخَبِيثَ مِنْ مَالِهِ ، وَإِنَّ الَّذِينَ
يَعْقِلُونَ يَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ .

لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ ارْتَجَّتْ مَكَّةُ بِالْبُكَاءِ ، فَصَعِدَ الْحُجَّاجُ الْمُنْبِرَ فَقَالَ :
أَلَا إِنَّ ابْنَ الزَّيْرِ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَتَّى رَغِبَ فِي الْخِلَافَةِ ، وَتَنَازَعَ فِيهَا ،
وَوَخَلَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَاسْتَكْنَى بِحَرَمِ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مَانِعًا لِلْعَصَا لَمُنَعَ آدَمَ حُرْمَةُ ^(٢) الْجَنَّةِ
لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَبَاحَهُ جَنَّتَهُ . فَلَمَّا عَصَاهُ أَخْرَجَهُ مِنْهَا
يُخْطِئُتُهُ ، وَآدَمَ عَلَى اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ ابْنِ الزَّيْرِ ، وَالْجَنَّةُ أَعْظَمُ حَرَمَةٍ مِنَ الْكَعْبَةِ .

خطبة دير الجماجم ^(٣)

خطب الحجاج بعد وقعة دير الجماجم ، فقال :
يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبْطَنَكُمْ ^(٤) فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ

(١) هُوَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) أَيْ لَوْ كُنَتْ الْجَنَّةُ (وَكَانَ فِيهَا) مِنْ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ غَضَبُ رَبِّهِ حِينَ عَصَاهُ .

(٣) دِيرُ الْجَمَاجِمِ بظَاهِرِ الْكَوْفَةِ عَلَى سَبْعَةِ فَرَاسِخٍ مِنْهَا عَلَى طَرَفِ الْبَرِّ لِلْسَّالِكِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَاسْمُهُ دِيرُ
الْجَمَاجِمِ لِأَنَّهُ كَانَتْ تُصْنَعُ بِهِ الْجَمَاجِمُ وَهِيَ الْأَقْدَاحُ مِنَ الْحَشَبِ وَبِهَذَا الْمَوْضِعِ كَانَتْ الْوَقْعَةُ بَيْنَ الْحُجَّاجِ
وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَشْعَثِ وَانْهَزَمَ فِيهَا ابْنُ الْأَشْعَثِ .

(٤) اسْتَبْطَنَ الْأَمْرَ : دَخَلَ بَاطِنَهُ .

والأطراف والأعضاء والشَّغَاف^(١) ، ثم أفضى إلى المخاخر والأصمَّاء ، ثم ارتفع
ففسَّسَ ، ثم باض ففترَّخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا ، وأشعركم خلافا ، واتخذتموه دليلا
تَتَّبِعُونَهُ وَقَالِدًا تُطِيعُونَهُ ، ومؤامراً^(٢) تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة أو تعظمكم
وَقَعَة . أو يَحْجُزُكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ^(٣) حَيْثُ رُمْتُمْ
الْمَكْرَ ، وسعيتم بالغدر ، واستجتمتم^(٤) للكفر ، وظننتم أَنَّ اللَّهَ خَذَلَ دينه وخلافته ،
وَأَنَا أَرْمِيكُمْ بِطَرْفِي . تتسللون لِوَادٍ^(٥) ، وتهزمون سِرَاعاً . ثم يوم الزَّاوية ، وما يوم
الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتحاذلُكم ، وبراءةُ الله منكم ، ونُكُوصُ^(٦)
وَلِيَّكُمْ عَنْكُمْ إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازِعِ إِلَى أعطانها ، لا يسألُ
المرءُ عن أخيه ، ولا يَلْوِي الشَّيْخُ على بنيهِ ، حتى عَضَّكُمْ السَّلاحُ ، وقَصَمَتْكُمْ
الرماحُ . ثم دَيْرُ الْجَمَاجِمِ وما دَيْرُ الْجَمَاجِمِ ! ! ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ ، بَصْرَبُ
يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ^(٧) ، ويَصْرِفُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ ، يَأْهَلُ الْعِرَاقِ ، وَالْكَفَرَاتِ
بعد الْفَجَرَاتِ ، والغدرات بعد الْخَطَرَاتِ^(٨) ، والثَّوَرَةُ بعد الثَّوَرَاتِ ، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى
ثَغُورِكُمْ غَلَّتْ^(٩) وَجِبْتُمْ . وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَقْتُمْ ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَاقَتُمْ ، لا تذكرون
حَسَنَةً وَلَا تَشْكُرُونَ نعمة ، يَا هَلِ الْعِرَاقُ : هل استخفكم ناكثٌ ، أو استغواكم غاوٍ ، أو

(١) الشغاف : حجاب القلب أوجبه .

(٢) آمره : شاوره .

(٣) الأهواز : سبع كور أو سبع بين البصرة وخراسان ، لكل اسم خاص ، ولا يسمى واحداها هوزا ،
ولعل الحجاج أراد أقربها إلى البصرة ، وهو الذي يغلب عليه اسم الأهواز كما في مصور المرحوم
آمين بك واصف .

(٤) اجتمعتم . (٥) اللواذ بالقيء (مثلة) : الاستتار به والاحتضان به ، واللواذ أيضاً المراوغة .

(٦) نكص عن الأمر : أحجم ، وعلى عقيقه : رجع عما كان فيه من خير .

(٧) مقيه : مكانه .

(٨) الخطرة : الحديعة .

(٩) غل : خان في الغنمية .

استغفركم عاصي ، أو استنصركم ظالم^(١) ، أو استعزكم خالغ^(٢) إلا اتبعتموه وأكرمتموه ونصرتهم وزكيتهم . ي أهل العراق : قلنا شغب شاغب ، أو تعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره . ي أهل العراق : ألم تنهكم المواعظ ، ولم ترزجركم الوقائع . ثم التفت إلى أهل الشام ، فقال : ي أهل الشام ، أنا لكم كالظلم^(٣) الراح^(٤) عن فراخه ، ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب . ي أهل الشام : أتم الجنة والرداء ، وأتم العدة والحداء^(٥) .

ومن وعظ الحجاج ما رواه المبرد في الكامل قال : كان الحجاج بن يوسف يقول على المنبر :

أيها الناس : أقدموا هذه الأنفس فإنها أسألُ شيء إذا أعطيت ، وأمنعُ شيء إذا سُئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطأاً وزمماً ، فقادها بخطاها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه .

وكان يقول : إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه ، أو يفكر في مياعده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة .

(١) استعانكم . (٢) خالغ : ثأر جان .

(٣) الظلم : ذكر النعام .

(٤) الراح : الضارب برجله .

(٥) الحداء . القدوة ، من حذاه إذا فعل فعله .

الادب في حياة الحجاج

لعلك غير ناس ماسرّ بك من كون الحجاج أحد الأربعة الذين لم يلحنوا في جدّ أو هزل ، كما تذكر بلاءه في إجماع حروف الهجاء العربي وعمله على تحويل ديوان العراق إلى العربية هذا الى ما سذكركه موزعا في أبواب المذكرة من إحيائه للأدب وسماعه من الشعراء والمبالغة في مثوبتهم وتوجيههم ، وإرسالهم الى الخليفة مشفوعين برأيه ، فقد فعل ذلك بجرير حتى صار من شعراء الخليفة ، كذلك سنحدثك عن رأيه الصائب وقريحته النقادة عند ما مدحته ليلي الأخيلية بقولها : غلام إذا هزّ القنّاة سقاها . فقال لها : قولى همام لا غلام .

أما الشهادة القائمة على بلاغته وقوّة تأثيره ، فهي خطبه وكتبه التي مرّ بك كثير منها وقد عرفت تأثير هذه الخطب ، وتلك الكتب في إلزام الطاعة ، وتهذئة الثورة . وهي وإن كانت لا تحتاج في إثبات فضلها إلى دليل ، ولكننا نسوق لك رأيا لأحد معاصري الحجاج تدرك منه كيف كان وقع كلامه واختلابه للألباب ؟ . يقول مالك : ابن دينار : ما رأيت أحداً أئين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين .. ألسنت ترى أن مالكا يظهر لك حيرته من تأثير الحجاج بكلامه ، وكيف أنه يعتقد ظلمه لهم وإساءته إليهم ؟ ، حتى إذا سمع كلامه انقلب اعتقاده إلى حين . ولا شك أن هذا من فضل البيان كالتصوير البارغ الذي يريك الصورة خارجة وليست بخارجة ، أو داخلية ، وليست بداخلية .

وإن المتتبع لكلام الحجاج ليرى له مساحة خاصة ، وأساليب استقلّ باستعمالها من بين معاصريه ، وأحسن استخلاصها من كلام العرب وعاداتهم ، فصار له فضل شيوعها وتداولها . ولعل لنشأته البدوية أثراً كبيراً في اهتدائه إليها ، فما كنا نرى

لغيره مثل قوله : « لأعصبنكم عصب السلعة » ، و « مايقعق لي بالشنان » ، و « لأضربنكم ضرب غرائب الأبل » ، وكذلك عرف الحجاج بالاستشهاد بالرجز ، والإكثار من رواية غريب الشعر .

عبد الحميد الكاتب

[نسبه] : هو عبد الحميد بن يحيى مولى بنى عامر ، والموالى فى الدولة الأموية حديث يجب أن تقف عليه لتستطيع فهم ما أحاط بعبد الحميد من ملاسبات .

الموالى فى عصر بنى أمية

هم فى الأصل الذين صاروا سبياً للعرب ، فخرقوهم فى المحاربين يتولون أمرهم ، فيسترقونهم أو يعتقونهم ، وينسب المولى إلى أسياده الذين ملكوا رقه ، فيعيش مستظلاً بظلمهم ، وتنشأ ذريته على ذلك الولاء .

ولقد اقتضت سياسة بنى أمية الغض من شأن من ليس عربياً ، فاضطهدوا هؤلاء الموالى حتى حاربوا فى جيوشهم بلا عطاء ، أو أعطوهموه مصرداً محسوباً .

ولم يكن جميع الموالى من طبقة واحدة ولا أمة واحدة ، بل كان منهم من الفرس والروم ، ومنهم من ينتهى نسبه إلى ملوك الدولتين ، أو الأشراف فيهما كما كان منهم الحبش والسودان والترك والبربر ، وكل من فتح العرب بلادهم . لذلك كان أثر هؤلاء الموالى عظيماً ، فأفادوا الأمة العربية بما حملوا معهم من نظام ، ودرية ، وذكاء ، وعلم ، وصناعة ، ولو أن بنى أمية أفسحوا المجال لهؤلاء الموالى ، واطمأنوا إليهم ، ولم يقصوهم عن أعمال الدولة لعجلوا للأمة العربية بما كان فى العصر العباسى الذى كانت سياسية خلفائه تقضى بالاطمئنان إلى هؤلاء والإفضاء إليهم بتدبير شئون الدولة .

لقد كان من أثر اضطهاد الأمويين للموالى أن أقبل هؤلاء على العلم ، يحصلونه ، واللغة العربية يحذقونها ليجعلوا ذلك زلفى إلى أسـيادهم ، ولينالوا به نصيباً من عطفهم ، وليستروا به مسبة الرقّ وعاره ، فكان منهم أئمة الدّين ، ومصاييح الهدى ، وأعلام اللغة على حين شغل العرب بالرياسة وتدير الملك ، وولاية الأمصار والدفاع عن الملك ، أو القيام بمناهضته .

ولقد كان عبد الحميد بن يحيى أحد هؤلاء الموالى الذين أفادوا العربية بذكائهم الموروث ، وجدّهم الذى طلبوا به المنزلة فى العرب ، والجاه عندهم .

حياة عبد الحميد

نشأ بالشام والدولة الأموية مدبرة ، وأمورها مضطربة ، والخلافة قد ذهبت هيبتها ، وتطلع إليها كل طامع ، فكثرت لذلك الحروب ، وتوالى خلع الطاعة ، وشغل الخلفاء بالدانى عن القاصى حتى عشتت الدعوة إلى العباسيين ، وأفرخت فى خراسان ، ثم اكتسحت الدولة الأموية أسرع اكتساح لضعف المقاومة ، ولصيورة الدولة إلى الشيخوخة المبكرة ، إذ لم يكن قد مضى عليها فى الحكم غير تسعين سنة ، وهى فى أعمار الدول قليلة ، ولكنّ الأمويين عجل إليهم الضعف بما أسرفوا فى الظلم ، وعسفوا فى الجباية ، حتى قلت مواردهم ، وضعف شأنهم .

كان أول أمره يعلم الصبيان ، ويتنقل فى البلاد ، حتى عرف فضله مروان بن محمد ، وكان والياً على الجزيرة وأرمينية ، فاتخذه كاتباً له ، فلزم خدمته ، وأخلص له ، وحرص مروان على الانتفاع به ، فلما صارت الخلافة إليه سنة ١٢٧ هـ أبقاءه كاتب الدولة اعترافاً له بسابقة خدمته ، والتماساً للانتفاع بذكائه وبلاغته . ويروى أنه كان فى مجلس مروان حين وصل إليه خبر الخلافة ، فسجد مروان ومن معه شكراً لله ، ولم يسجد عبد الحميد ،

فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : على أن كنت معنا فطرت عنا . قال : إذن تطير معي ، فقال عبد الحميد : الآن يطيب السجود ، وسجد .

لبث مروان خليفة خمس سنين عانى فيها كل شدة ، فقد خرج عليه عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا لنفسه ، وانضم إليه من الشيعة عدد عظيم ، ولكن ثورة عبد الله هذا قد أخذها والى العراق عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، وكان الناس يحبونه لسيرة أبيه ومعدلته .

أما الشام فقد كانت أمصاره دائمة الاضطراب على مروان ، فانقض عليه أهل حمص ، ثم أهل الغوطة ، ثم أهل فلسطين ، فانتصر مروان على كل هؤلاء ، ثم حسن بعض الدعاة لسليمان بن هشام بن عبد الملك أن يطالب بالخلافة ، فطالب أهل الشام ، فأتوه من كل وجه ، وكانت موقعة هائلة بين سليمان ومروان ، فانهزم سليمان ، وأحصيت القتلى ، فكانت ثلاثين ألفاً .

ولقد طمع الخوارج في ضعف الدولة ، فاستولوا على الكوفة ، وكانت لهم مع مروان جولات استمرت مدة طويلة .

وفي ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ بويج بالكوفة لأبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين ، فأرسل الجند تتعقب مروان حتى التقوا على نهر الزاب ، فقتل من جنود مروان كثير وانهزم إلى مصر ، فتبعه العباسيون حتى عثروا به في دير بقرية بوصير من مصر ، وقتل ليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وانهت بقتله دولة بني مروان . ولا شك أن عبد الحميد قاسى مع مروان حر هذه النار ، فإن ما عرف له من الوفاء جعله لا يتخلى عن خدمته ، وقد طلب منه مروان حين اشتد عليه الطاب ، وتتابعت هزائمه ، أن يتحول إلى العباسيين ، وقال : إن القوم محتاجون إليك لأدبك ، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بي فاعلك تنفعنى في حياتى أو بعد مماتى ، فقال عبد الحميد :

أَسِرَّ وَفَاءً ثُمَّ أَظْهِرْ غَدْرَهُ فَنَلِي بِغَدْرِ يُوسَعَ النَّاسَ ظَاهِرُهُ

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك وأقبحهما بي ، ولكني سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد ، فغمز عليه عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأها الطلب ، وهما في بيت ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد . فأخذ ، وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته ، فكان يحمى طستاً ويضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢ هـ .

تعلم عبد الحميد وعمله

نشأ عبد الحميد كما ينشأ أولاد الموالى مقبلين على الدراسة ، فتخرج في علوم زمانه من قراءة القرآن ، ورواية الشعر ، والإلمام بالحساب والأخبار وتلك عدة الكاتب في تلك الأيام . وقد استوفى عبد الحميد كل ما يستعد به أهل زمانه من المرتزقة بالعلم ، وساعده على ذلك طبع مواتٍ وذكاء موروث ، وكان أستاذه الذي تخرج عليه هو ختنه سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وقد عرف سالم هذا بحذق اللغة اليونانية والنقل منها . ولئن فات عبد الحميد أن يكون عارفاً بغير العربية ، فإنه لم يفته أن يتلمذ لهذا الرجل ، فيعرف منه أسرار تلك اللغة ، ويمجى على يديه ذلك الإبداع الذي عرف به في تنويع بدء الرسائل واختتامها . ومراعاة فروق تلتزم فيها على تعدد أنواعها ، فيكون لصورة العهد خلاف صورة التولية وللإخوانيات غير ما للديوانيات مما سنفصله في موضعه من هذه الترجمة .

وقد سبق سالم تلميذه بشيء من هذا ، ولكن عمل عبد الحميد كان أتم وأوفى ، فاستحق أن يقال عنه : « بدئت الرسائل بعبد الحميد . . » .

لما انتقل عبد الحميد مع مروان إلى دار الخلافة اشترك معه في عمله المضني من مناهضة

الواثين على الخلافة ، وكان يكتب له كتبه إلى الموالين ، وتهديده إلى الخارجين ، وعموده للولاة وللقضاة .

ولقد ذكروا أنه كتب عن مروان كتاباً إلى صاحب الدعوة بخراسان يدعوه إليه ، وضمنه ما لوقرى لأدنى إلى وقوع الخلاف والفشل في صفوف العباسيين ، وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدييره ، فإن يكن ذلك وإلا فاهلاك ، وكان الكتاب لكبره يحمل على جمل ، فلما وصل إلى أبي مسلم أمر بإحراقه ولم يقرأه ، وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتَحى عليك لُيُوثُ الغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وكان لإنشاء الرسائل ديوان وفيه كتاب لمكان العمل من الاتساع ، ولصيرورة الدولة إلى نظام مستقرّ وعمل موزع كما هو الشأن في الأمم التي قطعت في الحضارة شوطاً .
وكان عبد الحميد سيد هؤلاء الكتاب ورئيسهم . وهذه رسالته إلى الكتاب يوصيهم فيها بمعرفة كتاب الله والفرائض ، وعلم العربية ، ورواية الأشعار ، وحذق التاريخ ، والحساب ، وتجويد الخط ، ثم يعطف على أدب النفس بالرفق في المعاملة ، وحسن الصحبة . وسترى ذلك فيما ننقل إليك منها .

أثر عبد الحميد في الكتابة

يقولون إن عبد الحميد أول من أطل التحميدات في أوائل الكتب وكررها في فصولها . وأنه رسم لها رسوماً في بدئها وختامها ، وجعل للإطنب مواضع ، وللايجاز أخرى ، فكان بذلك شيخ كتاب الرسائل على الإطلاق .

لقد أطل عبد الحميد التحميدات حقاً ، فإنه بعد أن كانت صيغة الحمد كما مرّ بك في رسائل العصر الماضي تذكّر بعبرة واحدة في جملة واحدة ، توسع فيها عبد الحميد حتى

صاغها في عبارات طويلة ، وكذلك كان التحميد مرة واحدة في الكتاب ، فلما أطال عبد الحميد الرسائل كان يبدى فيه ويعيد ، فيجعله في أول الرسالة ، ثم يعيده مرة أو مرات في فصولها على حسب طولها . كذلك جعل للكتابة رسوما تراعى ، وهذه الرسوم لم تكن كلها له بل منها ما كان العمل جاريا عليه سابقا ، ولكن فضل عبد الحميد أن فصل ذلك وبناء على أسس وشرطه بشروط . فكان بدء ولاية العهد غير بدء الأخبار عن فتح ، فالأول يبدأ بعد البسملة بقولهم هذا ما عهد ، وهى الصورة القديمة التى كتبها عمر ، وظلت سنة من بعده ، والثانى يبدأ بالحمد ابتهالا لله على ما وهب . وكان خطاب المسلم الطائع غير خطاب أهل الملل الأخرى . فالأول يحمد فيه الله إلى المرسل إليه ، والثانى يقال فيه : سلام على من اتبع الهدى . وقد نصوا على أن عبد الحميد اخترع صورة التعقب بالحمد بعد البسملة مفصولا عنها بأما بعد ، فيقول مثلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فالحمد لله .

كذلك كان الختام مختلفا وصورته القديمة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وقد لا تذكر بركاته ، وقد يختم بأن شاء الله ، فيقولون : فإن رأيت أن تفعل ذلك فعلت موقفا إن شاء الله أو (فرأيتك فى ذلك موقفا إن شاء الله) وقد يكون بالحسلة كقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، أو حسبي الله ونعم الوكيل ، وأكثر ما يكون ذلك فى المشاركات والمناشير ونحوها ، وتختتم اليهود بمثل ، وكفى بالله شهيدا ، وتختتم التعزية فى الإخوانيات بقولهم : إنا لله وإنا إليه راجعون .

كذلك جعل عبد الحميد للإطناب مواضع فجعله فى أخبار الفتوح ، فكانت تبنى على إشباع القول ، وتكثير الألفاظ للتعريف بقدر النعمة ، وتفخيم أمر الملك ، كذلك كانت الكتابة تطال فى الحث على التهيؤ للعدو ، فيبسط فيها القول بوصف العزائم ، وقوة الهمم ، وإثارة الحمية ، وسرعة الحركة ، وطى المراحل ، وتخيل أسباب النصر ، والوثوق بمعونة الله . وكذلك تطال فى الوعد والوعيد والإحماد والاذمام من الخليفة إلى

من يكتب إليه ، لينشرح صدر المشمر المحسن وينبسط أمه ، وليرهب المقصر ، ويزلزل به موقفه فيسهل ارتداعه ، وإقراره بالطاعة وعودته إلى الخطيئة .

وكان الإيجاز في الكتابة إلى نواب الملك بالاستيحاء من العدو ، فلا يعمد إلى تهويل أمر العدو فتضعف القلوب ، ولا تهوينه فيحصل الاغترار . كذلك يلجأ إلى الإيجاز في أمر لا يراد إعلانه من مثل هزيمة ، أو تغيير رسم ، أو تكليف رعية ، أو أن تكون الكتابة إلى الوالي أو المروء في أمر أو نهى .

ولسنا نرى فضل عبد الحميد يقف عند هذا النظام الذي أجراه على الرسائل وقيدها ، فإنه وإن دلّ على ذكاء وصدق حسّ وإدراك لحقائق الفروق في التعبير ، فليس يدلّ على الملكة القوية ، والمقدرة الثامة ، وحسن التصوير للمعنى ، والوصول به إلى قلب السامع ، وغير ذلك من صفات البلاغة التي تمت في عبد الحميد ، وتجمعت له خصائصها وإن أدلّ على فضل عبد الحميد أن قول إنه لم يتكأده لفظ ، ولم يستعص عليه معنى ، ولم يعتره فتور ، بل كانت معانيه وألفاظه تجري جريان العذب على شفاه الظمأى ، وأنت تقرأ له الرسالة فتطول عليك ، وتخشى عليه أن يصير إلى الوهن ، أو ينتهى إلى السقط ، قتره في آخرها كشأنه في أولها سلاسة وعدوبة وتدققا في المعاني ، وتنويعا في الأساليب .

هذا هو فضل عبد الحميد الذي جاء فوجد الكتابة مقيدة ، فكّ قيودها ، ومتعثرة فأجراها على أذلالها ، وضيقه العطن ومنقطعة النفس ، فأطال من أنفاسها ومد من روحها . فهذا هو الاختراع في الكتابة ، وهذا هو الابتداع الذي يصح أن نذكره لمن نريد أن نجعله شيخ الكتاب وسيدهم ، وهو جدير بهذا الوصف بعد ما بان لك أنه استطاع ما لم يفعله الأوائل ، وأنه حافظ على فضيلة السابقين من الجزالة والأحكام ، وزاد عليها الإسباغ وإطالة الذيل .

وإن الناظر في رسائل عبد الحميد ليرى الرجل واسع التفكير ، مستقصيا للمعاني مرتباً لها ، متوغلاً في غامضها متناولاً لسهلها وصعبها ، وذلك شأن من تثقف أحسن تثقيف

وحصف فكره أتم حصافة . ولا يكون ذلك إلا بمواناة الطبع وحدة الذكاء ، ثم بالعلم
النظري الواسع المدى . وهذا ما يحملنا على اعتقاد أن عبد الحميد إن فاته معرفة لغة غير
العربية لم يفتسه أن وعى كل ما ترجم إليها على يد ختته أو غيره من النقلة ، وقد كان
النقل من اللغات بدأ في هذه الأيام ، فإن المقفع نقل كثيراً من كتب الفرس ، وأشهرها
كليلة ودمنة ، فلم يفت عبد الحميد الاطلاع على كل ما ترجم في أيامه .

في كتاب صبح الأعشى جزء ٢ ص ١٨٤ : قال أبو هلال العسكري : ومن
عرف ترتيب المعاني ، واستعمل الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة
أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد
الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي وحوّلها إلى
اللسان العربي .

آراء الناس في عبد الحميد

كان أحمد بن يوسف يقول : في رسائل عبد الحميد ألفاظ محكمة ، وتجارب
محكمة . وقال إبراهيم بن العباس الصولي : كان الكلام معانا له ما تمنيت كلام أحد من
الكتاب يكون لي مثل كلامه . وقال أبو جعفر المنصور غلبتنا بنو أمية بثلاثة :
بالحجاج ، وعبد الحميد ، والمؤذن البعلبكي .

وقال قاضي القضاة ابن خلكان : كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب
إماما ، وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزوما ، ولآثاره اقتفوا ، وهو الذي سهل
سبل البلاغة .

وسأله يوما بعض المعجبين بأدبه عن سر نبوغه في الكتابة فقال : حفظ كلام
الأصلح (يريد علياً كرم الله وجهه) ، وقال ابن نباتة^(١) في كتابه : سرح العيون ،

(١) ابن نباتة هو جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وهو شارح الرسالة
الهزلية لابن زيدون ، وهو شاعر له ديوان شعر مطبوع .

في شرح رسالة بن زيدون : هو أول من اتخذ التحميدات في فصول الكتب ، واستعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ ، وفي بعضها الإسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال .

نماذج من كلام عبد الحميد الكاتب

ليس لعبد الحميد الكاتب كتاب يجمع رسائله كما هو الشأن في رسائل البلغاء ، كبديع الزمان والصابي وأضرابهما : ولكنك تجدها موزعة في الكتب ، وفي دار الكتب الملكية مجموعة خطية فيها بعض رسائله ، ومن أشهر تلك الرسائل رسالته إلى الكاتب ، وهي برمتها في مقدمة ابن خلدون فارجع إليها كاملة هناك ، ولكننا ننقل إليك بعضا منها فيه غنية .

رسالة عبد الحميد إلى الكاتب

قال في أولها : أما بعد حفظكم الله ، يأهل صناعة الكتابة وحاطكم ووقفكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا في الخلقة سواء . وصرّفهم^(١) في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم ، وأبواب رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات ، والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمّر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ^(٢) إلا منكم ،

(١) صرفهم : وجههم .

(٢) كاف : قادر على الأمر ناهض به .

فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ،
وألستهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من
فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه^(١) من النعمة عليكم .

ومنها

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفهموا في الدين ، وابدءوا بعلم
كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف^(٢) ألستكم . ثم أجيّدوا الخط
فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم
وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه همكم . ولا تضيّعوا النظر في
الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ،
وسفساف^(٣) الأمور ومحارقتها . فإنها مدلّة للرقاب ، مفسدة للكتاب . ونزّوها صناعتكم
عن الدنيا ، وارثوا بأنفسكم عن السعاية والنيمة وما فيه أهل الجهالات .



ومن رسائله رسالة الشطرنج^(٤) ، وهي ما كتبه عن الخليفة إلى الأمصار يأمر
الولاة بالضرب على أيدي المستهترين بهذه اللعبة . وقد شاعت إذ ذاك حتى صرّفت
الناس عن أمور معاشهم ومعادهم ، وسنقلها إليك برمتها لأنها غير شائعة فيما بين يديك
من الكتب قال :

(١) أسبغه وأطاله .

(٢) الثقاف : ما يقوم به الرمح .

(٣) السفساف : الحقيق من الأمور .

(٤) في القاموس أنه بكسر الشين ولا تفتح ، وقيل الكسر أفصح .

رسالة الشُّطْرَنِج

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله ، وإيضاح معاملته بأظهار فرائضه ، وبعث
رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسائله ومقدماً إليهم بإنذاره
ووعيده - ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة - ثم ختم بنبيه صلى الله
عليه وحيه ، وقفى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له ، حين انطمست
الأعلام مخفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعَفَت الآثار دارسة ، وسطح رَهَج^(١) الفتن
وابتداً ققام الظلم . واستهد الشرك ، وأسدف الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس
الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق ، واستطرق الجور ، واقتطرس^(٢) السلهب^(٣) الفتنة ،
واستُضْرِمَ لِقَاحُهَا^(٤) ، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغيابة فساد ، فصعد^(٥) بالحق مأموراً ،
وبلغ الرسالة معصوما وفلج الإسلام وأهله دالاً لهم على المرشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ،
ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، ومرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلان عروة
النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلال محذراً لهم من الهلكة ،
موعزاً إليهم في التقدمة ، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه
يسارعون ويطلبون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب
والترهيب ، حريصاً عليهم متحنناً على كافتهم ، عزيزاً عليه عَنَتُهُمْ^(٦) . رءوفاً بهم
رحيماً ، تَقْدُمُهُ شَفَقَتُهُ عليهم وعنايته برشدهم إلى تجريد الطالب إلى ربه فيما فيه بقاء
النعمة عليهم وسلامة أديانهم ، وتخفيف آصار^(٦) الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله إليه .

(١) الرهج : الفبار .

(٢) السلهب من الرجال : الطويل ، ومن الخيل ما عظم وطالت عظامه .

(٣) استضرم : أوقد . لِقَاح النار : ما تمد به من حطب .

(٤) الفاعل ضمير يعود على النبي .

(٥) العنت : المشقة .

(٦) آصار : جمع لاصر بمعنى الذنب .

صلى الله عليه وسلم ناصحاً منتصحاً ، أميناً مأموناً . قد بلغ الرسالة ، وأدّى النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين حتى اعتدل ميله . وأذلّ الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه في إكمال المسلمين دينه ، واستقامة سننه فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم موبات الأعمال ومفطحات^(١) الذنوب . ومُبَهِّطات^(٢) الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو إليه نقصان الأديان ، وتسويههم الغوايات ، وأوضح لهم أعلام^(٣) الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة . غير مدخر لهم نصحاً ولا ممتنع في إرشادهم غمّاً .

فكان فيما تقدم إليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذّرهم إضره ، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج ، والمواصلة عليها . لما في ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع المسلمين . . وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهمهم^(٤) الشيطان بها وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى مُمسأهم مُلهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، وافترض عليهم من شرائع أعمالهم . مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر ، في الأندية والمجالس غير منكر ولا معيب ، ولا مستفزع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان ، منهم فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عند ما يئس من بلوغ إرادته في معاصي الله عزّ وجلّ بمصر المسلمين ، وجمعهم صُراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة : وغرّهم بمكيدة إرادة استهوائهم بالخدع ، واجتياهم^(٥) بالشبه ، والمراصد الخفية المشككة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو

(١) أفطع الأمر كفطع (ككرم) .

(٢) بهظة الأمر : ثقل عليه ، ولم أعر على أبهظه ولعله استعملها مزوجة لمفطحات .

(٣) أعلام : جمع علم ، وهو ما ينصب في الطريق لهداية السائر .

(٤) ألهمهم : جعلهم يلهمون بها أي يديمون ذكرها ، والمراد أنهم مولعون بها .

(٥) اجتاله : حوّلته عن قصده . ويحتمل أن يكون واحتمالهم أي اصطيدهم .

كبرت مستحلاً لها مُشيداً بها^(١) مظهراً لارتكابه إياها ، غير حذر عقاب الله عز وجل ولا خائف مكروهاً فيها ولا رعب من حلول سطوته عليها حتى تلحقه المنية فتختلج به^(٢) وهو مصرّ عليها غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها . فكم قد أقام على موبقات الآثام ، وكبائر الذنوب حتى سرّ به مخزّم^(٣) أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم وأن ينذرهم ويوعز إليهم ، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك من الحظ وعليهم في تركه من الوزر فأذن بذلك فيهم وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم وأوعز إليهم فيه وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك^(٤) العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها . والاضهار للعب بها وإطالة حبسه في ضيق وضنك . وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ورأيه^(٥) . ولا يجدن أحد عندك هواده^(٦) في التقصير في حق الله عز وجل والتعدّي لأحكامه فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة ومغبة . وتعرض به لغير^(٧) الله عز وجل ونكاله . واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك ان شاء الله والسلام .

صورة تحميد له في كتاب فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، للثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه^(٨) ، وعزّ في سماواته بعظمته ،

-
- (١) رافعاً صوته .
 (٢) تنزع . (٣) خرّم الشيء وخرمه : فرق أجزائه ، ومعنى مخزّم أيامه : أيامه القليلة ، لأن الجميع إذا تصدع قلّ .
 (٤) إنهاك العقوبة : المبالغة فيها .
 (٥) أي الحسن .
 (٦) الهوادة : اللين والضعف .
 (٧) غير (كعنب) : أحداث الدهر .
 (٨) ملك (مثلثة) : أي قدرة .

ودبر الأمور بعلمه ، وقدّر لها بحكمه على ما يشاء من عزمه ، مبتدعاً لها بإفشاءه إياها ، وقدرته عليها واستتصغاره عظيمها . نافذاً إرادته فيها ، لا تجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله ، ولا تقع إلا على سبق من حتمه كل ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه لا معدل له عنها ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحد بخفاياها ومعاها إلا هو ، فإنه يقول في كتابه الصادق : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

إخوانياته

كتب إلى أخيه في مولود وكان أوّل مارزقه الله .
أما بعد : فإنه ليس مما أنعرّف من مواهب الله نعمة خصّصتُ بمزيّتها . وأُصِفِيتُ بخصيصتها كانت أسرّ لي من هبة الله لي ، ولدا سمّيته فلانا ، وأمّلت ببقائه بعدى حياة وذكري وحسن خلافة في حرّمتي وإشراكه لي في دعائه ، شافعاً لي إلى ربه عند خلواته في صلاته وحبّه ، وكلّ موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرتُ إلى شخصه تحرّك به وجدى ، وظهر به سرورى ، وتعطف^(١) عليه منى أنسة^(٢) الولد ، وتوات عنى وحشة الوحدة . فأنا به جذل في مغيبى ومشهدى ، أحاول مسّ جسده بيدي في الظلم ، وتارة أعاققه وأرشفه ، ليس يعدّله^(٣) عندى عظيمات الفوائد ولا منفسات^(٤) الرغائب ، سرنى به واهبه لي على حين حاجتى ، فشدّ به أزرى ، وحلنى من شكره فيه ماقد آدنى

(١) تعطف : العطف وانحنى .

(٢) الأنسة : الأنس بالمىء .

(٣) عدله (كضرب) : ساواه .

(٤) شىء منفس كخرج : يتنافس فيه .

بثقل حمل النعم السالفة إلى به المقرونة سراؤها في العجب بما يتداركى من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنيا إياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه .
فأسأل الله الذى منّ علينا بحسن صنعه^(١) فى الأرحام ، تأديبه بالذكاء ، وحراسته بالعافية ، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل مايهب لنا من سلامته ، والمدة فى عمره مُرَصِّداً^(٢) بالزيادة ، مقرونا بالعافية ، محوطا من المكروه ، فإنه المنان بالمواهب والواهب المعنى ، لا شريك له .

حملنى على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمى بحالك فيه وشركتك^(٣) إياى فى كل نعمة أسداها إلى ولى النعم (وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره) .
والسلام عليك .

وكتب عن مروان إلى هشام يعزیه عن امرأة من حظاياها :
إن الله أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مدّه إلى أجل مسمى . فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض إليه العارية ، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفس منها فى المنقلب ، وأرجح فى الميزان ، وأسنى فى العوض ، فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :
أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا مخفوفة بالكُره والسرور ، فمن ساعده الحظّ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيدا لها ، وقد كانت أذاقتنا أفويق^(٤) استحليناها ، ثم جمحت^(٥) بنا نافرة ورمحتنا^(٦) مؤلّية فلمُح عذبتها ، وخشن ليّنها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا من الإخوان ، فالدار نازحة ،

(١) أى حياته وصيائه ، وذلك صنع من الله جميل وإحسان كبير .

(٢) مقروناً . (٣) شركه (كفرح) شاركه .

(٤) أفويق : جمع أفواق وهى جمع فيقة . والفيقة : ما تجمع من اللبن بين الحلبتين .

(٥) جمحت الدابة : غلبت راحبها .

(٦) رمحت الدابة : رفست .

والطير بارحة^(١) . وقد كتبت الأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً ، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جراح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإِسار والذل شرّ جار . نسأل الله الذي يعزّ من يشاء ، ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دارأمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه ربّ العالمين وأرحم الراحمين .

ومن أمثلة إيجازه ما كتبه موصياً بشخص : حقّ موصل كتابي إليك^(٢) كحقه علىّ إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله^(٣) . ومنها ما كتبه إلى أحد عمال مروان ، وقد أهدى إلى الخليفة عبداً أسود ، فأمره بالإجابة ذاماً مختصراً ، فكتب : لو وجدت لونا شرّاً من السواد ، وعدداً أقلّ من الواحد لأهديته .

نماذج من خطابة هذا العصر

قدم معاوية المدينة عام الجماعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنّي والله ما وليتها بمحبة عاملتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رُضت^(٤) لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحافة ، وأردتها^(٥) على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . وأردتها على سُنَيّات^(٦) عثمان ، فأبّت علىّ ، فسلكت بها

(١) البارح من الطير ماسر من ميامنك إلى مياسرك وهو يتشام به .

(٢) للجملة تنمة تفهم من المقام ، وأصلها حق موصل كتابي إليك عليك : أي إن حقّه عليك كحقه علىّ .

(٣) أي أجمله صادقاً .

(٤) راض نفسه على الأمر : حلها عليه .

(٥) أردتها : حلّها .

(٦) سُنَيّات عثمان : سنواته الشديدة والتصغير للتعظيم . قالوا وقع في السُنَيّات البيض وهي سنوات

اشتدّدن على أهل المدينة ، وقيل أيضاً أصابتنا سنة حزاء : أي جذب .

طريقاً إلى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . وإن لم تجدوني أقوم بحكمكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاء أثرى^(١) وإن قل أغنى^(٢) . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .



كان آخر خطبة خطبها معاوية أن صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته وقال : أيها الناس أنا من زرع قد استحصد وقد طالت عليكم إمارتي حتى مللتكم ومالتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى . وإنه لا يأتاكم بعدى إلا من هو شر مني كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني . وإنه من أحب لقاء الله أحب لقاءه . اللهم إني قد أحبت لقاءك فأحب لقاءى . ثم نزل فما صعد المنبر بعدها حتى مات .



لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير دخل الكوفة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس : إن الحرب صعبة مرة ، وإن السيل آمن ومسرّة^(٣) ، وقد زبنتنا^(٤) الحرب وزبناها فعرفناها وألفناها . فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس : فاستقيموا^(٥) على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المرذية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين .

(١) أثرى : كثر المال وجعل الناس أغنياء .

(٢) أى أغنى عن المسألة .

(٣) رواية صبح الأعشى من مبرة .

(٤) دفعنا .

(٥) فى الكلام حذف والتقدير إذا عرقم حالنا فاستقيموا .

ولا تُكَلِّفُونَا أَعْمَالِ الْمَاهِجِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَأَتَمُّ لَا تَعْمَلُونَ أَعْمَالَهُمْ . وَلَا أَظُنُّكُمْ تَزَادُونَ بَعْدَ الْمَوْعِظَةِ إِلَّا شَرًّا ، وَإِنْ نَزَدَادَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ ^(١) إِلَيْكُمْ وَالْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ إِلَّا عَقُوبَةً ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَعُودَ لِمِثْلِهَا فَلْيَعُدْ ، فَإِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمَا قَالَ قَيْسُ بْنُ رِفَاعَةَ :

| | |
|--|---|
| مَنْ يَصِلُ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تَرَةٍ | يَصِلُ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَارٍ ^(٢) |
| أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مَنَىٰ بِجَاهِرَةٍ | كَيْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنْذَارٍ ^(٣) |
| فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرَفُوا | أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرَ الْعَارِ |
| لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَّنَةً | لَهُوَ الْمُقِيمُ وَلَهُوَ الْمُدْحِجُ السَّارِي ^(٤) |
| مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَجًا يَطْلُبُهَا | عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِإِصْحَارٍ ^(٥) |
| أُقِيمُ عَوَجَتَهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ | كَمَا يُقَوِّمُ قِدْحَ النَّبْعَةِ الْبَارِي |
| وَصَاحِبُ الْوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرُ مُدْرِكُهُ | عِنْدِي وَإِنِّي لَدِرَّاكٌ بِأَوْتَارِ |



ويروى أنه لما أتى عبد الله بن الزبير خبر قتل مصعب بن الزبير خطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنه أئانا خبر قتل المصعب فسررنا به واكتأبنا له . فأما السرور فلما قدر له من الشهادة وحيز له من الثواب . وأما الكآبة : فلوعة يجدها الحليم عند فراق حميمه ، وإنا والله ما نموت حَبَجًا ^(٦) كمينته آل العاص ، وإنما نموت والله قتلا بالرماح ، وقصصا ^(٧) تحت ظلال السيوف ، فإن يهلك المصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه .

(١) الإِعْذَار : تقديم ما يعذر معه المرء لو عاقب وآخذ وذلك بالنصح والارشاد .

(٢) تَرَة : ثَأر . يصل ناري : يتعرض لي .

(٣) عَلَى نَهْيٍ : أَيْ تَرَكَ نَهْيِي .

(٤) مُلَعَّنَةً : بَلَعْنَهَا كُلَّ إِنْسَانٍ . الدَّجِجُ وَالِدَجَّةُ وَالْإِدْلَاجُ : السِّرُّ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ . وَالْإِدْلَاجُ : السِّرُّ

مِنْ آخِرِهِ . وَالسَّرِيُّ : الْمَقِي لَيْلًا عَامَةً .

(٥) الْإِصْحَارُ : الْخُرُوجُ إِلَى الصَّحَرَاءِ . يُقَالُ أَنَا رَهْنٌ بِكَذَا أَيْ مَرْهُونٌ لَهُ : أَيْ ثَابِتٌ عَلَيْهِ

(٦) الْحَبِجُ : انْتِفَاحُ الْبَطْنِ .

(٧) قِصْعُهُ : ضَرْبُهُ .



خطب عمر بن عبد العزيز يوما ، فكان من خطبته قوله :
ما الجزع مما لا بدّ منه ، وما الطمع فيما لا يرجى ، وما الحيلة مما سيزول ؟ . وإنما
الشيء من أصله ، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ، وإنما
الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب المصائب مع كل جرعة
شرّ ، وفي كل أكلة غصص . لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعمر مُعمرٌ يوما من
عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأتم أعوان الختوف على أنفسهم . فأين المهرب مما هو
كائن ، وإنما نتقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً ،
وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

خطبة زياد^(١) البتراء

قدم زياد البصرة واليا لمعاوية على العراق وخراسان وسجستان ، والفسق بالبصرة
ظاهر فاش ، فخطب أهلها خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وهي :
أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء^(٢) ، والضلالة العمياء^(٣) ، والغنى المؤفّ بأهله على

(١) ولد زياد للسنة الأولى من الهجرة . وكان منذ صغره ذكيا سديد الرأي استلحقه معاوية بعد
قتل على لجمه أخاه . وتوفي سنة ٥٣ هـ .

وقيل في نسبه : إن الحارث بن كلدة طبيب العرب كانت له أمة تسمى سمية وعبد يسمى
عبيدا وكان روميا فزوج العبد من الأمة فولدت له زيادا . وقد استكتبه أبو موسى الأشعري
والى البصرة من قبل عمر ثم ظهر نبوغه . واعترف أبو سفيان بأنه ابنه حملت به أمه وأبوسفيان
مشرك ورأى على فيه إباء ولسانا . ثم استلحقه معاوية بعد موت على .
(٢) الجهلاء : النديدة .

(٣) العمياء : التى يعصى فيها الناس ونسبة العمى لاليها مجاز عقلي .

النار ما فيه سُفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم : من الأمور العظام يَنْبُتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأَنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أَعَدَّه من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول ، أَفتكونون كمن طرفت^(١) عينه الدنيا ، وسدَّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أَنكم أَحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ، ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير^(٢) المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دَلج^(٣) الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة وابعدتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ، وتُعْضُونَ على المختلس . كل أمرئ منكم يذب عن سفیهه صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أتم بالعلماء ، ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرَقوا وراءكم كُنُوساً^(٤) في مكائس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا : لا يصلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمُدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : أنج سعدٌ فقد هلك سعيد^(٥) ، أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة المنبر بقاء^(٦) مشهورة ، فإذا تعالقم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، وإذا

(١) طرفته عن الشيء : صرفه عنه وامرأة مطروفة بالرجال منصرفة عن زوجها لإيهم . وطرفت عينه الدنيا صرفته إليها وإلى زخرفها . وقيل المعنى جمعته لا يبصر شيئاً أي لا يعنى بغيرها .

(٢) المواخير : جمع ماخور وهو بيت الرية .

(٣) دَلج الليل : السير في أوله . والراد مطاق السير فيه ، والكلام كناية عن التلصص .

(٤) كنوس : جمع كناس وهو الظي يدخل كناسه . المكائس : جمع مكائس وهو الكنائس

(٥) مثل يضرب في تنازع الأمر . وأصل المثل أن ضبة بن طابخة كان له ابنان سعد وسعيد ففترت له إبل فخرجا في بغائها فوجدتها سعد فردها أما سعيد فانه ظفر به الحارث بن كعب فقتله وكان ضبة إذا رأى سوادا بالليل قال أسعد أم سعيد .

(٦) البلق : سواد وبياض وارتفاع التججيل إلى الفخذين ، والمراد واضحة مشهورة .

سمعتموها منى فاغتمزوها فى" ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نقب منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب منه ، فأى يأتى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم فإياى ودعوى الجاهلية^(١) فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً . فكفوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكف عنكم يدي ولسانى ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحن^(٢) ، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محسناً فليزدد فى إحسانه ، ومن كان مسيئاً فلينزح عن إساءته . إنى لو علمت أن أحداً قد قتلته السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ حتى يبدى لى صفحته^(٣) . فإن فعل ذلك لم أناظره^(٤) . فاستأنقوا أمركم ، وأعينوا على أنفسكم^(٥) ، فرب مبتئس بقدمونا سيسر ، ومسرور بقدمونا سيبتئس . أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناحتكم لنا . واعلموا أننى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ، ولا رزقا عن إبانة ، ولا مجمرأ لكم بعثاً فادعوا الله بالصالح لأتمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذى إليه تأوون ومتى يصاحوا تصاحوا ، ولا تشرىوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تذكروا

(١) دعوى الجاهلية هى الدعوة إلى المصيبة والتفاخر بها وقولهم يا فلان .

(٢) لحن : جمع لحنة وهى الحقد .

(٣) صفحة المي : جانبه .

(٤) أناظره : أتمهل عليه .

(٥) أى ساعدونا على قيادة أنفسكم وإخضاعها بقهركم لها وإحكام أمرها .

حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم أمراً فأنفذوه على أذلاله^(١) ، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى .

فقام إليه عبد الله بن الأهم ، فقال : أشهد أيها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال : كذبت ذلك نبي الله داود صلوات الله عليه . ثم قام الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لله شئى حتى نبنتلي ، فقال زياد : صدقت . ثم قام أبو بلال مرْداس بن أمية ، وهو يمس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله : وإبراهيم الذى وفى ألا تزرُ وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمُدبر . فسمعها زياد ، ثم قال : (إنا لا نباغ فيك وفى أصحابك ما نريد حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً) .

خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي مكة ، (وهو أحد نساك الإباضية^(٢) وخطبائهم) ، فصعد المنبر وتوكل على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال .
أيها الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه . أنزل الله له كتابا بين له فيه ما يأتى وما ينفي ، فلم يكن فى شك من دينه ولا شبهة فى أمره ، ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمين معالم دينهم ، وولى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولّاه رسول الله أمر دينهم . فقاتل أهل الردة وعمل بالكتاب والسنة ، فمضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ، ثم ولى عمر بن الخطاب

(١) أذلال : جمع ذل بالكسر أو جمع لامفرد له . والمعنى على أصله ومجراه .

(٢) نسبة إلى عبد الله بن إباض من زعماء الخوارج .

رضى الله عنه ، فسار سيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنة ، وجبى النّىء ، وفرض الأعطية ، وجمع الناس فى شهر رمضان ، وجلد فى الحجر ثمانين ، وغزا العدو فى بلادهم ومضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى عثمان بن عفان فسار ست سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما ، ثم سار فى الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى على بن أبى طالب فلم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منارا ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ، ثم ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله وابن لعينه اتخذ عباد الله حولا^(١) ، ومال الله دولا^(٢) ودينه دغلا^(٣) . ثم مضى لسبيله فالعنوه لعنه الله . ثم ولى يزيد بن معاوية : يزيد الحنور ، يزيد القروذ ، ويزيد الفهود . الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه . (ثم اقتصم خليفة خليفة ، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره) ثم قال : ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه الذى لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله فى أموال الينامى : « فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » ، فأمر أمة محمد أعظم . يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومّت بألف دينار قد ضربت فيها الأبشار^(٤) ، وهتكت الأستار ، وأخذت من غير حلها . حباة عن يمينه ، وسلامة^(٥) عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه ، ثم التفت إلى إحداها ، فقال : ألا أطير ؟ نعم فطير إلى اعنة الله ، وحريق ناره ، وأليم عذابه . أما بنو أمية ففرقة ضلالة وبطشهم بطش جبرية^(٦) يأخذون بالظنة ، ويقضون

(١) الحول : العبد والاماء وغيرهم من الحاشية لا واحد له يقال للعرد والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل الواحد خائل .

(٢) الدولة : العقبة فى المال (تبادلة) والمراد باتخاذ دولاً أن يعطى هذا مرة وهذا مرة .

(٣) الدغل : ما يدخل فى الأمر فيفسده ، والمراد أنهم اتخذوا دين الله وسيلة للاسعاد والظلم بدل أن يكون وسيلة للاصلاح والعدل .

(٤) الأبشار : جمع بشر وهو جمع بشرة وهى ظاهر جلد الانسان أو غيره .

(٥) حباة وسلامة : مغتبان سنذكرهما فى باب الفناء فى آخر الكتاب .

(٦) الجبرية خلاف الفدرية ، وقيل التسكين لحن أو هو الصواب والتعريك للازدواج .

بالهوى ، و يقتلون على الغضب ، و يحكمون بالشفاعة ، و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها في غير أهلها ، و قد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » ، فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها . تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله .

وأما هذه الشيع فشيعة فظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين ، ولا بعلم نافذ في القرآن ، ينقمون المصيبة على أهلها ويعملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون الخرج منها . جفاة عن القرآن ، أتباع كهان ، يؤملون الدول في بعث الموتى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا . قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم - قاتلهم الله أتى يؤفكون - . ثم أقبل على أهل الحجاز ، فقال : يا أهل الحجاز ، أتعبدونني بأصحابي ، وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا ؟ أما والله إنى لعالم بتناجكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا أشستغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكنهون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدكم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلامهم بكلامهم كلال الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت^(١) والرماح قد أشرعت^(٢) ، والسيوف قد انتضيت^(٣) ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . ومضى الشباب منهم

(١) فوقت : ركبت في الأقواس للرمى .

(٢) أشرعت الرماح : سددت وصوبت .

(٣) انتضيت : سلت وأخرجت من أعماقها .

قُدُّمًا^(١) حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخصَّبتُ بالدماء محاسن وجهه ،
فأسرعتُ إليه سباعُ الأرض ، وانحطت إليه طائرُ السماء ، فكم من عين في مناقير طير
طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها
طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . ثم قال : (أَوْهَ أَوْهَ أَوْهَ) ،
ثم بكى ونزل .

نماذج من كتابة هذا العصر

كتب الحجاج إلى عبد الملك في شأن عروة بن الزبير ، وكان عروة عاملاً على
الين ، ولجأ إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنَّ لَوَذَانَ المعترضين بك وحلول الجانحين إلى
الكث بساحتك ، واستلاتهم دَمَثَ أخلاقك ، وسعة عفوك كالعارض^(٢) المبرق
لأعدائه ، لا يعدم له شأماً^(٣) ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أذني الناس بالصفح عن
الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كلِّ ضالٍّ ، والناس عبيد العصا هُمُ
على الشدَّة أشدَّ استباقاً منهم على اللين . ولنا قِبَلِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ مالٌ من مال الله ،
وفي استخراجِه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .
فكتب إليه عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنَّ أمير المؤمنين رَأَاكَ مع ثقته بنصيحتك خابطاً
في السياسة خبط عشواء الليل ، فإنَّ رأيك الذي يسوِّل لك أن الناس عبيد العصا هو
الذي أخرج رجالاً العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أُخْرِجَتْ^(٤) العامة بعنف

(١) القدم : المضي أمام أمام .

(٢) العارض : السحاب .

(٣) الشأم : الناظر إلى البرق أين اتجه .

(٤) أخرجت : ضيق عليها .

السياسة كان بأوشك^(١) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، ولقد وليت العراق قبلك ساسة وهم يومئذ أحى أنوفا^(٢) وأقرب من غمياء الجهالة ، وكانوا عليهم أصاح منهم عليك ، وللسدة واللين أهلون ، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة ، والسلام .
وكتب الحجاج إلى قطري بن الفجاءة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة .
سلام عليك ، الموحد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السلام . أما بعد ، فإنك مررت من الدين مروق السهم من الرمية قد علمت حين تجرمت^(٣) ذلك أنك عاص لله ، ولولا أمره ، غير أنك أعرابي جلف أمت تستطعم الكسرة وتشتنى بالثرة والأموال عليك حسرة ، خرجت لتناول شعبة^(٤) ، فاحق بك طغام صلو^(٥) ما صليت به من العيش يهزون الرماح ويستنشئون^(٦) الرياح على خوف وجه من أمورهم . وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جملوا معرفته . ثم أهلكهم الله بنزحتين^(٧) ، والسلام .
فأجابه قطري : من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف :

سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويهربون نعمة ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظلم^(٨) به من أهل السفالة وهدى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إلى تذكر أني أعرابي جلف أستطعم الكسرة وأشتنى

(١) أوشك : أسرع .

(٢) أقوى غضبا .

(٣) تجرمت الشيء : أخذ معظمه .

(٤) صلى الرجل النار : فاس حرها .

(٥) استنشأ الذئب الريح : شمها . والمراد باستنشأ الرياح تعرف ماتحملة من دلالة على الخصب والفيث وذلك لما هم فيه من جهد .

(٦) النزح : استخراج ماء البئر ، والمراد هنا استنفاد قوتهم بهجتين لا غير .

(٧) الطلع : العرج ، وأظلمه جعله يعرج . والمعنى أن أهل السفالة غير مستقيمين في أمورهم كما لا يستقيم الأعرج في مشيته .

بالترة ، ولعمري يابن أم^(١) الحجاج إنك لميت في جيلتك ، مُطْلَحِمٌ^(٢) في طريقتك ،
واه في وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع في خطيئتك ، يثست واستياست من ربك .
فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقتك . ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذى لو شاء أبرزلى
صَفْحَتَكَ ، وأوضح لى طَلْعَتِكَ . فوالذى نفسُ قَطَرِيَّ بيده لَعَرَفْتَ أن مقارعة الأبطال
ليست كتصدير المقال . مع أنى أرجو أن يُدْحِضَ^(٣) الله حججك ، وأن يُمْتَنِعَنِي مهجتك .

كتب عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك يشفع لكعب بن قيس :

بسم الله الرحمن الرحيم . لولم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريته
لوجب ألا تحرمه التَّفَقُّؤُ بظلال عفوك الذى تأملهُ القلوب ، ولا تَتَعَلَّقُ به الذنوب ،
وقد استشفع بى إليك ، فَوَثِّقْتُ له منك بعفو لا يَحْلِلُهُ سَخَطُ . فحققْ أمله فى وصدق
نفسى فيك تجدد الشكر وافياً بالنعمة .

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه :

أما بعد : فقد عاقبنى الشكُّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتنى
بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير جريرة ، فأطمعنى أولئك فى إخالك ،
وأياسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى غد وانتظاره
منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشكِّ
فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وكتب وهو فى السجن إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة يستعطفه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الأسير فى يديه بلا ذنب إليه ، ولا خلاف عليه .
أما بعد : فأتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية .
فإنك مستودع الدوائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك ، فالودائع

(١) نسبة الرجل إلى أمه كناية عن عدم معرفة أبيه : أى انه ابن زنية .

(٢) اطلحمت كاطرخمت : بمعنى كلَّ بصره . والمعنى أنه ضال لا يبصر الهدى والصواب .

(٣) يقال دحضت الحجة : أى بطلت ، وأدحضتها أى أبطلتها .

عارية ، والصنائع مرعية . وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها ، ولا بمبلوغ مداها .
 فنبه للتفكير قلبك ، واثق الله ربك ، وأعط من نفسك من هوتحتك ماتحب أن يعطيك
 من هوفوقك : من العدل والرافة ، والأمن من الخافة ، فقد أنعم الله عليك بأن فوض
 أمورنا إليك ، فاعرف لنا لين شكر النعمة ، واغفر لمسّ الشدة ، والرضاء بما رضيت ،
 والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سَمَك^(١) الحديد وثقله^(٢) أذى شديداً ، مع معالجة
 الأغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم^(٣) علينا
 الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم . زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الأياسة . فإليك بعد الله
 نرفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فتى مُمِلْ إلينا طرُفاً ، وتُولِنَا منك عَطفاً
 تجد عندنا نصيحاً صريحاً ، ووُدّاً صحيحاً لا يُضَيِّعُ مثلك مثله ، ولا يَنْفِي مثلك أهله .
 فارع حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فَلَجَتْ بحجته ، فإن الناس من
 حوضك رِواء^(٤) ونحن منه ظمَاء . يمشون في الأبراد^(٥) ونحن نَحْجِلُ^(٦) في الأقياد
 بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة . والله المستعان وعليه التُّكْلَان . صريح الأخبار ،
 مَنْجَى الأبرار ، الناسُ من دولتنا في رِخاء ونحن منها في بَلَاء . حين أمن الخائفون ،
 وَرَجَعَ الهاربون رزقنا الله منك التَّحَنُّن ، وظاهرَ علينا من التَّهَنُّن ، فإنك أمينٌ
 مستودِعٌ ، ورائدٌ مُصْطَنِعٌ ، والسلام ورحمة الله .

(١) السمك : الغلظ والخنانة .

(٢) الثقل (كعب) : ضد الخفة ، أما الثقل (كحمل) فهو هو في المعنى .

(٣) أى ما يوردونه علينا ويأتوننا به هو النعم .

(٤) رواء : جمع ريان وكذلك ظمَاء .

(٥) الأبراد : جمع برد ، وهو الحلة .

(٦) الحجل والحجلان : المعنى التقارب الخطأ .

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري لما ولى الخلافة . أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن ، رحمه الله ورضى عنهما :

أعلم يا أمير المؤمنين أن الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفرع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرقيق ، الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويدودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .
الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده^(١) يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً^(٢) ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسمه ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكاينه . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبدٍ ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف بها إذا أتاها من يلبسها ، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم . واذكر يا أمير المؤمنين

(١) الولد بالتحريك وبالضم والكسر : واحد وجمع وقد يجمع على أولاد . والكتاب هنا

قد استعمله جميعاً .

(٢) الكره بالضم : الكراهة . وبالفتح المشقة وهو المراد هنا .

الموت وما بعده وِقْلَة أَشْيَاكَ^(١) عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثوابك ، ويُفارقك أحبابك ، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يَفِرُّ المرة من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه . واذكري يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتائب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهلٍ قبل حلول الأجل ، واقطع الأمل لا تحكّم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تُسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في الله إلَّا ولا ذِمَّةً ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يفرّئك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك لا تنظرُ إلى قدرتك اليوم ، ولكن أنظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسورٌ في حبال الموت وموقوف بين يدي الله في جمع من الملائكة والنبئين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم . إني يا أمير المؤمنين إن لم أبلغ بمظتي ما بلغه أولو النهى من قبلى ، لم ألك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابي إليك كدأوى حبيبهِ يَسْقِيهِ الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الاجوبة والمحاورات

لقد عرفت الأمة العربية منذ جاهليتها بفضل بيانها وحدة أذهانها ، فكان الكلام أكبر عملهم . به عرف فصحاؤهم ، وتقدّمت إلى الملوك وفودهم ، وسعى سفراؤهم ،

(١) الأشياء : جمع شعبة ، وشعبة الرجل أنصاره يقال للواحد والجمع .

وتحدّثت أنديتهم . وكان أكثر هذا القول بديهية وارتجالاً لمكان الملكة فيهم ، وغلبة الطبع عليهم ، ولفطرتهم التي جعلتهم يتناولون أمورهم من قريب لا يتكفون ولا يتعمقون ، فإذا وصف أحدهم فإنما يصف من الشيء ظاهره ، وإذا حدّث فإنما يصرّ مشاعره . وإذا عجبنا من محاوراتهم وأجوبتهم في جاهليتهم ، وراعنا منها حسن القصد ، وتمام الإيجاز ، وإصابة المجرّز وتطبيق المفصل ، فقد كانت في عصر بني أمية أدعى إلى العجب إذ بان فيها أثر الحصافة ودقة الفكر ، للعلم والحكمة اللذين أفادوهما من الإسلام . وقد طرأ على العرب ما أشمل بينهم جذوة الحوار ، وشحذ أذهانهم للجدال ، فإن الكلام في الخلافة ، وحدث الفتن منذ قتل عثمان ، إلى قيام الخوارج ، إلى انشعاب الرأي بين متشيعين لعلّ ، ومماليئين لمعاوية ، إلى ما كان من نقاش في الأدب ، وتقضيل لشاعر على شاعر ، كلّ أولئك جعل للمحاورات والأجوبة في عهد الدولة الأموية شأنًا غير شأنها قبل ذلك لعظم ما تعلق به ، وأهمّه النزاع على الملك ، أو الخلاف في الدين .

وإن أول خلاف حدث في الإسلام واستوجب الحوار هو الخلاف بين الأنصار والمهاجرين في أيّهم أحقّ بالخلافة : هل هم القرشيون قرابة النبي وقومه ، أم أنصاره الذين آزره وأذاعوا دينه ؟

ثم كان خلاف آخر يوم قتل عثمان ، يقول بنو أمية بوجوب القصاص أولاً من قتلة عثمان ، ثم ينظر الناس في اختيار خليفة لهم ، ويرى علىّ ومن تابعه أنه لا يقيم الحدّ على القتلة إلا خليفة يتولّى جميع شئون المسلمين ، ومنها إقامة هذا الحدّ ، فخلافة علىّ التي بايع عليها الناس ماضية يجب على جميع المسلمين الدخول فيها ، وإلا عدّوا خارجين على الجماعة .

ثم كان خلاف ثالث يوم التحكيم بين علىّ ومعاوية وظهور الخوارج الذين يخطئون عليّاً في قبوله ، وهم الذين دعوه أولاً إليه ، وقد قالوا بتكفير علىّ ، وطالبوه بالإقرار على نفسه بالكفر حتى يعودوا إلى حظيرته ، وقد ناقشهم علىّ ، وأرسل إليهم ابن عباس

يحاورهم في آرائهم ، ولكنهم كانوا معاندين ظهر لهم الحق ، ولم ينزلوا على حكمه ، وقد كثرت فرقهم على خلاف بينهما في المعتقد : فمنهم من يكفر مرتكب الكبيرة ، ويقول إن العمل جزء من الإيمان ، ومنهم من كفر جميع المسلمين ، وحرّم أكل ذبائحهم ومصاهرتهم .

كان أول خروج الخوارج إلى حروراء (قرية بقرب الكوفة) ، وهناك أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وقد حاربهم على في وقعة النهروان ، وقتل منهم كثيراً ولكنه لم ييدهم . ثم انقسموا قسمين : قسما بالعراق ، وأهم مراكزه « البطائح » ومن هؤلاء نافع بن الأزرق وقطرى ، وهم الذين حاربهم المهلب . وفرعا بجزيرة العرب وهؤلاء قد استولوا على اليمامة ، وحضرموت ، والطائف . ومن رؤسائهم : أبو طالوت ونجدة بن عامر ، وأبو فديك .

ومما تناوله الخوارج بالبحث صحة خلافة الخلفاء ، فأقروا خلافة أبي بكر وعمر ، وست سنوات من خلافة عثمان ، وخلافة على قبل التحكيم . ثم تناولوا شروط الخلافة فقالوا : يجب أن يكون انتخاب الخليفة باختيار حرّ ، وليس من الضروري أن يكون قرشياً . على أن منهم من قال بعدم الحاجة إلى إمام . ثم تناولوا بحوثاً دينية ، فجعلوا العمل جزءاً من الإيمان ، فمن اعتقد بوحدانية الله ، ونبوة محمد ثم لم يعمل فهو كافر .

وأشهر فرقهم : الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد كفروا جميع المسلمين ما عداهم ، وأحلوا دماءهم وقالوا : بجمرة التقية ، ووجوب الجهاد ، وتكفير القتل (وهم الذين يدينون برأى الخوارج ، ولا يرون القتال في سبيل ذلك) ما داموا قادرين على القتال . ومنهم النجدات أتباع نجدة بن عامر ، ومن رأيهم أن الكذب أعظم من الزنا وشرب الخمر . ومنهم الصفورية أتباع زياد بن الأصفر . ومنهم : الإباضية وهم أتباع عبد الله بن إباض ، ولا يزال بعض من هؤلاء بالمغرب إلى اليوم ، وهؤلاء لم يغالوا في الحكم على مخالفهم كالأزارقة بل قالوا بحلّ النزاج ، والتوارث بينهم وبين بقية المسلمين .

كذلك كان من الفرق الإسلامية فرق الشيعة التي كانت ترى آل البيت أولى بالخلافة من غيرهم لرحمهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء من غلا في تفضيل علي حتى ادعى له الألوهية .

بدأت فكرة التشيع بالقول بأن قرابة النبي أولى بميراثه الديني ، وهو ولاية أمر المسلمين ، فكان العباس وعلى أولى بالخلافة . ثم اتسع قولهم في الإمامة فقالوا إنها ركن الدين ، ولا يجوز للنبي إغفالها ، وإن محمداً عليه الصلاة والسلام أوصى لعلي ، ولذلك عرف علي عندهم بالوصي ، ثم تبع القول بذلك القول بعصمة الإمام ، ولم يكتفوا بذلك ، بل لقد ألهه بعضهم وقالوا عن علي : إنه حل فيه جزء إلهي اتحد بجسده ، وبه كان يعلم الغيب ، وقد نسبوا إليه أنه أخبر بخلافة العباسيين ، وبمقتل الحسين ، وولاية الحجاج ، ومصير الخوارج ، بل اعتقد بعضهم أنه كتب على مسك جفر (جلد جلدی) أخبار ما يكون إلى يوم القيامة ، وأن هذا الكتاب هو الذي ظفر به ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب . كما تبع ذلك أيضاً أن قالوا بالرجعة ، وقائل ذلك هو عبد الله بن سبأ فإنه قال لما قتل علي لو جئتموني بدماعه ألف مرة ماصدقت موته . وهذا القول مقتبس من قول اليهود في النبي إلياس ، ومن قول النصارى في عيسى . وعلى أساس هذه النظرية قامت أكبر فرق التشيع ، وهي « الإمامية » ، وهي على العموم تقول بعودة الإمام المنتظر .

كذلك كان من فرق المسلمين المرجئة والمعتزلة والجماعة أهل السنة . أما المرجئة فقد نشأت بعد الخوارج والشيعة ، ونواة هذه الفرقة هم الغزاة الذين عادوا إلى المدينة بعد قتل عثمان ، فوجدوا الناس قد قسموا أحزاباً ، واستمر الخلاف بينهم ، فأتى هؤلاء ناحية ، ورأوا رأياً فيه مسالة للجميع ، فهم لا يخطئون خارجياً ولا شيعياً ، ولا أمويًا ، ويرجئون أمرهم إلى الله يوم القيامة . وقيل إن اشتقاقها من الرجاء لأنهم يرجون لكل مسلم غفران الله . وقد بحث المرجئة بعض أمور في الدين ، فقالوا : إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب ، وإن أعلن المرء الكفر بلسانه .

وأما المعتزلة فقد كان من أوائلهم جَعْدُ الجُهَنِيِّ ، وَغَيْلانُ الدمشقي الذي صلبه هشام ابن عبد الملك ، ويروى : أَنَّ غيلان هذا رأى يوماً ربعةً الرأي ، فقال له : أنت الذي تقول : إن الله يحب أن يعصى ؟ فقال له ربعة : وأنت الذي تقول : إن الله يعصى قسراً ؟ وأهم ما يراه المعتزلة القول بنفى القدر ، وبنفى صفات الله لأنها تدعو إلى التشبيه . بالخلق ، ونفى الرؤية في الآخرة ، وقد جرى الخلاف في مسألة مرتكب الكبيرة ، فقال الخوارج : إنه كافر ، وقال أهل السنة إنه مؤمن عاص ، وقال المعتزلة : إنه في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر ، وعلى أثر هذه المسألة رأس المعتزلة واصل ابن عطاء لأنه اعتزل بأصحابه مجلس الحسن البصري .

وقد فشا الجدل بين هذه الفرق فشواً ظاهراً ، فقد حكى أن الخوارج في حرب المهلب كانوا يضعون السيف من حين إلى حين ، ويجادلون خصومهم ، ويدعون إلى مذهبهم ، ويحكي صاحب الأغاني : أن ثابتَ قُطْنَةَ لم يقل بالارجاء إلا بعد أن سمع جدال الخوارج مع المرجئة في خراسان . ويحكي أن شيعياً ومرجئاً اختصما إلى أول طالع عليهما فطلع الدلال (الخنث) ، فقالا له : أيهما خير : الشيعي أم المرجئي ؟ فقال ما أدري إلا أن أعلاى شيعي وأسفل مرجئي . وقد وصل هذا إلى الشعراء ، فكان ذو الرمة قدرياً سنياً ، وكان رؤبة جبرياً (يقول بنفى استطاعة المرء ، وأنه كالريشة في مهب الريح) ، وأنهما اختصما ، فقال رؤبة : والله ما فخص طائرُ أفرصاصاً ، ولا تفرمص سبع قرموصاً إلا بقضاء الله وقدره ، فقال ذو الرمة : ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عياييل ضرائك .

ويقول الراجز :

أيها المضمهرهما لا تُهَمَّ إنك إن تُقدَّرَ لك الحمى تُحَمَّ
ولو علوت شاهقاً من العلم كيف توقيك وقد جفَّ القلم



كذلك كان في هذا العصر حوار في الشعر والأدب ، فإن العناية بهما جعلت لهما المجالس التي يشتد فيها الخلاف حتى بلغ من احتدام الجدل والتعصب لشاعر على

شاعر إن كان للشعر فرق ، كما كان للدين فرق ، فكان أنصار الفرزدق يسمون الفرزدقيين ، وأنصار جرير يسمون الجريريين .

ولقد رويت عن شعراء بنى أمية من بدائع البدائه في الشعر مثل ما روى لغيرهم في النثر ، وقد كان الخلفاء يثيرون في كثير من الأحيان هذه المحاورات ، فيأتى الشعراء بالعجب العجائب .

وإننا لنأقولون إليك من كل ما مضى أمثلة لتقف على جملتها ، وترك التفاصيل إلى ما تفرق في كتب الأدب تعثر عليه في مطالعتك .

أمثلة من المحاورات والأجوبة

١ — يقول الطبرى : خرج القوم مع عليّ إلى صفين ، وهم متوادون فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا معسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم^(١) ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشائمون ، ويضطربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء الله ،

(١) لما رأى معاوية رجحان كفة عليّ بصفين استشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يرفع المصاحف على الرماح فلما رآها أصحاب عليّ قالوا ما هذا ؟ فقال أصحاب معاوية نحكم بيننا وبينكم كتاب الله فأدرك عليّ مرمى الحديعة في هذا ولكن أصحابه لم يسمعوا لقوله وقالوا لا يطلب منا تحكيم كتاب الله ثم نرفض ذلك فقبل عليّ التحكيم واختير من رجال عليّ أبو موسى الأشعري ، ومن رجال معاوية عمرو بن العاص . واتفق الحكماء على خلع الخليفين وترك الأمر للأمة فتقدم أبو موسى وقال أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها وألم لشئها من أمر قد أجمع عليه رأي ورأي عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا وإلى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمرهم . ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه ثم قال قد سمعتم ما قال هذا وإنه قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأقر صاحبي معاوية فإنه وليّ عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . وكان عقد التحكيم قد أمضى في ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ وأجل الحكماء إلى رمضان .

أدهتم في أمر الله وحكمتم ، ويقول الآخرون : فارقم إمامنا ومرزقم جماعتنا . فلما دخل على الكوفة لم يدخلها معه الخوارج وأتوا حروراء ، فبعث إليهم على عبد الله بن عباس ، فقال ما تقيم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم . فقالوا له : أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأمّا ما حكم فأمضاه ، فليس للعباد أن ينظروا فيه ، فإنه حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ » ، فقالوا له : أو نجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ، ثم قالوا : إن هذه الآية بيننا أعدل . عندك ابن العاصي بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ، فإن كان عدلا فلسنا بمدول ، وقد أمضى الله الحكم في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، ثم كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم وبينهم المودعة والاستفاضة ، وقد قطع الله الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت « براءة » إلا من أقر بالجزية . ثم حضر على المجلس ، فسألهم ما أخرجكم علينا ، فقالوا : حكومتكم يوم صفين ، فقال : أنشدكم الله ، ألسنت نهيتكم عن قبول التحكيم ، فردتم على رأيي ، ولما أيتيم إلا ذلك ، اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أيا فنحن من حكمهما برآء . قالوا له : خبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ قال : إننا لسنا حكمنا الرجال وإنما حكمنا القرآن قالوا : خبرنا عن الأجل ولم جعلته بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، وانتهى الأمر بأن طلبوا من على الحكم على نفسه بالكفر وأن يتوب ، فيعودوا إليه فلم يقبل على . . انتهى حديث التحكيم .

٢ — قال معاوية لابن الزبير تنازعني هذا الأمر كأنك أحقّ به مني . قال : لم لا أكون أحقّ به منك يا معاوية ، وقد اتبع أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر ، فقال : غلطت يابن الزبير بعث الله ابن عمي نبياً فدعا أباك فأجابته ، فما أنت إلا تابع لى ضالاً كنت أم مهدياً .

٣ — جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، ومعه خالد وأمّية ابنا عبد الله بن الوليد وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من عند الحجاج ، فقال : هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة لا ما فعل هذا ، وأشار إلى خالد . استعملته على العراق ، فاستعمل كل ملط^(١) فاسق فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدّى إلينا من العشرة واحداً . واستعملت هذا على فارس ، (وأشار إلى أمّية) ، فأهدى إلى برذونين حطمين^(٢) . فإن استعملتكم ضيعتم ، وإن عزلتكم قلتم استخفّ بنا وقطع أرحامنا ، فقال خالد : استعملتني على العراق وأهله رجلاً سماع مطيع مناصح ، وعدوّ مبغض كاشح ، فأما السماع المطيع المناصح ، فإننا جزيناه ليزداد ودّاً إلى ودّه . وأما المبغض الكاشح فإننا واريناه ضغنه وسللنا حقده ، وكثرنا لك المودّة في صدور رعيتك . وإن هذا جبي الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء ، فلا أموال ولا رجال . فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : هذا والله ما قال خالد .

٤ — أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها القتل . قالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك ، فقال لها : ومن صاحبني ؟ قالت : فرعون استشارهم في موسى ، فقالوا : أرجى وأخاه .

٥ — تكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه ، إذ أخذ له البيعة وسكت الأحنف ، فقال له : مالك لا تقول يا أيها بجر ؟ قال . أخافك إن صدقت ، وأخاف الله إن كذبت .

(١) اللط : الخبيث لا يرفع إليه شيء إلا سرقه .

(٢) الحطم : المتكسر في نفسه (الضعيف) .

٦ — قال معاوية لعميل بن أبي طالب : إن علياً قطعك ووصلتك ، ولا يرضيني منك إلا أن تلغنه على المنبر . قال : أفعل ، فصعد المنبر ثم قال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً فالعنوه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت . قال : والله لازدت حرفاً ، ولا نقصت آخر ، والكلام على نية المتكلم .

٧ — قال معاوية لابن الطفيل : أنت من قتلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكني ممن حضره ولم ينصره . قال : فما منعك أن تنصره ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره ؟ قال : لقد كان حقه واجباً ، وكان عليهم أن ينصروه . قال : فما منعك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه ؟ قال : أو ما طلبي بدمه نصرته له ، فضحك ابن الطفيل وقال : مثلك ومثل عثمان ، كما قال الشاعر :

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدَتْنِي زَادِي

٨ — قال مسleme بن عبد الملك يوما لنصيب : أمدحت فلانا ؟ قال : نعم . قال : أو حرمك ؟ قال : فعل . قال : فهلا هجوته ؟ قال : لم أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأنني كنت أحق بالهجاء منه ، إذ رأيته موضعاً لمدحى ، فأعجب به مسleme ، وقال : سلى . قال : لا أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالعطية أجود من لساني بالمسألة ، فوهب له ألف دينار .

٩ — اجتمع الفرزدق وجريز عند عبد الملك ، فقال الفرزدق : التوار طالق ثلاثاً إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة^(١) أن ينقضه أبداً ولا يجد في الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ما هو ؟ قال :

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فأنظر كيف أنت مزاوله

(١) المراغة في الأصل الأنان لاتمنع الفحولة عن نفسها . وقد سمي الفرزدق أم جريز المراغة تشبيهاً لها بتلك الأنان : أى انها مراغة للرجال ، وقيل سميت المراغة لأنها ولدت في مراغة الابل وهى مكان تمرغها وهذا كناية عن الحسة وأنها من الإماء خدام الابل ورعاتها .

وَمَا أَحَدٌ يَا بَنَ الْأَتَّانِ يَوَائِلِ مِنْ الْمَوْتِ إِنْ الْمَوْتُ لَأَشَكَّ نَائِلُهُ
خَاطَرُ جَرِيرٍ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : أُمُّ حَزْرَةَ طَالِقٌ ثَلَاثًا إِنْ لَمْ أَكُنْ تَقْضَتْهُ وَزِدَتْ عَلَيْهِ ،
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَاتِ ، فَقَدْ وَاللَّهِ طَلَقَ أَحَدًا لَا مُحَالَةَ ، فَأَنْشَدَ :

أَنَا الْبَدْرُ يَفْتَحِي نُورَ عَيْنَيْكَ فَالْتَمِسْ بِكَفِّكَ يَا بَنَ الْقَيْنِ هَلْ أَنْتَ نَائِلُهُ
أَنَا الدَّهْرُ يَفْنَى الْمَوْتُ وَالْدَّهْرُ خَالِدٌ فَجَنِّ بِمَثَلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : فَضْلُكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا فِرَاسٍ وَطَلَّقَ عَلَيْكَ ، فَبَانَ التَّوَارُ مِنْ الْفِرْزْدَقِ ،
وَنَدِمَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ :

نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتُ مِنْ مِثْلِ مُطَلَّقَةٍ فَوَارٍ^(١)
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَادَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضَّرَارُ
١٠ - اجْتَمَعَ جَرِيرٌ وَالْفِرْزْدَقُ وَالْأَخْطَلُ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَحْضَرَيْنِ يَدِيهِ
كَيْسًا فِيهِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُمْ لِيَقُلْ كُلُّ مَنْكُمْ بَيْتًا فِي مَدْحِ نَفْسِهِ ، فَأَيْكُمُ غَلَبَ ،
فَلَهُ الْكَيْسُ ، فَبَدَأَ الْفِرْزْدَقُ ، فَقَالَ :

أَنَا الْقَطْرِانُ وَالشُّعْرَاءُ جَرَبِي وَفِي الْقَطْرِانِ لِلْجَرَبِيِّ شِفَاءُ
فَقَالَ الْأَخْطَلُ :

فَإِنْ تَكُ زِقٌ زَامِلَةٌ فَأَنْتِ أَنَا الطَّاعُونُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ^(٢)
فَقَالَ جَرِيرٌ :

أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي آتَى عَلَيْكُمْ فَلَيْسَ لِطَارِبٍ مِنْ نَجَاةٍ

(١) الكسعي أعرابي كانت له قوس فرمى بها ليلا ووطن أنها لم تصب فاغتناظ وحطها فلما أصبح وجدها قد أبليت أحسن بلاء فندم على تحطيمها وقال :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني لما لقطعت خمسي
تبين لي سفاهة الرأي مني لعمر أليك حين كسرت قوسي

(٢) الزق : السقاء من جلد الزمالة : الناقة أو غيرها : يحمل عليها .

فقال عبد الملك : فلمرى إن الموت يأتى على كل شىء .

١١ — دخل إياسُ الشام وهو غلام ، فتقدّم خصماً له ، وكان خصمه شيخاً ، إلى بعض قضاة عبد الملك ، فقال له القاضى : أنتقدم شيخاً كبيراً ؟ قال : الحقُّ أكبر منه . قال : اسكت . قال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال ما أراك تقول حقاً حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . أحقُّ هذا أم باطل ؟ فقام القاضى من فوره ودخل على عبد الملك فأخبره بالخبر ، فقال له : اقض حاجته وأخرجه من الشام لا يُفسد على أهلها .

١٢ — روى المبرّد قال : « يروى أنّ عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً ، فقال : يا أخى . لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال خالد : بئس والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين . فقال : إن خيلى مرّت به فعبت بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك . فدخل خالد على عبد الملك والوليد حاضر ، فقال يا أمير المؤمنين : الوليد بن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين مرّت به خيل ابن عمه فعبت بها وأصغره ، وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه فقال : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » ، فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ، فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل على ، فما أقام لسانه لحناً ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعول ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد ، فقال له الوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تعدّ فى العير ولا فى النّفير . فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين . ثم أقبل عليه وقال : ويحك فمن فى العير والنفير غيرى : جدّى أبوسفیان صاحب العير ، وجدى عُتبة بن ربيعة صاحب النّفير . ولكن لو قات غنيماتٌ وحبيلاتٌ ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت .

يشير بذلك إلى ما كان من إطراد رسول الله للحكم بن العاص جدّ عبد الملك

ابن مروان وُلجُوته إلى الطائف ، فكان يرعى غنيات ، ويأوى إلى حُبيلة ، وهي الكَرَمَة حتى وُلّى عثمان فردّه . ويقال : إنه كان استأذن رسول الله في ردّه إذا ولى أمر المسلمين . روى ذلك الفقهاء .

الشعر في العصر الأموي

عرفت مما قدمنا كيف كان شأن الآداب في العصر الأموي ومبلغ عناية الخلفاء بها ومقدار مساهمتهم فيها وتشجيعهم عليها ، حتى باتت الجوائز وقفا على البراعة فيها ، كما دارت مجالس سمرهم عليها ، ولما كان الشعر عروس الآداب عند العرب كان له في هذه الدولة أرفع مكانةٍ وأجلّ خطرٍ .

وترجع العناية الخاصة بالشعر إلى شدة تأثيره في الجماهير وذيوعه في الأندية ، فجعله خلفاء هذه الدولة وسيلة لإذاعة محامدهم ، وتأييد سلاطنتهم ، وتقخير شأنهم كما اتخذوه أداة للتفريق بين القبائل ، فأباحوا المهاجاة بل أوغزوا بها وحمو المعتدى فيها . وإن شيوع التغنى بالشعر في هذا العصر ضاعف من شأنه وقوى من تأثيره ، فزاد الحرص عليه ، والتماس الفائدة من ورائه .

وقد كان للعصبية التي أحياها رجال هذه الدولة أثر كبير في شيوع الشعر ، فإن القبيلة عادت تحتاج إلى شاعر يذود عنها ، ويذيع محامدها ، ويردّ على مناوئها كما كانوا يجعلون شاعرهم رسولهم إلى الخليفة ، فإن حلّ من قلبه ورضى عنه عدت القبيلة ذلك ستموا لمكاتبتها ووسيلة لدالتها . أما الخليفة فكان يعمد إلى شاعر القبيلة إن عناه أمرها فيُجْزِل عطاءه ليجمع قلوب القبيلة حوله ويجعلهم عوناً .

واستتبع التعصبُ لبني أمية من كلّ من ناله خيرهم وشمله برّهم أن يتعصب عليهم . من لم يصب مثل ذلك منهم ، أو كان له هوى مع مناوئتهم ، وهم كثيرون : من خوارج ، وشيعة ، ومهاجرين ، يرون لأنفسهم سبقاً إلى الإسلام يجعلهم أولى بالخلافة منهم .

وليس يخفى أن الشعر وهو مرآة الأمة ظهر فيه في هذا العصر ما بان في حياة الأمة من تهاون بأمر الدين : فشاع الغزل ووصفت الخمر ، وأخش في الهجاء .
هذا مجمل شأن الشعر في هذه الدولة ، وهو قول سنفصله فيما يلي عند تناول كل شأن من شئونه .

العناية بالشعر

كانت العناية بالشعر في هذا العصر متعددة المناحي . فعناية من الخلفاء بموضوعة ، وحرص على روايته ، وعقد مجالس لدراسته والتحكيم بين قائليه ، ثم عناية منهم أيضاً بقائليه وجود عليهم وترفيه لحالهم ، وقد سنّ الخلفاء في ذلك سنة عابها عليهم كل ورع تقى ، وتلك هي فرض أعطية للشعراء من بيت المال ، وهو وقف على المجاهدين في سبيل الله ، ومن ذكرهم الله في آية الفداء ، وليس منهم هؤلاء الشعراء . ولقد أجاب الخلفاء بهذا المال دواعي الأريحية عند ما كان يعجبهم من شاعر مبالغة في مدحهم أو هجاء لأحد أعدائهم ، وقد كان ذلك منهم جوداً دلّ على رغبة في إظهار عظمة الدولة وواسع غناها . ولقد استمرّ هذا البذل حتى ولّى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز فقجع الشعراء في آمالهم ، وقد وقفوا ببابه عند توليته حتى طال بهم الوقوف ، فكلمه في شأنهم عدى ابن أَرْطاة ، وكان أثيراً عنده ، فقال له : إن الشعراء ببابك ، وأقوالهم باقية ، وأسنتهم مسنونة . قال يا عدى : مالى وللشعراء ؟ قال يأمر المؤمنين إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم . ثم سأله عن باب من الشعراء ، فجعل كلما ذكر له شاعراً عدّ عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ولم يأذن إلا لجريز ، فلما مثل بين يديه ، قال له : اتق الله يا جريز ، ولا تقل إلا حقاً ، فأنشأ يقول :

كم باليامة من شُعناء أَرْمَلَةٍ ومن يتيمٍ ضعيفٍ الصَّوْتِ والبَصَرِ^(١)

(١) الأرملة : من فقدت زوجها مع الفقر خاصة أو ليس هذا شرطاً .

من يَعُدُّكَ تَكْفِي فَقَدْ وَالِدِهِ كالفرخ في العشِّ لم ينهض ولم يطر
 يدعوك دَعْوَةً مَلُوفٍ كَأَنَّ بِهِ خَبَلًا مِنَ الْجَنِّ أَوْ مَسًّا مِنَ الْبَشَرِ^(١)
 خَلِيفَةَ اللَّهِ مَاذَا تَأْمُرُنَّ بِنَا لَسْنَا إِلَيْكُمْ وَلَا فِي دَارٍ مَنْتَظَرِ^(٢)
 مَا زِلْتَ بِمَدِّكَ فِي هَمٍّ يُورِّقُنِي قَدْ طَالَ فِي الْحَيِّ إِصْعَادِي وَمُنْخَدَرِي
 مَا يَنْفَعُ الْحَاضِرُ الْمَجْهُودُ بَادِيَنَا وَلَا يَعُودُ لَنَا بَادٍ عَلَى حَضَرِ^(٣)
 إِنَّا كَنَزْجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنَا مِنَ الْخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ
 أَنَّى الْخِلَافَةُ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ
 هَذِي الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَهَا فَمِنْ لِحَاجَةِ هَذَا الْأَرْمَلِ الدَّكْرِ^(٤)
 فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ،
 ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية ، فقال : يا أمير المؤمنين إنها
 لأحب مال كسبته إليّ ، ثم خرج وهو يقول : خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى
 الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :
 رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْرِهَ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا
 لكن الحال بعد هذا الخليفة عاد إلى ما كان عليه . فاتصلت للشعراء أرزاقهم ، وجلس
 الخلفاء لسماع المديح ، وفتحوا بيت مال المسلمين لصلة الشعراء .
 وقد تبع عناية الخلفاء بالشعراء أن اعتنى به قائلوه ، فبالغوا في تجويده لينالوا على
 قدر ذلك منزلة ومالا وأقبلوا عليه يحاولونه ويتخرجون فيه لينالوا الغنى به . وكان منتهى
 أمل البدوى أو المتأدب أن ينبغ في الشعر حتى يَقْدَمَ به على أمير أو خليفة ، فيعود
 بالحقائب البُجُر من عطائه .
 وكان من الشعراء من شغلتهم فكرة غلبت على الرغبة في المال فلم يقولوا الشعر
 يلتمسون به عطاء وعابوا على المتورطين في هذا من الشعراء كما فعل عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ ،
 فقد وقف على الفرزدق ، وهو ينشد شعره ، فقال له :

(١) في رواية النسر والنفرة : التعوينة .

(٢) لَسْنَا إِلَيْكُمْ : أى واصلين . منتظر : انتظار . (٣) الحضر : ضد البادى .

(٤) لا يقال رجل أرملة وإنما هو وصف خاص بالمرأة إلا أن يشاء الشاعر أن يتظرف كما فعل جرير

أيها المادح العبادَ لِيُعْطَى إنَّ اللهَ ما بأيدي العباد
 فاسألِ اللهَ ما طلبت إليهم وَاَرْجُ فضلَ المقسَّمِ العواد
 لا تقل للجواد ما ليس فيه وتُسَمِّ البخيل باسم الجواد
 وعمرانُ هذا هو الذي آلى على نفسه ألا يكذب في شعره ، فقالت له امرأته يوماً :
 أما حلفت أنك لا تكذب في شعر ؟ قال : أو كان مني ذاك ؟ قالت : نعم . قلت :
 فكذلك مجزأة بن ثور ركان أشجع من أسامة
 أيكون رجل أشجع من أسد ؟ فقال لها : ما رأيت أسدا فتح مدينة قط ، ومجزأة
 ابن ثور قد فتح مدينة .

وقد لُزمت من ذلك عناية ثالثة ، وهى عناية جمهور الناس بالشعر وميز طيبه من
 خبيثه ، والحكم لمجيد على مقصر ، لما رأوا من اشتغال الخلفاء به ، وأنه صار وسيلة
 الغنى ومفتاح الثروة ، وفعلوا ذلك أيضاً لمكان العصبية فيهم فكل قبيلة تتعصب
 لشاعرها ، وكل حزب يغلب بشأن لسانه ، فكانوا يجتمعون فى الأسواق ، فيتفاخر أو
 يتهاجى الشعراء ، ويتمصب الأشياء حتى ينتهى بهم الأمر إلى التجاليد بالسيوف أحياناً
 كما كان يحصل بين شيعة سديف ، وشيعة شديب ، فيخرجون إلى ظاهر مكة للمفاضلة
 التى ربما انتهت بالاستياف . وبلغ أن أشياع الشاعر يُنسبون إليه ، فيقال : جريريون
 وفرزدقيون ، وسديفيثون ، وشبليبيون .

وبلغ من شأن الشعر أن امرأة خافت هجاء الفرزدق على نفسها حين تناول قومها
 بنى جعفر بن كلاب ، فعادت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ، وإنما قال :
 عجوز تصلى الخمس عادت بغالب فلا والذي عادت به لا أضرها
 ومن تأثيره أيضاً : أنه لما ولّى الحجاج تميم بن زيد السند دخل البصرة ، فجعل يخرج معه
 من أهلها من شاء ، فخرج معه ابن لعجوز ، فجاءت إلى الفرزدق وقالت : إني استجرت
 بقبر أبيك ، وأنت بمُصَيَّات منه ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : خرج تميم بن زيد
 بابن لى ، ولا قرّة لعينى ، ولا كاسب لى غيره . فقال لها : ما اسم ابنك ؟ قالت :
 خُنَيْس ، فكتب إلى تميم :

تيم بن بدر لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعييا على جوابها
وهب لي خُنَيْسًا واحتسب فيه مِنَّة لعبرة أم مايسوغ شرابها
أنتنى فمأذت ياتميم بغالب وبالحفرة السافى عليها ترابها
وقد علم الأقوام أنك ماجد وليث إذا ما الحرب شب أوأرأها
فلما ورد الكتاب على تيم اشتبه في الاسم أُخْنَيْسُ أم حُبَيْش ، فقال : انظروا من له
مثل هذا الاسم في عسكرنا ، فأصيب ستة مابين خنيس وحيش ، فأعيدوا إلى أهلهم .

أسلوب الشعر ومعانيه

لا نستطيع أن نحكم على أسلوب الشعر في هذا العصر حكما واحدا ينطبق عليه جملة ،
فإن عوامل كثيرة أثرت فيه فظهر لكل عامل أثره . فن تلك العوامل القرآن وحديث
رسول الله يدعو إلى إسجاح القول ، وترقيق حاشيته ، ويزهدان في عنجهية الجاهلية
ومكائرتها بالاغراب لأنهما حققا للناس أن البلاغة قد تتناهى في السمو ، وهى بعيدة
كل البعد عن تلك الوحشية والعنجهية ، فكان من شأن القرآن والحديث أن يكون
لأسلوبهما أنصار من شعراء هذا العصر .

كذلك كان من تلك العوامل ماجد في هذا العصر خاصة من غرام بالجاهلية ،
وإحياء لأدائها ودراسة لما روى عن شعرائها ، فكان ذلك جديرا أن يترك في النفوس
ميلا إلى نزعة الجاهليين في قولهم بعد أن صرفهم الإسلام عنها .

كذلك كان لمعيشة البادية شأن غير سكنى الحضر ، فالبدوى في الإسلام هو هو
في الجاهلية لم تختلف أمام عينيهِ مناظر الحياة ، ولاتبدل أسلوب المعيشة ، اللهم إلا ما نال
نفسه من تهذيب لدخوله الدين ، وتأدبه بمجمل آدابه ، وقراءته ما تيسر من قرآنه .
أما الحضري : فهو يعيش في رغد العيش ، ويرى مناظر الحياة وآثار المدنية ، ويدرس
الدين ، ويسمع الوعظ ، ويتلقى الحديث ، ويحفظ القرآن ، ويفهم معناه .

ويعتبر من مزايا العصر الأموى فى الشعر الإكثار من الأراجيز ، فإنها بعد أن كانت قليلة لا يقول منها الأعرابى فى العصر الجاهلى إلا المقطوعات القصيرة فى وصف ظبى أو ثور وحشى ، صاروا فى هذا العصر يطوّلونها ويستخدّمونها فى أغراض الشعر من مدح وفخر وهجاء ورثاء ، ونشأ من كبار الرّجّاز أبو النجم العجلىّ والعجاج وابنه رؤبة .

هذه هى العوامل التى نعزو إليها اختلاف الأسلوب فى شعر هذا العصر ، فترى شاعراً متوعراً لأنه انقطع إلى البادية لم يَرَم منها ، ولم يشهد للحضارة موقفاً يكون له فى نفسه أثره ، كما نرى آخر سهلاً يكاد يسيل عذوبة ورقة لما أثرت فيه الحضارة وأفاده التثقيف .

فيحسن فى الحكم على أسلوب الشعر فى هذا العصر أن نقول إجمالاً : إن فيه النزعتين نزعة الإسلام والجاهلية ، ثم نحكم على الشعراء أحكاماً مناسبة لكلّ شاعر على حسب ما هيأته بيئته التى أحاطت به ، فإنه ليس من الحكمة أن نجعل بين عمر ابن أبى ربيعة والفرزدق مثلاً فى قرْن ، ونطلق عليهما قولاً واحداً ، وهما من التباين فى الأسلوب بحيث لا ياتقيان ، والفرزدق هذا هو الذى كان مغرماً بالغريب يتبعه حتى قال أهل النقد : إنه أحياناً ثلث اللغة فى شعره .

أما معانى الشعر فإن عمدة الشعراء فيها على معانى أهل الجاهلية لم يزدوا عليها شيئاً كثيراً ، وإن كانوا فى إيرادها قد توخّوا ما لم يستطعه الجاهلى من ترتيب الفكرة كما أنهم أكثروا من الحكمة والمثل ، وتوسعوا فى المعانى بما أفادهم الإسلام وما توالى على نظرهم من مظاهر الحضارة لمن عاش فى المدن . أما من عاش فى البادية فقد بقيت معانيه هى معانى الجاهلية لم يتزحّج عنها كذى الرمة مثلاً وقف عليه الفرزدق وهو فى إبله ينشد الشعر ، فقال له : كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس ؟ قال : ما أحسن ما تقول . قال : فما لا أذكر مع الفحول ؟ قال : قصر بك عن غايتهم بكاؤك فى الدمن ، ووصفك الأبعاد والعطن .

على أن من شعراء هذه الدولة من كان أعجمى المولد ، والنشأة كزياد الأعجم أصله من أصبهان ، وأبي العباس الأعمى ، وموسى شهوات ، فإن أصلهما من أذربيجان ، ولا شك أن هؤلاء قالوا الشعر العربى متأثرين بعقيلتهم الفارسية .

ولشعراء هذا العصر معان لم يعرفها الجاهليون ولا الإسلاميون ، لأنها إنما كانت نتيجة الحضارة والانغماس فى الترف ، فقد أكثر الوليد بن يزيد من وصف الخمر ، وأتى فيها بما كان مستمداً أبى نواس فيما توسع فيه بعد من وصفها ، ومن قول الوليد فيها :

مِنْ قَهْوَةٍ زَانِهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحِقَبِ
فَهِيَ بَغْيَرُ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرٍ وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ

أغراض الشعر

أكثر أغراضه فى هذا العصر هى أغراضه فى العصر الجاهلى مع التوسع فى كل غرض لما صاروا إليه من كثرة فى معانيهم ، وزيادة فى مادة اغتهم وحضارة عاشوا فيها . ولأسباب خاصة بهذا العصر كان بعض الأغراض يطغى طغياناً زائداً ، على ما فصله فى الكلام عن كل غرض وحده .

أما الأغراض التى كانت فى هذا العصر ولم تكن فى الجاهلية ، فهى ما أحدثه الإسلام خاصة من القول فى الزهد ، وبيان العقيدة ، ووصف البلاد المفتوحة ، وتناول السياسة بوصف جور الحكام ، والتعريض باغتصاب الخلافة ، وذكر مناقب المبعدين عنها من مستحقها ، وإطراء زهدهم ، ورثاء قتلاهم .

وسنذكر فيما يلى أغراض الشعر التى أكثر تداولها فى هذا العصر ، ونفصل القول فيها مع قياسها بما كان منها قبل ذلك .

النسيب^(١)

لا شك أن النسيب وهو وصف المرأة والتمدح بمجاسنها ، وذكّر ما يقع بينها

(١) الرأى عندى أنه لافرق بين: التغزل، والغزل، والنسيب، والتشبيب، ويؤيد قولنا ماورد في كتب اللغة قال في لسان العرب : الغزل حديث الفتيان والفتيات . وهو عن ابن سيده : اللهو مع النساء . والتغزل التكلف لذلك . وأقول ان تغزل الغزل من الحديث إلى حكايته ومن اللهو إلى الحديث عنه في الشعر مجاز سهل المأخذ .

وفي اللسان أيضا « نسب بالنساء ينسب : شبيب بهن في الشعر وتغزل .

وشبيب بالمرأة قال فيها الغزل . والنسيب هو أن يشبيب بها : أى ينسب . والتشبيب : النسيب بالنساء « كما يؤيده قول ابن رشيق في العمدة : النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد . أما قوله : « والغزل إلمب النساء والتخلق بما يوافقهن وليس مما ذكرته (يريد النسيب والتغزل والتشبيب) في شيء ، فمن جملة بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه في كتابه نقد الشعر » .

وقد بينا لك سابقا ما يصح أن يكون قد جرى على كلمة غزل وتغزل من التجوز الذى صاروا فيه بمعنى قول الشعر في حديث النساء والكلف بهن .

وتنقل لك هنا عبارة قدامة في الكلام عن النسيب قال .

نعت النسيب . أقول إن كثيرا من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا ما النسيب ؟ ، ونحن نحمد فنقول : ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن . وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتدته الانسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه ، والغزل لأنما هو التصاى والاستهتار بمودات النساء ، ويقال في الانسان إنه غزل إذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن لحاجته بالوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه ، والذى يميلن إليه هو : المماثل الحلوة ، والمعاطف الطريفة ، والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاح المستغرب . ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج ، وأنما هو متفاعل من الشجى : أى متشبه بمن قد شجاه الحب .

واذ قد بان أن الذى قلناه على ما قلناه فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهاك في الصباة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصاى والرفة أكثر مما يكون من الحزن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ماضا التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاى به الغرض ، وقد يدخل في النسيب التشويق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح المسابة ، والبروق اللامعة ، والحامم المسافرة ، والحيلالات الطائفة ؛ وآثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومضى الأسف والمنازعة .

وبين المغرم بها من لقاء وتحية وحديث ، والشكوى من اللوعة بها ، وفقدان الصبر عنها على ما في ذلك من عفة وعهر واعتدال وإفخاش ، كل ذلك كان شأن الشاعر الجاهلي ، فإن معيشة البادية من سفور المرأة ، واشتراكها في أمور الحياة وخلو الرجل من الأعمال يجعل هذا النسيب أمراً لازماً للحياة البدوية ، ولقد شاع في ذلك العصر حتى صار لازمة لقول الشعر يبدأ به الشاعر قصيدته ، ولو لم يكن محباً فيذكر اسماً مستعاراً ، ويتخيل وقائع يذكرها على عادة العشاق ، ولقد ذكروا أن زهيراً كان عفيفاً يتحرج من النسيب ، ولكنه اضطر أن ينسب ، فذكر اسم امرأته : « أم أوفى » . في معلقته .

وقد نظر قوم إلى الغزل في العصر الأموي ، فأروا شعراء يتغزلون ولا يتولون في شيء غير الغزل ، فتكون القصيدة وفقاً على هذا الغرض لا تتمدها إلى غيره . بل لقد وقف بعضهم نفسه على الغزل لا يقول غيره ، فاتخذوا من ذلك سبيلاً إلى القول بأن الجاهلي لم يعرف هذا النوع من الغزل ، ولم يقل فيه وإنما كان غزله تابعاً لأغراضه الأخرى من مدح أو فخر أو غيرها .

واقدم كان داعيتهم إلى هذا الرأي أنهم لم يجدوا غزلاً مستقلاً في شعر الجاهلين ، ولكن فقدانهم لرواية ذلك لا يدعونا إلى إبطال تلك الطبيعة التي هي أليق بالعربي في باديته ، لما قدمنا من خلو الرجل من العمل ومشاركة المرأة له في حياته وسفورها أمامه في غالب شأنها . والحب طبعي في النفس والتعبير عنه زفرة لا يستطيع كظمها ونزعة لا يمكن كبتها ، فلا بد أن يكون الجاهليون قد عمدوا إلى الغزل غرضاً أصيلاً وأكثروا منه حتى صار التزامه في بدء القصائد نتيجة لهذا الإكثار منهم في قوله ، على أنه قد روى لهم فيه قول مستقل .

فمن ذلك قول المُرَقَّش الأكبر ، وقد علق ابنة عمه وحال دونها إقتراره ، فقال فيها :

سَرَى لَيْلًا خِيَالًا مِنْ سُلَيْمَى فَأَرَقَنِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ
فَبِتُّ أَدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ وَأَذْكُرُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدُ

على أن قد سما طرْفِي لنارٍ يُشَبُّ لها بذى الأَرطَى وَقودُ
حوالِهَا مَهًا جَسْمُ التَّرَاقِي وآرامٍ وَغِرْلَانُ رُقودُ^(١)
نواعمٍ لَا تعالجُ بُؤْسَ عيشٍ أَوَانِسُ لَا تَرُوحُ وَلَا تَرُودُ^(٢)
يرحنَ معَا بِطَاءِ الْمَشْيِ بُدَاً عليهنَ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ^(٣)
سَكَنٌ بَبْلَدَةٍ وَسَكَنَتْ أُخْرَى وَقُطِّعَتِ الْمَوَائِقُ وَالْعَهْدُ
فَمَا بَالِي أُنْفِي وَيُخَانُ عَهْدِي وَمَا بَالِي أُصَادُ وَلَا أُصِيدُ

كذلك يقول قيس بن الحَدَّادِية^(٤) في نَعْمٍ ، وكنيتها أم مالك ، وقد افترق أهلها :

سَقَى اللهُ أَطْلَالَاً لِنَعْمٍ تَرَادَفَتْ بَيْنَ النَّوَى حَتَّى حَلَّانَ الْمَطَالِيَا
فَإِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ يَا أُمَّ مَالِكٍ تُسَلِّكُكُمْ عَنِّي وَتُرْضِي الْأَعَادِيَا
فَلَا يَأْمَنُ بَعْدِي أَمْرٌ فَجَعَ لَدَةً عَنِ الْعَيْشِ أَوْ فَجَعَ الْخَطُوبِ الْعَوَافِيَا
نَظَرْتُ وَدُونِي يَذْبُلُ وَعِمَايَةٌ إِلَى آلٍ نَعْمَ مَنَظَرَا مُتَنَائِيَا
شَكُوتُ إِلَى الرَّحْمَنِ بَعْدَ مَزَارِهَا وَمَا حَمَلْتَنِي وَانْقِطَاعِ رَجَائِيَا
وَقَدْ أَيْقَنْتُ نَفْسِي عَشِيَّةً فَارِقُوا بِأَسْفَلِ وَادِي الرُّوضِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
إِذَا مَا طَوَاكِ الدَّهْرُ يَا أُمَّ مَالِكٍ فَشَأْنُ الْمَنَائَا الْقَاضِيَاتِ وَشَانِيَا

ولقد علمت أن الإسلام زهد العرب في النسيب ، وحرّم عليهم الفاحش منه ، فلما جاءت الدولة الأموية ونزعتها جاهلية ووازع الدين قد ضعف أثره في القلوب ، والخلفاء

(١) جم العظم : كثر لحمه .

(٢) ترود : تختلف إلى الرمي مقبلة مدبرة .

(٣) بد : متفرقات . الجسد (كئبر) الثوب يلي الجسد . البرد : ثوب يلتحف به .

(٤) شاعر جاهلي ، والحداية أمة من قبيلة يقال لها بنو حداد . وكان قيس فأنكا شجاعا صعلوكا خليعاً . خاعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها فلا تحتل جريرة له ، وكان قيس يهوى أم مالك بنت ذؤيب الخزاعي . وكانت بطون خزاعة خرجوا جالين إلى الشام ومصر ثم رأوا في الطريق البرق وأدركهم من قال لهم إن بلادهم أخصبت فرجع بعض واستمر بعض ، وكان في الماضين في ارتحالهم أهل نعم .

يرون من تمام سياستهم إطلاق الألسنة بالقول أكثر الشعراء من القول في الغزل ، فكان منهم عشاق برج بهم الحب وملكهم جمال المرأة ، وقد صقلتها المدنية وورثت من الجمال الفارسي والرومي نصيبا ، فكثرت العشق وساعد عليه أيضاً صيرورة الحمية والغيرة الجاهلية إلى الاعتدال ، فتحدثت النساء إلى الرجال في غير حرج كبير . بل لقد أرسلن إلى من عرفنه غزلا يستزرنه ليصبن من اللهو وليكون من حظهن ذكرا يشيع على لسانه . ولم تترفع عن ذلك نساء الخلفاء لما انطبع في المرأة من حب الثناء ، فقد ذكروا أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح الين أن يشبب بها ، فلما فعل قتله الخليفة . وذكروا من قصتها في ذلك أنها قدمت مكة حاجة ومعها من الجوارى من لم ير مثله حسنا ، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا إذا ذكروا أحدا ممن تبها ، وقدمت قراءات للناس وتصدى لها أهل الغزل والشعر ، ووقعت عينها على وضاح الين فهو يته وكان جميلا ، وأرسلت إليه وإلى كثير أن انسأبى . فأما وضاح الين فإنه ذكرها وصرح بالنسب بها ، فوجد عليه الوليد ، واحتال لقتله . وأما كثير فإنه عدل عن ذكرها ونسب بإحدى جوارىها . كذلك اقترحت أم محمد بنت مروان بن الحكم وأخت عبد الملك على عمر بن أبى ربيعة أن يشهرها في شعره ، وبعثت إليه ألف دينار ، فأبى أن يؤجر على التشبيب ، وابتاع بالجائزة حللا وطيبا وأهداها إليها فردتها ، ومن قوله فيها :

أَيْهَا الرَّائِخُ الْمَجِيدُ ابْتِكَارًا قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةٍ الْأَوْطَارَا
مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ حَيِّجًا سَلِيمًا فَقَوَادَى بِالْخَيْفِ أَمْسَى مُعَارَا (١)
لَيْتَ ذَا الدَّهْرِ كَانَ حَتْمًا عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمَيْنِ حِجَّةً وَاعْتَارَا (٢)



وكان من شعراء الغزل في هذا العصر قوم تيههم الحب ، وذهب بالبابهم العشق ، فجاء شعرهم زفرات تكاد تحترق لها صدورهم . وهؤلاء هم المسمون بالعذريين وإمام هؤلاء

(١) الخيف : غرة يضاء في الجبل الذى خلف أبى قبيس ، وهو موضع بنى وبه سمي مسجد الخيف .

(٢) ترتيب البيت هكذا : ليت الدهر كان حجة واعتارا في كل يومين منه واجبا علينا ذلك .

جميل بن مَعْمَر صاحب بُثَيْنَةَ ، ومنهم قَيْسُ بن الملوِّح صاحب لَيْلى ، وقَيْسُ بن ذَرِيحٍ صاحب لُبْنَى على القول بوجود الأخيرين ، وأن حديثهما غير موضوع .

فمن قول جميل في بُثينة :

إذا قُلْتُ ما بى يا بُثَيْنَةُ قَاتِلِي من الحب قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلتُ رُدِّى بعض عتلى أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مرْدودٌ بما جئت طالبا ولا حُبها فيما يبيدُ يبيدُ
وقلتُ لها يَبْنَى وبينك فاعلمى من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حُبِّكُم طَريفًا وتالدا وما الحبُّ إلا طارِفٌ وتَلِيدُ
وإن عَرُوض الوصل بينى وبينها وإن سَهَّلْتُهُ بَالْمُنَى لَصُودُ^(١)
فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بانتظارى نَوَالِها وأبْلَيْتُ هذا الدهرَ وهو جديد
ومن قول مجنون لَيْلى ، وقد جعل يَمُرُّ بيبتها فلا يسأل عنها ولا يلتفت إليها ، فإذا جاوزها قال :

أَلَا أَتَيْهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَزُورُهُ وَإِنْ حَلَّهُ شَخْصٌ إِلَى حَيْبُ
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقًا وَزُرْتُكَ خَائِفًا وفِيكَ عَلَى الدهرِ منك رَقِيبُ
سَأَسْتَعْتِبُ الْآيَامَ فِيكَ لَعَلَّها بيوم سرور فى الزمانِ تَثُوبُ
وقوله وقد أخذه أبوه إلى الكعبة ، وقال له : تعلق بها وقل اللهم أرحنى من ليلى وحبا ، فلما تعلق بها قال :

يَقَرُّ بَعِينِي قَرْبُها وَيَزِيدُنِي بها شَغَفًا من كان عندى يَعِيبُها^(٢)

(١) العروض : الطريق فى عرض الجبل . الصعود : الارتفاع . والمعنى أن الوصل صعب المآل مهما سهلته بالوعود .

(٢) روى فى الكامل من قول نهبان بن عَتَّى العبشمي :
يقربعنى أن أرى من مكانه ذرا عقدات الأبرق المتجاوز
فقال : قرأها أبو العباس « يقرّ بعينى » قال الأصل يقر عينى والباء زائدة للتوكيد . هكنا سمعته . ويقول أبو الحسن الأنخس راوى الكامل وأجود مما روى عندى يقر بعينى وهو الأصل والباء فى موضعها غير زائدة .

وكم قائل قد قال تُبْ فَعَصَيْتُهُ وتلك لَعَمْرِي توبةٌ لا تُوبِها
فيا نفسُ صَبْرًا لستِ واللهِ فاعلمِي بأولِ نفسٍ غاب عنها حبيبُها
ومن قول قيس بن ذريحٍ في لُبْنَى :

فان يحجبوها أو يحلُّ دونَ وصلِها مقالةٌ واشٍ أو وعيدُ أميرٍ
فلن يحجبُها عيني من دائمِ البكا ولن يذهبوا ما قد يُجِنُّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن كُربٍ تعتادني وزفيرِ

ومن شعراء الغزل من جعلوه لهوهم ، فأغرموا بالجمال ، وتبعوا مساقطه ، وودعوا
المواسم ليلثوا عيونهم من أشياء غيرهم ، ثم وصفوا ما وقع لهم من ذلك فهم لم يتبينهم
الحب ، ولا كان القول في الغزل صناعة لفظية لاغور لها في نفوسهم ، بل كانوا بين
بين يستأسرون للجمال وهم قادرون على الإفلات من حباله . كما كان شأن عمر
ابن أبي ربيعة ، ويكفي في التذليل على أنه كان بهذه المثابة أن تغزل في غير
واحدة ، والحب الصادق لا يكون إلا الحبيب واحد ، وهو الذي يقول مستبيحاً الديب
إلى المحبوبة ، ومغافلة أهلها الأبيات الآتية ، ولهذا سمى هو ومن على شاكلته
إباحيين لأنهم أباحوا في غزلهم كل فحش ، أما العذريون فإنهم لا يتعلقون من محبوبتهم
إلا التعلق الرُّوحى ، وبنو عذرة قبيلة اشتهرت بالحب حتى فنى فيه رجالها . قال
ابن أبي ربيعة :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطفئتُ مصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاءِ وأنورُ^(١)
وغابَ قَمَرُهُ كنتُ أرجو غُيُوبَهُ وروحَ رُغِيَانٍ ونومَ سُمُرِ^(٢)
ونفَضْتُ عَنِ العَيْنِ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الحُجَابِ ورُكْنِي خِيفَةُ القَوْمِ أَرْوَرُ^(٣)

(١) أنور : جمع نار .

(٢) روح : جمع وقت الرواح .

(٣) ويروى النوم بدل العين ، والمراد بالعين الجوايس ، الحجاب : الحبة ، أزور : مائل .

فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأْتُهَا فَتَوَلَّيْتُ وَكَادَتْ بِمَكْنُونِ التَّحِيَةِ تَجْهَرُ^(١)
 وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَنَانِ فَضَحَّتَنِي وَأَنْتِ امْرُؤُ مَيَسُورٍ أَمْرِكَ أَعْسَرُ
 أَرَيْتِكَ إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ رَقِيبًا وَحَوَّلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرًا^(٢)
 فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى أَنْتَ عَجِيلٌ حَاجِلٌ سَرَتْ بِكَ أُمُّ قَدْنَامٍ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ

وهذان الفريقان لم يعرف لهما في غير الغزل شعر ، وإن ورد عن بعضهم شيء من ذلك فهو نادر جدًا .

ونوع ثالث من الغزلين ، وهم من كان الغزل في قولهم محض صناعة لفظية يجري أحدهم على طريقة العرب ، فيبدأ قوله بالغزل كما بدءوه به ، وإن لم ير لخبوبته ظلاً أو لم يتعلق منها بمودة ، وهؤلاء تناولوا جميع أغراض الشعر مع الغزل ، ومن أشهرهم كثيرون عزة ، فإنه أكثر من ذكرها وأطال في وصفها ، وإن لم يرها في حياته مرة .

المدح

كان المدح على ما عرفت شأنه في الجاهلية لا إسراف فيه ولا إغراق ، وكان في غالب أمره ذكراً للحقيقة اشتهر بها الممدوح ، أو ثناء على عارفة كانت منه ، وكان مع ذلك قليلاً لمكان الأنفة من نفوس العرب إلا ما كان من شأن الذين تكسبوا بالشعر في أخريات الجاهلية ، كزُهير ، والناطقة ، والأعشى ، والحطيئة على عفة في أكثرهم عرفت حديثها ، وفي الإسلام لم يكن منه إلا مدح رسول الله وهو دون ما يستحقه مقامه الأعظم وبلاؤه المشهود . أما الخلفاء بعده فإن ورعهم وانصرافهم إلى تحقيق العدالة ،

(١) توله : حزن وطاش عقله .

(٢) أَرَيْتِكَ وَأَرَيْتِكَ : أَخْبَرْنِي ، هُنَا : مَنْ هَذَا بِمَعْنَى حَقَرٍ وَقَوْلُ شَأْنِهِ ، حُضْرٌ : جَمْعُ حَاضِرٍ .

وقلة ذات أيديهم جعلهم غير موضع لآمال المداح ، فقلّ المدح في هذا العصر ، وقد ذكروا أنه بلغ عمر أن الخطيئة مدح أبا موسى الأشعري عامله على العراق فوصله ، فكتب إليه عمر يلومه ، فردّ عليه أبو موسى بأنه إنما اشترى عرضه بالصلة ، فكتب إليه عمر : إن كان هذا هكذا ، وإنما تذبّ عن عرضك ، ولم تعطه للبذخ والفخر ، فقد أحسنت .

أما في دولة بني أمية فقد جنّ جنون الشعراء لما رأوا من الغنى الذى يساق سوقا إلى مجيديهم في مدح الخلفاء ، وتفخيم أمرهم ، وذكر بطشهم ، وواسع جودهم . وقد حبيب ذلك إلى الخلفاء أنهم رأوه يمكن لهم ، ويوطد ملكهم ، ويلقى الرعب في القلوب ، ويدفع الآمال إلى التعلق بهم ، فكان عمل الشعر في هذا بمثابة جيوش جرّارة يرصدونها لتحقيق هذه الغاية ، فكفاهم مثوتها بيت من الشعر يسير كل مسار ، ويتنقل مع الريح :

فَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ
كذلك لا تنس ما فيهم من روح عربية تحبّ المديح وترتاح له ، فجعلوا سماع الشعر في مدحهم إحدى وسائل النعيم والترف الذى وفروا لأنفسهم أسبابه ، وامتلأت به قصورهم وقد كانوا لقوة النقد في نفوسهم يعرفون قدر ما يقال فيهم ، فيةقبلونه قبولاً حسناً ، أو يردّونه على قائله زائفاً مبهرجاً .

دخل ابن قيس الرقيّات على عبد الملك ، وقد أمنه بمدّ خروجه عايه ، فمدحه بقوله :

إِنَّ الْأَعْرَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبُو الْعَا صِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجْبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الدَّهَبُ

فقال عبد الملك : يا ابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق ، ولكن لا تأخذ في المسلمين عطاء أبداً .
ومن قوة تقدم مع جهم للاستئثار بأعظم نصيب من المدح ما جرى لأبني زيد
الأسلمى . دخل المدينة فصار إلى إبراهيم بن هشام ، فأنشده :
* يابن هشام يا أخا الكرام *

فقال إبراهيم : وإنما أنا أخوهم ، وكأني لست منهم . ثم أمر به فضرب بالسياط .
وقد دخل رجل من بني ضبة على عبد الملك ، فأنشده :

وَاللَّهِ مَا نَذَرِي إِذَا مَا قَاتَنَا طَلَبَ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي نَسْطَلِبُ
فَلَقَدْ ضَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ إِلَى الْكَارِمِ يُنْسَبُ
فَاصْبِرْ لِعَادَتِنَا الَّتِي عَوَّدْتَنَا أَوْ لَا فَأَرْشِدُنَا إِلَى مَنْ نَذْهَبُ

فقال عبد الملك : إلى إلى ، وأمر له بألف دينار ، ثم أتاه في العام الثاني ، فأنشده :
يَرْبُؤُا الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ إِنَّهُ إِذَا فَعَلَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَنَمَمَا
وَلَيْسَ كَبَانٍ حِينَ تَمَّ بِنَاؤُهُ تَتَبَعَهُ بِالنَّقْصِ حَتَّى تَهْدَمَا
فأعطاه ألفين ، ثم جاءه في الثالث ، فأنشده :

إِذَا اسْتَمْطَرُوا كَانُوا مَغَارِيرَ فِي النَّدَى يَجُودُونَ بِالْمَعْرُوفِ عَوْدًا عَلَى بَدءِ
فأعطاه ثلاثة آلاف .

ومن ارتياحهم المدح ، واهتزازهم له ما روى عن عمر بن هبيرة . قال العتيبي : أشرف
عمر بن هبيرة الفزاري من قصره يوما ، فإذا هو بأعرابي يرقص جله الآل ، فقال
لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إلى ، فلما دنا الأعرابي سأله الحاجب ، فقال : قصدت
الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال عمر : ما خطبك ؟ قال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْعِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَلْحَ دَهْرُ أَنْحَى بِكُلِّكُلِهِ فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِذْ خَانَهُمْ مَطَرُ

قال : فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلك إلى وانتظروا ،

إِذَا وَاللَّهِ لَا تَجْلِسُ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ غَانِمًا ، فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَرَدَّهٗ عَلَى بَعِيرِهِ .

ولقد بلغ من غرام خلفاء هذه الدولة بالمدح أن أرادوا أن يجعلوه وقفاً عليهم ، فلم يرضوا عن مدح غيرهم ، ولو كان الممدوح من أعوانهم ، فهذا جرير مدح الحجاج ، فلما أعجبه مدحه أوجهه ، وملاً بالثناء عليه الأرض حتى بلغ خبره الشام ، وأمير المؤمنين عبد الملك ، ثم أراد الحجاج أن يحسن إلى جرير ، فأقدمه مع ابنه محمد إلى عبد الملك ، فلما صار في مجلسه سأل عنه ، فقال محمد بن الحجاج : هذا يا أمير المؤمنين ابن الخطّفى ، فقال مادح الحجاج . قال جرير : قلت ومادحك يا أمير المؤمنين ، فأذن لى فى الإنشاد ، فقال : هات ما قلت فى الحجاج ، فاندفعت فى قولى :

صَبَرْتَ النَّفْسَ يَا بْنَ أَبِي عَقِيلٍ مَحَافِظَةً فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَا
وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يُنْزَلْ مَعَ النَّصْرِ الْمَلَائِكَةُ الْغَضَابَا
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجَ أَنْقَبَهَا شِهَابَا

قال صدقت ، ثم هات فأنشدته :

طَرِبْتَ لَهْدٍ هَيَّجَتْهُ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرْءَ وَالشَّيْبُ شَامِلُ
فَمَا فَرِغْتَ مِنْهَا حَتَّى خَبِلَتْ الْغَضَبُ فِي وَجْهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ : هَات بِالْحَجَّاجِ ، فأنشدته :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النَّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُورُ كَصَوَلَةِ الْحَجَّاجِ
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيزَةً إِذْ لَا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ

ثم قال لى الخليفة اجلس فجلست ، وقال للأخطل : هات مديح أمير المؤمنين ، فأنشد أشعر الناس وأمدح الناس ، فقال له عبد الملك : أنت شاعرنا ومادحنا ، ثم استمر الوفد يدخل على الخليفة ثمانية أيام ، وكلهن يحجب جرير ، ودخلوا فى اليوم التاسع ، فأعطوا جوائزهم ، وتهيئوا فى العاشر للرحيل ، ثم توسل له محمد بن الحجاج عند عبد الملك ، واستأذنه فى أن يسمع من جرير فأذن ، فاندفع جرير :

أَتَصْحُو أَمْ فَوَإِذَاكَ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةً هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ

فقال له عبد الملك : بل فؤادك أنت ، وما زال ينشد حتى وصل إلى قوله في مدح عبد الملك :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْذَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ

فجعل عبد الملك يقول : نحن كذلك ومازلنا كذلك ، ثم قال : ردّها عليّ ، فردّها فطرب ، ثم أمر له بمائة ناقة وثمانية أعبد : أربعة صقالبة ، وأربعة نوبية ، وكان بين يديه صحاف من فضة ، فقال جرير : الحلب يا أمير المؤمنين ، فندس إليه واحدة منهم . ومن غرام الأمويين بالمدح ما رواه المبرّد قال : وقد فضل نصيب على الفرزدق في موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا ، فقال سليمان للفرزدق : أنشدني (وإنما أراد أن ينشده مدحا له) ، فأنشده :

وركب كأنّ الريح تطلبُ عندهم لهاترةً من جذبها بالعصائب
سروا يخبِطون الليل وهي تَلْفُهم إلى شعب الأكوار من كلّ جانب
إذا آنسوا نارا يقولون ليها وقد خصرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان كالغضب ، فقال نصيب يا أمير المؤمنين ، ألا أنشدك في رويها ما لعله لا يتضع عنها ، فقال هات ، فأنشده :

أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوशल ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل وُدّان طالب
فعاوجوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولوسكتوا أنثت عليك الحقائق

وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشده نصيب كيف تراه ؟ قال : هو أشعر أهل جلدته ، ثم قام الفرزدق ، وهو يقول :

وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

ولقد عفا الخلفاء وعالمهم عن المجرم لبیت من الشعر بالغ به في مدحهم ، فصادف هوى في نفوسهم كما حدث أن الخجاجة لجّ في طلب المدّيل حتى لفظته الأرض ، ونبا به كل مكان ، فلم يجد حيلة إلا قصده ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ صَاحِبٌ وَخَلِيلُ
بِهِ نَصَرَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ مِنْهُمْ وَتَبَّتْ مُلْكًا كَادَ عَنْهُ يَزُولُ
فَأَنْتَ كَسَيْفِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ خَالِدٍ تَصُولُ بِعَوْنِ اللَّهِ حِينَ تَصُولُ
فَقَالَ لَهُ الْحُجَّاجُ : أَوَّلَى لَكَ ^(١) قَدْ نَجَوْتَ ، وَفَرَضَ لَهُ ، وَأَعْطَاهُ عَطَاءَهُ .

وَبَلَغَ مِنْ حُبِّ اسْتِثْنَائِهِم بِالْمَدِيحِ أَنَّهُمْ حَقَدُوا عَلَى الشَّاعِرِ إِذَا افْتَخَرَ ، فَقَدْ رَوَى
أَنَّ الْفَرَزْدَقَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ مَدَحَهُ فَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطِيَّةُ ، فَقَالَ فِي طَرِيقِهِ
وَهُوَ رَاكِبٌ رَاحِلَتَهُ :

مَا حَمَلْتُ نَاقَةً مِنْ مَعْشَرٍ رَجُلًا مِثْلِي إِذَا الرِّيحُ أَلْقَتْني عَلَى الْكُورِ ^(٢)
فَأَنْهَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَرْسَلَ وَرَآهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : إِيَّاهُ يَافَرَزْدَقُ الَّذِي
تَقُولُ ، فَقَالَ نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا أَنْشَدَهُ الْبَيْتَ قَالَ : لَتُخْرِجَنَّ مِنْهَا أَوْلَاتَيْنِ
عَلَيْكَ ، فَقَالَ مَرْتَبِلًا :

إِلَّا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهَا مَعَ النَّبُوَّةِ بِالْإِسْلَامِ وَالْخَيْرِ
تَرَى وَجُوهَ بَنِي مَرْوَانَ مُشْرِقَةً يَوْمَ النَّدَى كَمَشُوقَاتِ الدَّنَائِيرِ ^(٣)
فَقَالَ عَبْدِ الْمَلِكِ : أَوَّلَى لَكَ وَرَضَى عَنْهُ .

الهجاء

كَانَ الشَّاعِرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَهْجُو وَيَنَافِرُ ، وَلَكِنَّهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَتَعَدَّى التَّمْيِيزَ
بِالْقُصُورِ عَنْ الْفَضْلِ ، وَالتَّأْخِرَ عَنِ الْأَقْرَانِ وَالتَّكْوِصَ عَنْ مَوَاقِفِ الشَّجَاعَةِ ، وَالبَخْلَ عَلَى
الضَّيْفِ وَالْقُعُودِ عَنْ نَصْرَةِ الْمُسْتَجِيرِ ، لَا يَعْرِفُونَ ذِكْرَ الْعَوْرَاتِ وَلَا الْإِفْخَاشَ فِي سَبِّ

(١) أَوَّلَى لَكَ : تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ : أَيُّ قَارِبِهِ مَا يَهْلِكُهُ .

(٢) الْكُورُ : الرَّحْلُ .

(٣) الدَّرَمُ أَوْ الدِّينَارُ الشُّوفُ : الْمَجْلُو .

الآباء والأمهات ، فكانت معانيهم في ذلك تتبع بساطة معيشتهم ، فهم لم يعرفوا الغلو في شيء حتى يعرفوه في الهجاء ، وقد جاء الإسلام ينهائهم عن ذلك ويحول بينهم وبينه حتى تصفو النفوس ، وتجتمع على الحب فامتنعوا عنه ، وعوقب من استمر على نزعة الجاهلية كالخطيئة . نعم أباح الإسلام للمسلمين هجاء الكفار بل دعاهم إلى ذلك لأنه اعتبره أسلوباً من أساليب حربهم ونوعاً من مساجلتهم ، ولا شك أن القول له بالنفس فعل السيف في خضد الشوكة وتثبيط العزم .

فلما جاء عصر بني أمية لم تقصر الأحزاب السياسية في جعل الشعر من عدد حربهم يذيعون به المساوى ، ويدلون به على المخازى ، ويؤلبون ويهددون ، فعل ذلك الأمويون ، وهم الحزب الأكبر بكل من ناوهم من خوارج وهاشميين وزبيريين ومهلبين كما قابلهم هؤلاء بمثل ذلك فكثرت التهائج ، واشتهر شعراء بالتعصب لبني أمية ، وهم جل شعراء العصر ؛ فمنهم : مسكين الدارمي ، والأخطل ، وجريز ، والفرزدق ، والراعي ، وأبو النجهم الراجز ، والأعشى ، والنابعة الشيباني وغيرهم ، واشتهر من أنصار الخوارج : الطرمامح بن حكيم ، وعمران بن حطان ، كما اشتهر من الأنصار المهلبيين : زياد الأعجم ، وحمزة بن بيز ، وبهس الجرهمي ، ومن أنصار العلويين : الثعمان بن بشير ، وأبو الأسود الدؤلي ، والكميت بن زيد ، وأيمن بن خریم .

وسنورد عليك نماذج من قولهم ليتمثل لك ما كان بين القوم من خلاف على السياسة .

حرش يزيد بن معاوية الأخطل ، فهجا الأنصار بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللوم تحت عائم الأنصار

فلما شاع الشعر دخل الثعمان بن بشير الأنصاري على معاوية ، وقال يا معاوية : هل ترى لؤماً ؟ قال : لا أرى إلا كرماً . قال فما الذي يقول فينا عبد الأرقام^(١) ؟ قال : قد حكمتك فيه . قال : والله لارضيت إلا بقطع لسانه ، ثم أنشده :

(١) الأرقام : حى من تغلب منهم الأخطل وجعله عبدهم تحقيراً له .

مُعَاوَى إِلَّا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ . لِحَى الْأَشَدِّ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعِمَامُ (١)
وَيَشْتُمُنَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً وَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمُ
فَمَا لِي نَأْزُ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ فَدُونَكَ مِنْ تُرْضِيهِ عَنْكَ الدَّرَاهِمُ

ثم قال :

وَإِنِّي لَأَغْضِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ سَتَرَقَى بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامُ
أَصَانَعُ فِيهَا عَبْدٌ شَمْسٍ وَإِنِّي لَتِلْكَ أَلَّتِي فِي النَّفْسِ مِنِّي كَاتِمُ
فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ وَلَكِنْ وَلِيُّ الْحَقِّ وَالْأَمْرِ هَائِمُ
فلما رأى معاوية منه الجدَّ دفع إليه الأخطل لقطع لسانه ، ولكن يزيد ابنه أجاره
من النعمان .

وقال الأعشى : وقد دخل على عبد الملك ، وهو متردد في حرب ابن الزبير ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، مالي أراك مُتَوَلِّمًا (٢) ينهضك الحزم ، ويقعدك العزم ، وتهم بالإقدام ،
وتجئح إلى الإحجام . توجه إلى عدوك ، فجَدَّكَ مُقْبِلٌ وَجده مدبر ، وأصحابه له مآقتون ،
ونحن لك محبون ، إلى أن أنشد :

آلُ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي عَجَلَ النَّتَاجَ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا
أَوْ كَالضُّعَافِ مِنَ الْحُمُولَةِ مُخَمَّاتٍ مَا لَا تَطِيقُ فَضَّيْعَتُ أَحْمَالِهَا
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْو كَمَ لِلْغُصَاةِ أَطْلَمُوا إِثْمَالَهَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْو مَا زِلْتُمْو أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا (٣)
أَمْسُوا عَلَى الْخِيَرَاتِ قُفْلًا مُغْلَقًا فَانْهَضْ بِمِنْكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا
ومن قول عمران بن حطان في مدح بن ملجم قاتل علي ، وكان عمران مغالياً في
التعصب على علي .

(١) اعترف الشيء كعرفه : أقر به وأثبتته علماً .

(٢) متولماً : متردداً .

(٣) الثمال : الذي يقوم بأمر قومه .

لله دَرْ الْمُرَادِيَّ الَّذِي سَفَكَتْ كَفَّاهُ مُهْجَةً شَرًّا اَلْخَلْقِ اِنْسَانًا^(١)
 اَمْسَى عَشِيَّةً عَشَاهُ بَصْرِيَّةً مِمَّا جَنَاهُ مِنَ الْاِثَامِ عُورِيَانَا
 يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا ارَادَ بِهَا اِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
 اِنِّي لَا اُفَكِّرُ فِيهِ ثُمَّ اَحْسِبُهُ اَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا

ومن قول الكُمَيْتِ بن زيد يعيب على بنى أمية جورهم ، ويدعو الله أن تدول الدولة للهاشميين .

قَتَلَ لَبْنَى اُمِيَّةً حَيْثُ حَلَّوْا وَإِنْ خِفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا^(٢)
 أَجَاعَ اللهُ مِنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مِنْ يَجْوَزُكُمْ أَجِيَا
 بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٍّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رِبْعَا

ولم ينته الهجاء إلى هذا الحد ، بل لقد تعدّاه إلى تهاجى الشعراء فيما بينهم ، لا ينزعون في ذلك إلى مذهب سياسى لكنهم كانوا يحميون بهذا التهاجى داعى العصبية التى أحيتها الدولة ، ويلتمسون الشهرة بالقول ، ويتحاسدون على ما صار لبعضهم من فضل ، وربما فعلوا ذلك ليسمر أمير أو خليفة بحديثهم ، فيكون على ذكر لهم ، وربما مهاجوا أودعاهم إلى التهاجى ما يأتية أمير أو خليفة من التحريش بينهم كما فعل بشر بن مروان ، فإنه قال للأخطل : احكم بين جرير والفرزدق ، وألح عليه فى ذلك ، فلما حكم بقوله : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر لم يعجب حكمه جريراً فهجاه ، فردّ عليه الأخطل ، وامتدّ بينهما التهاجى .

وأمر التهاجى بين جرير والفرزدق ، وبين جرير والأخطل مشهور ألقت فيه كتب خاصة .

(١) مر شرح هذا البيت والأبيات بعده فى باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب . .

(٢) مر شرح هذه الأبيات فى باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب .

عمر بن أبي ربيعة

[نسبه] : هو عمر ، ويكنى أبا الخطاب ، وأبوه عبد الله بن أبي ربيعة ، وهو حذيفة بن الغيرة ، وينتهي إلى مخزوم ، ثم إلى مرة بن كعب ، ثم إلى فهر ، فهو قرشيّ يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب . وعبد الله أبوه كان من أشرف قريش وأثريائهم ، وكان يتجر إلى اليمن ، وقد بلغ من غناه أن كانت قريش تكسو الكعبة من مالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، وقد استعمله رسول الله على الجند ومخاليقها باليمن ، وكان اسمه في الجاهلية بَحْزَرَى ، فسماه رسول الله «عبدالله» . أما أمه فهي مجد من أهل اليمن ، ولعلّ رحلة أبيه إلى تلك الأصقاع في متاجره وولايته جعلته يتزوَّج أم عمر من هناك .

وقد ولد عمر ليلة قتل ابن الخطاب رضى الله عنه لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ . ولعلّ هذا هو السبب في تكنيته بأبي الخطاب ، وكان إذا جرى ذكره فيما بعد بين أهل التقوى قالوا في حديث ولادته : « أئى حقّ رفع وأئى باطل وضع » .

نشأة عمر

نشأ عمر يتقلب في ثراء أبيه وغناه الواسع الذى علمت بعض شأنه ، فكان عمر فتى قرشيّاً مترفاً يلبس البرود اليمانية ، ويمتنطى العتاق الفره ، قد حليت بالذهب والفضة ، ويسير في كوكبة من عبيده وأتباعه ، وكان فتى جميلاً يرجل لفته ، ويتعطر ولا عمل له إلا إمتاع نفسه بتلك الثروة الواسعة في بيئة ملئت بالترف ، وجمعت أسباب اللهو ، من جمال ، وغناء ، وغزل ، وفكاهة ، تلك هى الحجاز ، وماض من المدينة ومكة والطائف .

نشأ عمر وحوله كل أسباب النبوغ في الشعر ، وبخاصة هذا النوع الذي اختص به وهو الغزل . فالغنى وفراغ البال ، وأنواع اللهو قد اجتمعت إلى طبع غزل وظرف معم بخول . فإن أبوته من الحجاز ، وأمومته من اليمن ، وهما مشهورتان بصفاء الطبع ، وحلاوة الشائل ، ورقة العاطفة ، وخفة الروح . وهذا إلى ملكة الفصاحة نمتها فيه قرشيته ، ونشأته بمواطن البيان ، ومجالي البلاغة .

أما اختصاصه بذلك النوع من الغزل لا يقول في غيره ولا يعدل عن سبيله ، فإنما كانت دواعيه إليه غناه عن التكسب بالمدح والزلفى إلى الرؤساء ، فلم يكن يقول الشعر لرهبة أو رغبة ، وإنما جعله وسيلة من وسائل نعيمه ، وسبباً من أسباب ترفه ، بل لقد كانت لذته الروحية مقرونة إلى لذائذه الحسية من مطعم وملبس ومركب ، فهو لم يذل عنقه مطعم يحرص عليه ، وإنما خضع للجمال ، واستأسر لمظاهره ، وقضى حياته واقفاً على منظر من مناظره ، أو محدثاً عما وقع منه في نفسه . وعندنا أنه لم يكن يتكلف القول ليعد في الشعراء ، ولكنه كان يسجل في قوله حوادث جرت له وتاريخاً مر به فلا يتركه من غير أن يقيده في ذلك الشعر الذي يجعله صورة لحياته ، فهو في ذلك بمثابة المترفين الذين نعرفهم بينما يخرجون للصيد أو السياحة في البلاد ، ثم يحتفظون من هذه الحوادث بصور شمسية أو مذكرات يكتبونها ليكون في النظر إليها استعادة لهذه المذكرات الجميلة . فأبو الخطاب لم يتحدث إلى الناس وإنما تحدث إلى نفسه بهذا الشعر ، ولم يكن همه أن يقال له أحسنت أو استحققت جائزة . ودليل ذلك أنه لم يكن له مع الشعراء حديث طويل ، ولا له بهم اجتماع في سوق أو عند أمير . وإنما كان مجلسه في المعجبين بشعره من المغنين ، أو الفتيان الناشئين على نهجه في الغرام بالجمال والتحدث عنه .

نوع الغزل في شعره

عرفت من سابق كلامنا عن الغزل في الشعر الأموى أنه انقسم في هذا العصر إلى أقسام : العذرى والإباحى والصناعى ، وإنما يهمننا في هذا المقام الموازنة بين النوعين الأولين . أما الغزل العذرى فقد كان شأن الأعراب في مطارح بداوتهم ، يعشق الرجل منهم امرأة بعينها ، فتملك عليه نواحي نفسه بل قد يضلّ سعيه ، ولا يستطيع أن يكتم حبها ، وهو يعلم أن في إشاعته وإذاعته حرمان الأبد منها ، ولكنه يضطرّ إلى ذلك اضطراراً ، فيحال بينه وبين ما يشتهى من الزواج بمحبوبته ، ويظلّ حياته شاكياً باكياً يناطب الأطباء وبقر الوحش لما يرى فيها من مشابه في محبوبته ، ويستهدى الرياح سلامها ، ثم لا يكون من عاقبة أمره إلا أن يموت كمدّاً وقد ملأ الدنيا شعراً . وترى سمة هذا الشعر حرارة الوجدان ، وطهارة اللسان . واللهفة على اللقاء ، وحذر الرقباء . ليس فيه إخفاش في وصف ، ولا ذكر لخلوة ، ولا حيلة في الوصول ، ولا مقارفة لفاحشة في لقاء . ومن مظاهره أيضاً ، أن المرأة في هذا الشعر صامتة يقال لها ولا تقول ، وتناجى ولا تنم بجواب .

وأما الغزل الإباحى فهو الذى يستبيح فيه الشاعر ما لم يستبحه صاحب العذرى ، ومظهره أنه إلى اللهو أقرب منه إلى الغزل ، فإن الموصوفة فيه غير واحدة بل كلّ برزة الخماسن ، فهى عروس من عرائس هذا الشعر يصف منها الشاعر ظاهرها وخفى أمرها ، ويذكر الخلوة بها والتحدّث إليها ، وما كان بينهما من دعاية وتجميش ، بل لقد يبرز فيه الشاعر محبوبته محبة ، ومعشوقته عاشقة ، فهى ترسل إليه وتستزيه وتمتال لمصيره إليها ، وذلك في دين العشق القديم غير جائز ولا مستساغ .

وعمر بن أبى ربيعة هو صاحب هذا المذهب : أكثر من معشوقاته ووصفهن جميعاً في شعره وذكر ما جرى منه ومنهن ، ولم يكن العرب يعرفون الغزل بهذه المثابة قبله ، فملوه لواء هذا النوع ، وجعلوه زعيم كلّ من اتبع سبيله من الشعراء .

وفرق ما بين هذا النوع وسابقه أن حرارة الوجدان في الأول محسوسة ملموسة وأن رنة الأسى فيه قوية الجرس شديدة الحنين وأنه إذ كان موطنه البداوة ظهرت فيه سماتها من سداجة وقناعة .

فاسمع سداجة جنادة العذريّ حيث يقول :

مِنْ حُبِّهَا أَتَمَّنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي مِنْ نَحْوِ بَلَدِهَا نَاعٍ فَيَتَنَاها
كَيْمَا أَقُولَ فِرَاقَهُ لَإِلِقَاءِ لَهُ وَتُضْمِرَ النَّفْسُ يَا سَأْتُمْ تَسْلَاهَا

ثم اسمع قناعة جميل حين يقول :

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُثَيْنَةٍ بِالَّذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَابِلُهُ
بِلَا ، وَبِأَلَّا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُنَى وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ قَدْ خَابَ أَمَلُهُ
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ تَنْقُضِي أَوَاخِرُهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

أما الثاني فقد اجتمعت فيه ألوان الحياة المدنية من وصف للجمال لاجياء فيه ولا تخرج ، ومن حيل لا تهتدى إليها إلا ألمعية الحضريين ، ومن حديث مبناه الدعابة والظرف ، ولا يدل هذا النوع على أن قائله قد شغف فؤاده الحب وتامه الغرام ، وإنما أكبر دلالاته أن صاحبه طروب ميال للهو ، مطاوع لرغبات النفس ، يقول الشعر متفكها لا متوها ، ويجلس إلى الغانيات لا يرجو شفاء لداء الحب ، أو برّداً لحرارة القلب ، ولكنه يزجي الوقت بمحدثهن ، وإشباع العين من محاسنهن ، فهو ينتقل من مجلس الباب إلى مجلس زينب ، ويخرج من عند عائشة إلى الثريا ، وربما اجتمع بكثير منهن في مجلس واحد .

هكذا كان عمر بن أبي ربيعة ، فقد كانت صواحباته اللاتي ذكرهن في شعره هن : الثريا بنت علي ، وعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، وزينب ، ونعم ، وفاطمة بنت عبد الملك ، ورملة ، ولبابة ، والرباب ، وأسماء .

توبة عمر

ذكروا أن عمر تاب على حدود الأربعين ، ونذر لئن قال بيتاً ليعتقن به رقبة ، ثم انصرف إلى بيته حزينا ، وأدركت جارية له مايجول بنفسه من أسف على تلك التوبة ، ومنازعة إلى العودة إلى ما كان فيه ، فقالت له : إن لك لأمرأ ، وإنك لتريد أن تقول شعراً ، فاندفع يقول :

| | |
|---|--|
| تَقُولُ وَلَيْدَتِي لَمَّا رَأَيْتَنِي | طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا |
| أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا | وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءَ دَفِينَا |
| وَكُنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذُو عَزَاءٍ | إِذَا مَا شِئْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا |
| بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ | فَشَاقَكَ أَمْ بَعَثْتَ لَهَا خَدِينًا ^(١) |
| فَقُلْتَ شَكَا إِلَى أَخٍ حُبٌّ | كَبَعْضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا |
| فَقَصَّ عَلَى مَا يَلْقَى بِهِندٍ | فَوَافِقَ بَعْضِ مَا قَدْ تَعْرِفِينَا |
| وَذُو الْقَلْبِ الْمُصَابِ وَإِنْ تَعْرِى | مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا |
| وَكَمْ مِنْ خَلَةٍ أَغْرَضْتُ عَنْهَا | مِنْ أَجْلِكُمْ وَكُنْتُ بِهَا ضَلِينًا ^(٢) |
| أَرَدْتُ فِرَاقَهَا وَصَبَرْتُ عَنْهَا | وَلَوْ جُنَّ الْفَوَؤَادُ بِهَا جُنُونًا |

قالوا : ثم دعا بتسعة من عبيده فأعتقهم .

وقيل في سبب التوبة : إن أخاه الحرث بن عبد الله لما رأى ما كان منه من استهتار وخروج عما يليق بشرفه ومكانته سيره إلى اليمن ورشاه بألف دينار على ترك الشعر ، فلم يستطع الصبر وقال الشعر من اليمن ، فوصل مع الريح إلى الحجاز .

(١) الخدين : الصديق الذى يتخذه فى كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية (محدثها) وكان العرب فى الجاهلية لا يمتنعون أن يكون للجارية خدين يحدثها فتع الإسلام ذلك قال الله تعالى « ولا تتخذى أخدان » ،
(٢) الخلة بالضم : الخلية .

تذكر الثريا يوما وهو نازح الدار ، فقال :

هيأت من أمة الوهاب منزلنا
واحتل أهلك أجيادا فليس لنا
لا داركم دارنا يا وهب إن نزحت
فلست أملك إلا أن أقول إذا
يا وهب إن يك قد شط البعاد بكم
فكم وكم من دلال قد شغفت به
بل ما نسيت بطن الخيف موقعا
وقولها للثريا يوم ذى حشب
بالله قولى له فى غير معتبة
إن كنت حاولت دنيا أو نعت بها
إذا خللنا بسيف البحر من عدن^(١)
إلا التذكر أو حظ من الحزن^(٢)
نواك عنا ولا أوطانكم وطيني
ذكرت لا يبعدنك الله ياسكني
وفرق السمل مناصرف ذا الزمن
منكم متى يره ذو العقل يفتن
وموقفى وكلانا ثم ذو شجن
والدمع منها على الخدين ذو سنن
ماذا أردت بطول الكث فى يمن
فما أخذت بترك الحج من يمن

وقيل : إنه إنما تاب فى أيام خلافة عمر بن عبد العزيز حين كتب إلى عامله على المدينة : ان أحمل إلى عمر بن أبى ربيعة والأحوص ، فقد عرقتها بالخبث ، فلما صارا عنده قال لعمر : هيه :

فلم أركلتجمير منظر ناظر
ولا كليالى الحج أفائن ذاهوى
وكم مالى عينيه من شىء غيره
إذا راح نحو الجمره البيض كالدوى
فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فتى يفتون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك
لم تنظر إلى شىء غيرك ، ثم أمر بنفيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك ؟
قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله ألا أعود إلى مثل هذا الشعر ، وأجدد توبة على يديك .
قال : أو تفعل ؟ قال : نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه .

(١) سيف البحر : ساحله .

(٢) أجياد : موضع بمكة ، وصمى كذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله به فسمى بذلك .

ولقد يكون من المعقول أن عمر تاب بوحى ضميره لم يدفعه إلى ذلك إغراء أخيه
بالمال ، ولا تخويف الخليفة بالنفى ، ولكنها السنّ وطول العهد يحملان على الملل ،
لجدير بعمر وقد رأى شبابه يتصوّح ، وصباه تتعمرى أفراسه ورواحله ، والغواني يزورن
عنه جانبهنّ ، جدير به لكلّ هذا أن ينصرف عن اللهو وأن يتوب ، ثم كذلك غير
مستغرب من أمره أن تهيج له الذكرى بعض ما كان فيه فيعود إلى شيء من غزله
ولكن حدّته تكون قد قترت وجلال السن يرأبّه عن ذكر ما كان يحلّه له الشباب
وشرّخه من فتك فى العشق ونخش فى الغرام ، فترك دعوى التوسّد ، ونزع الجاسد ،
وفك الإزار ، وحل المعاهد ، ورشف الثغور ، وضمّ الحصور ، وذكر الغافلات ، ورعى
الحصنات ، فأصبح يقول :

إِنِّى امرؤٌ مُّولَعٌ بالحسن أتبعه لاَحِظْ لِي فِيهِ إِلا لَذَّةُ النَّظَرِ
ويقول :

ربّ يومٍ لهوَتُهُ بجوار ربائب^(١)
ليس فيه مُحَرَّمٌ وإله المغارب
غير أنا نشفى الصدو ربّ ذُرْوِ التَّعَاتِبِ^(٢)

بعد أن كان يقول :

ثم قالت وساحت بعد منع وَأَزْنِى كَفًّا تَزِينُ السَّوَارِ
فتناولتها فمالت كعُصْنِ حَرَكَتَهُ الرِّيحُ عَلَيْهِ فَمَارِ
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً كَجَنَى النَّخْلِ شَابِ صِرْفًا عَقَارِ
ثم كانت دون اللحاف لمَشْغُو فِي مَعْنَى بِهَا صَبُوبٍ شَعَارِ
واشتكت شدة الإزار من البُهِر وَأَلْقَتْ عَنْهَا لَدَى الْحَارِ

(١) ربائب : جمع ربيبة وهى المعاهدة بالتربية .

(٢) الذُرْوُ من القول : الطرف منه ، وأخذ فى ذرو الحديث : إذا عرض ولم يصرح .

جَذَا رَجُّهُمَا إِلَيْهَا يَدِيهَا فِي يَدَيَّ دِرْعِيهَا تَحُلُّ الْإِزَارَا

ويقول :

| | |
|--|--|
| فَتَأْهَبْتُ لَهَا فِي خَفِيَّةٍ | حِينَ مَالِ اللَّيْلِ وَاجْتَنَى الْقَمَرَ |
| فَأَذَاقَنِي لَنَيْدَا خِلْتُهُ | ذَوْبَ تَحْلٍ شَيْبَ بِالمَاءِ الْخَصِرِ ^(١) |
| وَمُدَّامٍ عُمَّتَتْ فِي بَابِلٍ | مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ أَوْ خَمْرِ جَدَرٍ ^(٢) |
| فَتَقَضَّتْ لِيَلَتِي فِي نَعْمَةٍ | مَرَّةً أَلْثَمُهَا غَيْرَ خَفِرٍ |
| وَأَفْرَى مِرْطَهَا عَنْ مُحْطَفٍ | ضَامِرِ الْأَحْشَاءِ نَعْمَ الْمُؤْتَزِرِ |
| فَلَهُونَا لَيْلِنَا حَتَّى إِذَا | طَرَبَ الدِّيكِ وَهَاجَ الْبُذْكَرِ |
| حَرَّكَتَنِي ثُمَّ قَالَتْ جَزَعًا | وَدَمَوْعَ الْعَيْنِ مِنْهَا تَبْتَدِرِ |
| قَمِ صَفِيَّ النَّفْسِ لَا تَقْضُخْنِي | قَدْ بَدَا الصَّبْحُ وَذَا بَرْدُ السَّحَرِ |

خصائص شعر عمر

أظهر ما في هذا الشعر من الخصائص ذلك القصص الذي يطول فيه نفس عمر بما لم يسبق إليه شاعر من العرب : فيذكر لك الحيلة في اللقاء ، ثم ماجرى من عناق وحديث وماتلطف به للخلاص من الرقباء ، كما يحكى لك مراسلته للحبيبة ، ومازود به الرسول من قول وحذر وما رجع به الرسول من تحية الحبيبة وترحيبها ، وما كان بين الغواني من نقاش في أمره ، وحديث عن زيارته ، فهو بذلك خالق لهذا النوع من القصص الذي يدعى بعض علماء الأدب ظلما خلوة الشعر العربي منه ، فهاهو ذا شعر ابن أبي ربيعة يقيم الدليل على أن العرب لم يعيهم هذا النوع .

(١) الخصر : البارء .

(٢) المدام : الخمر كالمدامة ، وصميت كذلك لطول دوامها في الدن . جدر : بلدة بين حمص وسامية .

فاستمع لقول عمر ، ولعله جمع لك كل ما يكون من لقاء ، وما يجرى في اللقاء من حديث الحب وما يعرض فيه من وصف الجمال ، ثم ما يكون من الهموم بالرحيل ووصف الوداع ، وذكر الحيلة في الخلاص ، واستشارة المرأة لمن يكتمن سرّها من أخواتها حتى لا يفتضح أمرها ، فذلك حيث يقول عمر :

فلما فقدت الصوتَ منهم وأطفئتُ مصابيحُ شُبَّتْ بالعشاءِ وأنورُ^(١)
وغابَ قَيرُ كُنتُ أرجو عُيُوبَهُ ورَّوَّجَ رُعيانُ ونومٌ مُمرُ^(٢)
ونَفَضْتُ حنى النومِ أَقبلتُ مِشيَةَ الحُبابِ ورُكني خِيفَةَ القومِ أزوَرُ^(٣)
فحيَّتْ إِذْ لا قِيتَها فتَوَلَّمتْ وكادتُ بمكنونِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وقالتُ وعَضَّتْ بالبَنانِ فضَحَّنتِ وأنتَ امرؤٌ ميسورٌ أمرِكُ أعسرُ
أرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيكَ أَلَمْ تَخَفْ رَقِيْبًا وَخَوَلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضِرُ^(٤)
فواللهِ ما أَدْرِى أَتَعْجِلُ حاجَةً سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدَنَامَ مَنْ كُنْتُ تَحْذَرُ
قُلتُ لها بل قَادَنِي الشَّوْقُ والهوى إِلَيْكَ وما عَيْنُ مَنْ النَّاسِ تَنْظُرُ
فِيَاللَّهِ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ وما كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
وِيَالكَ مِنْ مَلْهَى هَناكَ ومَجْلَسِ لَنَا لَمْ يُكْذِرْهُ عَلَيْنَا مُكْذَرُ
يَمُجُّ ذِكِّي الْمِسْكِ مِنْهَا مُفَلَّجٌ رَقِيْقُ الْحَواشِي ذُو غُرُوبٍ مُوَسَّرُ^(٥)
يَرِفُ إِذَا تَفَلَّسَتْ عَنْهُ كَأَنَّهُ حَصَى بَرَدٍ أَوْ أَقْحُونُ مُنَوَّرُ^(٦)

- (١) أنور : جمع نار ، ويقال أنور بالواو أيضاً .
(٢) رَّوَّجَ رعيان : أى روحوا لابلهم . رعيان : جمع راع كركبان جمع راكب . وممر : جمع سامر .
(٣) في رواية العين بدل النوم ، والمعنى احترست من العين (الرقيب) . والنفضة : القوم يتقدمون الجيش يفتشون له الطريق .
(٤) أرَيْتَكَ : أصابها أرأيتك ، ومعناها أخبرني . هنا . من هان بمعنى حقر .
(٥) المفلاج : الفم الذى بين أسنانه فروج . الغروب : جمع غرب وهو الحد ، وتحديد الأسنان (دقة أطرافها) جمال فيها . يقال أشرت الأسنان إذا صار فيها حوز ، والواحد منها أشرة ، والجمع أشر .
(٦) يرف : يتلأأ . البرد : قطع الثلج تسقط من السماء عند اشتداد البرد ، تشبه بها الأسنان في البياض .

وَتَرَوْهُ بِعَيْنَيْهَا إِلَىٰ كَمَا رَنَا
فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقَلَّهُ
أَشَارَتْ بَأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
فَمَا رَاعَى إِلَّا مُنَادٍ بِرِخْلَةٍ
فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَوَّرَ مِنْهُمْ
فَقُلْتُ أَبَادِيهِمْ فِيمَا أَفْوَتْهُمْ
فَقَالَتْ أَنَحْقِيqًا لِمَا قَالَ كَاشِحُ
فَإِنْ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فَفِيرُهُ
أَقْصُ عَلَى أُخْتِي بَدْءَ حَدِيثِنَا
لَعَلَّهَا أَنْ تَبْغِيَ لَكَ مَخْرَجًا
فَقَامَتْ كَثِيبًا لَيْسَ فِي وَجْهِهَا دَمٌ
فَقَالَتْ لِأُخْتِهَا أَعِينَا عَلَى فَتَى
فَأَقْبَلْتُنَا فَارْتَاعَتَا ثُمَّ قَالَتَا
يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنَا مُتَنَكِّرًا
فَكَانَ يَحْتَجِي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقَى
فَلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قُلْنَ لِي

إِلَى رَبِّ رَبِّ وَسَطِ الْخَيْلَةِ جُوذُرُ^(١)
وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِهِ تَنْغَوْرُ
هُبُوبُ^(٢) وَلَكِنْ مَوْعِدُكَ عَزَّوْرُ^(٣)
وَقَدْ لَاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصَّبْحِ أَشَقَرُ
وَأَيَّاهُمْ قَالَتْ أَشِرُ كَيْفَ تَأْمُرُ
وَلَمَّا يَنَالُ السِّيفُ نَارًا فَيَنَارُ^(٤)
عَلَيْنَا وَتَصْدِيقًا لِمَا كَانَ يُؤْتَرُ^(٥)
مِنَ الْأَمْرِ أَذْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ
وَمَالِي مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ
وَأَنْ تَرْجُبَا سِرِّبًا بِمَا كُنْتُ أَخْصَرُ^(٦)
مِنَ الْحُزْنِ تُدْرِي عِبْرَةً تَتَحَدَّرُ
أَتَى زَائِرًا وَالْأَمْرُ لِلْأَمْرِ يُقَدَّرُ
أَقْلَى عَلَيْكَ أَلْهَمَ فَالْخَطْبُ أَيْسَرُ
فَلَا سِرْنَا يَفْشُو وَلَا هُوَ يَظْهَرُ
ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعْبَانٍ وَمُعْصِرُ^(٧)
أَلَمْ تَتَّقِ الْأَعْدَاءَ وَاللَّيْلُ مُقَمِّرُ

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش . الجوذُر بضم الذال وفتحها : ولد البقرة الوحشية .

(٢) عزور : موضع بمكة .

(٣) أبا ديهم : أظهر عليهم .

(٤) يؤثر : يحكي .

(٥) السرب ، بالفتح : الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر (كفروح) : ضاق ذرعاً .

(٦) الحن : الزنس ، والمراد هنا مطلق الوفاة في ثلاث شخوص ، أنت العدد على المعنى لكلمة شخص

لأن المراد به هنا المرأة . المعصر : المرأة راهقت العشرين .

وَقُلْنَ أَهَذَا دَأْبُكَ الدَّهْرَ سَادِرًا أَمَا تَسْتَحْيِ أَوْ تَرْعَوِي أَوْ تُفَكِّرِينَ^(١)
كذلك من خصائصه في شعره تهوين أمر الحب وتسهيله على الناس ، وجعله سنة
الطبيعة منذ خلق الناس ، فهو يقول لمحبوبته :

وَقُولِي لِنِسْوَانٍ لَحَيْنِكَ فِي الْهَوَى إِذَا عَقَلُ إِحْدَاهُنَّ عَنْ وَصْلِنَا عَزَبَ
أَجْنَتَا الَّذِي لَمْ يَأْتِهِ النَّاسُ قَبْلَنَا فَقِيلِي مِنَ النَّسْوَانِ وَالنَّاسِ مَنْ أَحَبُّ



فَإِنْ نَحْنُ جِئْنَا سُنَّةً لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فَنَحْنُ إِذَا مَا يَقُولُونَ أُخْرُقُ
وَإِنْ كَانَ أَمْرًا سَنَّهُ النَّاسُ قَبْلَنَا فَعِيمَ مَقَالِ النَّاسِ فِينَا تَفَرَّقُوا ؟
أَحَقُّ بَأَنْ لَمْ تَهْوُ غَانِيَةٌ فَتَى وَأَنْ أَنْسَأَ لَمْ يُحِبُّوا وَيَعِشَقُوا
فَمَنْ ذَا الَّذِي إِنْ جِئْتُ مَا أَمَرُوا بِهِ يَبِيتُ بِهِمْ آخِرَ اللَّيْلِ يَأْرُقُ^(٢)
وقد أورد الأغانى : أن مُصْعَبَ بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ عدد من خصائص شعر عمر نيفاً
وخمسين ميزة ، ولكننا نعدُّ أكثرها معنى اخترعه أو لفظاً وفق إليه أو أسلوباً تلتطف
فيه ، وليست جميعها من الجسامة بحيث تكون أصولاً ثابتة . ومزايا شاخصة .
ومما قاله مصعب فيه :

« راق عمر بن أبي ربيعة وفاق نظراء وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدة الأمر ،
وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وعطف المساء على
العذال ، وقد قاس الهوى وأعلنه وأسرّه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، واستبكى عاذله ،
ونقض النوم ، وأغلق رهن منى » .

وأنت ترى أن بعض هذه المزايا يشاركه فيها غيره كسهولة الشعر وشدة الأسر ،

(١) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما يصنع .

(٢) أى إذا فعلنا ما أمروا به من عدم اللقاء فنحن الذين سلسلق بالأرق والحزن .

وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الريع . وبعضها ليست إلا سبقاً إلى معنى أو اهتداء إلى أسلوب .

فأما السبق إلى المعنى ، فقوله في عطف المساءة على العذال :

لَا تَلْمِني عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي إِنَّ بِي يَا عَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
لَا تَلْمِني وَأَنْتَ زَيَّنْتَهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

كذلك قياسه الهوى في قوله :

وَقَرَّبَنِي أَسْبَابَ الْهَوَى لِمَتِّمْ يَقِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قَسَنَ إِضْبَعًا

وأما ما سبق إليه من لفظ ، فاستعماله تنفيض النوم في قوله :

وَنَفَضْتُ عَنِي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مَشْيَةَ الْحُجَابِ وَرُكْنِي خَشْيَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ

وأما ادعاء ابن الزُّبَيْرِ سَبْقَهُ الشعراء في إغلاق الرهن في قوله :

وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لَا يُبَاءُ بِهِ دَمٌ وَمِنْ غَلَقِي رَهْنًا إِذَا لَفَهُ مَنِي^(١)

فقد سبقه امرؤ القيس في قوله :

خَلَقَنِي بِرَهْنٍ مِنْ حَبِيبٍ بِهِ أَدَّعَتْ سُلَيْمَى فَأَمْسَى حَبْلُهَا قَدْ تَبَتَّرَا

ولا يفوتنا أن نذكر أن عمر بن أبي ربيعة تلمذ في موضوع شعره ، وهو الغزل لامرئ القيس ، فأخذ معانيه ، ولكنه زاد فيها كثيراً وحلاها بصنع المدنية وزجج الحضارة ، وله فيها حيلة الشياطين ، ورقى المُشْعَوِذِينَ^(٢) في حين أن امرأ القيس بدوي لا يرى غير مشرفيه مخلصاً من كل ورطة . وفي الرائية التي مرّت بك كثير من المعاني تأثر فيها عمر أستاذه امرأ القيس في لاميته التي أولها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالَى وَهَلْ يَمَعَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالَى

فعمري يقول :

(١) يقال أبأت فلانا بفلان إذا قتله به . ويقال غلق الرهن في يد المرتين : إذا مضى وقت استرداده فاستحقه المرتين . مني : أحد مناسك الحج . ولفه : أى جمعه فيمن جمعهم .
(٢) المشعوذ : خفة في اليد وأخذ كالسحر . والمشعوذ بصيغة الفاعل والمفعول : هو الذي يكون منه ذلك .

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الحُباب ورُكني خيفة القوم أزور
وأمرؤ القيس يقول :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَبَاب الماء حالا على حال
ولا شكَّ عندنا أن امرأ القيس لا يداني في بيته هذا ، فإنه معدود من أوابده .
فإن مشية الحباب في قول عمر وإن دلت على التسلل والحذر ليس فيها ما في سمو
حباب الماء وصعود فواقعه ، وذلك شيء يرى ولا حس له ، وهو في السرعة والانتها
إلى الغرض لا يقوم مقامه تعبير آخر ، وقد زاده قوله حالا على حال جمالا لا يعدله جمال
لذلك كان قول امرئ القيس بحقَّ أشرف تعبيراً ، وأدقَّ تصويراً .
ويقول امرؤ القيس :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتُ هَصَرْتُ بغصن ذى شماريخ ميَّال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورُضْتُ فذلتُ صعبةً أىَّ إذلال
ويقول عمر :

ثم قالت وساحتُ بعد منعٍ وأرتنى كَفَا تزين السَّوارا
إلى آخر الأبيات السابقة في أول الترجمة ، وامتنياز عمر ظاهر، في تفصيله القول ، وحكاية
الحال ، وإباحته المطلقة فحين يقول امرؤ القيس : * « فذلت صعبةً أىَّ إذلال » *
يقول عمر : * « أرتنى كفا تزين السوارا » *

فجعلها هي البادئة بالفرزل ثم يقول : * « فتناولتها فالت كغصن » *
فيصور الحركة تصويراً واضحاً ، ثم يفحش ويكشف ما ستر امرؤ القيس في قوله :
* « ذلت أىَّ إذلال » * ، فيقول : * « ثم كانت دون اللحاف .. » *
ففي قول امرئ القيس تمثل ضيق خيال البدوى وشدة إيجازه للقول وتجافيه عن الإفحاش
إلى حديث ما ، وعلى خلاف ذلك قول عمر ، ففيه الخيال الواسع والإطناب الوافي والإفحاش
الذي لا حجاب دونه ، ولا تورع معه .

ويقول امرؤ القيس :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغارِ القتل شدت يبذل

ويقول عمر :

فيا لك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

وبيت امرؤ القيس في موضوعة لا يضارعه بل لا يكاد يدنو منه بيت عمر فالقوة ظاهرة فيه ، والتشبيه محكم ، وبیت عمر خال من كل ذلك .

ويقول عمر :

وقالت وعصت بالبنان فصختني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف رقيباً وخولي من عدوك حضر

ويقول امرؤ القيس :

فقلت سبأك الله إنك فاضحى ألت ترى الشمار والناس أخوالى

وفى قول عمر أثر للحضارة ، واتساع معانيها ، والتلاعب بألفاظها .

ويقول عمر :

فكان يحبنى دون من كنت أتقى ثلاث شخص كعبان ومغصير

ويقول امرؤ القيس :

أقتلنى والشرفى مضاجى ومسئونة زرق كانياب أغوال

فلجأ عمر إلى الحيلة في فواتهم ، وهذا فضل حضارته على بداوة امرؤ القيس .

طرف من أخباره

١ — كان عمر محباً للثريا بنت عبد الله بن أمية الأصغر ، وكانت حرة بذلك جالاً وتاماً ، وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو كل غداة من مكة يسأل الركاب

الذين يعملون الفاكهة من الطائف إلى مكة عن الأخبار ، فلقى يوما بعضهم فسأله عن أخبارهم فقال: ما استطرفنا خبراً إلا أن امرأة من قريش اسمها نجم في السماء (ذهب عن اسمها) قد ماتت ، فقال له عمر الثريا ، قال : نعم ، وكان قد بلغه قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه إلى الطائف يَرَهُ كُضُهُ مِلءُ فروجه حتى انتهى إلى الثريا ، وقد توقعته ، وهي تتشوف له وتتشوق ، فوجدها سليمة ، ومعها أختها ، فأخبرها الخبر ، فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأخبر ما عندك ، وفي ذلك يقول عمر :

تَشَكَّى الْكُمَيْتُ الْجَرَى لَمَّا جَهْدَتْهُ وَبَيْنَ لَوْ يَسْطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ أَلْقَى لِلْعَيْنِ قُرَّةً فَهَانَ عَلَيَّ أَنْ تَكِلَ وَتَسْأَلُمَّ
عَدِمْتُ إِذَا وَفَرِي وَفَارَقْتُ مُهْجَتِي لَنْ لَمْ أَقِلْ قَرَنًا إِنْ اللَّهُ سَلَّمَ^(١)
لِذَلِكَ أَدْنَى دُونَ خَيْ— إِلَى مَكَانِهِ وَأَوْصِي بِهِ أَلَّا يُهَانَ وَيُكْرَمَا

٣ — قالوا حج أبو الأسود الدؤلي ومعه امرأته وكانت جميلة ، فبينما هي تطوف إذ عرض لها عمر ، فأنت أبا الأسود فأخبرته ، فأثاه أبو الأسود فعاتبه ، فقال له عمر : ما فعلت شيئا ، فلما عادت إلى المسجد كلها ، فأخبرت أبا الأسود ، فأثاه في المسجد ، وهو جالس مع قوم ، فقال له أبو الأسود :

وَإِنِّي لَيُثْنِيَنِ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَاءِ وَعَنْ شَتْمِ أَقْوَامٍ خَلَاتِقُ أَرْبَعِ
حَيَاءٍ وَإِسْلَامٍ وَبُقْيَا وَأَنِّي كَرِيمٌ وَمِثْلِي قَدْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ^(٢)
فَشَتَّانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْتَقِيمُ وَتَظْلَعُ^(٣)
فقال عمر : لست أعود لكلامها بعد اليوم ، ثم عاد فكلمها ، فأنت أبا الأسود ، فأخبرته ، فجاء إليه ، وقال :

(١) أقل : مضارع قال بمعنى سكن وهدأ وقت القبلولة (الظهر) . قرن : موضع يسمى قرن المنازل يذكره عمر كثيراً في شعره ، والمعنى على الطرفية : أي أقل فيه .

(٢) البقيا : الاشفاق والرحمة .

(٣) ظلع (كنفع) عرج وعجز في مشيته .

أَنْتَ الْفَتَى وَابْنُ الْفَتَى وَأَخُو الْفَتَى وَسَيِّدُنَا لَوْلَا خَلَاتُكَ أَرْبَعُ
نُكُولٍ عَنِ الْجُلَى وَقُرْبٍ مِنَ الْخَنَا وَبُحْلٍ عَنِ الْجَدْوَى وَأَنْتَ تَبْعُ^(١)

ثم خرجت ومعها أبو الأسود مشتملا على سيف ، فلما رآها عمر أعرض عنها ، فتمثل
أبو الأسود :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وَتَتَقَى صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِي^(٢)
٣ - واعد عمر نسوة من قریش إلى العقيق ليتحدثن معه ، فخرج إليهنّ ومعه
الغريض ، فتحدثوا مليا ، ثم مطروا ، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة ، فأظلوا
عليهنّ بمطرف وبردين له حتى استترن من المطر إلى أن سكن ثم انصرفن ، فقال له
الغريض : قل في هذا شعرا حتى أتغنى فيه ، فقال عمر :

أَلَمْ تَسْأَلِ الْمَنْزِلَ الْمُقْفَرَا بِيَانَا فَيَكُنْ أَوْ يُخْبِرَا
ذَكَرْتَ بِهِ بَعْضَ مَا قَدْ شَجَاكَ وَحُقُّ لَدَى الشَّجْوِ أَنْ يَذْكَرَا
مَيِّتَ الْحَبِيبِينَ قَدْ ظَاهَرَا كِسَاءَ وَبُرْدِينَ أَنْ يُمَطَّرَا
وَمَمَشَى الثَّلَاثَ بِهِ مَوْهِنَا خَرَجْنَا إِلَى زَائِرٍ زُورَا^(٣)
إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ وَرَاءِ الْقُبَا بِ سَهْلِ الرِّبَا مُنْبِتِ أَغْفَرَا^(٤)
عَقَلْنَا عَنِ اللَّيْلِ حَتَّى بَدَتْ تَبَاشِيرُ مِنْ وَاضِحِ أَغْفَرَا
فَقَمْنُ يُعَفِّينَ آثَارَنَا بِأَكْسِيَةِ الْخَزِّ أَنْ تُقْفَرَا^(٥)

(١) التبع : من يتبع النساء .

(٢) البيت للنايفة . وقد أدخله الزرقان في شعره . قال ابن سلام : سألت بونس عن البيت فقال :
هو للنايفة وأظن الزرقان استزاده في شعره كالثلث حين جاء في موضعه ، والعرب تفعل ذلك
لا يريدون السرقة .

(٣) الموهن : الثلث الأول من الليل ، أو بعد ساعة منه .

(٤) القبة : البناء السمن . والمراد هنا بيوت الحى لأنها عادة تكون كذلك أو المراد بها الخيام . أغفر
وصف للمجلس : أى ذى رمل أحمر .

(٥) عفى الذيل الأثر : محاء . فقر الأثر : اقتفاء وتنبهه والتقدير في قوله أن تقفرا : خوف ذلك

مَهَاتَانِ شَيَّعَتَا جُودَرَا أَسِيلًا مُقَلَّدُهُ أَخَوَرَا
وَقُمْنَ وَقُلْنَ لَوَأْتِ النِّهَا رَ مُدَّةُ اللَّيْلِ فَاسْتَأَخَرَا
قَضَيْنَا بِهِ بَعْضَ أَشْجَانِنَا وَكَانَ الْحَدِيثُ بِهِ أَجْدَرَا

٤ - عتبت الثريا على عمر لأنه مدح رملة (وكانت قبيحة جبهة الوجه عظيمة الأنف) ، وكان من حديثها أن تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر وجمع بينها وبين عائشة بنت طلحة ، فقال يومًا لعائشة : فعلت في محاربة الخوارج كذا وصنعت كذا فقالت له عائشة : أنا أعلم أنك أشجع الناس ، وأعرف لك يومًا أعظم من هذا اليوم الذي ذكرته ، وهو يوم اجتليت رملة ، وأقدمت على وجهها وأنفها . فلما قال عمر ابن أبي ربيعة في رملة :

وجلا بردُها وقد حَسَرَتْهُ نُوْرَ بَدْرِ يُضِيهِ لِلنَّاطِرِينَا
قالت الثريا : أفٍ له ما أكذبه أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟ ولكن ابن أبي عتيق توسط ما بين الثريا وعمر حتى عادت إلى الرضا ، وقد قص عمر قصتها هذه في قوله :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أَتُحِبُّ الْقَتْلَ أَخْتُ الرَّبَابِ (١)
قلت وجدي بها كَوَجْدِكَ بِالْعَدُوِّ إِذَا مَا مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرَابِ
مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا فَإِنِّي ضِغْتُ ذَرْعًا يَهْجُرُهَا وَالْكِتَابِ (٢)
أَرْهَقْتُ أُمَّ نُوْفَلَ إِذْ دَعَتْهَا مُهْجَتِي مَا لِقَاتِي مِنْ مَتَابِ (٣)
حينَ قَالَتْ لَهَا أَجِيبِي فَقَالَتْ مِنْ دَعَانِي ؟ قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ
فَأَجَابَتْ عِنْدَ الدَّعَاءِ كَمَا لَبَّى رِجَالُ يَرْجُونَ حُسْنَ الثَّوَابِ
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَاهَةِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أَثْرَابِ

(١) القتل : صيغة مبالغة من القتل . الرباب : جمع ربابة بمعنى السحابة .

(٢) والكتاب : قسم بالقرآن .

(٣) أم نوفل كانت تتلطف لعمر عند الثريا فلما دعتهما لصلحه فلم تجبها الثريا كادت ترهق روحه .

وهي مكنونةٌ تحيّرُ منها في أديم الخدينِ ماءُ الشباب
 دُمِيَّةٌ عندَ راهبٍ ذى اجتهد صَوْرُوها في جانبِ المِخْرَابِ
 ثم قالوا تُحِبُّهَا قُلْتُ بِهِرًا عَدَدَ النَّجْمِ وَالْحَصَى وَالْتِرَابِ (١)
 أَذْكَرْتُني من بهجةِ الشَّمْسِ لَمَّا طلعتُ من دُجْنَةٍ وَسَحَابِ
 فَارْجَحْتُ من حُسْنِ خَلْقٍ عَمِيمٍ تَهَادَى في مَشْيِهَا كَالْحُبَابِ (٢)
 غَصَبْتُني بِمَجَاجَةِ الْمِسْكِ عَنِّي فَسَلُّوها مَاذَا أَحَلَّ اغْتِصَابِي (٣)
 قَلَدُوها من القَرَنُفْلِ وَالذُّرِّ رِ سِخَابًا وَاهاً لَهُ من سِخَابِ (٤)

وفاة عمر

اختلفوا في موته ، فبعضهم يقول : إنه مات سنة ٩٣ هـ ، فيكون عمره سبعين سنة ، وبعض يقول : إنه عاش ثمانين سنة ، فيكون قد مات سنة ١٠٣ هـ ، ويكون خبر لقائه لعمر بن عبد العزيز صحيحاً لأن عمر بن عبد العزيز لم يتول إلا سنة ٩٩ هـ .

ويروى أنه لما مات اشتدَّ الحزن على جارية حبشية بمكة ، وراحت نحو المدينة أشدَّ ما تكون حزناً وإعوالاً ، وهي تقول من لمكة وشبابها وأباطحها ونزهاها ، ووصف نساها ، وحسن جمالهن بعد عمر ، فقالوا لها : خفي عليك فقد نشأ من يأخذ مأخذه ، ويسلك مسلكه يعنون العَرَجِيَّ ، فقالت : أنشدوني من شعره ، فأنشدوها :

إِنِّي وَمَا نَحْرُوا غَدَاةً مِنِّي عِنْدَ الْجَمَارِ تَوَوَّدَهُ الْعُقْلُ (٥)

(١) بهرا : أى بهرنى حبها بهرا أى غلبنى . وقيل إن بهرا معناه تبالكم على لومكم لى فى حبها فهى كلمة دعاء عليهم .

(٢) ارجحن : مال واهتز . عميم : تام . الحباب : الحية .

(٣) مجاجة : صيغة مبالغة ، من مج الشيء بمعنى لفظه من فيه ، يعنى أنها لطيب نكهة فيها كأنما تمتج منه مسكا .

(٤) السخاب : القلادة . واهالكذا : كلمة تعجب بمعنى ما أحسنه .

(٥) العقْل : جمع عقال ، وهو ما تهيد به الدابة والأصل فى الجمع عقل بضمين وسكن تخفيفاً للشعر ويصح ضبطها العقل بالفتح (كبحر) والمعنى يثقله الحبس .

لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَىٰ مَنَازِلِهَا سَفَلًا وَأَصْبَحَ سُفْلُهَا يَعْلُو
فِيكَادَ يَعْرِفُهَا الْخَبِيرُ بِهَا فَيَرُدُّهُ الْإِقْوَاءُ وَالْمَحِلُّ^(١)
لَعَرَفْتُ مُعْنَاهَا بِمَا اخْتَمَكْتُ مِنْ الضَّلُوعِ لِأَهْلِهَا قَبْلُ^(٢)
فَمَسَحَتْ عَيْنَهَا وَضَحَكَتْ وَقَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ حَرَمَهُ .

ج ر ير

[نسبه] : هو جرير بن عَطِيَّةَ بْنِ الْخَطَفِيِّ^(٣) ، وَالْخَطَفِيُّ هُوَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ،
وَيَنْتَهِي إِلَىٰ نَزَارٍ ، وَكُنْيَةُ جَرِيرٍ أَبُو حَزْرَةَ . وَأُمُّ جَرِيرٍ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَيَنْتَهِي
إِلَىٰ يَرْبُوعٍ ، وَأُمُّ عَطِيَّةِ هِيَ النَّوَارُ بِنْتُ يَزِيدٍ ، وَيَنْتَهِي إِلَىٰ كَلِيبٍ .
وَجَرِيرٌ مِنْ كَلِيبٍ وَكَلِيبٌ مِنْ يَرْبُوعٍ وَيَرْبُوعٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، وَتَمِيمٌ مِنْ مِضَرَ ،
وَمِضَرٌ تَنْتَهِي إِلَىٰ عَدْنَانَ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَقُولُ فِي مَفَاخِرَةِ الْأَخْطَلِ :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبَا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنَّبُوَّةَ فِينَا
مُضَرَّ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا خُزْرُ تَغْلِبُ مِنْ أَبِي كَأَيْنَا
هَذَا ابْنُ تَمِيمٍ فِي دِمَشْقٍ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمْ إِلَىٰ قَطِينَا

[نشأته] : وَلَدَ بِالْيَمَامَةِ^(٤) سَنَةَ ٤٢ هـ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ وَقِيلَ إِنَّهُ وَلَدَ لِسَبْعَةِ أَشْهُرٍ ،
وَإِنْ أُمُّهُ رَأَتْ قَبْلَ وَلَادَتِهِ كَأَنَّهَا وَلَدَتْ حَبَلًا أَسْوَدَ ، فَلَمَّا سَقَطَ مِنْهَا جَلَّ يَنْزَوُ وَيَقَعُ

(١) الْإِقْوَاءُ : عَفَاءُ الدَّارِ . الْحِلُّ : الْجَدْبُ .

(٢) الْمَغْنَى : الْمَنْزِلُ الَّذِي غَنَى بِأَهْلِهِ ثُمَّ ظَنُّوا عَنْهُ ، أَوْعَامٌ .

(٣) غَلَبَ لُغَبُ الْخَطَفِيِّ عَلَىٰ جَدِّ جَرِيرٍ لَوْ قَوَّعَ هَذَا اللَّفْظُ فِي شِعْرِ لَهُ . وَمَعْنَى الْكَلِمَةِ السَّيْرِ السَّرِيعِ .

(٤) كَانَ قَوْمُ جَرِيرٍ يَنْزِلُونَ بِقَرْيَةٍ حَبَرٌ مِنْ قَرْيَةِ الْيَمَامَةِ بِالْجَنُوبِ الْمَرْقِيِّ مِنْ نَجْدٍ (وَهِيَ الْمَسَامَةُ الْآنَ بِالرِّيَاضِ) .

في عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة فأولت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاما شاعراً ذا شرٍّ وشدةٍ وشكيمةٍ وبلاءٍ على الناس ، فلما ولدته سمته جريراً ، وهو الحبل ، وجعلت ذلك رمزاً إلى رؤياها .

نشأ باليمامة أعرابياً بدوياً فقيراً يرعى لأبيه غنيات له من الضأن والمعزى ، وكان في أخلاقه حبّ الانتقام والإسراف في العداوة ، والميل إلى الشرّ مع خوف وجبن من أعوان السلطان ، وكان مع ذلك ديناً كثير الصلاة والاستغفار عفيفاً ، وإن كان دينه لم يمنعه من قذف المحصنات في سبيل هجاء قومهن .

وما زال جرير بالبادية حتى قال الشعر ، ثم قدم الشام على يزيد بن معاوية ، وهو وليّ عهد ، ومدحه بقصيدة منها :

وَإِنِّي لَعَفْتُ الْفَقْرَ مُشْتَرِكُ الْغِنَى سَرِيعٌ إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي انْتِقَالِيَا
جَرِيءُ الْجَنَانِ لَأَهَابُ مِنَ الرَّدَى إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وَلَيْسَ لِسَيِّفِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ وَلِلْسَيْفِ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

وحدث أن يزيد كتب بهذه الأبيات إلى أبيه معاوية في معرض معاتبة ، ولم ينسبها إلى قائلها ، فظنّ أبوه أنها له ، فلما صار يزيد خليفة استأذن عليه جرير ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين يقول : لا يصل إلينا شاعر لانعرفه ، ولا نسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنأذن لك على بصيرة ، فقال جرير قل لأمير المؤمنين إني القائل ، وذكر الأبيات السابقة فعرفه يزيد وأذن له فأنشره ، واستحقّ جائزته وقال له : والله لقد مات أبي وما يظن أبياتك التي توسلت بها إليّ إلا لي .

ثم كان يقدم البصرة للميرة ، فرأى ما يتمتع به الفرزدق ، (وهو تميمي مثله) من عطايا الخلفاء ، فنفس عليه منزلته وودّ لو يغلبه على مكانته ، فاتصل التهاجي بينهما ، ولكن قول الفرزدق كان أشيع لإقامته بالبصرة مجمع العرب وللزوم جرير للبادية وظل جرير يهجو الفرزدق عشرين سنين وهو مقيم بالبادية والفرزدق بالحاضرة فكان شعره أشيع . ثم ما زال بنو يربوع قوم جرير يرغبونه في سكنى المصر حتى يشيع لهم ذكر بما

يجرى على لسان شاعرهم من مفاخرهم والتنويه بمكاثتهم ، فقدم جرير البصرة وفيها اتصل بالحجاج ، وشاع شعره فشرق وغرب حتى وصل إلى الخليفة عبد الملك . أقدمه عليه الحجاج مع ابنه محمد ، وصار من شعراء الخليفة ، وكان عطاؤه أربعة آلاف درهم في العام .

مهاجاته للشعراء

قال الأصمعي : كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعين شاعراً ، فيبذم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ، وثبت له الفرزدق والأخطل ، وكان من هاجى جريراً فغلبه جرير أرجح عند الناس ممن هاجى شاعراً آخر فغلب .

ولقد سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده وجاء إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها ، وجعل يمصّ ضرعها ، فصاح به : اخرج يا أبت ، فخرج شيخ دميم رثّ الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته ، فقال له : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أو تعرفه ؟ قال : لا . قال هذا أبى . أفتدري لم كان يرضع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعراً فغلبهم جميعاً .

وأساب مهاجاته للشعراء قد وردت في حديثه مع الحجاج حين قدم عليه من قبل الحكم من أيوب الثقفي ، فإن الحجاج أكرمه وكساه وأنزله بكنفه فأقام أياماً ، ثم بعث إليه بعد نومه ، فلما دخل عليه قال له : إيه يا عدوّ الله ! علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلت فداء الأمير . إني والله ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فأنتصر ، مالى ولابن أم غسان ، ومالى وللبعيث ، ومالى وللفرزدق ، ومالى وللأخطل حتى عدّهم واحداً واحداً ؟ فقال الحجاج : ما أدري مالك ولهم . قال : أخبر الأمير أعزّه الله : أما غسان

ابن ذُهَيْل فإنه من قومي هجاني وهجا عشيرتي ، وكان شاعراً قال الحجاج : فما قال ؟ قال :

لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتْ بِحِيلَةٍ زَانِهَا جَرِيرٌ لَقَدْ أَخْزَى كُلِّيًّا جَرِيرُهَا
رَمَيْتَ نِضَالًا عَنْ كُلِّيبٍ فَقَضَّرْتَ مَرَامِيكَ حَتَّى عَادَ صِفْرًا جَفِيرُهَا^(١)
وَلَا يَذُبُّحُونَ الشَّاةَ إِلَّا بِمَيْسِرٍ طَوِيلًا تَنَاجِيهَا صِفَارًا قُدُورُهَا^(٢)
قال : فما قلت له ؟ قال :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي عَنْ سَلِيطٍ أَلَمْ تَجِدْ سَلِيطٌ سَوَى غَسَّانَ جَارًا يُجِيرُهَا^(٣)
فَقَدْ صَنَّمُوا الْأَحْسَابَ صَاحِبَ سَوَاءٍ يَنَاجِي بِهَا نَفْسًا خَبِيثًا ضَمِيرُهَا
فَمَا فِي سَلِيطٍ فَارِسٌ ذُو حَفِيزَةٍ وَمَعْقِلُهَا يَوْمَ الْهَيَاجِ جُمُورُهَا^(٤)
قال : ثم من ؟ قال البعيث . قال : فمالك وله ؟ قال : اعترض دون ابن أم غسان ليفضله على ويُعِينه . قال : فما قال لك ؟ قال :

كُلَيْبٌ لِثَامُ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّمُونَهُ وَأَنْتَ إِذَا عُدَّتْ كُلَيْبٌ لَثِيمُهَا
لَقَى مُقْعَدُ الْأَحْسَابِ مُنْقَطِعٌ بِهِ إِذَا الْقَوْمُ رَامُوا خُطَّةً لَا يَرُومُهَا^(٥)
أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَحْيِيَ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَغْيَا كُلِّيًّا قَدِيمُهَا
قال : فما قلت له ؟ قال :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي قَدْ رَمَيْتُ ابْنَ فَرْتَنَى بِصَمَاءَ لَا يَرْجُو الْحَيَاةَ أَمِيمُهَا^(٦)

(١) الجفير : جعبة من جلود لاختشب فيها ، أو من خشب لاجلود فيها : الرامي السهام واحدها مرمة . صفرا : حال ، والمعنى أن جعبة سهامه خلت من السهام وهو لم يزل بعد مأربا .

(٢) يقول يشتركون في الشاة كما يشترك الأيسار في الجزور . التناجي : التشاور .

(٣) سليط : م بنوع جرير وكان غسان بن ذهيل سيدهم .

(٤) المعقل : الملجأ . الهياج : الكسر : الحرب . جمور : جمع جسر بالفتح ، وهو مايبس من العنبرة في المعجر : أي الدبر .

(٥) اللقي : الملقى المهمل .

(٦) الفرثني : المرأة الفاجرة . الصماء : الداهية الشديدة . الأميم : الذي شجبت أم رأسه .

لَهُ أُمُّ سَوْءٍ بِنْتًا قَدَّمَتْ لَهُ إِذَا فَرَطَ الْأَحْسَابَ عُدَّ قَدِيمًا^(١)
قال : ثم من ؟ قال الفرزدق . قال : فمالك وله ؟ قال : أعان البعيث على . قال : فما
قلت له ؟ قال :

تَمَنَّى رَجُلًا مِنْ تَمِيمٍ لِي الرَّدَى وَمَا ذَاكَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ ذَانِدٌ مِثْلِي^(٢)
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَوَاطِنِي وَقَدْ جَرَّبُوا أَنِّي أَنَا السَّابِقُ الْمُجَلِّي^(٣)
فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كَانَ حِلْمِي فِيهِمْ وَكَانَ عَلَى جُهَالٍ أَعْدَاءَهُمْ جَهْلِي
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَرَزْدَقَ حَيَّةٌ وَمَا قَتَلَ الْحَيَاتِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِي

قال : ثم من ؟ قال : الأخطل . قال : مالك وله ؟ قال : رشاه محمد بن عُمَيْرِ بْنِ عَطَارٍ
زِقًا مِنْ خَمْرٍ ، وَكَسَاهُ حِلَّةً عَلَى أَنْ يَفْضَلَ عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَيَهْجُونِي . قال : فما
قال لك ؟ قال :

أُحْسِنُ إِلَيْكَ كَلْبِيبٌ إِنْ مُجَاشِعًا وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهْشَلًا أَخَوَانِ^(٤)
وَإِذَا وَرَدَتِ الْمَاءَ كَانَ لِدَارِمٍ جَمَاتُهُ وَسُهُولَةُ الْأَعْطَانِ^(٥)
وَإِذَا قَذَفْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَعُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يَا إِذَا الْعِبَاءَةَ إِنَّ بَشْرًا قَدْ قَضَى أَلَّا تَجُوزَ حُكُومَةَ النَّشْوَانِ^(٦)

(١) أى إذا فرط فى أحسابه عدّ الناس لأنفسهم أحساباً قديمة ، ويروى إذا فرط الاحساب أو فرط الاحساب (بالتحريك) والمراد ماضيها .

(٢) رجال من تميم : يريد الفرزدق والبعيث وعمرو بن لُجَأَ وغسان بن ذهيل السليطي والمستنير ابن عمرو وهو البلتع .

(٣) السابق المجلى : هذا السابق الأول ، ويروى المبلى : أى الذى أبلى بلاءاً حسناً .

(٤) يقال اذهب إليك : أى اشتغل بنفسك ، فقله هنا : أحسأ إليك أى ابتعد مشتغلاً بنفسك غير متصل بأحد لمقارنتك ، وبجاشع ونهشل من آباء الفرزدق .

(٥) ودارم أبوه الأعلى . جات الماء : جمع جة وهو ما تجمع فى البئر منه . ومراده بقوله : جماته أنهم ذو الأولوية فى السقاية لمكانتهم فلا يجزؤ أحد أن يتقدمهم إلى الماء .

(٦) ذو العباءة : هو الأخطل ، وكان يلبس العباءة وهى من مسوح النصارى . بشر هو بشر بن مروان

فَدَعُوا الْحُكُومَةَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ الْحُكُومَةَ فِي بَنِي شَيْبَانَ^(١)
قَتَلُوا كُلَّيْكُمْ بِلَقَحَةٍ جَارِهِمْ يَا خَزْرُ تَغْلِبَ لَسْتُمْ بِبِجَانٍ^(٢)
قال : ثم من ؟ قال : الراعي . قال : مالك وله ؟ قال : قدمت البصرة ، وكان بلغني أنه
قال في :

يا صاحبي دنا الرواحُ فسيرا غَلَبَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْمُهْجَاءِ جَرِيرًا
فَقُلْتُ لَهُ :

فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ مُتَمَيِّزٍ فَلَا كَمَبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

وسنفضل حديث هذه القصيدة عند رواية شعر جرير .

وما زال الحجاج يسمر بحديث مهاجته للشعراء حتى طلع الصبح ، وقد قال في شأنه :
قاتله الله أعرايا إنه لجروُّهراش .

والواقع أن هذه الأسباب ليست هي الأسباب الجوهرية التي تدعو للعداوة ، وقضاء
العمر في المشاتمة ، ولكن السبب الحق هو الرغبة في الشهرة إذ كانت رواية الشعر شائعة ،
ومجالسه كثيرة ، وأسواقه زاخرة ، وإنما كان موضوعها المهجاء دون غيره لما تعلم من شبوب
نار العصبية بين قبائل العرب إبان هذه الدولة على ما فصلناه لك في مواضع سابقة .

وموضوع هذه المهاجاة على الجملة هو مثالب القبائل ، وما أخذ عليها في سابق أيامها
من بخل وجبن ، وإخفار للذمام ، وإضاعة لحق الجوار ، كذلك الأعراس ، فقد سبت
الأمهات والبنات ، ورمين بالفحشاء ، ولقبن أشنع الألقاب ، وكان نصيب الآباء من

ابن الحكم ، أخو عبد الملك : النشوان : السكران يعيره بما رشاه به محمد بن عطار من زق
الحمر والحلة ليفضل عليه الفرزدق .

(١) بنو شيبان من بكر . والأخطل تغلبي ، وكانت بين بكر وتغلب عداوة ومنافسة .

(٢) كليب هو الفارس الممهور الذي من أجله قامت حرب البسوس وهو تغلبي يجتمع مع الأخطل
في قبيلته . اللقحة : الناقة ، والمراد بها هنا ناقة البسوس التي من أجلها قامت الحرب بين بكر
وتغلب . الخزر : جمع أخزر ، وهو الذي في عينه ضيق وذلك كناية عن اللؤم الهجان : الحيار :

ذلك موفوراً ، فقد رموا كذلك بالفحشاء ، وسبوا بمسبات النساء . كما نسبوا إلى الضعة والامتهان بتناول الصناعات ، وهي في نظر الأعرابي سبة وشنعة ، وقد أكثر جرير من تلقيب أبي الفرزدق بالقَيْن (الحداد) .

وقد كان العربي إلى ذلك الحين يترفع عن الصناعات ، ويرى أنه لا يليق به إلا المجالدة بالسيف ، والتقدم أمام الصف .

ومن أمثلة هذه الأهاجي في كلام جرير ، قوله يهجو التَّيْمَ :

إذا عُدَّ الكرامُ وجدتَ تَيْمًا نُحَاتَهُمْ وَغَيْرَهُمُ الْبَابَا (١)
أبوكَ التَّيْمَ ليسَ بِخُنْدِفٍ أَرَابَ سَوَادُ لَوْنِكُمْ أَرَابَا (٢)
تَرَى اللُّؤْمَ بَيْنَ سِبَالِ تَيْمٍ وَبَيْنَ سَوَادِ أَعْيُنِهِمْ كِتَابَا (٣)
عَرَفْتُ الْعَارَ مِنْ سَبَا لَيْتَيْمٍ وَفِي صَنْعَاءَ خَرَزَهُمُ الْعِيَابَا (٤)
وَمَا تَيْمٌ غَدَاةُ الْحَنُوفِ فِينَا وَلَا فِي الْخَلِيلِ يَوْمَ عَلَّتْ أَرَابَا (٥)
سَمَوْنَا بِالْفَوَارِسِ مُلْجَمِيهَا مِنَ الْغَوْرَيْنِ تَطْلُعُ النَّقَابَا (٦)
دَخَلْنَ حُصُونٌ مَذْجَجٌ مُعَلَّمَاتٍ وَلَمْ يَتْرُكْنَ مِنْ صَنْعَاءَ بَابَا
لَعَلَّ الْخَلِيلَ تَذَعُرُ سَرَّحَ تَيْمٍ وَتَعَجَّلُ زَيْدٌ أَيْسَرَ أَنْ يَذَابَا

وقال يهجو الفرزدق :

أَلَسْنَا لِلْمُجَاوِرِ نَحْنُ أَوْفَى وَأَصْبَرُ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الضَّرَابِ

-
- (١) النغالة من الدقيق : ما يبق من بعد نخله .
(٢) خُنْدِفٌ : منسوب إلى خندف ، وهي ليلي بات حلوان وهي زوج إلياس بن مضر ولدت منه مدركة وطابخة وقعة ، أَرَابَ المَاءُ : بأن فيه ما يريب .
(٣) السبال : جمع سبلة وهي شعر الشارب ، وجعله اللؤم بين شواربهم وأعينهم : أى لأنه ظاهر على وجوههم كأنه كتاب مفتوح يقرأ فيه من ينظر إليهم .
(٤) الخرز : الحياطة بالخرز . العياب : جمع عيبة وهي الحقيبة .
(٥) الخو بالـكسر : موضع ، أَرَابَ (مثلثة الهززة) : موضع .
(٦) النقاب : الطريق في الأرض الغليظة ، أو هي جمع نهب ، وهو الطريق بين جبانين .

وَأَحْمَدُ حِينَ يُحْمَدُ بِالْمَقَارِي وَحَالَ الْمُرَبَّاتُ مِنَ السَّحَابِ^(١)
أَقْنَا يَوْمَ طِخْفَةِ قَدْ عَلِمْتُمْ صُدُورَ الْخَيْلِ تَنْحَطِفُ الْحِرَابِ
وَطِئْنَ مُجَاشِعًا وَأَخَذْنَ عَصَبًا بَنَى النَّجَّارِ فِي رَهَجِ الضَّبَابِ^(٢)
وَعَزُّنَا يَوْمَ ذِي نَجَبٍ وَعُذْتُمْ بَسَعْدٍ يَوْمَ وَارِدَةِ الْكَلَابِ^(٣)
وَيَرْبُوعٌ هُوَ أَخَذُوا قَدِيمًا عَائِكَ مِنَ الْمَكَارِمِ كُلِّ بَابِ
فَلَا تَفْخَرْ وَأَنْتَ مُجَاشِمْ نَخِيبُ الْقَلْبِ مُهَتِّكُ الْحُجَابِ^(٤)
إِذَا عَدَّتْ مَكَارِمَهَا تَمِيمٌ فَخَرْتُ بِمِرْجَلٍ وَبِعَقْرِ نَابِ^(٥)
لَقَدْ أَخْرَاكَ فِي نَدَوَاتِ قَيْسٍ وَفِي سَعْدٍ عِيَاذُكَ مِنْ ذُبَابِ
وَسَيْفُ أَبِي الْفَرَزْدَقِ فَأَعْلَمُوهُ قَدُومُ غَيْرِ ثَابِتِ النَّصَابِ
أَتَجْعَلُ يَا فَرَزْدَقُ قَيْنَ لَيْلَى إِلَى كَعْبٍ وَرَايَتِي كَلَابِ
وَفِي غَطَفَانَ فَاجْتَنِبُوا حِمَاهُمْ لِيُوثَ الْحَرْبِ فِي أَجْمِهِ وَغَابِ
أَلَمْ تَسْمَعْ بِخَيْلِ بَنِي ثُقَيْلٍ إِذَا رَكَبُوا وَخَيْلَ بَنِي الْحُبَابِ
هُوَ قَتَلُوا بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرِ بَلَّيَ بَعْدَ يَوْمِ قُرَى الرَّوَائِي

وقال كذلك يهجوهم :

كَذَبَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ يُجَارِيَ عَامِرًا يَوْمَ الرَّهَانِ بِمُقْرِفٍ مَبْهُورٍ^(٦)

-
- (١) المقاري: جمع مقري، وهو مكان القرى أو أداته. حال: تغير. المرربات: السحب تَطَرُّ بالريبع والجملة حالية أى وقد حال أمر السحب فلم تَطَرُّ، أى نحن نجرد في أيام الجذب.
- (٢) يريد قابوس وحسان ابني المنذر أسرتهما بنو يربوع في يوم طخفة.
- (٣) عزنا: اشتدنا. ذونجب: واد للحارب وله يوم هو هذا.
- (٤) نخيب القلب: جبان.
- (٥) تميم: هم قوم جرير، يقول إذا عدت تميم مكارمها الكثيرة التي لا تنتهي عند حد فإن مكارم قوم الفرزدق تنتهي عند إتمام الضيفان.
- (٦) المقرف (بصيغة اسم الفاعل) من الخيل والاسان: ما كانت أمه عربية وأبوه غير عربي. المبهورة: المقطوع النفس.

فَأَنَّهُ الْفَرَزْدَقُ أَنْ يَعِيبَ فَوَارِسًا سَمَّوْا أَبَاهُ عَلَى أَزَبٍ نَقُورٍ^(١)
وَلَقَدْ جَهِلْتَ بِشَيْئٍ قَيْسٍ بَعْدَ مَا ذَهَبُوا بِرِيْشِ جَنَاحِكَ الْمَكْسُورِ^(٢)
قَيْسٌ (وَجَدْتُ أَيْبِكَ فِي أَكْيَارِهِ) قَوَادُ كُلِّ كَتِيْبَةٍ مُّجْمُورِ^(٣)
لَنْ تُدْرِكُوا غُطْفَانَ لَوْ أُجْرِيْتُمْ يَا بَنَى الْقِيُونَ وَلَا بَنَى مَنْصُورِ^(٤)
فَخَرُّوا عَلَيْكَ بِكُلِّ سَامٍ مُّعَلِّمٍ فَافْخَرْ بِصَاحِبِ كَلْبَتَيْنِ وَكَبِيرِ^(٥)
كَمْ أَنْجَبُوا بِخَلِيفَةٍ وَخَلِيفَةٍ وَأَمِيرٍ صَائِقَتَيْنِ وَابْنِ أَمِيرِ^(٦)
وَقَالَ يَهْجُو الْأَخْطَلَ :

إِنِّي جَعَلْتُ فَلَنْ أَغَافِيَ تَغْلِبًا لِلظَّالِمِينَ عُقُوبَةً وَنَكَالًا
قَبَّحَ إِلَاهُهُ وَجُوهَ تَغْلِبَ إِنَّهَا هَانَتْ عَلَى مَرَّاسِنَا وَسِبَالًا
قَبَّحَ إِلَاهُهُ وَجُوهَ تَغْلِبَ كَلَّمَا شَبَّحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا^(٧)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِحَبْرَتَيْلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالًا
الْمُعْرِسِينَ إِذَا أَنْشَوْا بَيْنَاتِهِمْ وَالذَّائِبِينَ إِجَارَةً وَسُوءًا^(٨)
وَالنَّغْلِيَّ إِذَا تَنْخَضَجَ لِلْقَرَى حَكَ اسْتُهُ وَتَمَثَّلَ الْأُمْنَالَا
أَنْسَيْتَ يَوْمَكَ بِالْجَزِيرَةِ بَعْدَ مَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ عَلَيْكَ وَبَالَا

(١) الأزب منا ومن الابل : الكثير شعر الوجه .

(٢) جهل : حق :

(٣) جد مرفوعة على الابتداء ، وخبرها في أكياره ، فهو يقول : قيس قواد الكتائب وجدك حداد بين أدوات صناعته ، ويصح أن تجر كلمة جد وتكون الواو قبلها للقسمة ويكون ذلك تهكما بالناس حد الابل أن يحلف به وهو في نظره ممتن ساقط .

(٤) غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

(٥) يقال فارس معلم بالكسر والفتح ، وهو على الكسر : الذي جعل نفسه علامة ليعرف بلاؤه في القتال .

(٦) الصائفة : الكتيبة تغزو الروم لأنهم يفتزون صيفاً لمكان الرد في تلك البلاد .

(٧) الفبح : رفع اليدين بالدعاء . الاهلال : رفع الصوت .

(٨) أي هم بين سائل وأجير . وقد ذمهم أبلغ ذم حين ادعى أنهم يخاطبون بناتهم في حالة سكرهم مخالطة الأزواج .

وَلَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أُنْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالًا
لَا تَطْلُبَنَّ خُوُولَةً فِي تَغْلِبٍ فَالزُّنْجُ أَقْرَبُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا
لَوْ لَا الْجُزَا قُسِمَ السَّوَادُ وَتَغْلِبُ فِي الْمُسْلِمِينَ فَكُنْتُمْ أُنْقَالًا

وأظهر ما في هجائه التهم والاستهزاء بخضمه ورميه بما يضحك منه الناس ، كقوله
في الراعي :

فغض الطرف إنك من مُنْمِرٍ فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وقوله في الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربيع
وقد غلب الأخطل برميته بالنصرانية ، والتزيد عليه بالإسلام والنبوة والخلافة ، فقال :
إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
مضرأبى وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كائينا
هذه صورة من هجائه تجنبنا فيها المقابح وذكر السوءات ، والإفحاش في قذف
المحسّنات ، وذكر العورات مما لا يستطيع من به مُسْكَةٌ من حياء أن ينشده أو يعرضه
على قارىء .

وإننا إذا حاولنا عقد صلة بين العصر الذي عاش فيه جرير وأقرانه ، وبين نوع
الهجاء الذي تناولوه في تشاتهم وتسابهم نجد أن لعريبتهم كل الأثر في هذه المعاني التي
تناولوها ، فالعربي ما زال يتمدح بالشجاعة والكرم ، ومراعاة الجوار ، وحفظ الدمام ،
ويتشدّد في حماية عرضه ، والغيرة على حريمه ، وهو الذي وأد البنات في جاهليته خشية
العار في زعمه ، فلا شك أن تكون أضداد هذه الصفات معايب يلصقها أحدهم بمن أراد
أن يذمه .

ولقد هجوا في جاهليتهم ، فميروا بالجن والبخل وما إليهما ، ولكنهم لم يتسفلوا إلى
قذف المحسّنات ، واتهام الرجل بأمه ، ولم ياحوا في ذكر العورات كما فعل هؤلاء .
ونرى أن مرجع هذا الفرق بين العصرين إنما هو ما صاروا إليه في العصر الأموي من

اختلاط الأنساب ، وما حام حول العفاف من شك ، فوجد الطاعن مجالاً للريبة ينفذ منه ، فكان منهم ما كان من الإفحاش الذى أشرنا إليه ، وقد جرأهم على ذلك ما عرفوا به من صراحة فى القول وجفاء فى الطبع .

شاعرية جرير

نشأ جرير فى بيت جلّ أهله شعراء قبله وبعده ، كان أبوه عطية شاعراً ، وكذلك جده الخطفى ، ثم كان أخوه عمرو ، وهو أكبر منه ، شاعراً يقارضه ، ثم كان من بعده ابنه بلال ونوح ، ثم حجناء بن نوح ، وعقيل بن بلال ، ثم عمارة بن عقيّل كلهم شعراء . وعمارة هذا هو الذى أدرك أبا تمام ، ولقى المبرد صاحب الكامل .

قال ابن سلام الجعفى : لم يتصل الشعر فى ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، ولا فى ولد أحد من الإسلاميين ما اتصل فى ولد جرير .

من أجل ذلك كان مطبوعاً على قول الشعر ، ومن أجل انطباعه عليه طال نفسه فيه ، وأجاد فى كل فنونه كان بحر الشعر كما قال عن نفسه (بمرت الشعر بجر) ، وكذلك من آثار انطباعه أنه أتى بالجيد والمتوسط والردىء ، وقد شبهه أبو عمرو بن العلاء بالأعشى ، وقال العلاء بن جرير العنبرى : يحىء جرير سابقاً ومصلياً وسكيتاً ، كذلك من آثار انطباعه على الشعر أنه أجاد الغزل مع دينه وعفافه ، وعدم عشقه ، حتى لقد قال عن نفسه : ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسبياً تسمعه المعجوز فتبكي على ما فات من شبابها ، وقد قال عنه الفرزدق حين سمع من الأحوص بالمدينة غناء بقول جرير :

أَتَدَسَّى إِذْ تُودَّعُنَا سُلَيْمَى بَعُودَ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ
بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ عَلَى مَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامُ
وَمَنْ أُنْسِي وَأُصْبِحُ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

ثم بقوله :

إِنَّ الَّذِينَ عَدَّوْا بِلِبِّكَ عَادَرُوا وَشَلَّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غِيَضُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

قال الفرزدق : لما سمع هذا وغيره يغنى به الأحوص من شعر جرير : ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري ، وما أحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره . ثم قام حنقاً .

وهذه الرقة التي اعترف له بها الفرزدق هي إحدى مظاهر شعره ، وهي أثر من آثار انطباعه ، لأن الشدة لا تكون إلا نتيجة التكلف والتعمل .

أما إجادته لكل فنون الشعر ، فقد شهد له بها كل من تعرض للقول فيه ، فقد روى ابن سلام . قال : لقيت أعرابياً أعجبني ظرفه وروايته ، قلت له : أيهما عندكم أشعر ؟ (يعني جريراً والفرزدق) ، فقال : بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومدح ، وهجاء ، ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ، فقال في الفخر :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا
وقال في المديح :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ
وقال في الهجاء :

فَفُضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ مُنْمِرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَمْتَ وَلَا كِلَابًا^(١)
وقال في النسيب :

إِنَّ الْعَيُونَ أَلَّتْ فِي طَرْفِهَا حَوْرُ قَتَانَنَا ثُمَّ لَمْ يُجِبْنِ قَتَلَانَا

(١) لا يدرك قوة الهجاء في هذا البيت إلا من علم أن كعبا وكلابا ونميرا ثلاثة أبطن من عاصرين صمصمة من قيس . لجرير فضل كعبا وكلابا على نمير مع أنها أخواه . ولم يسمع هذا البيت أحد من العرب يومئذ الا قال : لا يطلع النمير بعد هذا أبداً .

قال ابن سلام : وبیت النسيب عندي :

فَلَمَّا اتَقَى الْحَيَّانِ أُلْقِيَتْ الْعَصَا وَمَاتَ الْهَوَى لَمَّا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

وقد أبدى مثل هذا الرأي ، واحتج بهذه الأبيات أعرابي حضر طعام عبد الملك ابن مروان ، فأعجب الخليفة برأيه وكياسته ، ثم سأله عن الشعر ، فاحتج لفضل جرير بالأبيات السابقة ، وزاد عليها أن قال وأحسن بيت تشبيهاً قول جرير :

سَرَى نَحْوَهُمْ لَيْلٌ كَأَنَّ نَجْمَهُ قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذَّبَالُ الْمُفْتَلُّ

منزلته بين الشعراء :

لقد احتدم الجدل بين الناس في شأن جرير والفرزدق والأخطل أيهم أفضل . وكان لكل حزب يؤيده ويتعصب له ، ولقد باغ من المتخاصمين في شأنهم أن تجالدوا بالسيوف ، وذلك كله لما علمت من رواج الأدب وسمو شأنه في نظر الناس لحماية الملوك من بنى أمية له وتشجيعهم عليه وإجزالهم المثوبة المبرزين من رجاله ، وقد استفاضت كتب الأدب بالآراء في هؤلاء الثلاثة ، ونستطيع أن نقسم هذه الأقوال قسمين :

فأما أولهما فهو شأن الشاعر جملة ، وهل يصح أن يقاس إلى قرنه ، أو هو مقصر عنه لا يعد من طبقته ، فبعض يجعل هؤلاء الثلاثة أقراناً تجوز بينهم المفاضلة ، وهؤلاء هم جمهور أهل الرأي في الأدب . ويرى بعض أن الأخطل مقصر عن زميله لا يجوز قرنه بهما ، وآخر يدخل مع الثلاثة راعي الإبل فيجعله قريعهم وندم .

يقول صاحب الأغاني ، وهو : جرير ، والفرزدق ، والأخطل المقدمون على شعراء الإسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعاً ، ومختلف في أيهم المقدم ، ولم يبق من شعراء عصرهم إلا تعرض لهم ، فافضح وسقط ، وبقوا يتصاولون على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرهما ، وقد أسنّ ونقد أكثر عمره ، وهو وإن كان له فضل وتقدم ، فليس نجده من نجار هذين في شيء . ويقول محمد بن سلام والراعي معهم في طبقتهم ، ولكنه آخرهم ، وقال بشار : لم يكن الأخطل مثلها ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه .

وأما شطر الموازنة الثانى ، فهو الأغراض التى تناولوها ، والأسلوب الذى جرى عليه كلٌ منهم ، ونرى الآراء فى ذلك مختلطة غير منفصلة .

وإنا لنداكرون لك مزايًا كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، ثم نعقبها بنصوص أقوال النقاد فيهم حتى تكون كالحجة لما نقول .

فأما جرير : فقد تناول جميع أغراض الشعر من مدح وثناء وفخر وهجاء ونسيب ، ولم يقصر فى واحد منها ، وله فى كل منها البيت الرائع الذى تناقلته الألسن ، واشتهر عند الرواة ، ثم هو من ناحية الأسلوب ، لين العطف ، سهل المأخذ ، طويل النفس ، بعيد من الإغراب والتعقيد .

وقد امتاز جرير فى مدحه بعدم الأنفة فقد مدح بنى أمية وولاتهم كالحجاج ، ومدح القيسية أعداء تميم (قومه) جاهلية وإسلاما ، ومدح الموالى من العجم ، وسوّاهم بالعرب حتى لكانوا يحفظون شعره ، ويروونه ويمجزلون عطاءه عليه ، فهو لم يفعل كالأخطل الذى أنف من مدح غير بنى أمية حتى إنه لم يمدح الحجاج إلا مرة واحدة بأمر عبد الملك ، ولم يكن يخلط بالمدح غيره من الفخر والهجاء كما كان يفعل الفرزدق ، بل كان مدحه خالصا للمدح .

وأما الفرزدق فقد أجاد فى الفخر إجادة بالغة ، واعتدل فى غالب الأغراض كالمدح والهجاء ، وظهر تقصيره فى الرثاء والنسيب . أمّا لفظه ففخم صلب قوى الجرس بانت فيه المعاظلة ، وظهر الإغراب ظهورا واضحا ، حتى لقد قيل إنه أحيّا فى شعره ثلث اللغة .

وأما الأخطل : فقد أجاد صفة الخمر ، واجتماع الندمان عليها ، وبالغ فى المدح والفخر ، وهو فيما عدا ذلك من غرض ولفظ معتدل غير ظاهر الإجادة ، ولا بين التقصير .

قال أبو عبيدة : يحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم ألماظا ، وأقاهم تكلفا ، وأرقهم نسيبا ، وكان ديننا عفيفا . وقال العلاء بن جرير : إذا لم

يحيى الأخطل سابقاً فهو سكيث . والفرزدق لا يحيى سابقاً ولا سكيثاً ، وجريير يحيى سابقاً ومصلياً وسكيثاً .

قال هشام بن عبد الملك لشبة بن عقال ، وعنده جريير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير : ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائهم في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال : شبة . أما جريير فيعرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر ، فقال هشام : ما فسرنا لنا شيئاً نحصله . فقال : ما عندي غير ما قلت ، فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهم ، فقال :

أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عنزاً ، وأشدّهم ميلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلامهم عللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زار ، والسامى إذا خطر : الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه سترأ ، الأغرّ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فجريير : وكلهم ذكّى الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

وقد سأل عبد الملك أو الوليد ابنه جريراً الشاعر عن أشعر الناس ، فأجابه بقوله كان منتهى الإنصاف لنفسه ، ولأقرانه من الشعراء ، ولم يسع سائله إلا أن أمن على قوله لمواقفته للحق ، وجدير بالشاعر أن يكون صادق الحكم على الشعر فإنه إنما يعرف الفضل من الناس ذووه . قال عبد الملك أو الوليد لجريير : من أشعر الناس ؟ قال : ابن العشرين (يريد طرفة) . قال : فما رأيك في ابني أبي سلمى ؟ قال : شعرها نير يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلأذله . قال : فما تقول في ذي الرمة ؟ قال : قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد . قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال : ما أخرج ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات قال : فما تقول في الفرزدق ؟

قال : في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها . قال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً . قال : بلى والله إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود ، نسبت فأطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت ، وأرملت فأغرزت ، ورجزت فأبحرت ، فأنا قلب ضروب الشعر كلها ، وكل واحد منهم . قال نوعاً منها . قال صدقت .

شعره

قيل إن أول شعر قاله هو الذي أنشده يزيد بن معاوية ، وهو ولي عهد ، وكان شفيعه إليه يوم ولي الخلافة ، وقد مرّ بك . وليس معقولا أن يكون هذا الشعر الجيد أول ما يقوله شاعر ، ولكن المقبول أن يقال : إنه أول شعر استجدى به ، وقصد الناس ، ولا بدّ أنه قبل ذلك قال في باديته في كل ما عرض له من أغراض .
ومن قوله قصيدته التي أولها :

أَقْلَى اللَّوَمَ عَادِلَ الْعِتَابَا وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

قالها في هجاء الراعي . وكان من حديثها : أن الراعي لما فضل الفرزدق على جرير في قصيدته :

يا صاحبيّ دنا الأصيلُ فسيرا غَلَبَ الفرزدقُ في الهجاء جريرا

عاتبه جرير ، وقال له : يكفيك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ، ولا تحتمل مني ولا منه ، وبينما هما واقفان لحق الراعي ابنه جندل ، فرفع كرمانيّة معه ، فضرب بها عجز بغلة أبيه ، ثم قال : لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً ، أو ترجو خيراً ، وضرب الدابة ، فرمحت جريراً رحمة وقعت منها قلنسوته ، فرمّ الراعي ولم يعرج عايه ، فانصرف جرير مغضباً ، ثم أقبل على المنزل الذي كان يقيم فيه بالبصرة وقال لراويته : زد في دهن سراجك الليلة ، وأعدّ لوطاً ودواة ، وجعل يملئ عايه حتى بلغ قوله : فغض الطرف . . . فوثب حتى بلغ رأسه السقف ، وجعل يردّده لا يزيد عايه ، ويقول : أخزيتك والله . غصصته والله . وقدمت إخوته عايه ، والله لا يفلح بعدها ، ولم يأت السخر حتى كان قد أكملها ثمانين بيتاً ، فلما أصبح وعرف أن الناس

قد جلسوا بالمزبد قال : يا غلام أسرج فأسرج له حصانا ، ثم قصد مجلس الراعى حتى إذا كان موقع السلام قال : يا غلام ، ولم يسلم ، ثم قال للراعى : أبعثك نسوتك تكسبن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن بميريسوءهن ولايسرهن ، ثم اندفع فيها فنكس الفرزدق وراعى الإبل ، وأزم القوم حتى فرغ منها فسار ، فقال الراعى من أفوره لأصحابه : ركابكم ركابكم ، فليس لنا ههنا مقام . قال الراعى : فسرنا إلى أهلنا سيرا ما ساره أحد ، فوجدت البيت قد سبقنا إليهم . وصار الرجل من بنى نمير إذا قيل له : من أنت ؟ يقول عامري ، ويكنى عن نمير ، وقد شاعت هذه القصيدة حتى كان العرب يسمونها الفاضحة ، ويسمونها جرير الدامغة لشدة تأثيرها ، ويسمونها قافيتها (الباء) المنصورة لأنه ما قال عليها قصيدة إلا انتصربها ، والعجيب أن هذه القصيدة لم يرد منها فى ديوان جرير إلا نحو عشرين بيتا ، ومطلعها :

| | |
|---|---|
| أَقْلَى اللَّوْمِ عَادِلٌ وَالْعِتَابَا | وَقَوْلِي إِنَّ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا |
| أَجْدُكَ لَا تَذَكَّرْ عَهْدَ نَجْدٍ | وَحَيًّا طَالَمَا انْتَظَرُوا الْإِيَابَا |
| بَلِ فَارْفُضْ دُمُوعَكَ غَيْرَ نَذَرِ | كَمَا عَيَّنْتَ بِالسَّرْبِ الطَّبَّابَا ^(١) |
| وَهَاجَ الْبَرْقِ لَيْلَةَ أَذْرَعَاتِ | هَوَى مَا تَسْتَطِيعُ لَهُ غَلَابَا |
| عَلَوْتَ عَلَيْكَ ذِرْوَةَ خِنْدِفِي | تَرَى مِنْ دُونِهَا رُتَبًا صِعَابَا |
| لَنَا حَوْضُ النَّبِيِّ وَسَاقِيَاهُ | وَمِنْ وَرَثِ الثُّبُوءَةِ وَالْكِتَابَا |
| أَلَسْنَا أَكْثَرَ الثَّقَلَيْنِ حَيًّا | بِبَطْنِ مَنَى وَأَكْثَرَهُمْ قِبَابَا |

ومنها :

| | |
|---------------------------------------|---|
| إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بُنُو تَمِيمٍ | حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا |
| فَلَا وَأَبِيكَ مَا لَاقَيْتُ حَيًّا | كَثِيرُ بُوْعٍ إِذَا رَفَعُوا النِّقَابَا |
| فُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ مُنِيرٍ | فَلَا كَمَا بَلُغْتَ وَلَا كِلَابَا |

(١) التعيين : أن يصب فى الوعاء ماء فينظر من أين يسيل فيسد خلله . الطباب : الجلدة تضرب على أسفل المزايدة . السرب : السيلان .

فَلَوْ وُضِعَتْ فِتَاحُ بَنِي مُنْمِرٍ عَلَى خَبَثِ الْحَدِيدِ إِذَا لَدَابَا وَمِنْهَا :

فَلَوْ وَلَدَتْ فَقِيرَةٌ جَرَوْ كَلْبٍ لَسُبَّ بِذَلِكَ الْجَرَوِ الْكَلَابَا
وَلَوْ وَطِئَتْ نِسَاءُ بَنِي مُنْمِرٍ عَلَى نَبْرَاكٍ أَخْبَثَتْ التَّرَابَا
فَلَا صَلَّى إِلَاهٌ عَلَى مُنْمِرٍ وَلَا سُقِيتَ قُلُوبُهُمْ سَحَابَا وَمِنْهَا :

أَنَا الْبَايِزِيُّ الْمُطَّلُّ عَلَى مُنْمِرٍ أَتَيْتُهَا مِنْ الْجَوِّ انْصِبَا وَمِنْهَا :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابَا
وَقَالَ يَمْدَحُ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَدْ أَوْفَدَهُ الْحِجَابُ إِلَيْهِ مَعَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ :

أَتَصْحُو أَمْ فَوَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةً هَمَّ صَبْحُكَ بِالرَّوَّاحِ
يَقُولُ الْعَاذِلَاتُ عَلَكَ شَيْبُ أَهَذَا الشَّيْبُ يَمْنَعُنِي مَرَاخِ
يُكَلِّفُنِي فَوَادِي مِنْ هَوَاهُ ظَمَائِنَ يَحْتَزِرُ عَنْ عَلَى رِمَاحِ
ظَمَائِنُ لَمْ يَدْنِ مَعَ النَّصَارَى وَلَا يَدْرِيْنَ مَا سَمَكَ الْقِرَاحِ
قَبْعُ الْمَاءِ مَاءَ رَبَابِ مُزْنٍ وَبَعْضُ الْمَاءِ مِنْ سَبْعِ مِلَاحِ
سَيَكْفِيكَ الْعَوَازِلَ أَرْحِي سَيَكْفِيكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ
يَعِزُّ عَلَى الطَّرِيقِ بِمَنْكِبِيهِ رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي امْتِنَاحِ
تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّمِّ الْقِرَاحِ
تُعَلِّمُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَنِيهَا أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِنَاحِي
سَأَمْتَنَاحُ الْبُحُورَ سَجَنِي بِي ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ
تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّمِّ الْقِرَاحِ
تُعَلِّمُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَنِيهَا أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِنَاحِي
سَأَمْتَنَاحُ الْبُحُورَ سَجَنِي بِي ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ
تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّمِّ الْقِرَاحِ
تُعَلِّمُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَنِيهَا أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِنَاحِي
سَأَمْتَنَاحُ الْبُحُورَ سَجَنِي بِي ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ

سَأَشْكُرُ إِن رَدَدْتَ إِلَى رَيْشِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ
تَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ : أَتَرَى أُمَ حَزْرَةَ تَرْوِيهَا مَائَةً مِنْ نَعْمِ كَلْبٍ ؟ قَالَ : إِذَا لَمْ تَرْوَاهَا يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ فَلَا أَرْوَاهَا اللَّهُ :

وَمِنْ قَوْلِهِ يَمْدَحُ الْحِجَابَ ، وَهِيَ الْقَصِيدَةُ الَّتِي اسْتَنْشَدَهُ إِيَاهَا عَبْدُ الْمَلِكِ حِينَ
قَدِمَ عَلَيْهِ :

هَاجَ الْهَوَى لِفُؤَادِكَ الْمُهْتَاجِ فَانْظُرْ بِتَوْضِيحٍ بَاكِرٍ الْأَخْدَاجِ
وَمِنْهَا فِي وَصْفِ الْحِجَابِ :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النَّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَابِ
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ خَفِيفَةً إِذْ لَا يَتَّقِنَ بَغِيرَةَ الْأَزْوَاجِ
إِنْ ابْنٌ يُوسُفَ فاعلموا وَتَيَقَّنُوا مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضِحِ الْمَهْجَارِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُنْمِضِي هَمَّهُ وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سُبُلَ الْهُدَى وَاللَّصُّ نَكَلُهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ
فَاسْتَوْسِقُوا وَتَبَيَّنُوا سُبُلَ الْهُدَى وَدَعُوا النَّجَى فَلَيْسَ حِينَ تَنَاجِي
يَا رَبِّ نَاكِثٍ بَيِّعَتَيْنِ تَرَكَتَهُ وَخِضَابُ لِحْيَتِهِ دَمُ الْأَوْدَاجِ (١)
إِنَّ الْعَدُوَّ إِذَا رَمَوْكَ رَمَيْتَهُمْ بِذُرَى عِمَاةٍ أَوْ بِهِضَبِ سَوَاجِ (٢)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحِجَابِ (٣)
وَقَالَ يَهْجُو التَّيْمَ :

تَرَى الْأَبْطَالَ قَدْ كَلِمُوا وَتَيَّمْ صَحِيحُ الْجِلْدِ مِنْ أَثَرِ الْكُلُومِ
مِنْ الْأَصْلَابِ يَنْزِلُ لَوْمْ تَيَّمْ وَفِي الْأَرْحَامِ يُخْلَقُ وَالْمَشِيمِ (٤)

(١) المراد بالبيعتين : بيعة الخليفة وبيعة الحجاج .

(٢) عِمَاة : جبل . سَوَاج : جبلان بالعالية .

(٣) المراد بمنع حقايب الحجاج : ما ياتها وحفظها من اعتداء اللصوص .

(٤) المشيم : جمع مشيمة وهي محل الجنين .

تَرَى التَّيْمَى يَرْحَفُ كَالْقَرْنَبَى إِلَى سَوْدَاءَ مِثْلٍ قَفَا الْقُدُومِ .
وقال يهجو الفرزدق :

إِنَّ ابْنَ آكَلَةِ النُّخَالَةِ قَدْ جَنَى حَرَبًا عَلَيْهِ ثَقِيلَةَ الْأَجْرَامِ^(١)
خُلِقَ الْفَرْزَدَقُ سَوَاءً فِي مَالِكٍ وَخِلْفَ ضَبَّةٍ كَانَ شَرًّا غُلَامِ^(٢)
مَهْلًا فَرْزَدَقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمْ خَوَرُ الْقُلُوبِ وَخَفَةُ الْأَخْلَامِ
بُسُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ نَعْفٍ قَشَاوَةٍ وَغَيْرُكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ وَرَحْلُهُ
كَانَ الْعِنَانُ عَلَى أَيْبِكَ مُحَرَّمًا وَالْثَّامَ عَلَى غَيْرِ كِرَامِ^(٣)
عَمْدًا أَعْرَفُ بِالْهَوَانِ مُجَاشِعًا وَمَنْ قَوْلُهُ يَنْغَرُّلُ وَقَدْ رَقَّ جَدًّا .

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُوِوعَتْ مَا بَانَ وَقَطَعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا
حَتَّى الْمَنَازِلَ إِذْ لَا نَبْتَغِي بَدَلًا بِالْطَّلَحِ طَلَحًا وَالْأَعْطَانِ أَعْطَانًا^(٤)
أَخِيبَ إِلَى يَذَاكَ الْجَزَعِ مَنَزِلَةً أَوْ سَاقِيًا فَسْتَاهِ الْيَوْمِ سُؤْلَانًا
يَالَيْتَ ذَا الْقَلْبِ لَاقَى مَنْ يُعَلِّلُهُ هَاجَتْ لَهُ غُدُوَاتُ الْبَيْنِ أَخْرَانًا
مَا كُنْتُ أَوَّلَ مُسْتَنَاقٍ أَخَى طَرَبٍ رُدِّي عَلَى فُوَادِي كَالَّذِي كَانَ
يَا أَمُّ عَمْرٍو جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَةً يَا أَمْلَحَ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ إِنْسَانًا

(١) يريد ابن آكلة النخالة البعيث الشاعر . الجرم : الجسد كله . يقال رماه بأجرامه أى رماه بجسده كله .

(٢) يريد بخلف ضبة مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

(٣) يريد الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب . أى لو كان الزبير حل فى أحد سواكم لأدى جواره أى لمنعه حتى يرجع إلى بنى العوام ويسلم .

(٤) الطلح : من شجر المضاء . وهو أعظم الشجر أو شجر الخط أو ذوا الشوك أو ما عظم منه ، والأعطان مبارك الابل ، وقوله بالطلح طلحا : الباء فيه للبدل : أى وجدنا بدل طلح مواطننا الأولى طلحا مثله وكذلك قوله قبل : بالدار دارا وبالجزيران جيرانا .

يَلْقَى غَرِيْمُكُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ بِالْبَذْلِ بُحْلًا وَبِالْإِحْسَانِ جِرْمَانَا
لَقَدْ كَفَمْتُ الْهُوسَى حَتَّى تَهَيَّمَنِي لَا أَسْتَطِيعُ لِهَذَا الْحُبِّ كِتْمَانَا
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ دُنْيَاكَ مِنْ أَسْبَابِ دُنْيَانَا
مَا أَخَذْتَ الدَّهْرُ مِمَّا تَعْلَمِينَ لَكُمْ لِلْحَبْلِ صَرْمًا وَلَا لِلْعَهْدِ نِسْيَانَا
أَبْدَلُ اللَّيْلِ لَا تَسْرِى كَوَاكِبُهُ أَمْ طَالَ حَتَّى حَسِبْتُ النَّجْمَ خَيْرَانَا
إِنَّ الْعِيُونَ آتَتْ فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُجْنِينَ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنْ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا
يَا حَبَّذَا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلِ وَحَبَّذَا سَاكِنُ الرَّيَّانِ مَنْ كَانَ
وَحَبَّذَا نَفَحَاتُ مِنْ يَمَانِيَّةٍ تَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ الرَّيَّانِ أَحْيَانَا
ومن قوله يرثي الفرزدق ، وقد مات قبله بقليل :

لعمري لقد أشجى تيمياً وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق
عَشِيَّةَ رَاخُوا لِلْفِرَاقِ بِنَعْشِهِ إِلَى جَدَثٍ فِي هَوَاةِ الْأَرْضِ مُعَمَّقِ
لَقَدْ غَادَرُوا فِي اللَّحْدِ مَنْ كَانَ يَنْتَمِي إِلَى كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ مُحَلَّقِ
عِمَادِ تَمِيمٍ كُلُّهَا وَلِسَانُهَا وَنَاطِقُهَا الْبَذَاخُ فِي كُلِّ مَنْطِقِ
فَمِنْ لَدَوَى الْأَرْحَامِ بَعْدَ ابْنِ غَالِبٍ لِحَارِ وَعَانَ فِي السَّلَاسِلِ مُوْتَقِ^(١)
وَمَنْ لِيَتِمَّ بَعْدَ مَوْتِ ابْنِ غَالِبٍ وَأُمُّ عِيَالٍ سَاغِبِينَ وَدَرْدَقِ^(٢)
وَمَنْ يُطْلِقُ الْأَسْرَى وَمَنْ يَحْقِنُ الدَّمَ يَدَاهُ وَيَشْفِي صَدْرَ حَرَّانٍ مُخْنَقِ
فَقِيَ عَاشَ يَبْنِي الْمَجْدَ تِسْعِينَ حِجَّةً وَكَانَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمَجْدِ يَرْتَقِ



هذا وأخبار جرير مع قرنيه الفرزدق والأخطل تملأ كتب الأدب ، وأهم ماورد

(١) العاني الأسير . موثق : مفيد .

(٢) ساغب : جوهان . دردق : أطلال .

منها تجده في كتاب الأغاني في تراجم هؤلاء الثلاثة وغيرهم ، وكذلك تجد أشعاره مع نقائضها من شعر الفرزدق مضبوطة في كتاب النقائض المطبوع بألمانيا . أما ديوان جرير المطبوع في المطبعة العلمية بمصر ، فيكاد يفقد فائدته لكثرة ما به من الخطأ والتحريف .

وقد مات جرير باليامة سنة ١١٠ هـ ، فيكون قد عمر زهاء سبعين سنة .

الكُميت بن زيد

نحن أمام شخصية عظيمة ، كان لها في حياتها شأن ، واشتغل الناس بها حتى اهتزت لها مجالس الولاة ، وعروش الخلفاء ، فرقا حيناً ، وطرباً حيناً آخر .

يدلّك على عظمة هذه الشخصية أن صاحبها كان له في كلّ مظاهر الحياة مداخلة ، كان شاعراً ، وخطيباً ، وعالمًا بمفاخر العرب ومثالبها ، وزاجراً للطير ، مهتدياً بالنجوم ، وعصبياً محتجاً لرأيه ، دامغ الحجة في الدفاع عنه .

وللعصبية في العصر الأموي قوة لم تعرف بمثل شدتها ، ولا تشعب اتجاهاتها في غير هذا العصر . فقد كانت عصبية بين العدنانية والقحطانية ، ثم بين فرعي العدنانية من مضرية ورَبِيعية . ثم تغلّغت فكانت بين الأمم ، فهي شعوبية وعربية ، وبين الأقطار فهي عراقية وشامية ، ثم بين المدن فهي كوفية وبصرية . هذا إلى الشباب آخر في الرأي بين شيعة وأمويين وخوارج وغيرهم ، بل لقد كان تعصب للشعر وقائله ، فهؤلاء فرزدقيون ، وأولئك جريريون ، وهكذا . . .

ولقد كان الكُميت من نباهة الشأن بحيث عدّ من ذوى العصبيات لأنه كما قلنا ذورأى حرّ ، وشكيمة قوية ، وبيان ناصع ، فكان لا بدّ له أن يدلى بدلوه في هذا البحر المضطرب الأمواج ، ولم يكنه أن يأخذ في ناحية واحدة ، بل كان له رأى في كلّ ما يدور حوله البحث ويحتدم الجدل .

فكان شيعياً ، عصبياً عدنانياً ، يفضل الكوفة . ولقد كان لا يضيّق صدره بهذه العصبية ، ولا تطغى عواطفه فيها على غيرهما من العواطف ، فقد ذكروا أن الكمية هذا كان صديقاً للطّرّماح بينهما خاطرة ومودة وصفاء لم يكن بين اثنين . وكان الطّرّماح : خارجياً صُفْريّاً ، قحطانياً يتمصب للقحطانية ، وينتصر لأهل الشام على أهل العراق ، وقد قيل لهما : فقيم انفتما هذا الاتفاق مع سائر اختلاف الأهواء ؟ قالوا : اتفقنا على بغض العامة .

ذلك هو الكمية يمثل بأجل مظهر نشاط الفكر ، وحرية الرأي في عصره ، ثم هو في حرّيته هذه على خلاف رأى الأمراء والخلفاء الذين عرفوا بالشدة والغلظة في تقمّهم على من يخالفهم ، ثم هو يسلم مع ذلك من مكروهم بشدة محاله ، وعظيم ما يرجون من فائدة عنده إذا استألوه إليهم ، فيبقى طول حياته مخوفاً ، مرجواً ، ناجياً من شر أعدائه ، نائلاً جوائزهم حتى يموت بسبب من أسباب حرية رأيه ، ولكن يكون موته غدرًا . وغيلة أعجل فيه عن التدبير للخلاص .

ذلك أنه لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار في مدحه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية^(١) ، وهو على المنبر . قال الكمية :
 خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كن حصنه فيه الرّجاج المضّرب^(٢)
 وما خالد يستطعم الماء فاغرا بعدلك والداعى إلى الموت ينعب^(٣)
 وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكمية ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

(١) أتباع أبي جعفر محمد بن طي العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرّجاج : الباب العظيم ، وهو الباب المنلق وفيه باب صغير . ومضّرب : عليه ضبة . وأهل مكة يسمون الزلاج ضبة .

(٣) فاغرا فاعما فاه . العدل (بالكسر) الظنير . ينعب : يرفع صوته كنعب الغراب . والمعنى أن خالدًا الذى استطعم الماء لا يساويك في مقام القتال حين يرفع النادى إلى الحرب صوته .

[نسب الكميت] : ذكر الأمدى في كتاب : « المؤتلف والمختلف » أن ثلاثة من بني أسد بن خزيمة يسمون الكميت ، وهم : الكميت الأكبر بن ثعلبة ابن نوفل بن فضالة بن الأشتر بن جحران بن فقعس ، والكميت بن معروف بن الكميت الأكبر ، والثالث هو : الكميت بن زيد الذي نحصى خبره في هذه الترجمة ، وهو ابن زيد بن خنيس بن مجالد بن وهيب بن عمرو بن سبيع ، وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار . وهو كوفى نشأ بالكوفة ، وكانت ولادته بها سنة ستين من الهجرة ، وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على رضى الله عنهما . ثم كانت وفاته بها سنة ست وعشرين ومائة فى خلافة مروان بن محمد .

[بيئة الكميت] : هى الكوفة قرية البصرة فى الأدب والنحو والأنساب ، كان بها من العرب جمهرة كبيرة تقسمتهم الأهواء السياسية ، وإن كان غالبهم شيعة على التى دوخت الولاة ، وأعيت سياستها على بنى أمية كلهم ، وكم زفر الحجاج وزيد قبله منهم ، وحنقاً عليهم ، واشتدأ فى معاملتهم .

تلك هى الكوفة منبر الشعر والخطابة ، ومدرسة اللغة ، ومجال المفاخرات والمناظرات والمنافرات والممانات ، ومثار العصبية ، ومدرجة الفتن ، ومثابتها بعد تجوالها وتطوافها فى البلاد .

ففى نشأ الكميت ، فلم يكن بدعاً منه أن يكون شاعراً ، وخطيباً ، وراويًا للشعر ، وعالمًا بلغات العرب ، ونسابة لهم ، يعرف بيوتهم ، ومفاخرهم ومثالبهم ، وزاجراً للطير ، ومهتدياً بالنجوم

لم يكن هذا بدعاً فى الكميت ، وإنما العجيب أن يمتاز فى كل ذلك حتى يغلب حماداً فى الرواية ، وحتى لا يقاس به أحد من أهل زمانه فى الشعر ، وحتى يكون مفخرة بنى أسد فى كل شىء من شعر وخطابة وجدل .

ذكروا أنه اجتمع هو وحماد فى مسجد الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد فى شىء ونازعه ، فقال له الكميت : أنظن أنك أعلم منى بأيام العرب

وأشعارها ، قال حماد : وما هو إلا الظن ! ! هذا والله هو اليقين ، فغضب الكميت ، ثم قال : لكم شاعر بصير يقال له : عمرو بن فلان تروى ؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد فى ذلك بعض القول . فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من صنف صنف ، ويسأل حماداً : هل يعرفه ؟ فإذا قال لا . أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجر الحاضرون ، ثم قال له الكميت : فإنى سأتلك عن شئ من الشعر ، فسأله عن قول الشاعر :

طَرَحُوا أَصْحَابَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَذَفَكَ الْمَقْلَةُ شَطْرَ الْمُعْتَرِكِ

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تُدَرِّبُنَا بِالْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا تُدَرِّبُنَا وَلَدَانَا تَصِيدُ الرَّهَادِنَا

فأنغم حماد ، ولم يأت بتفسيرها ، وسأل الكميت أن يفسرها ، فقال له : ألقه حصاة يحملها القوم معهم إذا سافروا ، وتوضع فى الإناء ، ويصب عليها الماء حتى يغمرها ، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشرط النصيب ، والمعتك الموضع الذى يختصمون فيه فى الماء فيلقونها هناك .

وقوله تدريننا يعنى النساء ، أى ختانتنا فرميننا ، والرهادن : طير بمكة كالصافير . . . كذلك لم يكن بدعاً أن يقول الكميت الشعر فى بيئة كلها شعراء ، وفى زمن كل أسبابه تحمل على قول الشعر ، ولكن البدع أن يكون الكميت شاعراً لا يوزن به أهل زمانه ، فقد سئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ؛ ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجريز ، والأخطل . فقبل له : يا أبا محمد ، ما رأيك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو بكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجان ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكفاهم حبهم إلى الناس وأبقى لهم ذكراً . وقيل : فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر : كان خطيب بنى أسد ، وفقه الشيعية ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان نسبة ، وكان جدلياً ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهرًا بذلك .

محنة الكميت

كان الكميت كما تعلم متشيعاً لآل عليّ ، حرّ الرأي في تشيعه يجبر به ، ويناظر فيه في المجالس العامة حتى قيل إنه أوّل من ناظر في التشيع مجاهراً . وقد قال أغلب شعره في آل البيت يمتدح أحياءهم ، ويرثي موتاهم ، وكانت محاسن قوله وكبار قصائده فيهم حتى عرفت له القصائد « الهاشميات » ، ومعلوم أن الشاعر الذي يقول في تمجيد هذه الفئة إنما يؤذى بقوله خلفاء الأمويين ، وينبه الناس إلى اعتدائهم عليهم واغتصابهم لحقوقهم . فكان قول الكميت في بني هاشم قذى في عيون هؤلاء الخلفاء ، وخَصْداً لشوكتهم ، وتأليباً للعامة عليهم ، ولكن الكميت مع ذلك كان في الكوفة بموضع التجلّة من ولائها ، فكان خالد بن عبد الله القسريّ يذني مجلسه ، ويجزل عطاءه ، ويصفيه المودّة . وكان ابتداء محنة الكميت أن كان حكيم بن عياش الأعور الكلبيّ ولياً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه وهو يجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم . قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسريّ محسن إليّ ، فلا أقدر أن أردّ عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه من ذلك فخمى لعشيرته وقال : « مُذْهَبَتَهُ » .

* أَلَا حَيِّيتِ عَنَا يَا مَدِينَا *

فأحسن فيها ، وبلغ خالدًا خبرها ، فقال : لأبألى مالم يجز لعشيرتي ذكر ، فأنشدوه قوله :

| | |
|------------------------|----------------------------|
| ومن عجب عليّ لعمر أمّ | غذتك وغيرها تيا يمينا |
| تجاوزت المياه بلا دليل | ولا علم تعسف مخطئينا |
| فإنك والتحول من معدّ | كهيّلة قبلنا والحالينا |
| تخطت خيرهم حلبا ونسنا | إلى الوالى المخادر هاربينا |
| كعنز السوء تنطح عافئها | وترمها عصيّ الذابحيننا |

فقال خالد : فعلها !! والله لأقتلنه ، ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن وتخبرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الماشميات ودهن مع نخاس إلى هشام ابن عبد الملك ، فاشترهن جميعاً ، فلما أنس بهن ، واستنشدهن الشعر أنشدنه قصائد الكميت الماشميات ، فقال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدي . قال : وفي أى البلاد هو ؟ قلن : بالكوفة ، فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأس الكميت فحبسه خالد ، وقبل أن ينفذ فيه أمر الخليفة احتال الكميت للخلاص بأن أرسل إلى امرأته حبي ، وطلب منها أن تقيم مكانه ، وأن يهرب هو بثيابها ، فقام ذلك ، ثم لم يجد خيراً من الظهور وطلب العفو من الخليفة ، فاستطاع بسعى رجاله قريش بالشام أن يصل إلى مسلة بن هشام ، فاستشفع له عند أبيه فشفعه وقال له : اعقد له مجلساً نسمع فيه ما قاله فينا مدحاً واعتذاراً ، فعقد له المجلس وحضره هشام نفسه .

الكميت في مجلس العفو

قالوا : إن الكميت ارتجل في هذا المجلس خطبة ما سمع بمثابها قط ، وامتدح بنى أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالاً حتى إنه لم يجمع منها إلا تلك الأبيات التي حفظها الناس في هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما حفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله في هذا المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال : « أما بعد ، فإنني كنت أتدهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستغفرتني وهاتها ، فتحيّرت في الضلالة ، وتسكمت في الجهالة ، مُهرّعا عن الحق ، جائرّاً عن القصد . أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالأ . وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية . فاعسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم » .

ثم أنشد قصيدته التي أولها :

* « قف بالديار وقوف زائر » *

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقوف بها وأنك غير صاغر
درجت عليها الغاديا ت الرأحاة من الأعاصر^(١)

وفيها يقول :

فالآن صرتُ إلى أمية والأمور إلى المصائر
فجعل هشام يغمز مسألة بقضيب في يده ، ويقول : اسمع . اسمع .

وفيها يقول :

كم قال قائلكم لعا لك عند عثرته لعاثر
وغفرتمو لذوى الذنوب من الأكابروالأصاغر
أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي بكل مامة وعشيرتي دون العشائر
أتم معادن للخلا فقر كابرأ من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا ترا ل شافع منكم وواتر^(٢)

ثم قطع الإنشاد ، وأعاد خطبته ، فقال :

« إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته . ومناطق المنتجعين من لا تحل حُبوته لإساءة

الذين فضلوا عن استشاطه غضبه بجمل الجاهلين .

فقال له هشام : ويلك يا كميث ! « من زين لك الغواية ودلاك في العماية » . قال :

« الذي أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

(١) الأعاصير : جمع إعصار ، وهى الريح تثير السحاب ، أو التي فيها نارة ، أو التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء . والأصل في الجمع الأعاصير ولكنه خفف بمذف الياء كالمفايح في المفاتيح .

(٢) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منكم فيكون شفعا في العدد (زوجا) أو وترا (فردا) .

قال له : فأنت القائل :

فيأموقداً ناراً لغيرك ضوؤها وياحاطباً في غير حبلك تحطِبُ^(١)

قال : بل أنا القائل :

وجدنا قريشاً قريشَ البطاح على ما بنى الأولُ الأولُ
بهم صلح الناسُ بعد الفساد وحيصَ من الفتق ما رَعَبُوا^(٢)

قال هشام : فأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليده أو سليمانَ بعدُ أو كهشام
من يمت لا يمت فقيداً ومن يَحْسِي فلا ذُو إلٍ ولا ذوذِمَامِ
ويلك يا كميث ! جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذمة . قال : بل أنا القائل :
فالآن صرت إلى أمية والأمر إلى المصائر^(٣)
يا بن العـ قائل للعقا ثل والجحاجة الأخائر
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكا بر
إن الخلافة والإلا فـ برغم ذي حسدٍ وواغر^(٤)
دلفنا من الشرف التليد إليك بالرّفد المُوافر^(٥)
فخلّت معتلج البطا ح وحلّ غيرك بالظواهر^(٦)

(١) الخطاب في هذا الشعر لهشام بن عبد الملك . يريد أنه بتولية الخلافة أفاد من حوله من بطاقته واحتمل وحده لمعها .

(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رهبل الثوب : مزقه .

(٣) قيل إنه لما أراد صرت إلى أمية والأمر إلى مصائرهما : أي أنه سيصير إلى بني هاشم . وهذا طبعاً فهمم بالفحوى دل عليه المقام ، أما اللفظ فلا يدل إلا على أنه صار إلى بني أمية وانتهى أمره إليهم .

(٤) الواغر : الحافد . الإلاف : هو الإيلاف ، ومعناه في القرآن العهد .

(٥) الضمير في دلفنا يعود إلى الخلافة والإلاف . ودلف : مشى في تودة .

(٦) اعتلجت الأرض : طال نبتها . البطاح : جمع أبطح أو بطحاء وهما مسيل الماء فيه دقاق الحمى .
الظواهر : أشرف الأرض ، أي ما ارتفع منها .

قال له : فأنت القائل :

فَقُلْ لِبْنِي أُمِّيَّةٌ حَيْثُ حَلُّوا وَإِنْ خَفْتُ الْمَهْدَ وَالْقَطِيعَا^(١)
أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْجَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مِنْ بَجَوْرِكُمُو أَجِيعَا
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيَّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمِّتِهِ رِبِيعَا

قال : لا تتريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تحو قولي الكاذب قال : بماذا ؟
قال : بقولي الصادق :

أُورِثْتُهُ الْحَصَانُ أُمُّ هِشَامٍ حَسْبًا نَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرًا^(٢)
وَتَعَاطَى بِهِ ابْنُ عَائِشَةَ الْبَدُ رَ فَا مَسَى لَهُ رَقِيبًا نَظِيرَا
وَكَسَاهُ أَبُو الْخَلَّائِفِ مَرَوَا نُ سَنِيَّ الْمَكَارِمِ الْمَأْنُورَا
لَمْ تَجْهَمْ لَهُ الْبَطَاحُ وَلَكِنْ وَجَدْتُمَا لَهُ مَعَانَا وَدُورَا

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت
عنك يا كميث ، فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد في تشرifi
فلا تجعل لخالد على إمارة . قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم
وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفا
وثلاثين ثوبا ، ففعل .

مبلغ التشيع عند الكميث

بعد أن عرفت أن نشأة الكميث كانت بالكوفة تستطيع أن تقدر الأسباب التي
حملته على أن يكون شيعيا ، فقد كانت الكوفة بيئة العلويين وأنصارهم ، وكانت ميادينها

(١) سبق شرح هذه الأبيات ص ١٨٧ .

(٢) سبق شرح هذا الشعر ص ١٨٧ .

وأسواقها وأحيائها مسارح للتمثيل بهؤلاء الأطهار من سلاله رسول الله . كما كانت سجونها مُصنَّج هؤلاء القوم ومُتسَّاهم . بل ربما ولدت فيها ذراريهم ، وأرُمست كهولهم وشيوخهم .

فهذه المناظر المؤلمة من العدوان الظاهر ، والتجنى المقوت على هذه الفئة الطاهرة ، كانت دائماً تُسعر في قلوب أهل الكوفة نار الحقد على بنى أمية كما تحمل على استشعار الرحمة لهؤلاء المنكوبين ، والعطف على قضيتهم التي لم تمكن الأقدار أنصارها من الظهور بها والفَّلَج على خصومهم .

فإذا تشيع الكميت فكما تجمعت أمامه أسباب هذا التشيع من شناعات رآها ، وحوادث سمع بها ، وذلّ ضارع رأى فيه هذه النفوس الزكية ، فلا شك أن كل ذلك يحمل نفساً أبية ، وقلباً زكياً مثل نفس الكميت وقلبه على أن ينتصر لهؤلاء بما يستطيع نصرهم به من وسيلة .

ولم يكن لئله وسيلة إلا وسيلة القول . وقد عرف وقعه في النفوس وقيمه بين أهل زمانه ، وقلق الحكام في عصره من اتخاذ هذا السلاح في محاربتهم .

لذلك كان أول شعر قاله الكميت هو شعره في آل البيت ، فقد ورد في الأغاني عن محمد بن عليّ النوفليّ قال : سمعت أبي يقول : لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ما قال « الهاشميات » فسترها ، ثم أتى الفرزدق فقال له : يا أبا فراس ، إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك . قال : فما حاجتك ؟ قال : نفّث عليّ لساني ، فقلت شعراً ، فأحييت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره ، وأنت أولى من ستره ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدني ، فأنشده :

* طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ *

قال : فقيم تطرب ؟ قال : « ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب ؟ » . قال : بلى يا بن أخي فإلعب فإنك في أوان اللعب ، فقال :

ولم يُلْهِنِي دَارُهُ وَلَا رَسْمُ مَنْزِلٍ ولم يَتَطَرَّبْنِي بَنَانُ مُخَضَّبٍ
فقال : ما يطربك يا بن أخي ؟ فقال :
ولا السانحاتُ البارحاتُ عَشِيَّةً أمرَّ سليمُ القرنِ أم مرَّ أعْضَبُ^(١)
فقال : أجل لا تتطير ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والثقي وخيرِ بني حَوَاءَ والخيرِ يُطْلَبُ
فقال : من هؤلاء ويحك ! قال :
إلى النَّفَرِ البِيضِ الذين يَحِبُّهُمْ إلى الله فيما نابى أَتَقَرَّبُ
قال : أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشم رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنِّي بهم ولهم أَرْضَى مراراً وأغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مَنِي جَنَاحِي مُودَّةً إلى كَنَفِ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرَحَبُ
وَكَنتُ لَهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَا محبًّا على أُنَى أَذُنٍ وَأَقْصَبُ^(٢)
وَأَزْمَى وَأَزْمَى بِالْعِدَاةِ أَهْلَهَا وَإِنِّي لَأُودِي فِيهِمْ وَأُؤْتَبُ
فقال له الفرزدق : يا بن أخي أذعُ ثم أذعُ ، فأنت والله أشعر من مضى ومن بقى .

وما زال الكميته يقول الشعر في آل البيت ويسمعهم إياه طلباً لرضا الله ، وإدخالاً
للسرور على نفوسهم ، فكانوا في غالب أمرهم لا يملكون إلا الدعاء له يرفع أحدهم يديه ،
ويقول : « اللهم اغفر للكمية ما قدّم وما أّخر ، وما أسرّ وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى » .
ومما لاشكّ فيه أنه لم يكن يطمع في دنيا يصيبها من هؤلاء القوم ، وإنما كان
يطمع في ثواب الله ، فقد دخل على أبي جعفر محمد بن عليّ ، فأنشده قصيدته :
« من لقلب مُتَيِّمٍ مُسْتَهَام » ، فقال : اللهم اغفر للكمية . اللهم اغفر للكمية .
ودخل عليه يوماً ، فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال له الكمية : والله ما أحببتكم للدنيا ،

(١) الأعضب : الكسور القرن .

(٢) أقصَب : أعاب . ورواية الأغاني : أغضب .

ولو أردتها لأتيت من هي في أيديهم ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبأها لبركتها ، ثم ردّ المال ، وقبل الثياب .

ولقد يتزعزع اعتقادك في اعتقاد الكميت حين تراه مدح بنى أمية وعمالها ، ولكن قد كانت لهذا المدح ملابس جعلته مقبولا لا مطعن فيه على رأى الرجل ، فبعضه تقية أقرّه عليها آل هاشم أنفسهم ، وبعضه كان حيلة صناعية لجأ إليها الشاعر للقضاء على منافسيه في الشعر ، ولهذا القول تفصيل نذكره .

فأما التقية فقد تمثلت في مدحه لعمال الكوفة قبل محنته ، فقد كان يمدح خالد ابن عبد الله القسرى ليغمض عينه عما يكون منه من التشيع لآل البيت . وما زال منتفعا بهذا المدح مشبعا به رغبته في التشيع حتى حنق عليه خالد لأنه تعلق عليه بقول يهجو به في منافراته ومناقضاته لشعراء القحطانية ، فلم يتسع له عنده عذر ، فوشى به إلى الخليفة هشام على النحو الذي مرّ بك .

كما تمثلت تلك التقية في مدحه لهشام الخليفة ورثائه لابنه معاوية حين وقع في قبضته ، فلم يجد إلا ذلك المدح .

وهذه التقية قد أجازها له آل البيت ، فقد أرسل الكميت أخاه وزّداً إلى أبي جعفر محمد بن عليّ يقول له : إن الكميت أرسلني إليك وقد صنع بنفسه ماصنع . أفتأذن له أن يمدح بنى أمية ؟ قال : نعم هو في حلّ فليقل ما شاء ، كما ذكرُوا أن الكميت نفسه دخل على أبي جعفر هذا ، فقال له : يا كميّ أنت القائل :

فالآن صرت إلى أميّة والأمور إلى المصائر

قال : نعم ، قد قلت ولا والله ما أردت الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم . قال : أما إن قلت ذلك ، إن التقية لتحلّ .

وأما الحيلة للصناعية فقد أردنا بها تلك الوسائل التي يلجأ إليها الرجل في صناعته ليكسب الفوز على خصمه ، ولقد كان من الكميت مكر حسن في باب المناقضة بالشعر . من ذلك أن شاعراً من أهل الشام يقال له : حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى

بنى أمية ، فانتدب له الكميت . فهجاه وسبّه فأجابه ولج بينهما الهجاء ، فكان الكميت يظهر أن هجاء إياه للعصبية التي بين عدنان وقحطان . قال المستهل بن الكميت قلت لأبي : يا أبت ! إنك هجوت الكلبي ، ففخرت ببني أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألا فخرت بعليّ وبني هاشم الذين تتولا هم . قال يا بني ، أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية ، وهم أعداء عليّ عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليّ له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية وقلت : إن تقضها عليّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته . فكان كما قال : أمسك الكلبي عن جوابه ، فغلب عليه وأغهم الكلبي .



فالرأى عندنا أن تشيع الكميت كان عقيدة ضمّ عليها أحناء ضلوعه ، واختلطت بدمه ولحمه ، وأما الذي كان منه من انحراف إلى أعدائهم في بعض القول ، فهو حيلة يتخذها ليستعين بها على ردّ الكيد عنهم وعن نفسه .

شعر الكميت

لقد حكم مُعَاذُ الْهَرَاءِ بأن الكميت « أشعر الأولين والآخرين » ، وقال له الفرزدق : « أنت أشعر من مضى ومن بقى » ، ويخيل إلينا أن حكمهما لا مبالغة فيه ولا إسراف لأن الكميت قد تهيأت له أسباب تسوّغ قبول هذا الحكم ، ولا سيما في عصر الكميت .

فلقد كان للعصبية المقام الأول بين الشعراء ، فمن كان نافذ القول فيها خبيراً بمدخلها ومخارجها كان له القلب على معارضيه ، وراج شعره بين الناس بما يثير من دفائن وما يكشف من مستور ، والكميت له في هذا المقام القدح الملى والقدم الفارعة ، فقد كان عليمًا بأيام العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، حافظًا لأنساب القبائل لا يماريه في كلّ

ذلك ممار . حتى قيل : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ، فمن صحح الكميت نسبه صح ، ومن طعن فيه وهن .

وهو الذى ردّ على الأعور الكلابى لما رمى امرأته بأهل الحبس ، فكانت قصيدته فيه ثلثمائة بيت لم يترك فيها حيّا من أحياء الين إلا هجاهم .

وقد حار الناس فى أمر الكميت وعلمه بأنساب العرب ووقائعها ، ثم اهتموا إلى أنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس فى الجاهلية . فإذا ما شكّ فى شعر أو خبر عرضه عليهما ، فتخبرانه عنه . قالوا : فمن هناك كان علمه .

كذلك تهبأ للكميت من أسباب النبوغ فى الشعر تلك الملكة الصنّاع التى كان يصدر عنها قوله على غرار واحد له طابعه الذى لا يشركه فيه أحد ، والشاعر إذا كان قوى الملكة صدر شعره نسيج وحده تتمثل فيه نزعة قائله الذى لم يضطره ضعفه إلى التقليد ، ولم تحوجه حيرته إلى الاحتذاء .

وإنك لتبين استقلال الكميت فى نزعته وصدوره عن محض ملكته فيما رواه صاحب الأغاني من أنّ الخليفة هشاماً لما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على وشاية بخالد القسرى ، وهى :

تَأَقَّ بَرَقٌ عِنْدَنَا وَتَقَابَلَتْ أَثَافٍ لِقَدْرِ الْحَرْبِ أَخْشَى اقْتِبَالُهَا^(١)
فَدُونُكَ قَدَرُ الْحَرْبِ وَهِيَ مُقَرَّةٌ لَكَفَيْكَ وَاجْعَلْ دُونَ قَدْرِ جَعَالِهَا^(٢)
وَلَنْ تَنْتَهَى أَوْ يَبْلُغَ الْأَمْرُ حَدَّهُ فَكُلُّهَا بِرِسْلِ قَبْلِ الْأَتَالِهَا^(٣)

(١) يقال اقتبلت الأمر إذا استأنفته . يريد بتقابل الأثافى للقدر الاستعداد للحرب ولأنما جعل الحرب قدراً لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب القدر عند الغليان .

(٢) الجعال : خرقه ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفيك : أى خاضعة لهما يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق واللؤدة .

فَتَجَشَّمَ مِنْهَا مَا جَسَّهَتْ مِنَ التِّي بسور أهرت نحو حالك حالها^(١)
تلاف أمور الناس قبل تفاقم بعقدة حزم لا تخاف انحلالها
فما أبرم الأقوام يوماً لحيلة من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرّها - وإن لم تبخ - من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميّ ابن زيد الأسدي .

فإجماع الرواة من ساعتهم على أن الشعر للكميّ دليل على أن لشعره طابعاً لا يشبهه معه بشعر غيره ، وهذا الطابع هو دليل الاستقلال ، وآية الملكة المستغنية عن الاحتذاء والتقليد ، ثم إن هذا الإجماع بهذه السرعة دليل من جانب آخر على امتياز فن الكميّ وأنه لعلوه لا يختلط بغيره من منازع الشعراء الذين تتدافى ملكاتهم ، وتتقارب قواهم ، وتلتقي في مشرب واحد مأخذهم . لذلك سهل على الرواة أن يميزوا شعره لتحليقه وحده في سماء لا يتساهى إليها غيره من أهل العصر .

وقبل أن نحكم على شعر الكميّ لا نرى بأساً من الاستئناس برأى أهل زمانه فيه من أمراء وخلفاء وشعراء ورواة .

فأما وجه هذا الاستئناس فهو أن القوم حين حكموا لم يصدروا في الغالب إلا عن تأثير بجمال هذا الشعر ، وربما وقع بعضهم تحت هذا التأثير كارهاً فأعجب مضطراً وعدل عن حنقه على الشاعر إلى الرضا الذي تبعه تقريب المجلس وإغداق العطاء . وهل يمكن أن يكون هشام الخليفة ممالئاً حين يسمع شعر الكميّ فيغمر ابنه مسلةً بقضيب في يده ، ويقول له : اسمع . اسمع . أو يكون الفرزدق وهو الشاعر المشهور بحقده على الجعيدين من الشعراء ، مصانعاً حين يسمع أول شعره الذي جاء يستأذنه في إذاعته ،

(١) جهم الرجل الأمر (كسمع) تكلفه على مشقة .

فيقول له : يا بن أخى أذع . ثم أذع ، وهل تكون فاطمة بنت أبان بن الوليد (ممدوح الكمية) مسرفة حين التقت بريا ابنة الكمية فى طريق الحج ، فلما عرفتها خلعت لها خلخالين من الذهب ، فقالت لها : جزاكم الله خيراً يا آل أبان . قالت فاطمة : بل أتمم جزاكم الله خيراً ، فإننا أعطيناكم ما يبيد ويفنى ، وأعطيتونا من المجد والشرف ما يبقى أبداً ولا يبيد : يتناشده الناس فى المحافل فيحى ميت الذكر ويرفع بقية العقب . لم يكن كل هؤلاء مسرفين فى حكمهم ولا مبالغين ، وإنما كانوا صادقين مدفوعين بتأثرهم من جمال هذا القول .

كذلك فى نوع العطاء صورة لراى الممدوح فى الشعر الذى مدح به ، فهذا خالد القسرى لما سمع من الكمية قوله فيه :

| | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| لوقيل للمجد من حليفك ما | إن كان إلا إليك ينتسب |
| أنت أخوه وأنت صورته | والرأس منه وغيرك الذنب |
| أحرزت فضل النضال فى مهل | فكل يوم يكفك القصب ^(١) |
| لو أن كعباً وحاماً نُسرا | كانا جميعاً من بعض ما تهب |
| لا تخلف الوعد إن وعدت ولا | أنت عن المعتفين تحتجب ^(٢) |
| ما دونك اليوم من نوال ولا | خلفك للراغبين منقلب ^(٣) |

أمر له بمائة ألف درهم .

وهذا محمد بن يزيد بن المهلب أنشده الكمية :

| | |
|---------------------------|---|
| قاد الجيوش الخمس عشرة حجة | ولدائه عن ذاك فى أشغال |
| قدمت بهم همتهم وسمت به | همم الملوك وسورة الأبطال ^(٤) |

(١) القصب : قصب السبق .

(٢) المعتون : طالبو الجود .

(٣) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يربى .

(٤) السورة : السطوة والشدة .

وكان قدام مُخَلَّد دراهم يقال لها الرويجة ، فقال للكُميت : خذ وَقَرَك منها ، قال الكُميت البغلة بالباب وهى أجلد منى ، فقال : خذ وقرها ، فأخذ أربعة وعشرين ألف درهم .

حكمتنا على شعر الكُميت

أما حكمتنا على شعر الكُميت بعد ما قدمنا لك ، فهو أن الرجل كان مطبوعاً على قول الشعر . يدلك على ذلك طول نفسه فيه فهاشمياته طويلة ، (وسنفرد لها فصلاً خاصاً) وكذلك قصيدته التى رَدَّ بها على الأعور الكلبي بلغت ثلثمائة بيت ، وشعره كله بلغ خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً ، وهو مقدار كبير لم يبلغ مبلغه شاعر من أهل زمانه، كما يدلك على هذا الانطباع قصيدته الرائية التى ارتجلها فى مجلس الغفو عنه بين يدي هشام الخليفة .

كذلك كان سليم الملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم إلى علمه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، أو تعداد المناقب . فاجتمعت بذلك للكُميت أسباب الكمال فى شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

ولقد كان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم فى جودة شعره حتى لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعد ذلك من معانيه ، ويدعى أن الكُميت يسرق كلام الشعراء ، وما هى بسرقة ، ولكنها ما علمت من امتلائه بالحفظ وكثرة الرواية .

أما الأثر السياسى الذى أحدثه شعر الكُميت ، فقد كان بعيد الغور حتى لقد اعتبر هذا الشعر من أقوى العوامل فى إحياء العصبية المقوتة التى جنت على الدولة الأموية ، وبقيت آثارها إلى أوائل العصر العباسى حتى أماتها الفرس وقضوا عليها جملة .

وإنك لتدرك قوة هذا الشعر من قول صاحب الأغاني : « ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته ، وبعد وفاته حتى ناقض دعبل وابن أبي عُيَيْنَةَ قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة .

ويقول الجاحظ في بيان المدى الذى باغاه شعر الكميت من التأثير في سياسة الدولة :
« مافتح للشيعه الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هي لم تصلح لحى سوامي فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون لم يورث ولولا ترأثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب^(١)

هاشميات الكميت

هى ست قصائد كبار مجموعها نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات يبلغ مجموعها نحو عشرين بيتاً ، وطولى هذه القصائد بلغت مائة وأربعين بيتاً ، ومنها ثلاث أربت كل واحدة منها على المائة .

والوصف العام لهذه القصائد أنها تشتمل على تمجيد آل البيت ، ووصفهم بالطهر والجود والشجاعة ، وأنهم أليق الناس بإقامة العدل وضبط ميزانه ، كذلك فيها ذكر للموتى منهم متوجين بالحديث عن سيرة رسول الله ووصف حياته وأعماله وغزواته ، ولكن بإيجاز يبعد القصيدة عن أن تعد من نوع القصص كذلك يذكر علياً والحسن والحسين ومقاتلهم ، وفيها كثير من الاحتجاج لآل البيت واستحقاقهم الخلافة وتعريض وتصريح ببنى أمية واغتصابهم للأمر . هذا ما تدور عليه « الهاشميات » والأولى منها في ترتيب الوضع في النسخة المطبوعة بمصر ، مطلعها :

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان .

من لقلبٍ مُتَمِّمٍ مُسْتَهَامٍ غَيْرَ مَا صَبُوءٍ وَلَا أَحْلَامٍ
 طَارِقَاتٍ وَلَا أَدْكَارٍ غَوَانٍ وَانْخِتَاتٍ الْخُدُودِ كَالْأَرَامِ^(١)
 بِلْ هَوَايَ الَّذِي أَجْنُ وَأُبْدِي لِبْنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ^(٢)
 لِلْقَرِيبِينَ مِنْ نَدَى وَالْبَعِيدِينَ مِنْ الْجُورِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ
 وَالْمُصِيبِينَ بِأَبْ مَأْخُطًا النَّاسِ مِنْ مَرْبِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ^(٣)
 وَالْحِمَاةِ الْكُفَّةِ فِي الْحَرْبِ إِنْ أَنْفَ ضِرَامٍ وَقُوْدُهُ بَضِرَامٍ
 وَالغِيُوْثِ الَّذِينَ إِنْ مَحَلَّ النَّاسِ مِنْ فُأْوَى حَوَاضِنِ الْأَيْتَامِ
 وَالْوَلَاةِ الْكُفَّةِ لِلْأَمْرِ إِنْ طَرَّ قَ يَتَنَّا بِمُجْهَضٍ أَوْ تَمَامِ^(٤)
 وَبَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ فِي وَصْفِ رَسُولِ اللَّهِ :

أَسْرَةَ الصَّادِقِ الْحَدِيثِ أَبِي الْقَاسِمِ فَرْعِ الْقُدَّامِ الْقُدَّامِ^(٥)
 خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ مِنْ بَنِي آدَمَ طُرًّا مَأْمُومِهِمْ وَالْإِمَامِ

وَفِيهَا يَذْكُرُ الْحُسَيْنَ ، فَيَقُولُ :

وَقَتِيلَ بِالطَّفِّ غُودَرَ مِنْهُ بَيْنَ غَوَاةٍ أُمِّهِ وَطَغَامِ^(٦)
 تَرْكَبُ الطَّيْرُ كَالْحِجَاسِدِ مِنْهُ مَعَ هَابٍ مِنَ التَّرَابِ هُيَامِ^(٧)
 وَتُطِيلُ الْمُرَازَةَ آتُ الْمُقَالِيسَتِ عَلَيْهِ الْقَعْوَةُ بَعْدَ الْقِيَامِ^(٨)

-
- (١) طَارِقَاتٍ : وصف لأحلام . والادكار : التذكر . غَوَان : جمع غَانِيَةٌ ، وهى المرأة الجميلة .
 (٢) أَجْنِ مَضَارِعِ جَنِّ (كَنْصَر) : أَسْتَرِ وَأَخْفِ ، وَمِثْلُهُ أَجْنِ (كَأَكْرَم) . فُرُوع : جمع فَرْع وهو أعلى الشئ .
 (٣) مَرْبِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ : مَنْ أَرَسَى الشَّيْءَ بِمَعْنَى ثَبَتَهُ وَأَقْرَبَهُ .
 (٤) طَرَّقَتْ الْحَبْلَى : إِذَا خَرَجَ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْلُودِ وَبَقِيَ شَيْءٌ . الْيَتَن : الْمَوْلُودُ الَّذِي خَرَجَتْ رِجْلَاهُ قَبْلَ رَأْسِهِ وَيَدَيْهِ . الْجَهْضُ : الَّذِي أُنْقِطَتْ أُمُّهُ قَبْلَ تِمَامِهِ .
 (٥) الْقُدَّامِس : السَّيِّد . الْقُدَّام : مَنْ يَتَقَدَّمُ النَّاسَ لِمَرْفَعِهِ .
 (٦) الطَّف : مَوْضِعُ قَرْبِ الْكُفَّةِ .
 (٧) الْحِجَاسِد : الثَّيَابُ الْمَزْعُفَرَةُ . الْهِيَام : الَّذِي يَتَسَاقَطُ مِنْ نَفْسِهِ .
 (٨) الْمُقَالِيت : جَمْعُ مَقْلَاةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ لَا يَعْيشُ لَهَا وَلَدٌ .

يَتَعَرَّفْنَ وَجْهَ حُرٍّ عَلَيْهِ عَقَبَةُ السَّرْدِ ظَاهِرًا وَالْوَسَامُ^(١)
قَتَلَ الْأَدْعِيَاءَ إِذْ قَتَلُوهُ أَكْرَمَ الشَّارِبِينَ صَوَّبَ الْغَمَامَ

والثانية مطلعها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب ؟
وقد مرّ بك هذا المطلع وما يليه . ومنها في ذكر استحقاق آل البيت للخلافة :
وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقيّ ومُعَرِّب^(٢)
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت لكم نصّب فيها لذى الشكّ مُنْصِب^(٣)
بحقّكم أمست قريش تقودنا وبالقدّ منها والرّدّ يفين نُرْكَب^(٤)

والثالثة مطلعها :

أني ومن أين أبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريبُ
لا من طلاب المحجّبات إذا ألقى دون المعاصر الحُجُب
وفيها يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو مامرة في الأولى .

والرابعة وأولها :

ألا هل عمّ في رأيه متأمّل وهل مدبرٌ بعدَ الإساءة مُقْبِلُ
وهل أمة مستيقظون لرُشْدِهِم فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساوئهم لو كان ذا الميل يُعْدَلُ

(١) العقبة : ضرب من الثياب موشى . السرد : الصوف والمروءة . الوسام (بالفتح) الحسن .

(٢) الآية هي قوله تعالى في سورة الشورى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

(٣) النصيب بالدحريك : العلم المنسوب . منصب : متعب ، والآيات هي قوله تعالى في الأحزاب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله تعالى في الأنفال « واعلموا أنما غنمنا من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذرى القربى » الآية .

(٤) يريد أن قريشا (يعنى بنى أمية) تحكم الناس باسم آل هاشم فهم يتخذونهم وسيلة إلى غرضهم كما تركب الدابة للوصول بها إلى الجهة ، المراد يركبها واحد أو اثنان .

وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانُوا عَلَى مِلَّةِ غَيْرِ الَّتِي تَنْتَحِلُ
كَلَامُ النَّبِيِّينَ الْمَدَادَةَ كَلَامُنَا وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ
رَضِينَا بِدُنْيَا لَا نَرِيدُ فِرَاقَهَا عَلَى أَنْفَا فِيهَا نَمُوتُ وَنُقْتَلُ
وَنَحْنُ بِهَا مُسْتَمْسِكُونَ كَأَنَّهُا لَنَا جُنَّةٌ مِمَّا نَخَافُ وَمَعْقِلُ
أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطَوَّلِهَا يُجِدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ

هذه هي صورة « الهاشميات » قربناها إليك بما نقلناه منها ، وهي مطبوعة مشروحة .
أما بقية شعره . فغير مجموع .

نقد الكلام في عصر بني أمية

النقد ميز الخبيث من الطيب ، والزائف من الجائز ، وهو في الكلام معرفة صائبه
من خاطئه ، وتقدير حسن موقعه ، أو سوء موضعه .

ولقد كان ذلك شغل العرب في جاهليتهم وهم من عرفت عناية بالقول والتماساً
لأبلغه وتلطفاً لحسن موقعه ، وإن أحدهم ربما قال القول لا ينبغي به إلا المباهاة
بالفصاحة والمساماة في حسن البيان ، فلم يكن غرضهم من كل ما قالوا إرشاد السامع إلى
ما جهل وإفهامه ما غمض ، بل كان أكبرهم الإدلال بشرف اللفظ والتنبيه على
مكانه ، وجدير بمن كانوا بهذه المثابة أن يكونوا قد بالغوا في العناية بالكلام ، فاخترأوا
لفظه نقيّاً صافياً ، وعمدوا إليه جزلاً شريفاً . والتمسوا له الموقع اللائق والسياق المناسب .
وهم أخرى إذا نظروا في الكلام ، أو استأذن على سمعهم شيء منه أن يدركوا بموازينهم
المضبوطة ، ومبركاتهم السليمة حسن موقعه ، أو نبوء موضعه ، لأنهم طالما أخذوا أنفسهم
بذلك ، ولم تعد آذانهم إلا سماع الجيد .

ولعل هذا الغرام منهم بحسن الاتساق وجمال الوقع هو الذي جعل الشعر كثيراً

فيهم فإنه بوزنه واتحاد قافيته يساعد على التغنى ، ومن شأنه أن ينفى كل كلمة لا تقبل التوقيع ، ولا تدخل في حظيرة الموسيقى .

وإن ملكة النقد عندهم هي التي تمثلت في أسواقهم أيام الجاهلية ، فتنخلت قريش اللغات ، فخلص لها من بينها لغة جمعت ماتفرق في لغات العرب من مزايا ، ثم أرصد الشعراء لأنفسهم حكاما يستجيدون الرصين من قولهم ، ويهرجون الباطل منه ليكون القائل دائما على ذكر من توخى المثل الأعلى والتماس الغاية المنشودة ، وليكون للملكات رقيب يحصى خطأها ، وينفى زيفها ، فلا تتأثر به الأسماع ، ولقد كان الحكم في شعرهم حينما ، النابغة الذبياني ، فكان يعرض عليه الشعراء أقوالهم فيقضى فيها بالحكم الذي لا يرد ، وقد مرّ بك حديث حسان والخنساء حين أسمعا النابغة شعرهما ، وما كان له من رأى صائب .

استمرّ ذلك شأن العرب يحكمون للمجيد على المقصر ، ويتبعون الكلمة بالرأى فيها يساعدهم على ذلك ما كان لهم من حرية في إبداء الرأى لا ينهه لها غرب حتى كان أحدهم يشعر بأن ديناً في عنقه أن يقول كلمته ، ويعلم للناس رأيه ليبرى ذمته من أمانة لا يستطيع لها خيانة ، ومن عهد ما يرى في الوفاء به من بدّ . وهذا هو الذي جعل الخطيئة حين دنت وفاته يجعل في موضع وصيته أن يقول أبلغوا غطفان أن الشماخ أشعر العرب حيث يقول :

إِذَا نَبِضَ الرَّامُونَ فِيهَا تَرَمَّتْ تَرْتَمُّ ثَكَلِي أَوْجَعَتْهَا الْجَنَائِزُ

وأبلغوا أهل ضابى أنه كان شاعراً حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَنَدِيدٍ

وأبلغوا أمراً القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

وأبلغوا الأنصار أن صاحبهم (يعني حساناً) أشعر العرب حيث يقول :

يُغَسَّوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْقُبُلِ

ثم يختم هذه الأمانة التي يؤديها ، وكأنه يرجو نفعها في آخرته بقوله :

الشعرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَأَلَهُ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الذِّى لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْخَضِيضِ قَدَمُهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيَعْجِبُهُ

ولقد جاء الإسلام ، فشر لهم بالقرآن ، وكلام النبي مطارف من القول جيدة النسيج بديمة الصنع ، فأدركوا بهما كيف يكون حسن التأليف وتلاحم القول ، وكيف تقع الكلمة موقعاً لا يحسن فيه غيرها ، ولا يليق به سواها ، وكيف تكون للأسلوب روعة في مقام الزجر ، وتطريب في مقام البشرى ، وإبكاء في سياق الوعظ ، وتثبيط وإخزاء عند العتاب واللوم ، إلى غير ذلك مما لهما من جمال رائع كان هو هادى العرب إلى الإيمان وداعيتهم إلى الدين .

عرف العرب بالقرآن مثلاً في البلاغة أسمى من مثاهم ، ورأوا في كثرة معانيه ، واتساقها ذخيرة لم تمتلئ بمثلاً أيديهم ، فصار للبلاغة عندهم مقياس فوق مقياسهم وحد لم يبلغوه في جاهليتهم . فلا غرو إذا أنتج هذا فيهم دقة حس ، وحسن تقدير ، والتماساً للكمال يجعلون فيه القرآن وكلام الرسول حجته ونموذجهم ، لذلك رأيناهم أقبلوا عليهما يكثر من اقتباس ألفاظهما ويتأثرون بأساليبهما ، ويهتدون في معانيهم بهديهما تساعدهم على ذلك ملكات حسيمة توارثوها من عهد قريب عن آباء صدق لم تشبها هجنة ولم تعبا عجمة ، ولقد استمرّ العرب في مدة العصر الأموى محتفظين بالمقدرة على النقد وصدق الحكم لأن الملكة بقيت سليمة خصوصاً في الخاصة من ولاية الأمر وأمراء الكلام . بل لقد كان للنقد رواج عظيم تبع رواج الشعر والاهتمام به ، فكان كما ذكرنا في مواضع سابقة لكل شاعر رواة يتعصبون له ويفضونه على غيره ، ولا يكون التفضيل إلا بعد محاسن الكلام والنيل من غيره بالتهجيز والعيب ، كذلك كانت كثرة الشعراء ، وتهافت الناس على التكسب بالشعر من أسباب النظر في كلامهم لترتيب درجاتهم ، وتقديم المستحق للتقديم كذلك كان الشاعر نفسه يرسل القصيدة ، وقد عرف البيت الذي سيزحف له الممدوح إعجاباً وارتياحاً كما يعرف في الهجاء البيت

الذى سيفرى جلد المهجو ويدقّ عظمه . كما حدث أن جريراً هاجه راعى الإبل ،
فانصرف وهو مغضب ، فما زال أرقاً طول ليله يهدر هدير البعير ، ويقرض الشعر في
هجائه حتى وصل إلى قوله :

فَفُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ مُنَمَّرٍ فَلَ كَعْبًا بَأَغْتَ وَلَا كِلَابًا

فوثب حتى أصاب رأسه السقف وكبر ثم صاح أخزيته والله ، والله لا يفلح بعدها ،
فكان كما قال ، وارتحل راعى الإبل على أثر سماعه لهذا القول منكسراً مخذولاً ، فكان
كلما مرّ بمكان وجد هذا الشعر قد سبقه إليه .

ولقد بلغ من قوة تقدم وتميزهم لطبقات الكلام أن كان مثل خلف الأحمر ، وحماد
الراوية يقولان على لسان كلّ شاعر ما لا يستطيع الناس تمييزه من قوله لأن أحدهم كان
قد سبق فعلم خصائص كلّ شاعر ودقائق الفروق بين قوله وأقوال غيره ، فإذا قال مثلاً
على لسان امرئ القيس لم تر إلا روح امرئ القيس . تردّدة فيما يقول ، ولشدة الخلق
وتناهى المقدرة في التقليد جاز ما وضعوه على ألسنة هؤلاء الشعراء ، ودخل على الناس
كأنه كلامهم .

ولقد راج النقد في هذا العصر رواج الشعر نفسه ، فقد حفلت به مجالس الخلفاء والأمراء
والولاة وحلقات الأدب في المساجد الجامعة وأسواقه في البصرة والكوفة ، وكان حديث
الناس وموضوع سمرهم ، فما ذكروا شاعراً إلا أعقبوا ذكره بالرأى فيه .

لأجل ذلك ترى كتب الأدب قد امتلأت بالحكم على الشعراء والخلاف بين النقاد
في تفضيل شاعر على آخر ، وماذكرناه في فصول سابقة من أن هذه الآراء كانت مثاراً
للمخاصمات والتجالد بالسيوف يدلك أوضح دلالة على ما كان للنقد من رواج في هذا
العصر ، ولقد كان النقد عند العرب في هذا العصر والذى قبله من أيام الجاهلية يشمل
جهتي الكلام : عبارته ومعناه . فأما اللفظ فقد تناولوا فيه اللفظ من حيث السهولة
والوعورة والاضطراب والانسجام والتناسب والتنافر ، ثم الصحة والخطأ واللعن
والإصابة . فإذا كان شعراً تناولوا الوزن ومناسبته للمعنى ، وتقنوا الشاعر في التزامه

بحوراً خاصة لا يتعداها ، وحكموا على القافية في شدة أسرها ، أو قلق موضعها إلى غير ذلك مما تعرفه من الأمور التي تتعلق باللفظ مفرداً ومركباً ، وقد قال أصحاب الأعشى : هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاء . ولا يذهب عن بالنما ما كان يعاب على شعر النابغة الذبياني من الإقواء ، وهو اختلاف حركات الروى ، وذلك لأنه لم يكن يعيد نظره في شعره حتى يفتن إلى مثل هذه المآخذ ، فاتهمز أهل المدينة فرصة حلوله بينهم فدرسوا عليه مغنية تغنيه بقوله :

أَمِنْ آلِ مَيَّةٍ رَاحٍ أَوْ مُغْتَدٍ عَجْلَانَ ذَا زَادٍ وَعَغِيرَ مَزُودٍ
زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رِخْلَتَنَا غَدَاً وَبِذَاكَ خَبَرَنَا الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ
سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تَرِدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَّاوَلْتَهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَانَ بَنَانُهُ عَمَّ يَسْكَادُ مِنَ الْإِطَافَةِ يُعْقَدُ

وأمرؤها إذا بلغت الروى أن تمده حتى يفتن له ، وقد فطن فأصلح شعره وقال : وردت يثرب وفي شعري بعض العهدة ، وصدرت عنها وأنا أشعر الناس . كذلك تقدوا المعنى ، وفي حكاية الخنساء وحسان حين وفدا على النابغة ما يدل على عنايتهم بالمعنى ، فقد عدت الخنساء على حسان أنه قلل جفانه في قوله : لنا الجففات الفرّ ، وجعل طعامه بالتهار في قوله : يلعبن بالضحى . قالت له : لو قلت بالدجى لكان أكثر طرافاً ، ثم عابت عليه افتخاره بالأبناء في قوله :

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ فَأَكْرَمُ بِنَا خَالَاوَأَكْرَمُ بِنَا ابْنَا

وعادة العرب أن تفخر بالآباء ، وسيمر بك من ذلك كثير جرى على ألسنة الخلفاء والأدباء في العصر الأموى .



والذى نراه أن للنقد كان نواة علوم البلاغة التي تكاملت فيما بعد فصارت علماً مستقلاً . ألت ترى أن موضوعهما واحد وهو الكلام وبيان وجوه حسنه وأسباب

قصه ؟ فقد كانوا إذا أرادوا تعليل الحسن في الكلام أشاروا إلى ازدواجه ، أو سجمه مثلا ، أو أنه اشتمل على تقسيم صادق أو اقتباس حسن ، كما تقدوا مطالع القصائد ، فاستحسنوا المطلع الجزل الدال على الغرض الملائم للموضوع ، واستهجنوا مادعا إلى التطير وحل على الاستكراه ، ولم يكن مناسبا لمقام الكلام ، كما تناولوا الانتقال من التشبيب إلى الغرض ، فإذا رأوا الشاعر قد أحسن التخلص وتلطف في المدخل حمدوا صنيعه ، وإن رأوه وثب من غير ربط ، وهجم من غير تلطف عابوه واتهموه ، كذلك نظروا إلى اختتام ، وطالبوا فيه أن يكون حسنا ليكون ما يعلق بالذهن من القول محمودا ، وليلحو بحسنه الباقي قبجا سبقه إن كان ، وهكذا فكان من آثار ذلك أن رأينا علم البلاغة يتكون وفيه أبواب البديع من ازدواج وسجع وتقسيم إلى غيرها .

ونحن الآن وقد فقدنا قوة النقد لفقد السليقة العربية ترانا لانستطيع الحكم على الكلام إلا إذا ترسمنا خطأ علوم البلاغة وحكمناها فيما نعرض له من القول فيما ننقده ونميز طيبه من خبيثه ، لذلك لانرى لغير البارعين في هذه العلوم الواقفين على أسرارها أن يتناولوا الأساليب العربية بالنقد ، فإن كلام غيرهم في ذلك خلط وضلال يجب أن تصان عنه العربية .



وسنورد عليك أمثلة مما وقع من النقد تدرك بها مدى هذه الملكة في نفوس القوم .

١ - عابوا على امرئ القيس قوله :

أَغْرَكَ مِنِّي أَنَّ حُبَّكَ قَاتِلِي وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِي يَفْعَلِ

فقالوا : إذا لم يغرها ذلك منه فما الذي يغرها ؟

وأخذوا عليه قوله :

فَلِلسَّوْطِ الْأُحُوبِ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعُ أَخْرَجَ مُهْذَبٌ (١)

(١) الأُحُوب : شدة الجرى . الدرة : الاندفاع . الأخرج : الظلم . المهذب : السريع العدو من

فقالوا : لو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك ، واستجادوا في هذا المعنى قوله هو :

عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُوءِ الْهِلَالِ أَفَانِينَ جَرِيٍّ غَيْرِ كَرِيٍّ وَلَا وَانِي^(١)
كما عدوا من غفلة كثير قوله :

أَلَا لَيْتَنَا يَا عَزُّ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ بَعِيرَانِ نَرَعَى فِي خَلَاءٍ وَنَعْرُبُ^(٢)
كلانا به عُرٌّ قَرْنٌ يَرَنَا يَقْلُ عَلَى حَسَنَاهَا جَرَّاهُ تُعْدِي وَأَجْرُبُ
إِذَا مَا وَرَدْنَا مَهْلًا هَاجَ أَهْلُهُ إِلَيْنَا فَلَا نَنْفَكُ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

حتى قالت له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٢ — أراد جرير أن يذكر عفوه عن بني عُذَانَةَ حين شفع فيهم عطية بن جمال ، فبهجهم أقبح هجاء حيث يقول :

أَبْنَى عُذَانَةَ إِنِّي حَرَزْتُكُمْ وَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةَ بْنِ جِمَالٍ
لَوْلَا عَطِيَّةُ لاجْتَدَعْتُ أَنْوَفَكُمْ مَا يَنْ أَلَامِ آئِفٍ وَسِبَالِ^(٣)

فقال عطية لما سمع الشعر : ما أسرع ما رجع أخى فى عطيته ؟

٣ — أنشد عبد الملك قول نصيب :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّيتُ فَإِنْ أُمْتُ فَوَا حَزَنًا مَنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

فقال بعض الحاضرين : أساء القول . أيعزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال عبد الملك : لو كنت قائلاً فماذا تقول ؟ قال :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّيتُ فَإِنْ أُمْتُ أَوْ كَلَّ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

أهذب بمعنى أسرع : والمعنى أن السوط يحمل هذا الفرس على شدة الجرى وليس بطنه بساق الراكب يجعله يندفع فى جريه وإذا زجره راكبه كان منه ما يكون من الظلم (وللنعمامة) السريع .

(١) الكز : المنقبض ، والمراد هنا تقارب الخطأ فى الجرى .

(٢) من غير رية أن لا يكون منا ما يريب : أى يكون اجتماعهما لإثم فيه .

(٣) آئف : جمع سبال (جمع سبلة) وهو الشعر على الشارب .

فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولاً ، ثم قال الوجه أن يقال :
أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيَّيْتُ فَإِنْ أُمْتُ فَلَا صَلَحَتْ دَعْدُهُ لِيَذِي خُلَّةٍ بَعْدِي
ع — أنشد عبد الله بن جعفر قول الشاعر :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى تُصِيبَ بِهَا طَرِيقَ الْمَصْنَعِ
فقال : هذا رجل يريد أن يعجل الناس . أمطر المعروف مطراً فإن صادف موضعاً ،
فذلك الذي قصدت له وإلا كنت أحق به .

هـ — أنشد الكُمَيْتُ نُصَيْبًا ، فاستمع له ، فكان فيما أنشده :
وقد رأينا بها حُورًا مُنْعَمَةً بِيضًا تَكْمَلُ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنْبُ^(١)
فثنى نُصَيْبٌ خنصره ، فقال له الكُمَيْت : ما تصنع ؟ قال : أُحْصِي خَطَاكَ تَبَاعَدْتَ فِي
قَوْلِكَ تَكْمَلُ الدَّلُّ وَالشَّنْبُ ، هلا قلت كما قال ذو الرُّمَّة :

لَمَيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُورَةٌ أَعْسُ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أُنْيَاهَا شَنْبُ^(٢)
قال أبو العباس المبرد : الذي عابه نصيب من قوله تكامل فيها الدل والشنب قبيح جداً ،
وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها .
٦ — أنشد ذو الرُّمَّة بِلَالًا يمدحه :

سَمِعْتُ : النَّاسُ يُنْتَجِعُونَ غَيْثًا فَقُلْتُ لِصَيْدِحَ أَنْتَجِعِي بِلَالًا^(٣)
تُنَاخِي عِنْدَ خَيْرٍ فَتَيَّ يَمَانٍ إِذَا النَّصَبَاءُ نَاوَحَتْ الشَّمَالَ^(٤)

(١) الحور : جمع حوراء ، وهي الشديدة سواد العين . الدل : الدلال ، وهو ما يكون في المحبوب
من التجنى على الحب . الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان .

(٢) اللى : سواد في الشفة وكذلك الحوة واللحس .

(٣) الكلام على الحكاية أى سمعت هذه العبارة وهى : الناس ينتجعون غيثاً . صيدح . اسم ناقة .

(٤) يمان نسبة إلى اليمن يقال : هو يمنى ويمانى ويمان والنكباء : كل ريح انحرفت عن مهبها فوقعت
بين مهيمن ، أو هى التى تقع بين الصبا والسمال وإذا وقعت الريح كذلك كان ذلك آية الشتاء وفيه
الجذب فالجود فيه يدل على رسوخ صفة الكرم في الكريم .

فلما سمع بلال « قفلت لصيدح » قال : يا غلام مر لها بقت ونوى .

٧ — قدمت ليلي الأخيلية على الحجاج ، فأنشده :

إِذَا وَرَدَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُقَامِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَفَاهَا

فقال لها : لا تقولى غلام ، ولكن قولى همام .

٨ — عرضت امرأة لكثير ، فقالت أنت القائل :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ طَيِّبَةُ التَّرَى يَمِجُّ النَّدى جُحُجَاهُا وَعَرَارُهَا^(١)
بَاطِيبٍ مِنْ أَرْدَانٍ عَزَّةٌ مَوْهِنًا وَقَدْ أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبِ نَارُهَا^(٢)
أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ زَنْجِيَّةً بَحَّرَتْ أُرْدَانَهَا بِمَنْدَلِ رُطْبٍ أَمَا كَانَتْ تَطِيبُ أَلَا قُلْتَ ؟ كَمَا قَالَ
أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطِيبِ
دَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى الْوَلِيدِ وَابْنُ الرَّقَّاعِ الْعَامِلِ عِنْدَهُ يَنْشُدُهُ الْقَصِيدَةَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً وَكَفَى قُرَيْشَ الْمُعْضِلَاتِ وَسَادَهَا

فقال جرير : فحسده على أبيات منها حتى إذا أنشد في صفة الظبية :

* تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ *

فقلت في نفسى : والله ما يقدر أن يقول أو يشبهه ، فلما قال : « قلم أصاب من الدواة مدادها » ما قدرت حسداً أن أقيم ، فانصرفت .

٩ — كان الحسن يخطب فى دم ، فأجابه ولى الدم : قد تركت ذلك لله

ولوجهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، ولكن قل : لله ثم لو جوهم وآجرك الله ،

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض . الجحجحات : نوات . العرار : بهار البر .

(٢) الاردان : جمع ردن (كففل) وهو السكم . الموهن من أول الليل إلى نحو نصفه :

المندل العود وأجوده .

ومرّ رجل بأبي بكر ومع الرجل ثوب ، فقال له أبو بكر: أتبيع الثوب ؟ فقال الرجل: لا . عافاك الله . فقال له أبو بكر: لقد علمتم لو كنتم تعلمون . قل لا . وعافاك الله . وسأل عمر رجلا عن شيء ، فقال :الله أعلم . قال عمر: لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله يعلم : إذا سئلت أحدكم عن شيء لا يعلمه ، فليقل لا أعلم لى .

١٠ — أنشد ابن قيس الرقيات عبد الملك :

إِنَّ الْحَوَادِثَ بِأَلْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعَنِي وَقَرَعَنَ مَرَوْتِيَّةَ
وَجَبَبَنِي جَبَّ السَّامِ فَلَمْ يَزُكُنْ رِيْشًا فِي مَنَاكِيهِ^(١)

فقال له عبد الملك : أحسنت إلا أنك تخنثت في قوافيك .

١١ — أنشد ذو الرمة عبد الملك :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ^(٢)
فقال عبد الملك : ما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وأمر باخراجه . وكان بعبد الملك رَمَشٌ^(٣) ، فلا تزال عينه تدمع ، فتوهم أنه يعرض به .

١٢ — عابوا على النابغة الذبياني اقتضابه في قوله :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَيْبٍ^(٤)
عَلَى لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوْلَاهُ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبٍ^(٥)

لأنه انتقل فجأة من وصف الليل إلى ذكر المدوح من غير تخلص .

١٣ — جاء جرير إلى سكينه بنت الحسين عليه السلام يستأذن عليها فلم تأذن

له ، وخرجت جاريته فقالت : تقول لك سيدتى أنت القائل :

(١) جبه : قطعه .

(٢) كلّى : جمع كلىة وكلوة وهى هنا من المزايدة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة .

(٣) الرمش . تقتل في شعر الأهداب وحمرة في الجفون مع ماء يسيل .

(٤) تقاعس : طال .

(٥) المقارب هنا التماس ، والمعنى لم تفسدها الجميلة .

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَتَ الزَّيَارَةِ فَأَرْجِعِي بِسَلَامٍ
قال : نعم . قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها ، وأدנית مجلسها ، وقلت لها ما يقال
لثلاثها ، أنت غفيف وفيك ضعف ، فخذ هذين الألفي درهم فالحق بأهلك .

١٤ — بينا المهلب ذات يوم بفارس يقاتل الأزارقة إذ سمع بعسكره جلبة
وصياحا ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء ، فأذن لهم ،
فقالوا : إنا اختلفنا في جرير والفرزدق ، فكل فريق منا يزعم أن صاحبه أشعر من
الآخر ، وقد رضىنا بحكم الأمير ، فقال : كأنكم أردتم أن تعرضوني لهذين الكلبين
فيمزقا جلدي . لا أحكم بينهما ، ولكني أدلكم على من يهون عليه أمرها . عليكم
بالأزارقة فإنهم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق ، فلما كان الغد خرج عبيدة
ابن هلال اليشكري ، ودعا للمبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب ، فقال له :
يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتنى عن شيء أسألك عنه ، فقال : سل . قال : أوتخبرني .
قال : نعم . إن كنت أعلم . قال : أجري أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبحك الله أتركت
القرآن واللغة وسألتني عن الشعر . قال : إنا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك ، فقال : من
الذي يقول :

وَطَوَى الطَّرَادُ بَطُونَهُنَّ كَأَنَّهَا طَيْئُ النَّجَّارِ يَحْضَرُمُونَ بُرُودًا^(١)

قال : جرير . قال : هو أشعر الرجلين .

١٥ — وعابوا على الشَّامِخِ بْنِ ضِرَارٍ قوله في عرابة الأوسى يخاطب ناقته :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

قالوا : كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائها عنها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
للأنصارية التي نجت من أسرها بمكة على ناقه رسول الله : إني نذرت إن نجوت عليها
أن أنحرها ، فقال لها رسول الله لبئس ما جزيتها ، وقال : لا نذر في معصية ، ولا نذر
للإنسان في غير ملكه .

(١) الطراد : حل الفرسان بعضهم على بعض .

قالوا : ومما لم يعب في هذا قول عبد الله بن رَوَاحَةَ الأنصاري :

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلَتْ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَشَأْنُكَ فَانْعَمِي وَخَلَاكَ ذِمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأَى

وذلك عند ما أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش مُؤَتَّةَ فَرَحَا مِنْهُ بِذَلِكَ .
وقد اتبع ذوالرَّيْمَةِ الشَّيْخُ ، فقال :

إِذَا ابْنُ أَبِي مُوسَى بَلَغَ بِلَاغَهُ فَقَامَ بِفَأْسٍ بَيْنَ وَصْلِكَ جَازِرٍ

١٦ — ومن الأمثلة الجامعة للنقد ما رواه المبرِّد : أن عمر بن أبي ربيعة والأحوص
ونُصَيْبًا صاروا إلى كُثَيْبٍ ، فأقبل على عمر ، فقال له : أحسنت في كثير من شعرك ،
ولكن أخبرني عن قولك :

قَالَتْ لَهَا أُخْتُهَا تَعَاتِبُهَا لَتُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عَمْرِ
قَوْمِي تَصْدَى لَهُ لِيَبْصُرْنَا ثُمَّ اغْمِزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرٍ
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتَهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرَتْ تَشْتَدُّ فِي أَثَرِي

والله لو قد قلت هذا في هرة أهلك ما عدا . أردت أن تنسب بها قدسيت بنفسك .
أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخفر ، وأنها مطلوبة ممتنعة . هلا قلت كما قال هذا ،
وضرب بيده على كتف الأحوص :

أَدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنْ ذَا الْهَوَى إِذَا لَمْ يُرْزَ لَا بَدَّ أَنْ سَيَزُورُ
لَقَدْ مَنَعْتُ مَعْرُوفَهَا أُمَّ جَعْفَرٍ وَإِنِّي إِلَى مَعْرُوفِهَا لَفَقِيرُ

فامتلا الأحوص سروراً ، ثم أقبل عليه ، فقال : يا أحوص خبرني عن قولك :

فَإِنْ تَصَلَّى أَصْلُكَ وَإِنْ تَعَوَّدِي لَهْجَرٍ بَعْدَ وَصْلِكَ لَا أَبَالِي

أما والله لو كنت من فحول الشراء لبالييت ، هلا قلت كما قال هذا وضرب بيده على
جنب نُصَيْبٍ :

بزئيب أَلِمَ قَبْلَ أَنْ يَطْعَنَ الرَّكْبُ وَقُلْ إِنَّ تَمَلُّنَا فَمَا مَلَكِ الْقَلْبُ
فَاتَفَنَحْ نُصَيِّبُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ يَا أَسْوَدُ :
أَهَيْمُ بَدْعِي مَا حَيَّيْتُ فَإِنْ أُمْتُ فَوَاحِزَنَا مِنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي
كَأَنَّكَ اغْتَمَمْتَ أَلَّا يُفْعَلَ بِهَا بَعْدُكَ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : قَوْمُوا فَقَدْ اسْتَوَتْ الْفِرْقَةُ .
(الفرقة : اعبدة على خطوط واستواؤها انقضاؤها) .

الرواية والرواة

كانت الرواية لازمة العرب في جاهليتهم لمكانهم من الأمية ، وحاجتهم إلى تناقل
أخبارهم ، ولقد ساعدهم على ذلك قوة ملكاتهم وتمام حوافظهم . ولقد أتوا في ذلك
بالمدهش من أمرهم ، فقد كان الرجل منهم يعرف سلسلة نسبه حتى ينتهي إلى نزار أو
قحطان ، وأغرب منه أن يعرف بعضهم أنساب قبيلة أو أكثر فلا يخطئ فيها . كما
ذكروا عن أبي بكر علمه بأنساب قريش وغيرها من قبائل العرب . ولما كان الشعر
علم العرب ، وسجل تاريخهم ، وشاهد أيامهم كثرت روايتهم له حتى كان لكل شاعر
رواية أو أكثر ، وكان الرواية من الشاعر بمثابة تلميذه الذي يتعلم عنه ويحتج لقوله .
كان امرؤ القيس رواية أبو داؤد الإيادي ، وزهير رواية أوس بن حجر ، والأعشى رواية
المسيب بن علس ، والحطيئة رواية زهير ، وابنه كعب من بعده .

ولما جاء الإسلام فشغل العرب عن كل شيء من سابق أمورهم قُتِرَت الرواية
بفتور الشعر ، ثم رأوا أنهم محتاجون إليها لفهم القرآن ، وإدراك أسرارهِ ، ولتعرف أخبار
آبائهم ، وإحياء ما درس من آدابهم ، فكانت للرواية سوق نافعة ، ونشأ من الرواة
قوم وقفوا عملهم على الرحلة إلى البادية ، ومشاهدة الأعراب ، ونقل كلامهم للاحتجاج
به في إثبات عادة عربية ، أو قاعدة نحوية ، وكان علم النحو أول ما بحث من
علوم العربية .

ولم يكن الرواة يأخذون إلا عن صحت عربيتهم كقيس وتيم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيء ولم يأخذوا عن لحم ولا جذام لجاورتهما أهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان لحولهم بالشام، ولا عن بكر لجاورتهم الفرس، ولا عن عبد القيس والأزد وعمان لمخالطتهم الهند والفرس بالبحرين، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من أهل الحجاز لأنهم كانوا أسبق العرب إلى المخالطة، فإن ألسنتهم كانت قد فسدت حين بدأ الرواة ينقلون اللغة .

وقد شجع الخلفاء الرواية وأدبوا الرواة، وأثابوهم بالعتاء الجزل، واستدعواهم من أقاصى البلاد لسؤالهم عن بيت شعر أو معنى كلمة . ولقد كان الأعراب بادئ الأمر ييؤحون للرواة بما يطلبون غير طامعين في أجر على ذلك حتى رأوا ما تدر الرواية على أصحابها من خير، فجعلوا يطلبون الأجر على إجاباتهم، وبعضهم كان يقصد الحضر، ويقيم فيه مستترقاً بعلمه، وما حفظه من كلام معرب . ولقد نشأ بجانب رواية الشعر وأخبار العرب، رواية لحديث رسول الله، وقراءات القرآن وتفسيره، وفتاوى الصحابة في أمور الدين، فكان لكل ذلك رواية، وقد يستقل رواية بنوع من هذه أو يجمع بين أنواع منها، وبقى للشعراء رواية كما كان لهم أيام الجاهلية، فكان كثير راوية جميل، ومزيع راوية جرير، والفرزدق ومحمد بن سهل راوية الكميت، وذو الرمة راوية الراعى، وفي أواخر العصر كان الراوى يروى لمن يستطيع الرواية لهم من شعراء الجاهلية والإسلام لا يختص بواحد دون آخر، فكان حماد يروى كل ما وقف عليه من شعر العرب قديماً وحديثاً .

مبلغ الراوية من الصدق

إن الحافظة مهما قويت لا يكون لها من الضبط ما للتقيد بالكتابة، فإن الراوية مهما تحرى الصدق وحرص عليه، قد يعتريه النسيان، ويدخل عليه الشك لاتفاق

القوافي ، وتقارب المعاني ، واتحاد الأوزان . بذلك حدث في الشعر خطأ غير متعمد في لفظه ونسبته ، فأدخلوا في بعض القصائد ما ليس منها للتشابه الحادث بين قصيدتين في الغرض والوزن والقافية كما حدث في قصيدة ابن الحدّادِيّة التي مطلعها :

سَقَى اللهُ أَطْلَالَاً لِنُعْمٍ تَرَادَفَتْ بَيْنَ التَّوَى حَتَّى حَلَّأْنَا الْمَطَالِيَا
وقصيدة الجنون التي مطلعها :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّيْنِ الْخَوَالِيَا وَأَيَّامَ لَا أُعْدِي عَلَى الدَّهْرِ عَادِيَا
وكما حدث في أبيات ابن الدُّمَيْنَةِ المشهورة ، وهي :

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لَيْلِي شَاقَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
لَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
ولقد كثر ذلك حتى لقد نسبت القصيدة إلى عشرين أو أربعين شاعراً .

ومن أسباب اختلاف الرواية أن يكون بعض الرواة من غير قبيلة الشاعر ، فينطق بما يوافق لغته ، ويخالف لغة الشاعر . كما أنه قد يغير كلمة بكلمة لأنه يرى الثانية أليق وأوفق لغرضه كقول أبي ذؤيب الهذلي :

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِلَيَّ لِأَمْرِهِ مُطِيعٌ فَمَا أُدْرِي أَرُشِدُ طِلَابَهَا

هكذا رواه أبو عمرو بن العلاء ، ورواه الأصمعي : « عصاني إليها القلب » .
والرواة لا يابون قبول مثل هذا مادام الذي يدلّ في الكلام عربياً لا يطوع لسانه بغير الصواب . كذلك من أسباب اختلاف الرواية أن الشاعر نفسه ينسى كلمة من شعره ، فيضطرّ إلى تغييرها بما يوازنها ، ويكون بمعناها في حين أن الأولى تكون قد سبقت إلى الناس ، فيصير إليهم الروايتان عن طريق الشاعر نفسه ، ولذا قال ذو الرُّمَّة
لعيسى بن عمر : أكتب شعري فإن الكتاب أحبّ إليّ من الحفظ لأن الأعرابيّ
ينسى النكلمة قد سهر في طلبها ليله فيضع موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس
والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام .

ولم يقف الأمر عند هذه الأسباب ، بل لقد كان من بعضهم تعمد لنحل الشعر لغير
قائله أو اختراعه ودسه على من لم يقله ، دعاهم إلى ذلك أنهم لم يحبوا أن يسألوا عن شيء
فلا يجيبون .

قالوا إن حمادا قدم البصرة على بلال بن أبي بريدة ، فقال له : ما أطرفني شيئاً فعاد
إليه فأنشده القصيدة التي تراها اليوم في شعر الحطيئة مديحاً لأبي موسى . فقال له بلال :
ويحك ! ! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دعها
تذهب في الناس .

وكذلك رغبتهم في الزلفى إلى الرؤساء يائبات مفاخر لآبائهم لم تكن لهم ، فقد ورد
في الأغاني أن حماداً الراوية تقرّب إلى خالد بن عبد الله القسري باختراع أبيات نسبها
إلى قيس بن الحذادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم ، فأكرمهم وأحسن
إليهم ، وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء . قال على لسان قيس :

وَقَدْ حَلَلْنَا بِقَسْرِي أَخِي ثِقَةً كَالْبَدْرِ يَجْلُو دُجَى الظُّلُمَاءِ وَالْأَفْئَا
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ شَيْئاً هَاضَهُ أَسَدٌ يَوْمًا وَلَا يَرْتَقُونَ الدَّهْرَ مَا فَتَقَا
كَمْ مِنْ ثَنَاءٍ عَظِيمٍ قَدْ تَدَارَكَهُ وَقَدْ تَقَافَمَ فِيهِ الْأَمْرُ وَأُنْخَرَقَا

قال صاحب الأغاني نقلاً عن أبي عمرو الشيباني : « إن حماداً أنشد خالداً هذه الأبيات
فوصله . قال : والتوليد فيها بين جدّاً » .

وقد اشتهر بهذا الكذب في الرواية حماد حتى قال فيه معاصره المفضل الضبي :
« لقد سلب على الشعر من حماد الراوية ما أفسده حتى لا يصلح أبداً » ، وكذلك فعل
خلف الأحمر ، فقد ذكر عن نفسه أنه كان ينظم الأشعار وينحلها غير أحبابها .

قال ابن سلام في أسباب دس الشعر ونحله غير قائله : « فلما راجعت العرب رواية
الشعر ، وذكروا أيامها وآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب ذكر وقائعهم ،
وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على
ألسن شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم

زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدكم فيشكل ذلك بعض الإشكال .

وقال أيضاً : إن ابن دؤاد بن مُتَمِّم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقوم له البدوى في الجلب والميرة ، فأتاه أبو عُبَيْدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه مُتَمِّم وقاما له بحاجته وكفياه ضيعته ، فلما نقد شعر أبيه متمم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهداها ، فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله .

ولكن ذلك لا يجعل الشعر العربي بهذه المثابة التي ينظر إليه بها قوم يشكون في كل ما ورد منه ، ولا يرضون أن يجعلوه حجة على عادة عربية ، أو معنى كلمة ، أو تحقيق لمربيتها فإن العمل برأيهم يكون هدماً للغة من أساسها ، وتضييعاً لهذا التراث العظيم لتهمة عرضت أو شك جرى . على أن العربية لم تخل من نقدة زيفوا هذا المفتعل المنحول ، ومازوه من الصحيح المروى عن أصحابه كما أن من اجتراً بالكذب على الشعراء عاد فاعترف بخطئه وهدى الناس إلى مواضع كذبه ، فإن خلفاً الأحمر تنسك في آخر أيامه وندم على ما كان منه ، وخرج يوماً إلى أهل الكوفة فاعترف لهم بما كان منه وعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس . على أن النحل والادعاء لم يصل إلى درجة خلق شعراء لم يكن لهم وجود ، وإنما كان زيادة في أشعارهم وتبميا لما نقص منها ، فالقول بأن أمراً القيس لا وجود له غلو في دعوى النحل والافتعال لم يقله أحد من السابقين ، وكان جديرًا بمثل خلف أن يعترف بنحو ذلك ، ولكن اعترافه إنما كان بالبيت أو البيتين أو القصيدة يدخلها على الشاعر ، وليست من قوله : فلنتق الله في دعوانا ، ولا تترك للخيال حكمه في أحكامنا .

حماد الراوية

هو ابن ميسرة ، أصله من الديلم من موالى بنى بكر بن وائل ، وقد نشأ بالكوفة .
وكان أول أمره لصاً يتشطر ، ويصحب الصعاليك ، فيقال : إنه تقب ليلة على رجل
فأخذ ماله ، وكان من بينه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد واستحلاه ، فترك
ما كان عليه وطلب الأدب من ذلك الحين ، فكان أعلم الناس بالشعر وأيام
العرب ولغاتهم .

ولم يؤهله لهذا الفضل إلا تلك الحافظة النادرة التي وعت جميع ما وصل إليها من
خبر وشعر ؛ وكان يحفظ ما يلقي عليه لساعته ، فقد قال الطرماح أنشدت حماداً قولى :
« بان الخليط بسحرة فتبدّوا » ، وهى مستون بيتاً ، فسكت ساعة ، ثم قال : أهذا
الشعر لك !! ثم ردها عليه ، وزاد فيها عشرين بيتاً ، فدلّ بذلك على قوة حفظه
ومقدرته على الاختراع .

ولقد قال له الوليد بن يزيد يوماً بما استخفقت أن تدعى الراوية ؟ قال : بأن أروى
لكلّ شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف
بأنك لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت
القديم من المحدث ، قال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكنى
أنشدك على كلّ حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر
الجاهلية دون شعر الإسلام . قال له الوليد : سأمتحنك ثم أمره بالإشاد فأنشده حتى
ضجر فوكل به من استحفله أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة
قصيدة للجاهلية ، واستحقّ أن يعطيه الوليد مائة ألف درهم ، وقد استقدمه هشام
ابن عبد الملك ، ونحن نروى لك القصة كما وردت على لسان حماد نفسه فى كتاب :
« نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا » لابن الأنبارى . قال حماد :

كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه هشام يحفوني لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا إلى من أثق به من إخواني سرّاً ، فلما لم أسمع أحداً يذكرني أمنت ، فخرجت فصليت الجمعة في الرصافة ، ثم جلست عند باب الفيل ، فإذا شرطيان يقولان : أجب الأمير يوسف بن عمر . ولم يدعاني آتى أهلي أودعهم ، فلما انتهيت إلى الأمير رمى إليّ كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجعلاً مهرئاً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جل مرحول فركبته حتى انتهت إلى باب هشام ، فدخلت في دار قوراء مفروشة بالرخام ، وبين كل رخمتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حر من الخز ، وقد تضحك بالمسك والعنبر ، فسلمت عليه فردّ السلام واستدنانى فدنوت حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قط ، ثم قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر قائله . قلت : وما هو ؟ قال :

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

قلت : يقوله عدى بن زيد في قصيدة له ؛ فقال أنشدنيها ، فأنشدته :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضْحِ الصُّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيْقُ
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرُوا الْعَدْلَ فِيهَا أَعْدُوْهُ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ

إلى أن انتهيت إلى قوله : ودعوا بالصبح فطرب ، وفي اليوم الثاني ، أفقت من النوم ، فإذا الجاريتان عند رأسي ، وإذا عشرة أعبد مع كل عبد بدرة ، فقال لي أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه الدنانير وهاتين الجاريتين ، فأخذت ذلك وعدت إلى أهلي .

كذلك استقدمه أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة إلى العباسيين ، فقال له :
 ما شعر فيه أوتاد ؟ قال : من قائله ؟ قال : لا أدري . قال : فمن الجاهليين أم
 الإسلاميين ؟ قال : لا أدري . قال : حماد ، فأطرقت ساعة حتى خطر ببالي شعر
 الأفوه الأودي :

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَأَسْرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَا لَهُمْ سَادُوا
 فذكره له ، فسر أبو مسلم ووصله .

كذلك استقدمه في الدولة العباسية المنصور ، وكان حزيناً على موت أخيه
 أبي العباس ، وأراد أن يردّد فيه أبياتاً كان يعلم أن هفان بن همام قالها في رثاء
 أبيه ، وقد غابت عن خاطر المنصور ، فرواها له حماد فبكى ، وقال : هكذا كان أخى
 رضى الله عنه ، وهذه هي الأبيات التي رواها حماد كما وردت في الأغاني :

خَلِيلِي غُوجَا إِنِّهَا حَاجَةٌ لَنَا عَلَى قَبْرِ هَمَامٍ سَقَنَهُ الرَّوَاعِدُ
 عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ وَيُبْتَغَى جَدَاهُ إِذَا لَمْ يَحْمَدِ الْأَرْضَ رَائِدُ
 كَرِيمِ الثَّنَاءِ وَالشَّمَائِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرْجَى تَنْفِ مَتَبَاعِدُ
 إِذَا نَازَعَ الْقَوْمُ الْأَحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ عَمِيًّا وَلَا ثِقَلًا عَلَى مَنْ يَقَاعِدُ
 صَبُورٌ عَلَى الْعِلَاتِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ خَمِيصًا وَآتِيهِ عَلَى الزَّادِ حَامِدُ
 وَضَعْنَا الْفَتَى كُلَّ الْفَتَى فِي حَفِيرَةٍ بِحَرِّينَ قَدْ رَاحَتْ عَلَيْهِ الْعَوَائِدُ
 صَرِيحًا كَنْصَلِ السَّيْفِ تَضْرِبُ حَوْلَهُ تَرَابُيْهُنَ الْمُعْوِلَاتُ الْفَوَاقِدُ

وقد ظلّ حماد إلى أيام المهدي يقدم عليه وينشده ، ولعلّ ذلك في ولاية عهده ، فقد
 مات حماد سنة ١٥٥ ، أو سنة ١٥٦ ، ولم يكن المهدي قد ولى الخلافة .

وحامد هو الذى جمع المعلقات ، وجمع أشعاراً كثر القبائل ، وأكثر شعراء بني أمية ،
 وجعل شعر كل قبيلة أو شاعر في كتاب ، فكان عنده كتاب لشعر قريش ، وآخر
 لشعر ثقيف ، ولكن هذه الكتب قد ضاعت .

أبو عمرو بن العلاء

قيل إن اسمه كنيته ، وقيل : إن اسمه زبان ، ويروى أن الفرزدق جاءه معتذراً عن هجاء بلغه عنه ، فقال له أبو عمرو :

هَجَوْتُ زَبَانَ ثُمَّ جِئْتُ مُعْتَذِرًا مِنْ هَجْوِ زَبَانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَدْعِ
وسبب الاختلاف في اسمه أنه كان لجلالة شأنه وهيبته في النفوس لا يسأل عنه .

أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي ، وأخذه عنه يونس بن حبيب البصري ، والخليل بن أحمد ، وكان يونس يقول عنه : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو كله في العربية ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت أخذ من قوله وتارك إلا النبي صلى الله عليه وسلم . كان أحد القراء السبعة ، وكان أعلم الناس بالعربية وأيام العرب ، وكانت الكتب التي نقلها عن العرب الفصحاء تملأ بيتاً له إلى السقف ، ثم إنه تقرأ فأخرجها كلها أو أحرقها ، فلما رجع إلى العمل في الرواية لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية . قال الأصمعي : جلست إلى عمرو بن العلاء عشر حجج ، فلم أسمع به يحتاج بيت إسلامي ، وقال أبو عمرو مرة : لقد كثرت هذا الحديث وحسن حتى همت بأن أمر فتياننا بروايته (يعني شعر جرير والفرزدق ونحوهما) .

ومن أخباره أنه قال : كنت هارباً من الحجاج بن يوسف ، وكان يشبهه على « فرجة » أهو بالفتح أو بالضم ، فسمعت قائلاً :

رُبَّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
بفتح الفاء ، ثم قال : إنه قد مات الحجاج . قال : أبو عمرو ، فما أدري بأيهما كنت أشد فرحاً بقول : فَرَجَةٌ ، أم بقوله : مات الحجاج .

وكان يقول في مقام الدلالة على قلة الروى لنا من كلام العرب : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير ، وكان يقول : (إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كبتل في أصول رقل) ، وهذا يدل على كماله وفضله . وروى عنه أنه قال : سمعت أعرابياً يقول : فلان لغوب جاءتته كتابي فاحتقرها . قال : ققلت له : أتقول جاءتته كتابي ؟ قال : أليس صحيفة فحمله على المعنى ، وقد جاء ذلك كثيراً في لغتهم ، واللغوب : الأحق .

وكان أبو عمرو متواضعاً مع كثير فضله ، كثير التسليم للعرب^(١) ، متمسكاً بالآثار ، صادق الرواية ، يروى عنه أنه قال : ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، وهو :
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا
وهذا الاعتراف منه دليل تحرجه وتحريه ، وبرأته من الكذب في كل ما روى ، وهو كثير مستفيض .

وقد مات بالكوفة ، وسمه أربع وثمانون سنة ، وذلك سنة ١٥٤ هـ ، وذلك في خلافة المنصور ، ورثاه محمد بن عبد الله المقتنع بقوله :

رثينا أبا عمرو ولا حي مثله فله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تلك قد فارقتنا وتركنا ذوى خلة ما في السداد لها طمع
قد جرّ نفعاً فقدنا لك إننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

(١) أى الرضا عنهم والاعجاب بهم والتعصب لهم لا يرى أنهم يخطئون . وقد قيل عنه في هذا المقام « كان أبو عمرو أشد تسليماً للعرب . وكان ابن أبي إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر يطمعان عليهم وكان عيسى يقول : أساء النابغة في قوله « في أنيابها السم نافع » يقول موضعها ناعما .

الغناء العربي

منشؤه

ليس من شك في أن الغناء أثر من انفعال النفس يتولد من إحساسها بما يلد لها أو يؤلمها ، وإذ كان من انفعال النفس ، فهو جدير أن يصحبها منذ الخلقة ، وأن يسبق النطق إلى الوجود ، فالإنسان قد تأوّه وضحك قبل أن يعبر عن شجوه . أو يدلّ على سروره ، وإنما تقيس حال الإنسان في هذا بما نرى عليه الحيوان من طير ووحش ، فهو لا يتكلم ، وليس ذلك بمأنه أن يبدى عن شجوه أو سروره . فكذلك كان الإنسان . ودليلنا على أن التأوّه أو الضحك أسبق من الكلام عند الإنسان أننا نراها إلى الآن صوتين مهملين من التهذيب غير متعدّدى المقاطع ، وذلك هو شأن اللغة عند الإنسان الأول .

ولكن الإنسان قد خلق للكمال ، ما زال يتدرّج حتى استطاع أن يعبر عن شعوره باللفظ ، ثم ما زال يرتقى حتى طابق بين هذا اللفظ وبين حركات نفسه فوزنه بها ، ووقعها عليه ، فكان من ذلك الشعر في أبسط حالاته وهي بحر الرجز : وإنما اتفق للعربي وزن الرجز لأنه كما نعلم يقتبس لفته من محاكاة الطبيعة وتقليد أصواتها وحركاتها ، وهو في باديته يتخذ من الناقة حمولة وفرشاً ، فلما أكثر من ركوبها والتأثر بحركاتها تغنى بكلام على وزن الرجز ، وهو يتزن مع حركة الناقة في سيرها ، وتعلم ذلك إذا ركبت ناقة ، وأنشدت وأنت عليها قول الشاعر :

شكاً إلى جملي طول الشرى يا جملي ليس إلى المشتكى
الدّرهان كلفاني ما ترى شدّ الجواليقي وجذباً بالبرى
صبرٌ جميلٌ فكلانا مُبتلى *

فإنك تجد تفاعيل هذا البحر تتسق مع خطو الناقة وحركاتها أماماً وخلفاً ، ومن أجل أن هذا البحر يوافق طبع الناقة في حركاتها كان به الحذاء للإبل ، لأنها إذا سمعته حنت إلى النعمة التي ألفتها ، وانطبعت عليها خطواتها

وقد تقدّم العرب بعد ذلك ، فوضعوا من الأوزان ما اقتبسوه من حركات الحيوان أيضاً ، كبحر الخلب الذي يوافق سير الخيل مثل قول القائل :

إن الدنيا قد غرّتنا واستهوتنا واستلهتنا

فإن وزنه فعْلُنْ فعْلُنْ الح ، وهو إذا أطلت ترجمه تراه يوازن حركات الخيل في سرعتها ثم ولد العرب أوزاناً من أوزان حتى تمت لهم الستة عشر وزناً التي عليها شعرهم . ونستطيع أن نستدلّ على أن الشعر إنما أحدث لخدمة الغناء أنك تجد في كتب اللغة أن غنى بمعنى قال شعراً كأن قول الشعر لم يقصد إلا للتغنى به ، حتى عبروا بالملزوم عن اللزوم ، ومن أخبارهم: أن الأعشى إنما سمى صناجة العرب؛ لأنه كان يقول الشعر ويتغنى به .

الغناء في الجاهلية والإسلام

لم يعرف من الغناء في الجاهلية إلا أبسط أنواعه ، وهي النصب والسناد والهزج ، فالنصب: غناء الركبان ، والسناد: هو الغناء الثقيل الكثير النغمات، والهزج هو الخفيف النغمات الذي يرقص عليه الأعراب ، كذلك لم يكن لديهم من آلاته إلا الدف (هو أشكال : منها المستدير والمربع والكبير والصغير) والملزمار ، وقد كان هذا الغناء وهذه الأدوات منتشرة في المدن العربية ، كيثرب ، ومكة ، والطائف ، وصنعاء ، ومأرب ، وغيرها من مدن بلاد العرب . أما في الصحراء حيث البدو ، فلم يكن غناؤهم إلا ترتمياً بالشعر ، وحذاء للإبل ، لا يستعملون لذلك أداة.

ولقد ذكروا أن أول من غنى في العرب قينتان لمعاوية بن بكر ، يقال لهما :
الجرادتان . ومن غنئهما :

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحْكُ قُمْ فَهَنِيمُ لَعَلَّ اللَّهَ يُصْبِحُنَا غَنَامَا

وفي حديث الهجرة : أن أهل يثرب صبيتهم ونساءهم خرجوا بالدفوف يغنون :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعً

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

فلما جاء الإسلام بالدعوة إلى الدين ، واشتغل المسلمون بالفتح ، ولم يبق في وقتهم متسع
لشيء من رواية الشعر والتغنى به فترت حركة الغناء تبعاً لفتور الشعر .

ولما جاءت الدولة الأموية كان للغناء فيها شأنان عظيمان ، فأما أولهما : فهو
التجديد فيه بإحداث أنغام جديدة لم يكن العرب يعرفونها قبل ، وإنما اقتبسوها
من الفرس والروم الذين عاشروهم وخالطوهم ، وأما ثانيهما : فهو ماجذله من بيئة صالحة
ينمو فيها ويتزعرع ، وهى بلاد الحجاز ، ومدينتاه : مكة ، ويثرب ؛ ثم ما صادف من
عناية بعض الخلفاء به عناية جعلت الغنين ينالون من عطفهم وعطائهم ، ويحضرون
مجالسهم . بل لقد زاد بعض الخلفاء : فكان له أصوات أحدثها وغنى بها كما سنفصل
ذلك فيما يلي :

التجديد فى الغناء

حدث التجديد فى الغناء فى عصر الأمويين ، ويروون فى سبب ذلك أنه لما
ضرب الأمويون مكة بالمنجنيق حين كان ابن الزبير متحصناً فيها فأصابها خلل ،
أحضر ابن الزبير بنات من الفرس لإعادة بنائها ، فكانوا يغنون بالفارسية ، فالتقط النغم
منهم سعيد بن مسبح ، وهو مكى أسود مولى لبنى مخزوم ، وغنى بذلك النغم فى لفظ .

عربى ، فأعجب به الناس ، فسافر إلى الشام ، ثم إلى فارس ، فأتقن فنّ الغناء ، وعنه أخذ من جاء بعده من مغنى مكة والمدينة ، وكان أوّل لحن عمله ابن مسجح هو :

أَلِمُّ عَلَى طَلَلٍ عَفَا مُتَقَادِمَ بَيْنَ الذُّؤَيْبِ وَبَيْنَ غَيْبِ النَّاعِمِ
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْ رَأْسِي قَدْ عَسَا فِيهِ الْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ

ولقد كثر المغنون والمغنيات بالحجاز كثرة فائقة حتى كانوا يخرجون للحجّ قوافل كما قال أبو الفرج الأصفهاني ، واجتمع منهم في زمن واحد بالحجاز من الرجال والنساء : سَعِيدُ ابْنِ مِسْجَحٍ ، وابن سُرَيْجٍ ، والفَرِيضُ ، وابن مُحَرَّرٍ ، وابن عائشة ، ومَعْبُدٌ ، وطُوَيْسٌ ، والدَّلَّالُ ، وَجَمِيلَةُ ، وهَيْثُ ، وَبَرْدُ الْفَوَّادِ ، وَنُثُومُ الضُّحَى ، وَعِزَّةُ الْبَيْلَاءِ ، وَحَبَّابَةُ ، وَسَلَامَةُ الْقَسِّ ، وَبَلِيلَةُ ، وَلَدَّةُ الْعَيْشِ .

وكان لأهل المدينة طريقة تخالف طريقة أهل مكة ، وكان بين الفريقين تنافس ، واحتجاج للمذهب كما كان الشأن بين الشعراء في ذلك الوقت .

بيئة الغناء

أما البيئة التي نشأ فيها الغناء الحديث وترعرع ، فهي الحجاز عموماً ، وأخصّ بلاده مكة والمدينة ، فقد كانت للغناء فيهما سوق نافقة ، وحركة دائمة ، ولم تسعد عواصم البلاد إلا بما خرجت هاتان المدينتان من بلابل هذا الفنّ ، وليس عجيباً أن يكون هذا شأن مدينة بها بيت الله ، وأخرى هي مهاجر نبيه ، وموضع قبره الشريف ، فقد تعتمد خلفاء هذه الدولة أن يوقعوا أولاد المهاجرين والأنصار في أسر الترف ، وأن يشغلهم باللهو حتى لا ينهضوا لمناوأتهم ، فكان منهم أن أفاضوا عليهم من المال ، وضاعفوا لهم من العطاء ، فانضمّ هذا إلى ما حفلت به مكة والمدينة من سبى الروم والفرس من بنات الملوك والأشراف ، فقد حضرن وهنّ يحملن آثار مدينتهم وما جلتهم به الطبيعة من جمال ودلال ، فاختلط ذلك بما ركب في طبع أهل الحجاز من رقة

ودعابة ، فزحرت المدينتان بالبهو ، وحفلتا بمجالس الغناء ، وتعهد الخلفاء أن يتهاونوا في إقامة حدود الشرع حتى يمعن هؤلاء في غيهم ولهوهم ، فكان منهم ذلك الإمعان ، وانتهى الحال إلى أن كانت مكة والمدينة أكثر بلاد الإسلام مخنثين ، وأكثرها اجترأ على المنكرات ، واحتساء للخمر .

ومن عناية أهل الحجاز بالغناء أن معبدًا ، والغريز وابن سريج كتبوا إلى حنين ، وكان وحده بالعراق ، فقالوا له : نحن ثلاثة ، وأنت واحد . فاقدم إلينا ، فلما قدم أذنت السيدة سكينة للناس إذنا عامًا ، فغصت بهم الدار ، وازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوا حنينًا ، فسقط الرواق على من تحته ، ومات حنين تحت الردم .

عناية الخلفاء بالغناء

اقتضت سياسة معاوية أن يكون محتشمًا وقورًا لئلا يتخذ أعداؤه من مظهره حجة عليه ، ومطعنًا يضيفونه إلى ما يشوهون به سمعته عند الناس ؛ وكان هذا المظهر هو الذي يليق بمعاوية من جدّه ، واشتغاله بالأمر العظيم ، وهو توطيد الملك لنفسه ولأبنائه من بعده ، فلم يكن من شأنه أن يشجع الغناء ، ولكنه لم يرك ذلك أن يضرب على أيدي المغنين والعابثين ؛ لأن خطته إنما كانت أن يشغل عن الخلافة كل طامع فيها . وهكذا كان موقفه مع عبد الله بن جعفر ، فكان ينكر عليه بلسانه ، ولا يحاول أن يغير بيده ما يراه منصرفًا إليه من الإقبال على الغناء والاستماع له .

فقد ذكروا أن عبد الله هذا قدم على معاوية الشام فأنزله بدار عياله . ففاظ ذلك زوجة معاوية فاختة ، ثم إنها سمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله ، فقالت لمعاوية : هلم فاسمع ما عند هذا الذي جعلته بين لحك ودمك وأنزلته بدار حريمك ، فسمع معاوية شيئًا حرّكه وأطربه ، ثم قال : والله إنى لأسمع شيئًا تكاد الجبال تخزله ، وما أظنه إلا من تلقين الجن ، ثم انصرف ، فلما كان آخر الليل سمع قراءة عبد الله ،

وهو قائم يصلى ، فأنبه فاخته ، وقال لها : اسمى مكان ما أسمعتنى ، هؤلاء قومى ملوك
بالنهار ، ورهبان بالليل .

ومرّ وهو بالمدينة يزور قبر رسول الله بدار عبد الله هذا ، فسمع غناء على أوتار ،
فقال : أستغفر الله ، فلما انصرف آخر الليل سمع قراءته فى الصلاة ، فقال : خلطوا عملاً
صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، هكذا كان معاوية لا يسمع الغناء ،
ولا يضرب على أيدي مغنّيه وسامعيه ، وإذا أنكر شيئاً منه ، فإنما يفعل إرضاء للعامة
حتى لا يتهموه بالرضاء عن ذلك .

أما يزيد ابنه ، فقد سمع الغناء وهو وليّ عهد ، ولكنه شغل عنه أيام خلافته
بمخرج الحسين بن على عليه . وكذلك عمر بن عبد العزيز كان مولعاً به أيام شبابه ،
وحين ولايته للمدينة ، وقد وضع أصواتاً وغنّى بها ، وكان من أحسن الناس صوتاً ،
فلما ولي الخلافة شغلته تقوى الله ، ورعاية الحقوق عن أمور الدنيا ، وكان هشام لا يسمع
إلا من مغنٍّ محتشم يغنى بأبيات الحكمة ، وكل ما لا يחדش الأدب . وكان سليمان غيوراً
على النساء ، فطارد المغنين ، وأمر واليه على المدينة أن يخصّهم حتى يؤمن شرّهم ،
وإغواؤهم للنساء .

أما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، فقد راجت موق الغناء فى أيامهما ، واستدعى
المغنون إلى دار الخلافة ، وبذل المال الكثير فى شراء القيان ، حتى يروى عن يزيد أنه
قال : ماتت عيني بما أوتيت من الخلافة حتى اشتري سلامة وحياة ، فلما اجتمعنا عنده
قال : أنا الآن كما قال القائل :

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وأما الوليد بن يزيد فلم يكن طروباً فحسب ، بل كان له فى صناعة الغناء حذق ، حتى
لقد عمل أصواتاً غنى بها ومشى بالدف وغناها الناس بعده .

ومما نسب إلى عمر بن عبد العزيز صنعته فى هذه الأبيات :

عَلِقَ الْقَلْبُ سُعَادَا عَادَتِ الْقَلْبَ فَعَادَا

كَلَّمَا غُوتِبَ فِيهَا أَوْ نُهِى عَنْهَا تَمَادَى
وَهُوَ مَشْغُوفٌ بِسُعْدَى قَدْ عَصَى فِيهَا وَزَادَا

ومما نسب إلى الوليد صنعته في قوله هو :

وَصَفْرَاءُ فِي الْكَأْسِ كَالزَّعْفَرَانِ سَبَّأَهَا الشَّجِيئُ مِنْ عَشَقْلَانِ
تُرِيكَ الْقَدَاةَ وَعَرَضَ الْإِنَاءَ سِتْرُهَا دُونَ سِتْرِ الْبَنَانِ

أثر الغناء في الشعر

لقد كان للغناء أثر عظيم في رواج الشعر في هذا العصر ، فقد كان الذين يسمعونهم قبل ذلك هم الخاصة من أهل الفهم ، فلما غنى به صار يسمعه العامة فيفهمونه ويروونه ، فيشيع على الألسنة ، ويكون ذلك أذيع لحكمته وأسير لمدحه وغزله ، ويشتهر من جراء ذلك الشاعر الذي تغنى المغنون بشعره .

ولقد حرص الشعراء على أن تذيع شهرتهم ، وتسير أشعارهم ، وتحلو بالتوقيع الذي يجرى على ألفاظها ، فيزيدها رونقاً بل يحدث لها جمالاً لم يكن لها ، ويكسب معناها روعة ما كانت تظهر قبل أن يتناول اللفظ بالإيقاع الحسن والتقسيم المحبب إلى النفس ، وكان الشاعر يرجو من وراء ذلك أن يغنى خليفه بقوله فيسأل عنه فيكون ذلك وسيلة لدنوه واكتسابه رضاه .

وقد استفاد الشعر من حرص الشعراء على أن يكون لشعرهم رواج عند المغنين ، فإن كل شاعر توخى ترقيق لفظه وتسهيله ليدخل في التقسيم ويقبل التوقيع ، كذلك عمد إلى المعنى ، فجلاه أحسن تجليية ، وبلغ به غاية الدلّ واللين في الغزل ، ومنتهى الصلابة والاستمساك في الحماسة ، وذروة الزهو والإعجاب في الفخر .

وفي القصة التالية : ما يدل على أن الشعراء كانوا يتسابقون إلى حيازة هذا الشرف بأن يكون لشعرهم قبول عند المغنين ، فيتناولونه بالتلحين والإيقاع ، ثم يشيعونه بالغناء به .

ذكروا أن نصيباً وكثيراً والأحوص خرجوا غيباً مطراً إلى العقيق ، فاتوها إلى مكان به رجال ونساء ، فسألهم النساء أن ينزلوا بهنّ فنزلوا ، ثم أدخلوا إلى امرأة جميلة برزة ، فرحبت بهم ، فإذا بكراسى مصفوفة ، فجلس كل واحد منهم على كرسى ، ثم أقبلت جارية جميلة ، فقالت لها مولاتها : خذى من قول النصيب :

أَلَا هَلْ مِنَ الْبَيْنِ الْفُرْقِ مِنْ بَدْ وَهَلْ مِثْلُ أَيَّامِي بِمُقْطَعِ السَّعْدِ
تَمَنَيْتُ أَيَّامِي أَوْلَيْكَ وَالْمَنَى عَلَى عَهْدِ عَادٍ مَا تُعِيدُ وَمَا تُبْدِي
فغنته ، ثم قالت لها : خذى فى قوله :

أَرْقِ الْحُبَّ وَعَادَهُ سُهُدُ لَطَوَارِقِ الْهَمِّ الَّتِي تَرِدُهُ
وَذَكَّرْتُ مَنْ رَقَّتْ لَهُ كَبِدِي وَأَبَى فَلَيْسَ تَرِيقُ لِي كَبِدُهُ
لَا قَوْمُهُ قَوْمِي . وَلَا بَلَدِي فَكُونْ حِينًا جِيرَةً بَلَدُهُ

فقال نصيب : فكدت أظهر من السرور ، ثم قالت لها : خذى فى قول النصيب :
فِيَاكَ مِنْ لَيْلٍ تَمْتَعْتُ طُولَهُ وَهَلْ طَائِفٌ مِنْ نَائِمٍ بِمُتَمَتِّعٍ
قال نصيب فجاءنى والله شئ حيرنى وأذهلنى طرباً لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء فى شعرى ، وما سمعت فيه من حسن النغمة وجودتها وإحكامها ، ثم قالت : خذى أيضاً فى قوله :

أَيُّهَا الرَّاكِبُ إِنِّي لَسْتُ تَابِعَكُمُ حَتَّى تُنَلُّوا وَأَنْتُمْ بِي مُلْهُونَا

قال نصيب : فوالله لقد زهوت زهواً حتى خيل إلى أنى من قرش ، وأن الخلافة لى ، ثم قالت : حسبك يا بنية ، فوثب الأحوص وكثير ، وأسرع بالخروج حسداً لنصيب ، وما ناله من شرف التغنى بشعره .

ويروى أن الأحوص حسد معبدًا مرّة على اختصاصه بسماع مغنية (هى عقيلة) ، فقال شعراً أساء معبدًا ، خلف ألايكلمه ، ولا يتغنى فى شعر فشق ذلك على الأحوص ، فلما طالت هجرته إياه ، رحل نجيباً له ، وجمل طلاء فى مِذْرَع (زق) ، وجعله فى حقيبة رحله ، وأعدّ دنانير ، ومضى نحو معبد فأناخ بيباه ، ومعبد جالس بفنائيه ، فنزل إليه

الأحوص فكلمه فلم يكلمه معبد ، فقال : يا أبا عباد أتهجرني ؟ فخرجت إليه امرأته وقالت أتهجو أبا محمد والله أتكلمنه فكلمه ، ثم أحتمله الأحوص ، فأدخله البيت وقال : والله لا أريم هذا البيت حتى آكل الشواء وأشرب الطلاء وأسمع الغناء فقال له معبد : قد أخزى الله الأبعد ! ! هذا الشواء أكلته والغناء سمعته فأنى لك بالطلاء ؟ قال : قم إلى ذلك المدرع ففيه طلاء ومعه دنائير فأصلح بها ما تريد من أمرنا ففعل ، فانصرف الأحوص مع العصور وهو يتمايل نشوة .

مشهورو المغنين والمغنيات

١ — سعيد بن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم كان أسود ، وهو أول من غنى الغناء المتقن بمكة ، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد أحضر عمالا من الفرس لما مالت جوانب الكعبة على أثر ضربها بالمنجنيق في حصارها أيام معاوية ، فكان يسمع منهم غناء بالفارسية ، فما زال حتى نقله إلى العربية بعد النظر فيه والزيادة عليه والحذف منه .

وقيل في سبب ابتدائه إلى الغناء الجديد : أنه سمع البنائين من الفرس الذين أحضرهم معاوية لبناء الدور المسماة بالرقط بمكة ، فيكون ابتدأه إلى إدخال الغناء الفارسي في العربية على هذه الرواية أسبق منه على الرواية الأولى ، والمعقول أنه استفاد من الحادثتين ، ولم يتم له النقل أو الشهرة به إلا على أيام عبد الملك .

ومن أوائل صنعته ما غنى به في الأبيات الآتية من شعر الأحوص :

أَسْلَامُ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتْ فَاسْجِجِي قَدْ يَمْلِكُ الْحُرُّ الْكَرِيمُ فَيُسْجِجُ
مُنَى عَلَى عَيْنِ أَطْلَتِ عَنَاءَهُ فِي الْغُلِّ عِنْدَكَ وَالْجُنَاةُ تُسْرِحُ

إِنِّي لَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَّانٍ عِنْدَكَ مِنْ يَغُشُّ وَيَنْصَحُ
وَإِذَا شَكَوْتُ إِلَى سَلَامَةَ حُبِّهَا قَالَتْ أَجَدُ مِنْكَ ذَا أُمِّ تَمْزَحُ

وقد علم ابن سُرَيْج ، وعاش حتى لقيه معبد ، وأخذ عنه في أيام عبد الملك .
ومن أخباره : أن عامل عبد الملك على مكة كتب إليه أن رجلاً أسود يقال له :
سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش ، وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب إليه عبد الملك
أن اقبض ماله وسيره إلى ، فلما انتهى سعيد إلى دمشق قصد إلى مسجدها ، فسأل
عن أخص الناس بأمير المؤمنين ، ف قيل له هذا النفر من قريش ، فسلم عليهم وقال :
هل فيكم من يضيف رجلاً غريباً ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وكانوا على موعد أن
يذهبوا إلى قينة يقال لها « برق الأفق » ، فتشاقلوا إلا فتي منهم تَذَمُّ ، فقال له : أنا
مضيفك ، وقال لأصحابه : انطلقوا أتم وأنا مع ضيفي ، فقالوا : لا ، بل تجيء أنت
وضيفك ، فصاروا جميعاً إلى المغنية ، فلما رأى سعيد جمالها تمثل هذا البيت :

فقلت أشمسُ أم مصاييح بيعة بدت لك خلف السجف أم أنت حالم

فغضبت الجارية من أن يضرب بها هذا الأسود الأمثال ، ثم غنت فقال لها : أحسنت
فزاد غضبها ، ثم غنت فقال : أخطأت ، ثم اندفع يغني ، فوثبت الجارية ، فقالت
لمولاها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح ، فلما عرف مكانه أبي البقاء ، وخرج مع
مضيفه ، وقد تعلق به كل أن يكون عنده فأبى ، ثم إن مضيفه تطف في أن يسمعه
عبد الملك بأن دخل عليه ، وأمره أن يحدو من وراء شرف القصر فحدا :

إِنَّكَ يَا مُعَاذُ يَا ابْنَ الْفُضْلِ إِنْ زُلْزَلَ الْأَقْوَامُ لَمْ تُزَلْ

عَنْ دِينَ مُوسَى وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ تَقِيمُ أَصْدَاغِ الْقُرُونِ الْمُنِيلِ

* لِلْحَقِّ حَتَّى يَنْتَمُوا لِلْأَعْدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشي : من هذا ؟ فقال : حجازي قدم على قال : أحضره ، فلما
حضر . قال له عبد الملك : غن غناء الركبان . فغنى له ، ثم قال : هل تغني الغناء المتقن
فغنى ، فاهتز عبد الملك طرباً وقال له : من أنت ؟ قال : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير

عن وطنه سعيد بن مسجح ، فتبسم عبد الملك وقال : وضع عذر فتيان قزيش في أن ينفقوا عليك أموالهم وأمنه ووصله ، وكتب إلى عامله أن يرد إليه ماله ، ولا يتعرض له بسوء .

٢ — سَائِبُ خَاطِرٍ

هو أبو جعفر سائب خاثر بن يسار من أهل المدينة كان مولى لبنى ليث من فيء الفرس ، واشتراه عبد الله بن جعفر فأعتقه ، وقيل : بل كان على ولائه لبنى ليث ، ولكن انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزمه ، وعرف به ، وبلغ من اختصاصه به أن آلى سائب ألا يغني أحداً سوى عبد الله إلا أن يكون خليفة أو ولي عهد أو ابن خليفة ، فكان على ذلك إلى أن قتل يوم الحرة أيام يزيد بن معاوية .

ويقال في سبب تعلمه الفناء : إن إماء صناعات كن لعبد الله بن عامر ، وكان يظهرهن كل يوم جمعة يابن أمام الناس ويسمعهن . فأخذ عنهن ؛ وقيل أيضاً في سبب ذلك : أن رجلاً فارسياً اسمه نشيط قدم المدينة فغنى بالفارسية ، فأعجب به عبد الله ابن جعفر ، فقال له سائب : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسي بالعربية ، ثم غدا على عبد الله ، وقد عمل لحناً في هذه الآيات :

لِئِنْ الدَّيَّارُ رُسُومُهَا قَفَرُ لَعِبَتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ وَالْقَطَرُ
وَحَلَّاهَا مِنْ بَعْدِ سَاكِينَهَا حَجَجَ مَضِيْنُ ثَمَانٍ أَوْ عَشْرُ
وَالزَّعْفَرَانُ عَلَى تَرَائِبِهَا شَرِقَ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّعْرُ^(١)

وقيل : إنه أول من غنى على العود من أهل المدينة ، وقد أخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم .

(١) الثائب : عظام الصدر ، أو ما يلي الترقوتين أو ما بين الترقوتين والثديين ، أو موضع القلادة . وهذا المعنى لازم لما قبله وهو المراد في البيت .

وقد سمع معاوية غناه مرّات : فلما سمعه قدم عليه بالشام عبد الله بن جعفر في الحديث الذي مرّ بك آنفاً ، وسمعه ليلة وقد أشرف على منزل ابنه يزيد ، فسمع صوتاً فأعجبه ، وما زال حتى تعب من الوقوف ، فدعا بكرسى وجلس عليه ، فاستمع بقية ليلته . فلما أصبح غدا على يزيد ، فقال له : يا بني ! من كان جليستك البارحة ؟ فحاول يزيد الكتمان ، فقال له : أفصح ، فإنه لم يخف عليّ من أمرك شيء ، فقال : هوسائب خاثر ، فقال : أأكثر له يا بني من برك وصلتك ، فما رأيت بمجالسته بأساً ، وقدم معاوية المدينة في بعض ما كان يقدم له ، فأمر حاجبه بالإذن للناس فخرج ورجع ، فقال له : ما بالبواب أحد ؟ قال معاوية : وأين الناس ؟ قال : عند عبد الله بن جعفر ، فوجه إليه معاوية ، فلما جلس قال : بعض القرشيين لسائب خاثر : مطرفي هذا لك إن اندفعت تغني ، فقام بين الساطين ، وغنّى :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُلْعَنُ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقَطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

فأصغى إليه معاوية حتى سكت .

وقد قتل سائب يوم الحرة . وذلك أن جند الشام لما حاصروا المدينة سنة ٦٣ هـ في خلافة يزيد بن معاوية ، وكان أهلها قد خلعوا طاعته فأرسل إليهم جيشاً عدته اثنا عشر ألفاً وعليه مسلم بن عقبة ، استباحوا المدينة ثلاثة أيام ، وكان فيمن قتل سائب الذي كان جليس يزيد في ولاية عهده ، ولذلك استرجع يزيد لما قرأ اسمه بين القتلى ، وقال : قبح الله أهل الشام ، أو بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته ؟ .

٣ — عبد الله بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سريج من أهل مكة . قيل : كان مولى لبني نوفل بن عبد مناف ، وقيل يشرك هو وسعيد بن مسجع في ولاء بني ليث . قال أبو الفرج الأصبهاني في صفته : إنه كان آدم الوجه أحمر ظاهر الدم سناطاً في عينيه ، قيل بلغ حسنا وثمانين سنة ، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك .

وقد أخذ الغناء عن ابن مسجح ، وكان أول ما اشتهر بالغناء في ختان ابن مولا .
قال ابن سريج لأُم الغلام : خفضي عليك بعض المغرم والكلفة ، فوالله لأهلين نساءك
حتى لا يدرين ماجئت به .

وكان ابن سريج رجلاً عاقلاً أديباً يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنيهم بما مدح به
أعداؤهم ، ولا بما فيه عار عليهم أو غضاضة منهم ، وقد بلغ الوليد بن عبد الملك أدبه وظرفه
وحلاوة حديثه وجودة اختياره ، فكتب إلى عامله بمكة أن يشخصه إليه ، فلما صار إلى
مجلس الوليد بن عبد الملك قال له : هات ما عندك ، فغناه في شعر الأحوص :

إِمَامُ أَتَاهُ الْمَلِكُ عَقَوْا وَلَمْ يُثِبْ عَلَى مُلْكِهِ مَالًا حَرَامًا وَلَا ذِمًّا
تَحَيَّرَهُ رَبُّ الْعِبَادِ خَلَقَهُ وَلِيًّا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
يَنَالُ الْغِنَى وَالْعِزَّ مَنْ نَالَ وَدَّهَ وَيَرْهَبُ خَوْفًا عَاجِلًا مَنْ تَشَأَمَ (١)

وما زال يغنيه حتى أشار الوليد إلى الخدم أن غطوه بالخلع ففعلوا ، ثم قال الوليد : يامولى
بنى نوفل ، لقد أوتيت أمراً جليلاً . قال ابن سريج وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله
ملكاً عظيماً ، وشرافاً عالياً ، وعزاً ، بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ولا يفعل إن شاء الله ،
فأدام الله لك ما ولاك ، وحفظك فيما استرعاك ، فإنك أهل لما أعطاك ، ولا ينزعه
عنك إذ رآك له موضعاً . فقال له الوليد : وخطيب أيضاً . قال : عنك نطقت ،
وبلسانك تكلمت ، وبعزك بينت .

وكان الوليد قد أمر بإحضار الأحوص ، وعدى بن الرقاع ، فجرت ملاحاة بين
عدى ، وأبن سريج ، وعلم بها الوليد فأحضره مجلسه وأرخصى دونه سترأ ، ثم أمره إذا
فرغ عدى والأحوص أن يندفع في الغناء ، فلما سمع عدى الغناء استأذن في الكلام ،
فقال مثل هذا عند أمير المؤمنين ، ويبعث إلى ابن سريج يتخطى به رقاب قریش ،

(١) تشأم: أخذ في جهة شماله . والمراد به كونه حائداً عن الطريق السوى . وقد كنى القرآن عن
أهل الخير بأصحاب المينة وعن أهل المر بأهل المشامة . والمراد أنه يرهب من عاداه ولم يكن
من شيعته .

والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرض ، وتخفضه أخرى لسمع غناه . قال :
ويحك يا عدى . هذا هو ابن سريج ، فقال : لولا أنه في مجلس أمير المؤمنين لقلت
طائفة من الجن يغنون ، ثم أمره الوليد بالظهور ، فلما رآه عدى قال : حق لهذا
أن يحمل .

ومن أخباره : أن عطاء بن رباح لقيه بذي طوى ، وعليه ثياب مصبغة ، ويده
جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ، ويجذبها كلما تخلفت ، فقال له عطاء : يا فتان ،
ألا تكف عما أنت فيه ؟ قال ابن سريج : وما على الناس من تلوين ثيابي ولعي
بجرادتي . قال عطاء : تغنيهم بأغانيك الخبيثة ، فقال له : بحق من اتبعته من أصحاب
رسول الله وبحق رسول الله إلا سمعت مني ، فإن أنكرت أمرتني بالإمساك عما أنا
فيه ، فأقسم بالله وبحق هذه البنية إن أمرتني بالإمساك لأفعلن ، فأطعم ذلك عطاء في
ابن سريج ، وقال له : قل ، فاندفع يغني بشعر جرير :

إب الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
غیضن من عبراتهم وقلن لی ماذا لقيت من الهوى ولقينا
فلما سمعه عطاء اضطرب اضطراباً شديداً ، وداخلته أريحية ، خلف ألا يكلم أحداً بقية
يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من الحرام ، فكل من يأتيه يسأله عن حلال
أو حرام أو خبر لا يخبره إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وينشد هذا الشعر
حتى صلي المغرب ، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولا تعرض له .

وروي أيضاً : أن حمربن أبي ربيعة حج في عام ومعه ابن سريج ، فلما رموا بالحجرات
تقدما الحاج إلى كتيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة ، وطريق
الشام ، وطريق العراق ، وهو كتيب شامخ منفرد عن الكشبان ، فصارا إليه وأكلا
وشربا ، ثم أخذ ابن سريج الدف فنقره ، وجعل يغني وهما ينظران إلى الحاج ، فلما
أمسى رفع ابن سريج صوته ، وتغنى بشعر ابن أبي ربيعة ، فسمعه الركبان ، فجعلوا
يصيحون به : يا صاحب الصوت ، أما تتق الله قد حبست الناس عن مناسكهم فيسكت

قليلاً حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن وقف عليه رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكتيب ، ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهل عليك أن تردّد شيئاً مما سمعته منك ؟ فقال : نعم ونعمة^(١) عين ، فأيهما تريد ؟ فاقترح صوتاً غناه ، ثم آخر ، ثم قال له ابن سريج ، هل بقيت لك حاجة ؟ قال تنزل لأخاطبك ، فنزل إليه ، فإذا هو يزيد بن عبد الملك فأعطاه حلته وخاتمه ، وقال : خذها ولا تخدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار ، فعاد بهما ابن سريج وأعطاهما ابن أبي ربيعة ، وقال له : هما بك أشبه ، فعوضه عنهما ثلثمائة دينار .

٤ — معبد

هو معبد بن وهب من أهالى المدينة . قيل : هو مولى بن قطر ، أو مولى العاص ابن وابصة الخزومي ، أو مولى معاوية بن أبي سفيان .
كان يرعى غنماً لمواليه أو يتصرف لهم فى التجارة ، وكان يختلف مع ذلك إلى نشيط الفارسى ، وسائب خاثر حتى حذق الغناء وسمع الألحان ، فأجاد واعترف له بالتقدم على أهل عصره . وحدث عن نفسه قال : صنعت ألحاناً لا يقدر شعبان ممتلىء ، ولا سقاء يحمل قرصة على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر متكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ، ويحكى عن نفسه : أنه كان يأتى صخرة بالحرّة ملقاة بالليل فيستند إليها ، فيسمع صوتاً يجرى فى مسامعه فيقوم من النوم فيحكيه . قال : فهذا مبدأ غنائى .

(١) تضمّ على أنها مبتدأ خبره تقديره لك ، وتنصب على إظهار فعل : أى أفعل ذلك إنعاماً لعينك أى إكراماً ، وفى لفظ « نعمة » لغات هى نعم عين ، ولعمة عين ولعام ولعم بفتحهم ولعام ونعمى ولعم ولعمة بضمهم ، ولعمة ولعام بكسرهما .

والذى تفهمه فى تحليل ذلك أن رغبته فى الغناء ملكت عليه مشاعره حتى كان يختلس الأوقات للتخرج على نشيط وسائب ، وكان إذا نام أوهدأ اشتغل عقله الباطن بالغناء ، وتمثلت له النغم ، وقوى شعوره بها ، فكأنه يسمعها ، وكأن ملقياً يلقيها عليه .
وقيل له : كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الغناء ؟ فقال : أرتحل قعودى وأوقع بالقضيب على رحلى ، وأترنم عليه حتى يستوى الصوت .

وقد قدم ابن سريج المدينة فأسمعوه غناء معبد وهو غلام ، فقال : إن عاش هذا كان مغنى بلاده ، وقد صدق ظن ابن سريج ، فإن معبداً لم يلبث أن اشتهر فى الحجاز كله ، ووصلت شهرته إلى الشام ، فاستقدمه الوليد بن يزيد ، وعقد له المجالس ، وتبذل فى محضره تبذلاً كبيراً ، وكان نصيبه منه فى القدمة التى قدمها عليه أولاً خمسة عشر ألف دينار .

وفى آخر حياته أصيب بالفالج ، وارتعش وبطل ، فكان إذا غنى ضحك الناس منه وهزئوا به . وقيل : مات فى عسكر الوليد بن يزيد ، فتولى أمر إخراجه إلى المقبرة ، وخرجت سلامة القس (جارية يزيد) ، وأخذت بعمود السرير ، وهى تبكى ، وتقول :

قَدْ لَعَمْرِي بِثَلَاثِي كَأَخِي الدَّاءِ الْوَجِيعِ
وَنَجِيَّيْهِ أَلْهَمَّ مَنِيَّ بَاتَ أَذْنِي مِنْ ضَجِيعِي
كُلَّمَا أَبْصَرْتُ رَبْعًا خَالِيًا فَاضَتْ دُمُوعِي
قَدْ خَلَا مِنْ سَيِّدِي كَا نَ لَنَا غَيْرَ مُضِيعِ
لَا تَلُمْنَا إِنْ خَشَعْنَا أَوْ هَمَمْنَا بِخُشُوعِ

وكان قد علمها هذا الصوت فندبته به ومشى الوليد والفمر أخوه فى جنازته حتى أخرج من دار أخيه .

ومن أخباره أن الوليد اشتاق إليه ، فوجه إليه البريد إلى المدينة فأحضره ، فلما

قدم أمر الوليد ببركة ملئت ماء ورد ، وخلطه بالمسك والزعفران ، وأجلس معبدا ناحية منها وبينه وبين الوليد ستر ، ثم قال غنى :

لَهْنِي عَلَى فِتْيَةٍ ذَلِكَ الزَّمَانُ لَهُمْ قَدْ أَصَابَهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
مَا زَالَ يَعْدُو عَلَيْهِمْ رَيْبُ دَهْرِهِمْ حَتَّى تَفَانُوا وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَدَاةُ
أَبْكِي فِرَاقَهُمْ عَيْنِي وَأَرْقَاهَا إِنَّ التَّفَرُّقَ لِلْأَحْبَابِ بَكَاءُ

فقدف الوليد بنفسه في البركة ، ثم أتى بأثواب غير التي عليه ، وقال : غنى :

يَا رُبُّ مَالِكَ لَا تُجِيبُ مُتَبَيِّئًا قَدْ عَاجَ نَحْوُكَ زَائِرًا وَمُسْلِمًا
جَادَتِكَ كُلُّ سَجَابَةِ هَطَالَةٍ حَتَّى تُرَى عَنْ زَهْرِهِ مُتَبَسِّمًا
لَوْ كُنْتُ تَدْرِي مِنْ دَعَاكَ أَجِبَتَهُ وَبَكَيْتَ مِنْ حَرْقِي عَلَيْهِ إِذَا دَمَا

ثم فعل الوليد فعله في الصوت الأول ، ثم غنى :

عَجِبْتُ لَمَّا رَأَيْتَنِي أُنْدُبُ الرَّبْعَ الْمُحِيلَا
وَأَقِفَا فِي الدَّارِ أَبْكِي لَا أَرَى إِلَّا الطُّولَا
كَيْفَ تَبْكِي لِأَنَاسٍ لَا يَمْلُونَ الدَّمِيلَا
كُلَّمَا قُلْتُ اطْمَأْنَنْتُ دَارُهُمْ جَدُّوا الرِّحِيلَا

ففعل كذلك ، ثم قال يا معبد ، أكرم عنا ما رأيته ووصله بما ذكرنا .

حدث معبد عن نفسه قال : غنيت فأعجبني غنائى ، وأعجب الناس وذهب لى صيت وذكرك ، فقلت لآتين مكة ، فلا أسمع من المغنين بها ولأغنيهم ولأتعرفن إليهم ، فلما صرت فى مجلسهم جعلت أعجب بغنائهم ، وأظهر لهم ذلك ويعجبهم منى حتى أقنأ أياما ، فأخذت من غنائهم ولا يدرون أصواتا وأصواتا وأصواتا ، ثم قلت لابن سريج : فديتك أمسك على صوتك :

قُلْ لِهَيْدٍ وَتَرْبِهَا قَبْلَ شَحْطِ النَّوَى غَدَا

إِنْ تَجُودِي فَطَالَمَا بَثُّ تَيْلِي مُسَهَّدًا
أَنْتِ فِي وَدٍّ بَيْنِنَا خَيْرُ مَا عِنْدَنَا يَدًا
حِينَ تُذْلِي مُضَفَّرًا حَالِكَ اللَّوْنِ أَسْوَدًا

فلما سمعه صاح وصاحوا ، ثم قلت له : أمسك على صوت كذا ، ثم صوت كذا ، فلما رأوا ذلك منى صاحوا حتى علت أصواتهم ، وهرفوا بي وقالوا : والله لأنت أحسن بأداء أصواتنا منا ، ثم غنيت لهم من أصواتي ، فوثبوا إليّ ، وقالوا : من أنت ؟ قلت : معبد قبلوا رأسي ، وأقت بينهم شهرآ أخذ منهم ، ويأخذون مني ، ثم انصرفت إلى المدينة .

وحدث معبد أيضاً قال : بينا أنا يوما في بعض حمامات الشام إذ دخل رجل له هيئة ومعه غلمان ، واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس ، فقلت : لئن لم أطلع هذا الرجل على بعض ما عندي لأكوننّ بمزجر الكلب فترمت ، فالتفت إليّ واحتفي بي ، ثم سألتني المضيّ إلى منزله ، فأجبتته ودعاني إلى الغناء فاجتهدت فيه ، وجعلت أخرج من حسن إلى أحسن ، وهو لا يرتاح ، ولا يحفل لما يرى مني ، فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام شيخنا شيخنا ، نجاء شيخ ، فأخذ عودآ ، ثم اندفع يغني :

سَلُّوزْ فِي الْقِدْرِ وَتَيْلِي عَلَوْهْ جَاءَ الْقِطُّ أَكَلَهُ وَتَيْلِي عَلَوْهْ

(السلور : نوع من السمك)

فجعل صاحب الدار يصفق ويضرب برجله طربآ وسرورآ ، ثم غناه :

وَتَرَمِينِي حَبِيبَهُ بِالْذَّرَاقِنِ وَتَحْسَبُنِي حَبِيبَهُ لَا أَرَاهَا

(الدراقن : الخوخ بلغة الشام ، فكاد الرجل يخرج من جلده طربآ ، قال معبد ، فانسللت منهم ، ولم يعلموا بي ، فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ، ولا شيخا أجهل .

٥ - عزة الميلاء

كانت مولاة للأنصار ومسكنها المدينة ، وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها .
وقد كانت من أجمل النساء وجهاً ، وأحسنهنّ جدّاً ، وكانت عفيفة . قال عنها
طويس « هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق فاضل وإسلام لا يشوبه
دنس ، تأمر بالخير ، وهي من أهله ، وتنهى عن الشرّ وهي تجانبه ، فناهيك بها !
ما كان أنبلها وأنبل مجلسها ، إذا جلست جلوساً عاماً ، فكأن الطير على رءوس الناس ،
فمن تكلم أو تحرك قعر رأسه » .

ويقول معبد عنها : « كانت من أحسن النساء صوتاً يعود مطبوعة على الغناء
لا يعيها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه » ، وكانت رائعة أستاذتها في الغناء القديم ، فلما
قدم نشيط المدينة ، ونشأ بها سائب خاثر أخذت عنهما الغناء المتقن ، فهي أوّل من
قتن أهل المدينة بالغناء ، وحرّض رجالهم ونساءهم عليه ، وكان يُعبد الله بن جعفر ،
وابن أبي عتيق ، وعمر بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها فتغنيهم . وقد غنت يوماً عمر
في بعض أشعاره ، فشقّ ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قيل له :
لفيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال : إني سمعت مالم أملك معه نفسي وعقلي ، وكان حسان
ابن ثابت معجباً بها ، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة ، وسمعا تغنى في قوله :

أَنْظُرْ خَلِيلِي بِيَابِ جِلْقَ هَلْ . تُوْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

فجعل يبكي ويقول : أراني بها سميماً بصيراً ، (وكان قد كفّت بصره) ، وعنها أخذ
ابن محرز المكي الذي طارت له في الغناء شهرة عجيبة ، والذي يقال في وصف غنائها : كان
ابن محرز خلق من كلّ قلب فهو يغني كلّ إنسان بما يشتهي ؛ وقد كان ابن محرز

هذا يقيم بالمدينة ثلاثة أشهر يتعلم فيها الضرب عن عزّة ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة مثلاً . ثم يشخص إلى فارس يتعلم ألحان الفرس ، ويأخذ غناءهم ثلاثة أشهر أيضاً ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم . فمزج بعض ذلك ببعضه ، وألف الأغاني التي صنعها في أشعار العرب وأتى بما لم يسمع مثله .

ومن أخبار عزّة : أن النعمان بن بشير الأنصاري قدم المدينة في أيام يزيد ابن معاوية ، فقال : والله لقد أخفقت أذنأي من الغناء ، فأسمعوني ، فقبل له : لو توجهت إلى عزّة ، فإنها من قد عرفت . قال : إي ورب البيت إنها لمن يزيد النفس طيباً ، والعقل شحذاً ، ابشوا إليها عن رسالتي ، فإن أبت صرنا إليها ، فاعتلت فصار إليها في خواص أصحابه ، فأكرمتهم واعتذرت ، فقبل النعمان العذر وغنته :

أَجَدَّ بِعَمْرَةٍ غُنْيَايَهَا فَتَهْجُرْ أَمْ شَأْنُنَا شَأْنُهَا
وَعَمْرَةٌ مِنْ سَرَوَاتِ النَّسَاءِ تَنْفَحُ بِالمَسْكِ أُرْدَانُهَا

فأشير إليها أنها أمه فسكتت ، فقال : فوالله ما ذكرت إلا كرمًا وطيباً لا تغنيني سائر اليوم غيره .

قيل : قدم عبد الله بن جعفر على معاوية وافداً ، فدخل عليه إنسان ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : هذا ابن جعفر يشرب ويسمع الغناء ويحرك رأسه عليه ، فجاء معاوية متغيراً حتى دخل على عبد الله ، وعزّة الميلاء بين يديه كالشمس الطالعة في كداء البيت يضئ بها البيت تغنيه على عودها :

تَبَلَّتْ فُوَادُكَ فِي الظَّلَامِ خَرِيدَةً تَشْفِي الضَّجِيعَ بِبَارِدِ بَسَامٍ

وفي يده عسّ ، فقال : ما هذا يا أبا جعفر ؟ قال : أقسمت عليك يا أمير المؤمنين لتشربنّ منه فشرب ، فإذا غسل مجدوح بمسك وكافور ، فقال : هذا طيب ، فما هذا الغناء ؟ قال : هذا شعر حسان بن ثابت . قال : فهل تغني بغير هذا ؟ قال : نعم بالشعر الذي يأتيك به الأعرابي الجافي الأدفر ، القبيح المنظر ، فيشافهك به فتعطيه عليه ، وآخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه ، فأعطيه بهذه ، الحسنة الوجه ، اللينة الملمس ، الطيبة

الريح ، قترتله بهذا الصوت الحسن . قال : فما تحريكك رأسك ؟ قال : أريحية
أجدها إذا سمعت الغناء ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو لقيت لأبليت . قال معاوية :
قبح الله قوماً عرضوني لك ، ثم خرج وبعث إليه بصلة .



هذا ما مكنتنا منه معونة العليّ القدير من القول في أبواب منهاج الأدب العربي
وتاريخه لطلاب السنة الثانية بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية ، ونرجو أن
يكون النفع بعملنا هذا كفاء الجهد ، والإخلاص في إظهاره ، بريثاً من تهمة الجود .
والعكوف على القديم البالي ، محصناً من مغالة التجديد الذي يضيع معه الحق ،
وتُطمس معالمه .

ولا ندعى لهذا العمل كمالاً ، بل إننا نستعين بالله أن يمكننا من إعادة النظر فيه في
فراغ من الوقت والبال لتدارك نقصاً ، وتجنب سقطاً ، والحمد لله والصلاة على رسوله
 وآله أولاً وآخرًا ٥

٣ من ذي القعدة سنة ١٣٥١ المؤلف
٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٢

محمود مصطفى



ونحن نحمد الله تعالى إذ أجاب دعاءنا ، فتمكننا عند إعادة طبع الكتاب من
النظر فيه ، وتكميل نقصه على قدر الاستطاعة ، والله الهادي لأقوم سبيل ٥

محمود مصطفى

ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ
يوليو سنة ١٩٣٧ م

تمّ الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني

وأوله

العصر العباسي